الدارة

مجلة فصلية محكمة تصدر
عن دارة الملك عبد العزيز

العدد الثالث - السنة الحادية والثلاثون ١٤٢٦هـ





الإسهامات

ترسل البحوث باسم رئيس التحرير
ص. ب ٢٩٤٥ ـ الرياض ١١٤٦١ ـ المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٠١١٩٩٩ ـ فاكس ٤٠١٣٥٩٧
بريد الكتروني magazine@darah.org.sa

السعر

السعودية ٥ ريالات، الإمارات العربية المتحدة ٧ دراهم،
قطر ٧ ريالات، البحرين ٥٠٠ فلس، الكويت ٥٠٠ فلس،
سلطنة عمان ٥٠٠ بيسة، المغرب ٨ دراهم،
مصر ١٥٠ قرش، تونس دينار واحد
خارج الدول العربية ما يعادل دولارًا أمريكيًا واحدا

الاشتراكات السنوية

٢٠ ريالاً للاشتراك من داخل المملكة العربية السعودية
للاشتراك من الخارج ٦ دولارات أمريكية
ترسل الاشتراكات بشيك مصدق باسم
دارة الملك عبدالعزيز على العنوان الآتي:

ص. ب ٢٩٤٥، الرياض ١١٤٦١ ـ المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٠١١٩٩٩ / ٢٠١٦ ـ فاكس ٤٠١٣٨٩٤
بريد إلكتروني magazine@darah.org.sa
موقع الإنترنت www.aldarah.org

شركات التوزيع

السعودية: الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع، الرياض، هاتف: ٤٧٨٢٠٠٠
مصر: مؤسسة الأهرام للتوزيع، القاهرة، هاتف: ٥٧٨٦٢٠٠
الإمارات العربية المتحدة: دار الحكمة، دبي، هاتف: ٢٦٦٥٣٩٤
البحرين: مؤسسة الهلال للتوزيع، المنامة، هاتف: ٢٩٤٠٠٠
الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع، الكويت، هاتف: ٢٤١٧٨١٠
سلطنة عمان: المتحدة لخدمة وسائل الإعلام، مسقط، هاتف: ٧٠٠٨٩٥
قطر: دار الثقافة، الدوحة، هاتف: ٤١٣١٨٠
المغرب: الشركة الشريفية للتوزيع، الدار البيضاء، هاتف: ٤٠٠٢٢٣

تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز



رقم الإيداع: ٠٠٨٢ / ١٤ بتاريخ ١٤١٤/١/٢٢هـ
ردمد ٠١٤٨ ـ ١٣١٩

نشاطات الدارة

برئاسة الأمير سلمان
مجلس إدارة الدارة يوافق
على عدد من المشروعات العلمية

◀ وافق مجلس إدارة الدارة برئاسة صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز، أمير منطقة الرياض رئيس مجلس إدارة الدارة على عدد من المشروعات في أثناء جلسته المعقودة مساء يوم الأحد ١٤٢٦/٥/٥هـ بمقر الدارة. ومن ذلك:



- الموافقة على توصيات ندوة (البناء الاجتماعي في عهد الملك عبدالعزيز)، التي عقدتها الدارة بالتعاون مع الجمعية السعودية لعلم الاجتماع والخدمة الاجتماعية.
- الموافقة على تنفيذ مشروع إعداد فهرس وطني موحد للوثائق السعودية المحفوظة بالمراكز والمكتبات والمؤسسات في المملكة، ووضعه على هيئة إلكترونية توزع على الجهات والباحثين الراغبين في الاستفادة منها.
- الموافقة على إصدار دليل أسماء أرشيفات الدول العربية والإسلامية، يتضمن نبذة عن كل أرشيف، ويطبع ضمن إصدارات باللغتين العربية والإنجليزية، بالتعاون مع منظمة المؤتمر الإسلامي.
- الموافقة على توصيات ندوة (المملكة العربية السعودية ودول مجلس التعاون الخليجي في الوثائق العربية والأجنبية).
- الموافقة على إهداء أعداد مجلة الدارة التي صدرت خلال ثلاثين عامًا (التي بلغت ١٢٠ عددًا) على أكثر من مئتي جهة ومركز علمي وبحثي داخل المملكة.

الأمير فيصل بن محمد بن سعود
دشن مشروع توثيق مصادر الباحة

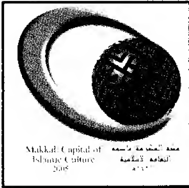
◀ نيابة عن صاحب السمو الملكي الأمير/ محمد بن سعود أمير منطقة الباحة، دشن صاحب السمو الملكي الأمير الدكتور فيصل بن محمد بن سعود وكيل إمارة الباحة يوم السبت ١٤٢٦/٥/١٨هـ المرحلة الثانية من مشروع توثيق مصادر تاريخ المملكة في منطقة الباحة، الذي تنفذه الدارة، وذلك بقاعة سموه التعليمية، واطلع على الوحدة المتنقلة لترميم المخطوطات والوثائق.

الدارة تشارك في الاحتفاء
بمكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية

◀ تشارك الدارة في فعاليات مناسبة الاحتفاء بمكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية لعام ١٤٢٦هـ، التي تبدأ يوم السبت ١٤٢٦/٨/١٣هـ، وتمتد إلى نهاية العام.

وتشتمل مشاركة الدارة على عقد برامج وندوات بهذه المناسبة، من أبرزها:

- عقد لقاء علمي في مكة المكرمة بعنوان (مصادر تاريخ مكة المكرمة)، بهدف دراسة وتحليل ما خُدِم من هذه المصادر، والتعريف بالمصادر التي تحتاج إلى عناية من حيث الدراسة والتحقيق والتحليل.



- عقد ندوة بعنوان (صحيفة أم القرى).
- تدشين الإصدار الخاص وعنوانه (أطلس المشاعر المقدسة في مكة المكرمة)، وذلك في حفل ينظم ضمن تلك المناسبة في مكة المكرمة.
- إصدار أعداد خاصة من مجلة الدارة.

أبواب المجلة

عندما اعتزمت مجلة الدارة اتخاذ خطوات جديدة في سبيل الرقي بها، اعتمدت على مجموعة من الضوابط والمعايير التي من شأنها أن تحقق النجاح الذي تطمح إليه. وبناء على هذا أعادت النظر في أعداد المجلة خلال ربع قرن، فأخذت منها ما برز على نظائره، وزادت عليها ما يسمو بها، وعلى هذا جاءت أبواب المجلة في ثوبها الجديد، وهي:

◀ ١ - **البحوث العلمية.** وتعد عماد مجلة الدارة، التي حاولت منذ أمد أن تحقق فيها أعلى درجات الدقة العلمية والجدة والموضوعية، وجاءت في حلتها الجديدة منتقاة موافقة لاتجاه المجلة محققة للغرض من إنشائها.

◀ ٢ - **البحوث المترجمة.** والغرض من هذا الباب تزويد القارئ العربي بالبحوث التي صدرت بلغات أجنبية كالإنجليزية والفرنسية والألمانية والأسبانية ونحوها من اللغات العالمية التي كان للباحثين في تلك الأقطار اهتمام بتاريخ الجزيرة العربية عامة، أو بتاريخ المملكة العربية السعودية خاصة.

وتشترط الدارة لنشر هذه البحوث أن يذكر اسم المؤلف الأصلي كاملا، والمصدر الذي أخذ البحث عنه، وأن تتميز تعليقات الباحث عن تعليقات المترجم. ولابد من إرفاق الأصل المترجم لمطابقة الترجمة وتحكيمها.

◀ ٣ - **الوثائق.** وهو باب جديد، ترمي المجلة من إنشائه إلى التعريف بعدد من الوثائق المحفوظة في مراكز حفظ الوثائق في دارة الملك عبد العزيز وغيرها. وفي نشر هذه الوثائق المحفوظة إفادة للباحثين والمهتمين بتعريفهم بوثائق لم يكن يسهل تعريفهم إياها بغير دراستها ونشرها في المجلة.

ومن أجل نشر هذه الوثائق يفضل إرفاق صورة واضحة من الوثائق المدروسة، مع ذكر الجهة التي تحتفظ بها، ورقم الحفظ.

◀ ٤ - **مراجعة الكتب.** يختص هذا الباب بالبحوث النقدية المتصلة بالكتب المطبوعة في مجالات مجلة الدارة المتنوعة، بهدف التعريف بمحتوى الكتب ونقدها بأسلوب علمي من حيث السلبيات والإيجابيات ومواطن التميز وأوجه القصور.

وللنشر في هذا الباب ينبغي ألا تزيد مراجعة الكتاب عن تسع صفحات، وأن تتضمن المراجعة ما يأتي: موضوع الكتاب وحدوده الزمانية والمكانية والمرجعية، منهج الباحث في بحثه وأدواته ومصادره، إضافات الباحث واستدراكاته على من سبقه والجديد في بحثه، النقد الموضوعي (الإيجابيات، السلبيات)، إضافات المراجع واقتراحاته.

وللمراجع اختيار طريقة عرض الكتاب بما يلائم الكتاب وما يراه مناسبًا.

◀ ٥ - **ملخصات الكتب.** وهو من جديد المجلة، تلتزم فيه المجلة بوضع ملخص للكتب المؤلفة حديثًا، يعرف المطلع عليه بأبرز سمات الكتاب وموضوعاته ومجالاته. وقد يعرض الملخص مصادر الكتاب ومنهج المؤلف في كتابه، وغرضه من تأليفه. وقد يشار إلى ما يحتويه من أشكال وخرائط وصور ووثائق، أفاد منها المؤلف في كتابه.

ومجلة الدارة ترحب بالباحثين الذين يرغبون في نشر مراجعات علمية لكتبهم أو كتب غيرهم أو ملخصات لها، إذ تستقبلها على عنوانها البريدي، باب: مراجعة الكتب، أو باب: ملخصات الكتب. ومن المستحسن أن يرفق المؤلف نفسه ملخصا لكتابه.

◀ ٦ - **تعقيبات وتعليقات** تنشر فيه المجلة ما يرد إليها من الباحثين والقراء من تعقيبات أو تعليقات على ما نشر فيها بغرض زيادة التواصل العلمي بين الباحث وقرائه.

شروط النشر

تعنى مجلة الدارة بنشر البحوث العلمية ذات العلاقة بتاريخ المملكة العربية السعودية وجغرافيتها وآدابها وآثارها الفكرية والعمرانية بخاصة، والجزيرة العربية والعالم العربي والإسلامي بعامة.

وينبغي أن تتوافر في هذه البحوث الشروط الآتية:

١ - أن يتسم البحث بالأصالة والمنهجية العلمية والجدة في الموضوع والعرض.

٢ - أن يكون صحيح اللغة، سليم الأسلوب، واضح الدلالة.

٣ - ألا يكون قد سبق نشره أو قدم للنشر إلى جهة أخرى، وألا يكون مستلا من رسالة علمية أو كتاب مطبوع.

٤ - أن يكون البحث مطبوعًا على الحاسب الآلي، مرفقا معه القرص المنسوخ عليه.

٥ - أن يرفق مع البحث ملخص له باللغتين العربية والإنجليزية في حدود (٢٠٠) كلمة، مع الحرص على الدقة في كتابة العنوان باللغة الإنجليزية.

٦ - أن ترفق نماذج واضحة من الأشكال التوضيحية والصور والوثائق والمخطوطات.

٧ - أن توضع الحواشي في آخر البحث، على أن يكون الترقيم متواصلا.

٨ - أن تذكر المعلومات الوراقية (الببليوجرافية) للمصادر المعتمد عليها (الكتب، والمقالات، والمخطوطات) عند أول ذكر لها في الحواشي، استغناءً عن قائمة المصادر والمراجع.

٩ - أن تكتب الأسماء الأجنبية باللغة العربية، وتكتب بلغتها بين قوسين عند أول ورود لها.

١٠ - أن يرفق الباحث سيرة ذاتية له توضح نشاطه العلمي والعملي.

منهج النشر

١ - تخضع البحوث الواردة للمجلة للتحكيم العلمي. ويلزم الباحث إجراء التعديلات المنصوص عليها في تقارير المحكمين، مع تعليل ما لم يعدل.

٢ - يعطى الباحث خمس عشرة مستلة من بحثه، وخمس نسخ من المجلة.

٣ - تمنح المجلة الباحث مكافأة مالية، وفق القواعد المعتمدة في هذا الجانب.

٤ - لا يعاد البحث إلى صاحبه سواء نشر أم لم ينشر.

٥ - تحتفظ المجلة بحقها في الحذف والاختزال والتعديل اليسير بما يتوافق مع أغراض الصياغة والمنهج العلمي المتبع.

٦ - لا تعبر الآراء الواردة في البحوث بالضرورة عن رأي المجلة.

٧ - لا صلة لترتيب البحوث بالمجلة بالقيمة العلمية للبحث أو الباحث، إذ الترتيب موضوعي وفني، وبما يناسب أبواب المجلة.

٨ - ترسل البحوث والدراسات والآراء والتعليقات إلى رئيس التحرير.

المحتويات

البحوث

جهود الخلافة العباسية
في عمارة الحرمين الشريفين ومشاعر الحج في الحجاز (١٣٢-٦٥٦هـ)

د. محمد بن عبدالله القدحات

شملت جهود العمارة التي قام بها الخلفاء العباسيون في الحرمين الشريفين توسعتهما بشراء الدور والأراضي المجاورة لهما، وتجلت العناية بإصلاح ما اعتراه من خراب فيهما، وفي كسوة الكعبة وتحلية بابها بالذهب، كذلك ظهرت العناية بتوفير المياه من خلال صيانة بئر زمزم، وحفر البرك، وتجديد العيون.

مكة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري
كما وصفها المقدسي في كتابه: "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"

د. عبدالعزيز بن راشد السنيدي

حفل كتاب المقدسي بكثير من الحقائق التاريخية والجوانب الحضارية، وأشارت بطريقة غير مباشرة إلى المكانة السياسية التي بلغتها مكة خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، وتوسع سلطتها الإدارية، كما انفرد المقدسي بالإشارة إلى بعض المعلومات التي لم تذكر من قبل كالإشارة إلى وجود كسوة على مقام إبراهيم، ويلحظ أن المقدسي لم يسهب في وصف الكعبة والمسجد الحرام كما فعل غيره ممن سبقه أو أتى بعده من المؤرخين والجغرافيين والرحالة.

شاهد قبر من أول القرن السابع الهجري
لإمام المقام الشافعي بالمسجد الحرام (٥٩٨ - ٦٠٤هـ)

دراسة تاريخية حضارية

د. محمد بن هزاع الشهري

نقش هذا الشاهد في منطقة الحجاز في عام ٦٠٤هـ على قبر أحد أئمة المذهب الشافعي الذي يصلي بأتباعه عند مقام إبراهيم - عليه السلام- في المدة (٥٩٨ - ٦٠٤هـ)، وقد نقش هذا الشاهد بالخطين الكوفي والنسخ، ويشتمل على اسم المتوفى، ونسبه وعمله وتاريخ وفاته، ويكشف النقش بزخارفه وخطه عن المهارات المتواضعة لمن امتهن نقش الشواهد في مكة المكرمة آنذاك.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الثالث رجب ١٤٢٦هـ. السنة الحادية والثلاثون
الدارة

نقش إسلامي يؤرخ لتجديد رخام الكعبة المشرفة سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م بأمر من السلطان الرسولي الملك المظفر

د. مشلح بن كميخ المريخي

يعد هذا النقش وثيقة تاريخية وأثرية ذات أهمية خاصة، فهو يوثق ويؤرخ لما قام به السلطان المظفر يوسف بن عمر بن رسول من تجديد لرخام الكعبة المشرفة في سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م، ويضاف إلى هذه الأهمية رسْمُ حروف هذا النقش بخط الثلث إبان تلك الحقبة المهمة من تاريخ مكة المكرمة.

نفوذ القُوّاد العُمَرَة والحُمَيضَات لدى أشراف مكة المكرمة (٧٣٧- ٨٧٣هـ/ ١٣٣٦- ١٤٦٨م)

د. عبدالرحمن بن مديرس المديرس

تعد طبقة القواد التي منها القواد العمرة والحميضات إحدى طبقات المجتمع المكي، التي تأتي في الأهمية بعد طبقة الأشراف، وكان لهؤلاء القواد دور بارز في دعم تعيين بعض الأشراف على إمارة مكة أو نزعها، كما نالوا نصيبًا وافرًا من الأموال والأتباع والأسلحة، وأسهموا في أنشطة الحياة الاقتصادية وخاصة في مجالي الزراعة والتجارة.

دور المرأة المكية في الحركة الفكرية في القرن التاسع الهجري

د. عائض بن محمد الزهراني

أسهم كثير من النساء المكيات في الحركة العلمية من خلال التأليف، والرحلة في طلب العلم، ونال كثير منهن الإجازة من علماء في الأقطار الإسلامية، واشتهرت بعض الأسر بنبوغ نسائهم في العلم، مثل: أسرة آل فهد والطبري وغيرهما، وتعد علوم القرآن الكريم والحديث الشريف واللغة العربية من أبرز المجالات العلمية التي أسهمت فيها المرأة المكية.

ملامح من الحياة الاجتماعية في مكة المكرمة
خلال القرن العاشر الهجري

في ضوء كتابي بلوغ القرى للعز بن فهد ونيل المنى لجار الله بن فهد

د. عواطف بنت محمد نواب

عاش أهل مكة المكرمة في القرن العاشر الهجري حياة اجتماعية اتسمت بالسمة الاحتفالية طوال أشهر السنة فيما عدا موسم الحج، وكان لهم ولع بإقامة الولائم في مناسباتهم المتنوعة، وبرز تكاتفهم الاجتماعي عن طريق الإعانات المالية التي تبذل لأصحاب تلك المناسبات.

(٢٧٣ - ٢٩٨)

الدارة

افتتاحية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد

فقد ارتبط المسلمون بمكة المكرمة منذ بزوغ فجر الإسلام وحتى الآن، ولا ريب أن ذلك الارتباط أدى إلى تأثيرات ثقافية لهذه المدينة، أسهمت في تشكيل الحركة العلمية والثقافية لها؛ إذ حظيت بكثير من المؤلفات التي عنيت بكثير من جوانبها التاريخية والحضارية والاجتماعية، مما أسهم في عناية الدارسين والباحثين في هذا العصر بالوقوف على دراسة ما يتصل بتاريخها وحضارتها وثقافتها على مر العصور.

من أجل ذلك لم يكن مستغربًا اختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية لعام ١٤٢٦هـ، وإسهامًا من الدارة في المشاركة في هذه المناسبة فقد خصصت لها مجموعة من الكتب والندوات والمحاضرات الثقافية، بالإضافة إلى إصدار عددين من مجلة الدارة (الثالث والرابع للسنة الحادية والثلاثين) تضمنا بحوثًا علمية في تخصصات مختلفة كالتاريخ والآثار والجغرافيا والاقتصاد والعمران.

هذه المناسبة تثير تساؤلا مهمًا حول ضرورة إيجاد منهج علمي متفق عليه للمصادر التاريخية لمكة المكرمة والكتابات والدراسات حولها، ومن هذا المنطلق تدعو مجلة الدارة الجهات العلمية والباحثين المهتمين إلى خدمة مصادر هذه المدينة وتحقيق المخطوط منها، ونشر الدراسات المتميزة المتصلة بها سواء من الرسائل الجامعية أو غيرها، لا سيما أن تلك المصادر ذات قيمة علمية تعود إلى أعماق التاريخ، وتؤثر في مسيرة الأحداث في مكة المكرمة في الأحقاب التاريخية المتعاقبة، كما أنها تسلط الضوء على فترات مختلفة في تاريخ البلد الحرام لم تحظ بالدراسة والبحث والتحليل.

إن الإسهام العلمي الذي بذلته الجهات الحكومية والخاصة في المملكة العربية السعودية احتفاءً بهذه المناسبة، والمشاركات المتميزة للجامعات والمراكز

البحثية والمكتبات العامة فيها ليكشف مدى توافر المادة البحثية الكافية عن هذه المدينة المقدسة، وقدرة الباحثين على الاستفادة من المعطيات المتاحة للكتابة عن موضوعات مختلفة فيها، ومتى ما تحقق ما تدعو إليه الدارة مرارًا من المحافظة على المصادر التاريخية وما يتصل بها من مصادر المعلومات فإننا سوف نقف على معلومات أكثر ثراء وحقائق كانت خافية علينا لمدة غير قليلة من الوقت.

وهذه العناية بتاريخ مكة المكرمة وجغرافيتها وآدابها وتراثها الفكري والعمراني تعد واجبًا من الواجبات الملقاة على عاتق الباحثين والدارسين، وهي وسيلة لمواكبة تراثها العلمي مع بنائها الحضاري المتميز والجهود الخيرة التي بذلتها حكومة المملكة العربية السعودية منذ عهد الملك المؤسس الملك عبدالعزيز رحمه الله، وما تزال تتواصل بحمد الله وفضله في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز حفظه الله وسدد خطاه، والتي تظل شواهد ضاربة في العمق للدلالة على الدعم غير المحدود والعناية الفائقة بالأماكن المقدسة وسكانها وزائريها، مما ليس له نظير من قبل.

والله نسأل التوفيق والسداد في القول والعمل،،،

د. فهد بن عبدالله السماري
رئيس تحرير مجلة الدارة
الأمين العام لدارة الملك عبدالعزيز



من أرشيف الدارة

السبيل الذي أنشأه الملك عبدالعزيز
عام ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٧م
في الركن الجنوبي الشرقي للمبنى
المقام على بئر زمزم

دار الندوة في الجاهلية والإسلام

دراسة تاريخية حضارية

د. عدنان بن محمد الحارثي

قسم التاريخ والحضارة الإسلامية - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة أم القرى

الندوة من ندا، يندو ندواً، ومنها (ندوت)؛ أي: اجتمعت مع، ومنها النديّ، وهو الاجتماع في المجلس. ومنه جاء لفظ (الندوة)؛ أي: النادي بمعنى: المجلس والمشاورة والجماعة[١]. وأطلق الاسم على دار بعينها في مكة لاجتماع قريش فيها[٢]، وقيل: إن الاسم مشتق من المناداة (أي: المفاخرة)، ومنه جاء اسم (دار الندوة)؛ أي: للمفاخرة[٣].

إنشاء دار الندوة

أنشأ دار الندوة قصي بن كلاب بن مرة بن كعب[٤]، ولم يكن اسمه قصياً، بل زيداً، وسمي قصياً بعد ذلك؛ لأنه قُصّي عن قومه[٥]، حيث

---

(١) الزبيدي؛ محب الدين محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، بيروت، ج١٠، ص٣٦٢.

(٢) المصدر السابق: ج١٠، ص ٣٦٢، الفاسي: تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق عبدالسلام التدمري، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج٢، ص١٣٩.

(٣) الزبيدي، المصدر السابق، ج١٠، ص٣٦٢.

(٤) عنه انظر: الطبري؛ محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ج٢، ص١٨١ - ١٨٥.

(٥) ابن الأثير؛ علي بن محمد الشيباني، الكامل في التاريخ، الطبعة الثانية، بيروت، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م، ج٢، ص١١. ويرى حسين مؤنس أن اسمه الحقيقي قصي، وأن زيداً اسم اختلقه الإخباريون، بل إنه يعيد وصف حياة قصي كلها بأسلوب يبتعد فيه عما رواه الإخباريون، وعلى الرغم من وجاهة ما يذكره فإنه لا يستند إلى أدلة تاريخية معتد بها. انظر: حسين مؤنس؛ تاريخ قريش (دراسة في تاريخ أصغر قبيلة عربية جعلها الإسلام أعظم قبيلة في تاريخ البشر)، الطبعة الأولى، جدة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص٩٢ - ٩٦.

عاش في بني عذرة على أطراف بلاد الشام بعيداً عن قومه. وسبب ذلك كما تذكر روايات الإخباريين أن أمه فاطمة بنت سعد بن سيل تزوجت ربيعة بن حرام من سادات بني عذرة بعد وفاة زوجها كلاب بن مرة والد قصي؛ فارتحلت مع زوجها ربيعة إلى بلاده، وأخذت معها قصياً لصغر سنه. وبعد ما شب قصي وكبر حدث خلافٌ بينه وبين رجلٍ من بني عذرة؛ فأنّبه، وانتقص منه؛ لأنه غريب، وليس من قومه، فرجع قصي إلى أمه، وقد وجد في نفسه مما قاله الرجل، فسألها عن ذلك، فأخبرته بقومه، فعزم على اللحاق بهم، فألحت عليه أمه ألاّ يعجل، وينتظر حتى يخرج مع الحجاج المتجهين إلى مكة، خوفًا من غائلة الطريق إن سافر منفرداً[٦].

وفي مكة المكرمة تزوج قصي من حبى بنت حليل بن حبشية الخزاعي؛ فأنجبت له عدداً من الأولاد الذكور، وكثر مال قصي، وعظم شرفه، فلما توفي حليل الذي كان يلي أمر مكة المكرمة عمل قصي على انتزاع ولاية مكة والكعبة من خزاعة، معتبراً نفسه أولى منهم بها[٧].

وتذكر بعض الروايات التاريخية أن حليل بن حبشية دفع بأمر مكة إلى قصي؛ لأنه أحب أن يجعل ولايتها في يد أبناء بنته حبى[٨]، في حين أن هناك رواية تذكر بأن قصيا اشترى ولاية مكة والبيت من وكيل حبى أبي غبشان بزق خمر وعود[٩].

---

(٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص١٨١ - ١٨٢. النويري: شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، الطبعة الأولى، القاهرة. ج١٦، ص٢٦. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الطبعة الثانية، بيروت، بغداد، ١٩٧٨م، ج٤، ص٤١.

(٧) ابن هشام: عبدالملك بن هشام المعافري، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، القاهرة، ج١، ص١١٧ - ١١٨. الطبري، المصدر السابق، ج٢، ص ١٨٢.

(٨) ابن هشام، المصدر السابق، ج١، ص١١٨، ابن الأثير: الكامل، ج٢، ص ١٢.

(٩) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص١٨٢.

أبت خزاعة على قصي أن يلي أمر البيت؛ فاستعان بقومه قريش، وببني عذرة قوم أخيه من أمه رزاح بن ربيعة بن حرام، إذ بعث إليه قصي يستنصره، فلبى دعوته، وآزره على خزاعة(١٠).

وتحارب الطرفان، فلما اشتد القتال، وكثر القتل والجراح فيهم، تداعوا للصلح على أن يحتكما إلى يعمر (وقيل: عمر) بن عوف بن كعب، فكان حكمه أن قصياً وقومه أولى بمكة والبيت، وأن كل دم أصابه قصي من خزاعة موضوع، فيشدخه تحت قدميه، وأن كل دم أصابته خزاعة وحلفاؤها من قريش وحلفائها ففيه الدية. وبذلك تحقق لقصي مبتغاه في ولاية مكة المكرمة والبيت الحرام(١١).

على إثر ذلك جمع قصي قومه من الشعاب والأودية والجبال، ومُلِّك عليهم، وحكم فيهم، وقسم مكة بينهم رباعًا، فبنوا المساكن(١٢).

وتذكر بعض روايات الإخباريين أن قومه هابوا قطع شجر الحرم؛ ليبنوا منازلهم، فبادر قصي فقطعها، فلما رأوا أنه لم يصبه أذى فعلوا مثلما فعل(١٣). وبنى قصي دار الندوة، وجعل بابها إلى الكعبة(١٤)، وكان ذلك في منتصف القرن الخامس الميلادي؛ أي: قبل ما يقارب مئة وخمسين عاماً من الهجرة النبوية الشريفة(١٥).

---

(١٠) المصدر السابق، ج٢، ص١٨٣.

(١١) المصدر السابق، ج٢، ص١٨٢ - ١٨٤. محمد جمال الدين سرور: قيام الدولة العربية الإسلامية في حياة محمد ﷺ، القاهرة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص٤٢ - ٤٣.

(١٢) ابن الأثير: الكامل، ج٢، ص١٣. النويري: نهاية الأرب، ج١٦، ص٢٨ - ٢٩. أحمد السباعي: تاريخ مكة (دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران)، الطبعة السادسة، مكة المكرمة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ج١، ص٢٥.

(١٣) ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص١٢٥. ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع القرشي الهاشمي، الطبقات الكبرى، بيروت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٥م، ج١، ص٧٠.

(١٤) الفاكهي: محمد بن إسحاق، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، الطبعة الأولى، مكة المكرمة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ج٣، ص٢٦٠.

(١٥) عواطف سلامة: قريش قبل الإسلام ودورها السياسي والاقتصادي والديني، الرياض، ص٣٨.

ودار الندوة هي أول دار بنيت بمكة المكرمة - على حد قول الإخباريين - ولم يكن قبلها بناء سوى الكعبة المعظمة[١٦]، وكان سكان مكة قبل ذلك يدخلونها نهاراً، ويخرجون منها ليلاً تعظيماً للبيت وشأنه[١٧]. وهناك روايات أخرى تذكر بأن سكانها كانوا يقطنون في مضارب من الشعر الأسود[١٨]. وينفي أحمد إبراهيم الشريف كل ذلك بقوله: "ليس من الممكن الموافقة على ما يقول به المؤرخون العرب، من أن مكة بقيت على بداوتها حتى اجتمع أمرها لقصي بن كلاب، فهذا أمر عسير التصور أن تبقى بلد له ما لمكة وبيتها العتيق من القدسية في حالة البادية مع ما يثبته المؤرخون من أن البيت بقي بعد إسماعيل في يد جرهم - أخوال بنيه - أجيالاً متعاقبة أقاموها حوله، ثم انتقال أمرها بعد ذلك لخزاعة، وهي قبيلة يمنية قدمت من بلاد عرفت الحضارة والاستقرار وشؤون الحكم، وهي حين وليت أمر مكة كانت ملتقى طرق القوافل إلى اليمن وإلى الحيرة وإلى الشام، وأنها اتصلت بتجارة العالم عن هذا الطريق، وعن طريق البحر الأحمر، كما يشير هؤلاء المؤرخون إلى احترام التبابعة لمكة، فيذكرون مثلاً أن التبع أسعد أبا كرب الحميري قدم مكة، ووضع الكسوة على البيت الحرام.

عسير أن يتصور بقاء بلد له هذه المكانة من غير أن يدنيه اتصاله بالعالم من مراتب الحضارة؛ لذلك كان من الحق أن نقول: إن مكة، وقد دعاها إبراهيم عليه السلام بلداً، ودعا الله أن يجعله آمناً مطمئناً، قد عرفت حياة الاستقرار أجيالاً طويلة قبل قصي..."[١٩]، ومما يؤكد

---

(١٦) اليعقوبي؛ أحمد بن واضح، تاريخ اليعقوبي، بيروت، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٠م، ج١، ص٢٣٩. الماوردي؛ محمد بن حبيب البصري، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، بيروت، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص١٦٣. السنجاري؛ علي بن تاج الدين بن تقي الدين، منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم، تحقيق جميل بن عبدالله المصري وآخرين، الطبعة الأولى، مكة المكرمة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ج١، ص٣٦٨.

(١٧) عواطف سلامة: قريش، ص٤١.

(١٨) جواد علي: المفصل، ج٤، ص٥١.

(١٩) أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ، القاهرة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص٩٦.

هذا الرأي أن هناك نصوصاً تاريخية تذكر اتخاذ قبائل العرب القاطنين مكة المكرمة المنازل المبنية مساكن لهم. فعندما نزلت بها جرهم بنوا المنازل، وتوسعوا في ذلك[٢٠]. ويذكر الطبري أن قصياً حين قاتل خزاعة "أخذتها العدسة حتى كادت تفنيهم، فلما رأت ذلك جلت عن مكة؛ فمنهم من وهب مسكنه، ومنهم من باع ومنه من أسكن"[٢١].

ويظهر أن مساكنهم كانت على سفوح الجبال المحيطة بالوادي، فكانوا ينزلون إليه نهاراً لزيارة الكعبة أو الطواف بها، أو للجلوس عند الكعبة لإدارة بعض شؤونهم[٢٢]. وبالتالي فإن بناء قصي لدار الندوة وسكنى قومه معه، يقصد به البناء في بطاح مكة حول الكعبة؛ ولذلك عرفوا بقريش البطاح[٢٣]. فَعُدُّوا بذلك أول من بنى مكة (البلدة) المحيطة بالكعبة المشرفة.

دار الندوة قبل الإسلام

اتخذ قصي بن كلاب دار الندوة مقراً لسكناه وإقامته[٢٤]. وفي الوقت ذاته رسخ من خلالها سياسات وأساليب تدار من خلالها شؤون القبيلة ومكة المكرمة. وكانت معظم الشؤون العامة الداخلية والخارجية تناقش في هذه الدار[٢٥]، فعندما قرر صناديد قريش

(٢٠) الأزرقي: محمد بن عبدالله بن أحمد، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي الصالح ملحس، الطبعة الثالثة، مكة المكرمة، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ج١، ص٨٥.

(٢١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص١٨٢.

(٢٢) عواطف سلامة: قريش، ص٦٩.

(٢٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص١٨٢، السنجاري، منائح الكرم، ج١، ص٣٦٥ - ٣٦٦. عواطف سلامة: قريش، ص٦٩.

(٢٤) الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص١٠٢، ٢٥٢، جواد علي: المفصل، ج٤، ص٤٧.

(٢٥) جواد علي، المرجع السابق، ج٤، ص٤٧، نبيه عاقل: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، الطبعة الثالثة، دمشق، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٥م، ص٢٣٣ - ٢٣٤، السيد عبدالعزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب (تاريخ العرب قبل الإسلام)، الإسكندرية، ج١، ص٣١٢.

مواجهة دعوة الإسلام التي أخذت تنتشر في المجتمع المكي عقدوا اجتماعاتهم، وقرروا فيها الكيد للإسلام بإلصاق التهم جزافاً بمبادئ الدين الجديد، وبشخص الرسول ﷺ، ثم اتجهوا بعد ذلك للإيذاء الجسدي والمساوامات والمقاطعة؛ بهدف منع صاحب الدعوة وأتباعه من نشر مبادئ الإسلام العظيمة(٢٦). وكانت هذه الاجتماعات تتم في دار الندوة كما تشير بذلك المصادر التاريخية(٢٧). وعندما وجدوا أن هذه الأساليب لا تجدي نفعاً، ولا تحقق غاياتهم اجتمعوا في دار الندوة، وقرروا قتل الرسول ﷺ؛ فكان ذلك سبباً لهجرته الشريفة ﷺ إلى المدينة المنورة(٢٨).

وكانت دار الندوة المكان الذي تعقد فيه ألوية الحروب التي خاضتها قريش. وقد دخلت قريش في حروب عدة في الجاهلية ضد بعض القبائل العربية، وحاربت دولة الإسلام الناشئة في المدينة المنورة. وعلى الرغم من أن المصادر لا تذكر صراحة انعقاد ألوية الحرب في دار الندوة إلا في غزوتي أحد(٢٩) والخندق(٣٠)، فإن من المؤكد أن الحروب التي سبقت ذلك، ووقعت بعد إنشاء دار الندوة، كان الاستعداد لها والتشاور بشأنها يتم فيها؛ لأن المصادر التي تحدثت عن تنظيمات هذه الدار بصفة عامة ذكرت أن من ضمن

(٢٦) للمزيد انظر: صفي الرحمن المباركفوري: الرحيق المختوم (بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام) الرياض، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص٨٣ - ٩١، ٩٨ - ٩٩.

(٢٧) الفاكهي: أخبار مكة، ج٣، ص٣١٢، الحربي: إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم، كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة العربية، الطبعة الثانية، الرياض، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص ٤٧٥.

(٢٨) ابن هشام: السيرة، ج٢، ص٤٨٠، ابن فهد: إتحاف، ج١، ص٢٥٨.

(٢٩) هذه الغزوة قامت بها قريش انتقاماً لهزيمتها في بدر. وقد كانت في سنة (٣هـ/ ٦٢٤م)، للمزيد عنها انظر: المباركفوري: الرحيق المختوم، ص٢٤٨ - ٢٨٥.

(٣٠) ابن فهد: إتحاف، ج١، ص٤٤٤. الخندق، وتسمى الأحزاب أيضاً لتحالف طوائف من المشركين في قيادتهم قريش لغزو المدينة سنة (٥هـ/٦٢٦م). للمزيد انظر: المباركفوري: الرحيق المختوم، ص٣٠١ - ٣١٢.

ذلك الإعداد للحروب التي تخوضها قريش(٣١). ومن أبرز هذه الحروب: (ذات نكيف)(٣٢)، (والفجار)(٣٣)، (وبدر الكبرى)(٣٤).

وجعل القرشيون من دار الندوة مكاناً لعقد بعض أحلافهم، ففيها حالف عبدالمطلب خزاعة(٣٥)، وفيها حضر الرسول ﷺ عقد حلف الفضول(٣٦). ومن دار الندوة كانت تنطلق قوافل قريش التجارية وإليها تعود(٣٧)؛ مما يرجح أنها كانت مكاناً لعقد الصفقات التجارية.

---

(٣١) ابن حبيب: محمد بن حبيب البغدادي، كتاب المنمق في أخبار قريش، تصحيح وتعليق خورشيد أحمد فارق، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص٣٢. البلاذري: أحمد بن جابر، أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميدالله، القاهرة، ١٩٥٩م، ج١، ص٥٢. ابن سعد: الطبقات، ج١، ص٧٠. الأزرقي: أخبار مكة، ج١، ص١٠٩، الفاكهي: أخبار مكة ج٣، ص٣١٠، جواد علي: المفصل، ج٤، ص٤٧.

(٣٢) ذات نكيف حروب بين قريش وبني ليث بن بكر بن عبدمناة، ومن معهم من بكر. واختلفت المصادر في ذكر أسبابها. عبدالله بن حسين الشريف: الأحابيش وموقفهم من الصراع بين قريش والمسلمين، حوليات مركز البحوث التاريخية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، الحولية الأولى، الرسالة الأولى، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص٣٦ - ٣٧.

(٣٣) هي مجموعة حروب تمثل معارك قصيرة ومناوشات، وسبب اشتهارها وقوعها في الأشهر الحرم. جواد علي: المفصل، ج٤، ص٨٥.

(٣٤) هي الغزوة المعروفة، وقد حدثت في السنة (٢هـ/٦٢٣م)، للمزيد انظر: المباركفوري: الرحيق المختوم، ص٢٠٤ - ٢٣٣.

(٣٥) هذا الحلف عقده عبدالمطلب مع بعض خزاعة. للمزيد انظر: ابن سعد: الطبقات، ج١، ص٨٥، ابن حبيب: المنمق، ص٨٦ - ٨٨. عبدالله الشريف: الأحابيش، ص٢٢.

(٣٦) غاية هذا الحلف إنصاف المظلومين من أهل مكة أو من غيرها من الضعفاء ممن لا يجدون من يدافع عنهم، وقد حضره الرسول ﷺ وإن اختلف في مكان انعقاده، أهو في دار الندوة، أو في دار عبدالله بن جدعان، وهناك روايات تذكر بأن المتحالفين في قريش اجتمعوا في دار الندوة، ثم توجهوا إلى دار عبدالله بن جدعان، وهناك روايات لبعض الإخباريين تخلط بينه وبين حلف المطيبين، في حين أن من الثابت أن حلف المطيبين عقد لغرض آخر، وكان قبل عصر النبي ﷺ، كما يذكر جواد علي. انظر: ابن كثير: إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، بيروت، ١٤٠١هـ، ج١، ص٤٩١، الهيثمي: علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، القاهرة، بيروت، ١٤٠٧هـ، ج٨، ص١٧٢. النويري: نهاية الأرب، ج١٦، ص٣٥. جواد علي: المفصل، ج٤، ص٦٠ - ٦٤، ٨٦ - ٩٠.

(٣٧) ابن فهد: إتحاف الورى، ج١، ص٤٣٠.

ولم تقتصر تنظيمات دار الندوة على الشؤون العامة الكبرى، والجوانب السياسية والاقتصادية، وإنما تجاوزت ذلك لتمارس فيها بعض مظاهر الحياة الاجتماعية، ففيها كان يعقد زواج القرشي والقرشية، ويعذر (يختن) فيها من بلغ من صبيانهم، وإذا حاضت الجارية جيء بها إلى دار الندوة، فيشق عليها درعها، وتعود إلى أهلها فيحجبونها[٣٨]. وعندما دخل رسول الله ﷺ مكة المكرمة معتمراً سنة (٧هـ/٦٢٨م) اجتمع بعض سكان مكة المكرمة في دار الندوة للنظر إليه وإلى أصحابه، وهم يطوفون بالكعبة المشرفة[٣٩].

وكان القرشيون يلتزمون بتلك الوظائف التي كانت تقوم بها دار الندوة، ولا يحيدون عنها أبداً، وكانت عندهم أشبه بالدين المتبع. وقد حافظوا عليها تيمناً بأمر قصي، وتبركاً به كما تشير بذلك المصادر التاريخية[٤٠]؛ مما يوحي بأنها نظمت، ورسخت منذ عهده، والتزم بها من جاء من بعده دون تغيير أو تطوير. وهذا بخلاف سنن الحياة، وتطور المجتمعات التي عادة ما تشهد تقاليدها وأعرافها بعض التغير والتطوير تبعاً لتغير الأزمان والعصور. ويبدو أن أسس هذه التنظيمات قد وضعت على يد قصي، ثم أخذت تتطور بتغير الظروف والأحوال، فكانت أعرافاً متبعة، وتقاليد مرعية يتوارثونها جيلاً بعد جيل، شفاهة وليست كتابة، إذ لم تشر المصادر إلى تدوينها على الإطلاق.

ويرى أحمد إبراهيم الشريف أن تنظيم مختلف مظاهر الحياة ظهر في مكة المكرمة منذ زمن عمرو بن لحي زعيم خزاعة، وإن كان بصورة أولية[٤١]، وبالتالي فقد تكون جذور بعض وظائف دار الندوة تعود لتلك الفترة.

---

(٣٨) الأزرقي؛ أخبار مكة، ج١، ص ٦٦، ج٢، ص١١٢ - ١١٣، ٢٥٣، الفاسي؛ شفاء الغرام، ج٢، ص١١٢ - ١١٣، النويري؛ نهاية الأرب، ج١٦، ص٢٩.

(٣٩) ابن سعد؛ الطبقات، ج١، ص٢٢٧.

(٤٠) الأزرقي؛ أخبار مكة، ج٢، ص٢٥٣، ابن الأثير؛ الكامل، ج٢، ص ١٣.

(٤١) أحمد الشريف؛ مكة والمدينة، ص٩٩ - ١٠٠.

في ضوء ما سبق يتضح أن دار الندوة كانت منذ زمن قصي مركزاً لإدارة شؤون مكة، يجتمع فيها الملأ من زعماء قريش وأشرافها، وقد تعارفوا على ألاَّ يحضر اجتماعاتهم إلا من كان سنه فوق الأربعين، ويستثنى من ذلك بنو قصي وحلفاؤهم[٤٢]، أو من عرف من غيرهم بحسن الرأي ورجاحة العقل؛ فدخلها الحكم بن هشام (أبو جهل)، وهو ابن ثلاثين عاماً لجودة رأيه، وحسن تدبيره، كما دخلها حكيم بن حزام، وهو ابن خمسة عشر عاماً تبركاً به؛ لأنه ولد بالكعبة[٤٣].

ولم تكن القرارات التي يتخذها المجتمعون في هذه الدار ملزمة، وإن وافقوا عليها بالإجماع[٤٤]، وكان باستطاعة من شاء من القرشيين التراجع عنها، إذ لم يشارك أحد من بني عدي بن كعب في غزوة بدر الكبرى، بينما انسحب منها بنو زهرة وبعض بني المطلب وغيرهم من قبل أن تقع المعركة، وذلك رغم إجماع قريش على قتال المسلمين في بدر إظهاراً لمنعتهم وقوتهم[٤٥]. كما أن نجاح تنفيذ القرارات يعتمد على قدرات المجتمعين، ومدى نفوذهم في المجتمع المكي، ومقدرتهم على الإقناع، أو اتخاذ إجراءات بحق المخالفين من مقاطعة أو مساومة وغير ذلك[٤٦].

ومن الواضح أن التنظيم المتبع في دار الندوة قبلي في جوهره، وأنه امتداد لمجلس القبيلة مع بعض التطوير الذي أحدثته قريش؛

---

(٤٢) الأزرقي؛ أخبار مكة، ج٢، ص٢٥٣، جواد علي؛ المفصل، ج٤، ص٤٧ - ٤٨.

(٤٣) المزي؛ يوسف بن الزكي عبدالرحمن، تهذيب الكمال، تحقيق بشار معروف عواد، بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ج٧، ص١٨٦. جواد علي؛ المفصل، ج٤، ص ٤٧. حكيم بن حزام بن خويلد الأسدي القرشي، من أشراف قريش ووجهائها، اختلف في وفاته فقيل: (٥٤هـ/٦٧٣م) أو (٥٨هـ/ ٦٧٧م) أو (٦٠هـ/٦٧٩م)، للمزيد انظر: الفاسي؛ تقي الدين محمد بن أحمد الحسني المكي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق فؤاد سيد وآخرون، القاهرة، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م، ج٤، ص٢٢١ - ٢٢٣.

(٤٤) جواد علي؛ المفصل، ج٤، ص٤٨.

(٤٥) الطبري؛ تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٧٦.

(٤٦) جواد علي؛ المفصل، ج٤، ص٤٨.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز، العدد الثالث رجب ١٤٢٦هـ، السنة الحادية والثلاثون

نتيجة للازدهار التجاري والحضاري اللذين شهدتهما مكة في ذلك العصر[٤٧]. ولم تكن في مكة حكومة مركزية تتبعها المؤسسات الإدارية بالمفهوم المتعارف عليه وإن كان بصورة بدائية، وكل ما في الأمر أنها تتألف من بطون لكل منها شيخ يرأسها، وهم وحدهم أصحاب الحل والعقد فيها[٤٨].

وكان يتولى الإشراف على دار الندوة قيّم من بني عبدالدار بن قصي، فكان يفتحها لقريش متى اقتضى الأمر، كما أنه يشق درع الفتاة، ويعيده عليها إذا ما حاضت[٤٩].

وتذكر النصوص التاريخية أن قصياً أوصى أن يكون أمر دار الندوة من بعده لابنه الأكبر عبدالدار، وأنه ولاه إياها ووظائف أخرى[٥٠]، لأنه كان ضعيفاً، فأراد قصي تقويته، ورفع شأنه أمام شقيقه عبدمناف الذي كثر ماله، وساد في حياة أبيه[٥١]. وقد حاول بنو عبدمناف بعد ذلك أن يستأثروا بالوظائف التي في يد بني عبدالدار، وتحالفوا مع بعض بطون قريش؛ فأنشأ بنو عبدالدار حلفاً مضاداً مع بطون قرشية أخرى، وانقسمت قريش فيما بينها، ثم تداعوا للصلح، واتفقوا على أن يعطوا بني عبدمناف الرفادة والسقاية، ويبقى اللواء والحجابة والندوة عند بني عبدالدار[٥٢]، واستمرت الندوة في يد أبناء عامر بن هشام بن عبدالدار حتى جاء الإسلام[٥٣].

---

(٤٧) أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص١٠٠.

(٤٨) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ج١، ص٢٤.

(٤٩) الفاسي: شفاء الغرام، ج٢، ص١٣٩.

(٥٠) هذه الوظائف هي: الحجابة، واللواء، والرفادة، والسقاية، والندوة. انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص١٨٤، أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص٩٩ - ١٠٦.

(٥١) الطبري: المصدر السابق، ج٢، ص١٨٤، الأزرقي: أخبار مكة، ج١، ص١٠٩ - ١١٠.

(٥٢) ابن الأثير: الكامل، ج٢، ص١٤.

(٥٣) الأزرقي: أخبار مكة، ج١، ص١١٠.

دار الندوة في العصر الإسلامي

بعد أن فتح الرسول ﷺ مكة المكرمة، وفشا الإسلام في سكانها أخذ الكثير من عادات الجاهلية ورسومها بالاختفاء أو التغيير، ومن ضمنها أنماط الحكم فيها، فلم تعد تحكم من قبل الملأ وأهل المشورة، وإنما عين عليها الرسول ﷺ أميراً يتبع سلطته بالمدينة المنورة التي أضحى أمر المشورة منوطاً بها فقط(٥٤). ولم يبق من الرسوم والأعراف التي أنشأها قصي سوى الحجابة والسقاية والرفادة(٥٥). وبالتالي انتهت رسوم دار الندوة وأعرافها الاجتماعية، ولم يعد لها ذكر في المصادر التاريخية. بل إن هناك روايات تاريخية تذكر بأن الرسول ﷺ أخذ مفاتيحها مع مفاتيح الكعبة من بني عبدالدار. ويبدو أنه أعادها عندما أعاد إليهم مفاتيح الكعبة(٥٦)، فبقيت في أيديهم إلى أن باعوها بعد ذلك كما سيوضح لاحقًا، بيد أن ذلك لم يحل دون أن تصبح مهملة لا دور لها في حياة المكيين خلال ما بقي من عصر النبوة، وفي عصر أبي بكر الصديق رضي الله عنه الذى جاء إلى مكة سنة (١٢هـ/٦٣٣م)، وجلس للحكم بين الناس في فناء الحرم قريباً من دار الندوة، ولم يدخلها(٥٧).

وأخذ الاهتمام بدار الندوة يعود من جديد في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث أقام فيها في إحدى زياراته لمكة المكرمة يستقرب المسجد الحرام(٥٨). وبذلك وضع الأسس الأولى لوظائف دار الندوة

(٥٤) محمد ضيف الله البطاينة: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، الطبعة الأولى، عمان، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٣٢ - ٣٧، ٤٩ - ٦٣.

(٥٥) يقصد بالحجابة حمل مفاتيح الكعبة، أما السقاية والرفادة فهما توفير الماء والطعام للحجاج، وقد استمرت هذه الوظائف بعد الإسلام، فالحجابة بقيت عند بني عبدالدار، والسقاية عند آل العباس. أما الرفادة فقام بها الرسول ﷺ، وتبعه الخلفاء من بعده. الأزرقي: أخبار مكة، ج١، ص١١٠ - ١١٥.

(٥٦) المصدر السابق، ج١، ص١١٠ - ١١١.

(٥٧) ابن سعد: الطبقات، ج٣، ص١٨٧.

(٥٨) الفاكهي: أخبار مكة، ج٣، ص٣١١، ٣١٢، ٣٨٨.

بعد ذلك - رغم أن ذكرها ينقطع في عهدي عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما - فأصبحت مقراً لإقامة الخلفاء إذا ما قدموا إلى مكة المكرمة، وهذه هي الوظيفة التي أضحت تقوم بها منذ بداية العصر الأموي، إذ اتخذها معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه مقراً لإقامته بمكة المكرمة.

هذه هي الوظيفة التي أضحت تقوم بها مكة المكرمة منذ بداية العصر الأموي

ولإثبات هذه الصفة لدار الندوة قام معاوية بشرائها من ابن الرهين العبدري[٥٩] بمئة ألف درهم. وفي روايات أخرى أن الذي باعها حكيم بن حزام بن خويلد الأسدي[٦٠]، أو أنه عكرمة بن عامر (وقيل: عمار) بن هاشم بن عبدمناف بن عبدالدار[٦١]. ويبدو أن شراءها كان في سنة (٤٤هـ/٦٦٤م) عندما جاء معاوية إلى مكة المكرمة حاجاً[٦٢].

وقد عارض الشراء شيبة بن عثمان[٦٣]، طالباً شراءها بحق الشفعة؛ لأنها بجوار داره؛ فكلم معاوية في ذلك، فطلب منه معاوية إحضار المال، وواعده مساء ذلك اليوم، فلما جاء بالمال طلب منه معاوية انتظاره في المسجد الحرام، وخرج مسافراً من باب آخر لدار الندوة، دون أن يشعر به شيبة الذي ظل منتظراً حتى موعد صلاة

(٥٩) هو النضر بن الحارث بن كلدة بن عبدمناف بن عبدالدار العبدري. ابن حبيب؛ المنمق، ص٢١٠، ابن سعد؛ الطبقات، ج٢، ص٤٧٨، ابن فهد؛ إتحاف الورى، ج٢، ص٣٤ - ٣٥.

(٦٠) المزي؛ تهذيب الكمال، ج٧، ص١٨٥، ابن حجر: الإصابة، ج٢، ص١١٢.

(٦١) ابن عبدالبر؛ يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤١٢هـ، ج٣، ص١٠٨، وهو عكرمة بن عامر (ويقال: بن عمار) بن هاشم بن عبدمناف بن عبدالدار القرشي. الفاسي؛ العقد الثمين، ج٦، ص١١٩.

(٦٢) ابن فهد؛ إتحاف الورى، ج٢، ص٣٤.

(٦٣) هو شيبة بن عثمان بن طلحة بن عبدالله العبدري القرشي، حاجب الكعبة المشرفة، توفي سنة (٥٩هـ/ ٦٧٨م). الفاسي؛ العقد الثمين، ج٥، ص١٩ - ٢٢.

المغـرب، فلمـا خـرج والي مكة عبـدالله بن أسـيـد[٦٤] من دار الندوة للصـلاة، سـأله شـيبـة عن مـعـاوية، فـأخبـره بسـفـره؛ فـأقـسم شـيبـة ألاّ يكلمه أبداً[٦٥].

واستمـرت دار الندوة بعد معاوية بن أبي سفيان مقراً لخلفاء بني أمـيـة ينزلونهـا إذا مـا قـدمـوا إلـى مكة المكرمـة[٦٦]. أمـا عـبـدالله بن الزبير فجعلها مسكنه الدائم خلال فترة خلافته التي اتخذ فيها مكة المكرمـة عـاصـمـة لدولته. كـمـا يشـيـر بذلك النجم بن فـهـد في ثنايا حديثـه عن عـمـارته للكعـبـة المشـرفـة سنة (٦٤هـ/ ٦٨٣م)، فـذكـر أنه وضع الحـجـر الأسـود في ديبـاجـة داخل صندوق مـقـفل "عنده في دار الندوة"[٦٧].

وعندمـا ولي العبـاسـيـون الخـلافـة أبقـوا علـى رسـوم دار الندوة كمـا كانت في العصر الأموي، وكانوا ينزلون بها كلما قدموا إلى مكة المكرمة، فـفي سنة (١٤٤هـ/ ٧٦١م) حج بالنـاس الخليـفـة العـبـاسـي أبو جـعـفـر المنصـور، وأقـام في دار النـدوة، فكان يخـرج منهـا في آخـر الليل؛ ليطوف بالبـيت، ويصـلي إلى الفـجـر، ثم يعـود إليـهـا دون أن يعلم به أحـد[٦٨]. كـذلك نزل بهـا الخليـفـة المهـدي في حـجـتـه سـنة (١٦٠هـ/ ٧٧٦م)[٦٩]، بل إنه مكث بهـا بضـعـة أشـهـر في سـنة (١٦٦هـ/٧٨٢م) حيث قدم إلى مكة في شهر رمضـان معتمـراً، وأقام بدار الندوة إلى أن قضى نسك حجه في تلك السنة، ثم قفل راجعاً إلى عاصمة ملكه

(٦٤) عبدالله بن خالد بن أسيد الأموي القرشي، والي مكة المكرمة وفارس. المصدر السابق، ج٥، ص١٣٣ - ١٣٥.

(٦٥) ابن فهد؛ إتحاف الورى، ج٢، ص٣٤ - ٣٥. العز بن فهد؛ عبدالعزيز بن عمر بن فهد الهاشمي، غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، الطبعة الأولى، مكة المكرمة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

(٦٦) الأزرقي؛ أخبار مكة، ج٢، ص١١٠، الفاكهي؛ أخبار مكة، ج٣، ص٣١١.

(٦٧) ابن فهد؛ إتحاف الورى، ج٢، ص٧٠.

(٦٨) المصدر السابق، ج٢، ص١٨٠.

(٦٩) الفاكهي؛ أخبار مكة، ج١، ص٤٧٥. ابن فهد؛ إتحاف الورى، ج٢، ص٢٠٣ - ٢٠٤.

بغداد[٧٠]. واستمرت هذه الدار تستقبل الخلفاء من بعد المهدي، حيث نزل فيها الخليفة موسى الهادي، ومن بعده هارون الرشيد شطراً من خلافته لم تحدده المصادر التاريخية، ثم اشترى داراً أخرى يقيم فيها إذا قدم إلى مكة المكرمة، فهجرت على إثر ذلك دار الندوة[٧١].

وكان الخلفاء يستقبلون في دار الندوة الفقهاء والأعيان من سكان مكة المكرمة وغيرها، إذ يروي المسعودي أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه استقبل سعداً[٧٢] في دار الندوة[٧٣].

وعندما حج أبو جعفر المنصور حج معه الفقيه الورع محمد بن أبي ذئب[٧٤]، فكان يستدعيه المنصور إلى مجلسه في دار الندوة، ويحاوره في مسائل مختلفة[٧٥]. وعندما نزل المهدي في دار الندوة في حجته سنة (١٦٦هـ/ ٧٨٢م) أحضر إليه عبيدالله بن عثمان الحجبي[٧٦] (مقام إبراهيم)، فسر به المهدي، وأدخل عليه أهله ليروه، ثم أعاده عبيدالله بن عثمان إلى مكانه، وأمر له المهدي بجوائز عظيمة[٧٧].

---

(٧٠) الفاكهي: أخبار مكة، ج٢، ص١٧١.

(٧١) الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص١١٠.

(٧٢) لم يحدد المسعودي من هو سعد هذا.

(٧٣) المسعودي: علي بن الحسين بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، الطبعة الخامسة، بيروت، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ج٣، ص٢٣.

(٧٤) محمد بن عبدالرحمن بن المغيرة القرشي، توفي سنة (١٥٨هـ/ ٧٧٤م) أو سنة (١٥٩هـ/ ٧٧٥م). البغدادي: الحافظ أحمد بن علي، تاريخ بغداد (أو مدينة السلام)، بيروت، ج٢، ص٢٩٦ - ٣٠٥.

(٧٥) النووي: محيي الدين يحيى بن شرف بن مري، تهذيب الأسماء واللغات، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٦م، ج١، ص١٠٢.

(٧٦) لم ترد ترجمة له فيما اطلع عليه الباحث من مصادر ومراجع، وفي الفاسي ذكر لترجمة عبدالله بن شعيب بن شيبة الحجبي المكي، وقد ذكر له خبراً يفيد أنه تولى حجابة البيت في زمن المهدي العباس، وقد أصلح بأمر منه مقام إبراهيم؛ فلعل هناك خلطًا في الأسماء في أحد المصادر التي اعتمد عليها البحث. الفاسي: العقد الثمين، ج٥، ص١٧٣ - ١٧٤.

(٧٧) الفاكهي: أخبار مكة، ج١، ص٤٧٥، ابن فهد: إتحاف الورى، ج٢، ص٢٠٣ - ٢٠٤.

ولا شك أن الخلفاء عندما كانوا ينزلون في دار الندوة كان يرافقهم فيها من قدم معهم من أهليهم وخاصتهم(٧٨). ولم يقتصر دور دار الندوة على أن تكون مقراً للخلفاء وأقربائهم وخاصتهم إذا قدموا إلى مكة، وإنما كانت مقراً لأمراء مكة أيضاً، ينزلون فيها خلال ولايتهم.

ففي حادثة اعتراض شيبة بن عثمان على شراء معاوية بن أبي سفيان دار الندوة، ومطالبته بالشفعة، التي سبق ذكرها، يرد فيها ما يشير إلى أن والي مكة حينئذ عبدالله بن أسيد كان يقيم في دار الندوة، حيث خرج منها لأداء الصلاة في المسجد الحرام بعد سفر معاوية بن أبي سفيان(٧٩). وكان والي مكة ابن هشام المخزومي(٨٠) يخرج منها للصلاة والطواف بالكعبة المشرفة(٨١)، مما يشير لاتخاذ الدار مقراً له أثناء ولايته مكة المكرمة، ولذلك كانت تعرف على الدوام بدار الإمارة، فلما استبدلها هارون الرشيد بدارٍ أخرى عرفت بدار الإمارة أيضاً(٨٢).

ويضعف الفاكهي الرواية التي تذكر أن جزءاً من دار الندوة حُوِّل إلى سجن عرف بسجن عارم في خلافة عبدالله بن الزبير، إذ رأى أن الرواية الصحيحة هي التي تذكر أن سجن عارم كان يقع دُبُرَ دار الندوة(٨٣).

وكما سبق ذكره، فإن هارون الرشيد استبدل دار الندوة بأخرى، هي دار بني خلف الخزاعيين. ولا تقدم المصادر تفاصيل عن حادثة الشراء هذه من حيث القيمة والتاريخ وغير ذلك.

---

(٧٨) ابن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٢٠٣ - ٢٠٤.

(٧٩) الأزرقي: أخبار مكة، ج١، ص٢٦٩ - ٢٧٠. الفاسي: شفاء الغرام، ج٢، ص١٦٧، ابن فهد: إتحاف الورى، ج٢، ص٣٤ - ٣٥.

(٨٠) ولي مكة أميران يعرف كلّ واحد منهما بابن هشام المخزومي في العصر الأموي، وهما الأخوان إبرهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي وأخوه محمد بن هشام، ولم تحدد المصادر أيهما الذي ورد في الخبر. الفاسي: العقد الثمين، ج١، ص٣٨٢ - ٣٨٥، ج٣، ص٢٦٧ - ٢٧٠.

(٨١) الفاكهي: أخبار مكة، ج٢، ص١٦٠.

(٨٢) الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص١١٠.

(٨٣) الفاكهي: أخبار مكة، ج٣، ص٣٤١.

وقد تأثرت وظيفة دار الندوة تبعاً لهذا الاستبدال، فأضحى جزء منها يكرى للغرباء والمجاورين، واتخذ الجزء الآخر مربضاً لدواب ولاة مكة، ثم سكنها بعد ذلك عبيد ولاة مكة من السودان وغيرهم[٨٤].

ويبدو أن هذا الوضع استمر في دار الندوة حتى عهد الخليفة العباسي المأمون، حيث يذكر الفاكهي أنه أول من خرب دار الندوة[٨٥]، فلعله يرمي بذلك إلى هجرها تماماً، وتحولها إلى موضع تلقى فيه القمائم، ويتوضأ فيه الحجاج[٨٦].

نهاية دار الندوة

يتضح مما سبق أن المطاف انتهى بدار الندوة لتتحول إلى موضع يتوضأ فيه الحجاج، ومرمى للقمائم والقاذورات، بل ترتب على هذا الإهمال أن امتد الخراب إلى معظمها، وانهدمت أجزاء منها. وطال ضررها المسجد الحرام، فإذا جاء المطر سال الماء منها حتى يدخل من بابها المطل على المسجد الحرام، محملاً بما فيها من الأوساخ والقمائم؛ فيتأذى منها المسجد وجيرانه ومرتادوه من المعتمرين والحجاج[٨٧].

وفي سنة (٢٨١هـ/ ٨٩٤م) استعمل على بريد مكة رجل من أهلها وصفته المصادر بأنه ذو فطنة وحسبة، على علم بأحوال المسجد الحرام ومكة المكرمة دون أن تُعرّف به على الإطلاق. فكتب إلى عبيدالله بن سليمان[٨٨] وزير الخليفة المعتضد العباسي[٨٩] يشرح له ما آل إليه

---

(٨٤) الأزرقي؛ أخبار مكة، ج٢، ص١١٠.
(٨٥) الفاكهي؛ أخبار مكة، ج٣، ص٣١١.
(٨٦) الأزرقي؛ أخبار مكة، ج٢، ص١١٠.
(٨٧) المصدر السابق، ج٢، ص١١٠.
(٨٨) عبيدالله بن سليمان بن وهب، وزير الخليفة المعتضد، توفي سنة ثمان وثمانين ومئتين للهجرة. الكتبي؛ محمد بن شاكر، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ج٢، ص٤٣٤ - ٤٣٦.
(٨٩) أحمد بن طلحة بن جعفر بن محمد الخليفة المعتضد، كان ذا سطوة، وشجاعة، ورأي، توفي سنة (٢٨٩هـ/ ٩٠١م)، ومدة خلافته عشر سنوات. الفاسي؛ العقد الثمين، ج٣، ص٥١ - ٥٢. ابن دقماق إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي؛ الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، مكة، ص١٣٠ - ١٣٣.

حال دار الندوة، ويوصي بأن تضم للمسجد الحرام توسعة له ومرفقاً للحجاج، مبيناً أن أجر ذلك سيكون عظيماً، وأنها مكرمة لم تتهيأ لأحد من الخلفاء من بعد الخليفة المهدي العباسي. كما بين أن بالحرم خراباً كثيراً يحتاج إلى إصلاح، وطلب أيضاً من أمير مكة عج بن حاج[٩٠]، ومن قاضيها محمد بن المقدومي[٩١]، أن يكتبا بمثل ما كتب به، فعرضت المكاتبات على الخليفة، فأمر بإنفاذ ذلك، وخصص ما يحتاجه من الأموال التي حملت إلى قاضي بغداد يوسف بن يعقوب[٩٢]، فأنفذ بعضها إلى مكة سفاتج[٩٣]، وأنفذ بعضها الآخر مع ابنه عبدالله عند ذهابه للحج مصطحباً معه رجلاً من بني أسد بن خزيمة يدعى أبا الهياج عمير - وقيل عميرة - بن حيان الأسدي - لعله كان معماراً - وتصفه المصادر بأن له "أمانة ونية حسنة"، وعندما غادر عبدالله بن يوسف مكة إلى بغداد ترك مع أبي الهياج أعواناً وعمالاً، ويبدو أنه أشرف على اختيارهم دون أن تحدد المصادر هل هم من مكة أم من خارجها؟[٩٤].

---

(٩٠) عج بن حاج مولى الخليفة المعتضد العباسي، اختلف في مدة ولايته على مكة المكرمة، ولعلها كانت من سنة (٢٨١هـ/ ٨٩٤م) إلى سنة (٢٩٥هـ/ ٩٠٧م). الفاسي؛ العقد الثمين، ج٦، ص٥٧ - ٥٨.

(٩١) محمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر المقدومي، قاضي مكة، كان على قضاء مكة سنة (٢٨٠هـ/ ٨٩٣م)، ولا تعرف مدة ولايته. المصدر السابق، ج١، ص٣٧٨.

(٩٢) يوسف بن يعقوب بن إسماعيل الأزدي البصري، كان قاضياً عفيفاً نزيهاً، توفي سنة (٢٩٧هـ/ ٩٠٩م). البغدادي؛ تاريخ بغداد، ج١٤، ص٣١٠ - ٣١٢.

(٩٣) السفاتج، يقال: سفتج بالنقد: أي: عمل سفتجة، وهي أن يعطي آخر مالاً، ولهذا الآخر مال في بلد المعطي؛ فيوفيه إياه هناك، فيستفيد أمن الطريق، والجمع سفاتج وسفاتيج، واللفظ فارسي معرب. التنوخي: المحسن بن علي، الفرج بعد الشدة، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ص١٩٦ - ١٩٨.

(٩٤) الأزرقي؛ أخبار مكة، ج٢، ص١١٢. ويلحظ أن الخبر هنا ورد في كتاب الأزرقي، حاشية محمد بن نافع الخزاعي على الكتاب عن دار الندوة. انظر: مقدمة المحقق، الأزرقي، المصدر السابق، ج١، ص١٧. وقد كانت وفاة الأزرقي قبل الزيادة في سنة (٢٤٤هـ/ ٨٥٨م). انظر: محمد الحبيب الهيلة: التاريخ والمؤرخون بمكة من القرن الثالث الهجري إلى القرن الثالث عشر جمع وعرض وتعريف، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م، ص١٥. وانظر أيضاً: الفاسي؛ شفاء الغرام، ج١، ص٣٦٣، ابن فهد: إتحاف الورى، ج٢، ص٣٥١.

وشرع هؤلاء في عمل التوسعة: فنظفوا المكان، وأزالوا دار الندوة، وأنشؤوا في موضعها مسجداً بأساطين، وطاقات، وأروقة مسقفة بالساج المزخرف والمذهب، ووصلت بالمسجد الكبير من خلال اثني عشر باباً، نصفها كبير وفتحاتها متسعة، والأخرى صغيرة قليلة الاتساع[٩٥]. وتم الفراغ من هذه الأعمال في ثلاث سنوات[٩٦]؛ أي: في سنة (٢٨٤هـ/ ٨٩٧م).

موقع دار الندوة

يذكر الكردي أن الناس اختلفوا في تحديد موضع دار الندوة، وانقسموا إلى ثلاثة آراء، وهي على النحو الآتي:

الأول: إن مكان دار الندوة، هو موضع المقام الحنفي.

الثاني: إن مكانها لا يعرف بالضبط، ولكنها كانت واقعة بين المقام الحنفي، ورواق باب الزيادة.

الثالث: إن مكانها رحبة باب الزيادة بما في ذلك الحصباء والرواق[٩٧].

اختار الكردي الرأي الثالث مستنداً على الأدلة الآتية:

أولاً: إن موضع المقام الحنفي يلاصق المطاف، وبالتالي يكون قريباً من الكعبة، فلو كانت دار الندوة في موضعه لهدمت ضمن الدور التي أدخلت في المسجد الحرام في التوسعات الأولى التي حدثت في زمن عمر بن الخطاب أو عثمان بن عفان أو عبدالله بن الزبير رضي الله عنهم.

ثانياً: إن المؤرخين لم يذكروا أن دار الندوة وقعت ضمن الزيادة التي حدثت للحرم الشريف في عهد الخليفة المهدي العباسي.

---

(٩٥) الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٣٦٣.

(٩٦) ابن فهد: إتحاف الورى، ج٢، ص٣٥٢.

(٩٧) الكردي: محمد بن طاهر، تحقيق أثري عن موضع دار الندوة، مجلة المنهل، المجلد العاشر، ج١١، ١٢، شهري ذي القعدة وذي الحجة، ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م، ص٣٧١ - ٣٧٢.

ثالثاً: إن إدخال دار الندوة في المسجد الحرام تم على يد أمير المؤمنين المعتضد بالله العباسي سنة (٢٨١هـ/ ٨٩٤م) وعمارته تعرف بالندوة نفسها نسبة لهذه الدار، في حين أنه في عمارة المهدي السابقة لهذه العمارة لم يطرأ عليها أي تغيير يذكر.

رابعاً: إن هذه الدار هي التي كانت معروفة منذ زمن قريش في الجاهلية، فلما صارت موضعاً للقمائم والقاذورات رفعت المكاتبات التي توصي بضمها للمسجد[٩٨].

ويختم الكردي أدلته قائلاً: "فلا يعقل أن يكون محل الندوة هو مكان مقام الحنفي الملتصق بالمطاف، وأن تلقى القمائم هناك عند الكعبة المشرفة، بينما موضع المقام الحنفي هو الزيادات التي أدخلت في المسجد الحرام في زمن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما، ثم اتسع المسجد الحرام، وصار على هيئة التربيع في زمن المهدي المذكور...: فعلم مما ذكرناه أن محل دار الندوة التي أدخلها المعتضد بالله في المسجد الحرام هو رحبة باب الزيادة بما فيه من الأروقة والحصباء، والله تعالى أعلم"[٩٩].

وموقف الكردي يماثل رأي المؤرخ حسين باسلامة في أن موقع دار الندوة رحبة باب الزيادة مع بابها بما تشمله من الأروقة والحصوة، معللاً ذلك بأنها لو كانت في موضع المقام الحنفي لأزيلت في التوسعات المبكرة، مؤكداً أن رأيه هذا قال به المؤرخون المكيون الثقات، مثل: الأزرقي، والفاكهي، والفاسي، وغيرهم[١٠٠].

وموقف المؤرخين الكريمين من نفي ما يقال من أن موقع دار الندوة هو موقع المقام الحنفي صائب يستند إلى تصور صحيح، إذ إنه يبتعد

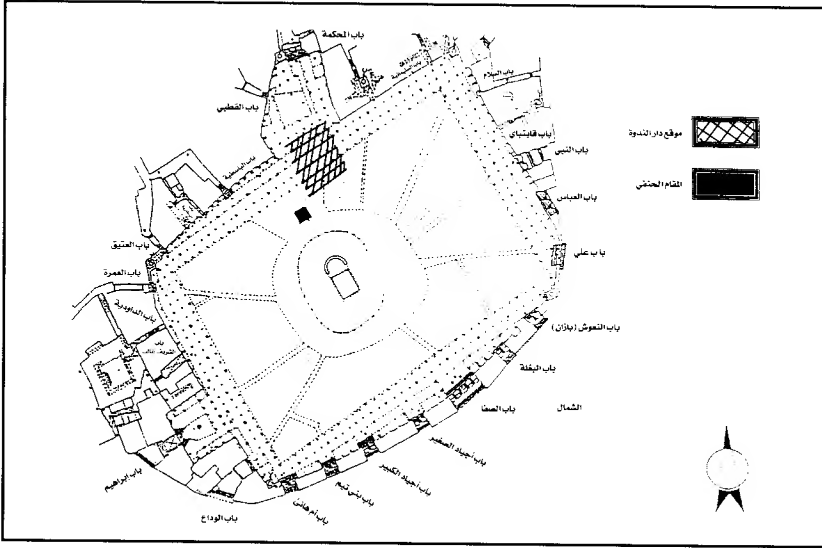
---

(٩٨) الكردي: التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، الطبعة الأولى، مكة المكرمة، ١٣٨٥هـ، ج٢، ص٨١.

(٩٩) المصدر السابق، ج٢، ص٨١ – ٨٢.

(١٠٠) باسلامة: حسين عبدالله، تاريخ عمارة المسجد الحرام بما احتوى من مقام إبراهيم وبئر زمزم والمنبر وغير ذلك، الطبعة الثالثة، جدة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص٥٤ – ٥٥.

عن موقع الزيادة التي تمثل مؤشراً أكيداً لموقع دار الندوة. كما أن الربط بينهما يجعل مساحة الدار تمتد من المقام إلى الزيادة شاملة إياها بالكامل، وهذا تصور لا يمكن القبول به؛ إذ إن الدار في هذه الحالة تشغل مساحة كبيرة (انظر الشكل الآتي).



موقع دار الندوة كما يتصوره الباحث
على خريطة هيئة المساحة المصرية، ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢م

ومن المستبعد أن تكون العمارة المكية في العصر الجاهلي قد بلغت بها القدرة إلى بناء دار بهذه المساحة الكبيرة، كما أن الإمكانات المادية، والمستوى الحضاري لم يكن ليتيح للمكيين الوصول إلى مثل ذلك المستوى من فن المعمار ومن فنون البناء. ولذلك كانت مبانيهم على الإجمال بسيطة ومتواضعة(١٠١). أما بالنسبة لرأييهما من أن دار الندوة كان موضعها حيث زيادة الندوة، ففيه نظر، ولا يمكن قبوله للأسباب الآتية:

---

(١٠١) عن عمارة المسكن المكي انظر: جواد علي: المفصل، ج٤، ص ٢٢.

أولاً: إن المصادر التاريخية تذكر صراحة أنه ترتب على توسعة أبي جعفر المنصور للمسجد الحرام سنة (١٣٧هـ/ ٧٥٤م) ضم معظم دار الندوة إليها(١٠٢). وهذا خلاف الرأي القائل بأنه لم يدخل منها شيء.

ثانياً: يتفق كل من الأزرقي والفاكهي على أن باب دار الندوة الأصلي كان يقع في وسط صحن المسجد الحرام، وتحديداً في منتصف المسافة الواقعة بين المطاف والرواق(١٠٣). ومقصدهما هنا واقع المسجد الحرام بعد عمارة الخليفة المهدي العباسي سنة (١٦٤هـ/ ٧٨٠م)، والتي اتخذ فيها المسجد شكلاً يميل إلى التربيع(١٠٤). إذ لم تطل بهما الحياة إلى زمن التوسعة التي ضُمّت فيها دار الندوة للمسجد الحرام سنة (٢٨١هـ/ ٨٩٤م) حيث كانت وفاة الأزرقي سنة (٢٤٤هـ/ ٨٥٨م)، أمّا الفاكهي فلم تتجاوز حياته نهاية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي(١٠٥). ولا تتوافر عنه معطيات تؤكد أنه شهد هذه الزيادة.

ثالثاً: عندما يتحدث الأزرقي عن دار الندوة في عصره، فإنه يقول عنها: "وقد بقيت منها بقية قائمة إلى اليوم على حالها"(١٠٦).

---

(١٠٢) الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص٧٢ - ٧٣، ٢٥٣. الفاكهي: أخبار مكة، ج٢، ص ١٦٤. ابن فهد: إتحاف الورى، ج٢، ص١٧١ - ١٧٢. ويرد في حاشية محمد بن نافع الخزاعي على الأزرقي، أنه اقتطع أجزاء من دار الندوة في الزيادة التي شهدها الحرم قبل زيادة أبي جعفر المنصور. انظر: الأزرقي، المصدر السابق، ج٢، ص ١٠٩، وهذا يتعارض مع ما ورد عند الأزرقي أو الفاكهي وغيرهما من المصادر المعتمدة التي لم تشر إلى ذلك على الإطلاق، بل إنه يرد في هذه الحاشية أن هناك زيادة في الحرم قام بها سليمان بن عبدالملك، وهو لم يرد أيضاً في هذه المصادر أو غيرها. انظر: الأزرقي، المصدر السابق، ج٢، ص٧١ - ٧٢. الفاكهي: أخبار مكة، ج٢، ص١٦١ - ١٦٢. فوزية حسين مطر: تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف، الطبعة الأولى، جدة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص٩٨ - ١٢٧.

(١٠٣) الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص٧٠ - ٧١، الفاكهي: أخبار مكة، ج٢، ص١٦٠.

(١٠٤) وللمزيد عن التوسعات العباسية للمسجد الحرام. انظر: فوزية مطر: تاريخ عمارة الحرم المكي، ص١٣٠ - ١٥٩.

(١٠٥) الحبيب الهيلة: التاريخ والمؤرخون، ص١٥، ٢١.

(١٠٦) الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص٢٣٥.

ومن الواضح أن الأزرقي يرمي بذلك إلى أن أجزاء من كتلة المبنى القديم ظلت باقية حتى عصره، وليس المقصود به كتلة المبنى الذي يشغل جميع مساحة الزيادة؛ لأنها تبلغ في أقصى اتساع لها (٣٧,١٠م × ٣٦,١٠م)[١٠٧]، وهذه مساحة كبيرة لا يحتمل أن تكون هي البقية القائمة التي يذكرها الأزرقي، وإنما تشمل إضافات وتوسعات شهدتها الدار في عهود مختلفة من العصر الإسلامي، كما هو موضح في ثنايا الحديث عن عمارتها في هذه الدراسة.

رابعاً: بالنسبة لما يذكره حسين باسلامة من إجماع المؤرخين على أن موقع دار الندوة هو الزيادة، فإن هذا لا يتفق مع ما ورد عند البعض منهم حول ذلك، فالأزرقي يذكر أنه بقيت منها أجزاء في عصره. كما أنه والفاكهي يتفقان على أن أجزاء كبيرة منها ضمت في توسعة المنصور كما سبق ذكره، في حين أن الفاسي يذكر أن ضم الدار للمسجد الحرام تم على مراحل[١٠٨]. ويعد النهرواني (النهروالي) والسنجاري أن هذه الدار كانت تمتد فيما بين المقام الحنفي والزيادة شاملة كلاً منهما[١٠٩].

يتضح مما سبق أن معظم دار الندوة ضم للمسجد الحرام في توسعة المنصور، وقد بقيت منها أجزاء تشكل قسماً من الزيادة، ومن المؤكد أنه القسم الجنوبي منها، وبالتالي كانت بقية كتلة المبنى تمتد جنوباً متجاوزة رواق الحرم وصولاً إلى منتصف المسافة بين الرواق والمطاف؛ حيث يوجد بابها الأصلي كما سبق أن ذكر، فهذا هو موقع دار الندوة الحقيقي. (انظر الشكل السابق).

---

(١٠٧) باسلامة؛ تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص٤٦.

(١٠٨) الفاسي؛ شفاء الغرام، ج١، ص٣٥ - ٣٦.

(١٠٩) النهرواني (النهروالي)؛ محمد بن أحمد بن محمد النهرواني، كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، تحقيق، هشام عبدالعزيز عطا، الطبعة الأولى، مكة المكرمة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص١٧٩. السنجاري؛ منائح الكرم، ج٢، ص١٨٢. وقد ذهب إلى هذا الرأي أيضاً أحمد السباعي؛ تاريخ مكة، ج١، ص١٨٦.

عمارة دار الندوة

لا تتوافر في المصادر التاريخية أي نصوص عن عمارة دار الندوة قبل الإسلام. وإن كان من المؤكد أنه كانت تتبعها ساحة كبيرة تربض فيها دواب القوافل التجارية، والأرجح أنها كانت تقع خلفها بعيداً عن الكعبة، حرمة وتقديراً لها. أما تخطيط المبنى فالراجح أنه لا يخرج في ذلك عن الأسلوب المتبع في العمارة المكية، حيث كانت البيوت تتكون من حجرات عدة، ولها بابان متقابلان، أحدهما للداخل والآخر للخارج[١١٠].

وتذكر عواطف سلامة أن مساحة هذه الدار كانت تبلغ (٧٠ × ٧٤) ذراعاً مربعاً تقريباً[١١١]، على أساس أنها أبعاد زيادة الندوة كما يذكرها حسين باسلامة[١١٢]. وقد سبق أن تبين أن موقع دار الندوة ليس في الزيادة؛ ولذلك لا يصح اعتماد هذه الأبعاد. كما أن المعطيات المتوافرة لا تمكن من تقديم تصور - ولو تقريبي - عن أبعادها رغم إمكانية تحديد موقعها.

يبدو أن هذه الدار شهدت بعض الإصلاحات، وربما بعض الإضافات في العصر الجاهلي، كما هي طبيعة حال المباني التي تستخدم لفترات طويلة من الزمن، فعند ظهور الإسلام كان قد مضى على إنشائها مئة وخمسون عاماً تقريباً.

أما في العصر الإسلامي فإن المصادر توفر مؤشرات يسيرة حول عمارة هذه الدار يعود أولها إلى عصر معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، حيث تذكر النصوص التاريخية أنه عمَّرها بعد أن اشتراها[١١٣]، ويظهر أن المقصود بذلك ترميمها، وإجراء بعض الإضافات والتعديلات المناسبة لوظيفتها الجديدة.

---

(١١٠) جواد علي؛ المفصل، ج٤، ص٥٢.

(١١١) عواطف سلامة؛ قريش، ص٨١.

(١١٢) حسين باسلامة؛ تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص٦٢٧.

(١١٣) الأزرقي؛ أخبار مكة، ج٢، ص١١٠.

ومن المؤكد أن دار الندوة قد شهدت تعديلات مهمة ورئيسة في العصر العباسي، خاصة بعد توسعة أبي جعفر المنصور، والتي ترتب عليها ضم معظمها للمسجد الحرام، بحيث يتم تعويض الأجزاء المفقودة بأجزاء أخرى، فجرى التوسع شمالاً فيما عرف بعد ذلك بزيادة دار الندوة، ولعل هذا التوسع تم في الساحة التي كانت مربض قوافل التجارة. فأضيفت للمتبقي من المبنى القديم وحدات ومرافق مختلفة جعلته يماثل القصور في عمارته، فأصبح له فناء واسع يتوسطه[١١٤]، وزود بمقاصير - حجرات تبنى في القصور -[١١٥] للرجال وأخرى للنساء[١١٦]؛ مما يدل على تحوله إلى قصر منيف يحتوي على القاعات والحجرات بالإضافة إلى المرافق المختلفة التي كانت تحتاجها القصور في ذلك العصر.

نتائج الدراسة

توصلت هذه الدراسة إلى عدد من النتائج:

أولاً: التعرف على أصل اسم (دار الندوة)، وأنها هي مسكن قصي بن كلاب، وهي أول دار تبنى في بطاح مكة.

ثانياً: رغم كون هذه الدار مسكناً لقصي بن كلاب، فقد وظِّفت لأمور تتعلق بإدارة شؤون مكة المكرمة وقبيلة قريش، وارتبطت هذه الوظائف برسوم معينة كان القرشيون يتمسكون بها ويحافظون عليها.

ثالثاً: بعد دخول الإسلام إلى مكة المكرمة، وانتشاره بين سكانها، وخضوع مكة لإدارة الدولة الإسلامية اختفت وظائف دار الندوة التي كانت تمارس فيها في العصر الجاهلي.

---

(١١٤) النهرواني: الإعلام، ص١٧٩.

(١١٥) عبدالرحيم غالب: موسوعة العمارة الإسلامية، عربي، فرنسي، إنجليزي، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص٤٠٤.

(١١٦) الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص١١٠.

رابعاً: أضحى لدار الندوة في العصر الإسلامي وظائف جديدة تقوم بها، حيث اتخذها الخلفاء مقراً لإقامتهم إذا قدموا إلى مكة المكرمة. كما أنها اتخذت مقراً لسكنى أمير مكة المكرمة، وكانت تعرف بدار الإمارة.

خامساً: تحديد موقع دار الندوة المختلف فيه، حيث كانت تشمل الجزء الجنوبي من الزيادة، وتمتد حتى تصل إلى منتصف المسافة بين الرواق والمطاف.

سادساً: أمكن من خلال هذه الدراسة التعرف على ملامح عامة عن عمارة دار الندوة، وما طرأ عليها من تطورات معمارية عبر العصور المختلفة.

موجز لتاريخ الوهابي

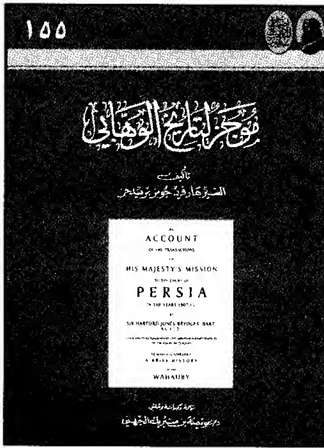
تأليف

السير هارفرد جونز بريدجز

ترجمة ودراسة وتعليق

د. عويضة بن متيريك الجهني

٣٠٨ صفحة



يتناول هذا الكتاب تاريخ الدولة السعودية الأولى، ويعرض ظهور الدعوة الإصلاحية، والحملات الخارجية التي هدفت لإسقاطها، ويخصص الحديث لمبادئ الدعوة ونظم الدولة السياسية والدينية والمالية والعسكرية، وتأتي أهمية الكتاب من معاصرة مؤلفه للأحداث، ولكونه يقدم رؤية أخرى عن تاريخ تلك الفترة.





ص.ب ٢٩٤٥ - الرياض ١١٤٦١ - المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٠١١٩٩٩/٢١٦٤ - فاكس ٤٠١٣٥٩٧
بريد الكتروني info@darah.org.sa

دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي بمكة المكرمة

دراسة تاريخية حضارية

أ. د. ناصر بن علي الحارثي
قسم التاريخ والحضارة الإسلامية - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة أم القرى

تكمن أهمية هذه الدراسة في إبراز دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي بصفتها أول مدرسة في الإسلام، وتحديد موقعها بصورة علمية دقيقة تستند على الخرائط القديمة والحديثة، فضلاً عن تتبع تاريخ عمارتها، ووصفها من الناحيتين التخطيطية والمعمارية، ووضع مساقط وقطاعات لها من خلال أوصاف المؤرخين والرحالة، كما تهدف هذه الدراسة إلى تصحيح بعض المعلومات التي وردت عند بعض المؤرخين والرحالة أيضاً، وذلك من خلال المحاور الرئيسة الآتية:

أولاً: اسم الدار

أول ما عرفت به هذه الدار من الأسماء "دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي"، نسبة إلى صاحبها زمن الرسول ﷺ الصحابي الجليل الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي(١) الذي يكنى أبا عبدالله، من قدماء الصحابة وكبارهم، وهو عبدمناف بن أسد بن عبدالله بن عمر

(١) أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد الأزرقي، أخبار مكة وما فيها من الآثار، تحقيق رشدي الصالح ملحس، ج٢، ط٣ (مكة المكرمة: مطابع دار الثقافة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ٢٦٠.

بن مخزوم[٢]، وأمه أميمة بنت الحارث بن حبالة بن عمير بن غشبان من خزاعة، وخاله نافع بن عبدالحارث الخزاعي عامل عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على مكة المكرمة[٣].

من السابقين إلى الإسلام، أسلم بعد عشرة أنفس[٤]، وقيل: أسلم بعد ستة أنفس[٥]، والرأي الأول هو الأرجح بإجماع عدد غير قليل من المؤرخين، وبذلك فهو يأتي في المرتبة الحادية عشرة بين السابقين إلى الإسلام. كان من أوائل المهاجرين إلى المدينة المنورة، وشهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ[٦].

---

(٢) انظر في ترجمته أيضاً: عبدالله بن هشام بن أيوب المعافري الحميري، السيرة النبوية، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبدالحفيظ شلبي، ج١، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ت)، ٢٦٩، ٢٧٠. أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي محمد البجاوي، ج١، ط١ (بيروت: دار الجيل، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ١٣١. وموفق الدين أبو محمد عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، التبيين في أنساب القرشيين، ط٢ (بيروت: عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ٣٨٨ – ٣٨٩. وعز الدين أبو الحسن علي بن محمد الجزري، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق وتعليق محمد إبراهيم البنا، ومحمد أحمد عاشور، ومحمود عبدالوهاب فايد، ج١، (القاهرة: دار الشعب، د. ت)، ٧٤، ٧٥. وابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، حقق أصوله، وضبط أعلامه، ووضع فهارسه علي محمد البجاوي، ج١، ط١ (بيروت: دار الجيل، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ٤٣-٤٥، وأبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق عبدالسلام محمد هارون، ط٣ (القاهرة: دار المعارف، ١٣٩١هـ/١٩٧١م)، ١٤٣. ومحمد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري المعروف بابن سعد، الطبقات، دراسة وتحقيق محمد عبدالقادر عطا، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م)، ١/١٨٣، ١٨٥. وأبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد الحسني المكي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق فؤاد سيد، ج٣، (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م)، ٢٨٠-٢٨٢.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ٣/١٨٣. والأندلسي، جمهرة، ١٤٣.

(٤) ابن عبدالبر، الاستيعاب، ١/١٣١. والمقدسي، التبيين، ٣٨٩. والجزري، أسد الغابة، ١/٧٤، ٧٥. وابن حجر، الإصابة، ١/٤٣-٤٥. والفاسي، العقد، ٣/٤٣-٤٥.

(٥) ابن سعد، الطبقات، ٣/١٨٣.

(٦) ابن عبدالبر، الاستيعاب، ١/١٣١. والمقدسي، التبيين، ٣٨٨، ٣٨٩. والجزري، أسد الغابة، ١/٧٤-٧٥. وابن حجر، الإصابة، ١/٤٣-٤٥. وابن سعد، الطبقات، ١/١٨٣. والفاسي، العقد، ٣/٢٨٠.

اختلف في وفاته، فقيل: توفي يوم توفي أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقيل: توفي سنة خمس وخمسين بالمدينة المنورة، وهو ابن بضع وثمانين، وأوصى أن يصلي عليه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وكان بالعقيق، فقال مروان: أيحبس صاحب رسول الله ﷺ لرجل غائب، وأراد الصلاة عليه، فأبى عبيدالله بن الأرقم ذلك على مروان، وقامت بنو مخزوم معه، فجاء سعد، فصلى عليه(٧).

وتجدر الإشارة إلى أن الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي رضي الله عنه وهو في حياته قد تصدق بهذه الدار على أبنائه، ففي رواية أوردها ابن سعد عن يحيى بن عمران بن عثمان بن الأرقم عن جده عثمان قال(٨): "... فقرأت نسخة صدقة الأرقم بداره: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما قضى الأرقم في ربعه ما حاز الصفا إنها محرمة بمكانها من الحرم لا تباع ولا تورث، شهد هشام بن العاص وفلان مولى هشام بن العاص".

ومن أسماء هذه الدار "دار الإسلام"، فهي حصنه الأول، ومعقل قادته العظام، وإشادة بما لها من الفضل في نصرة الدين، وحماية الدعوة الإسلامية وهي ما تزال في مهدها، وإيواء أبطالها الأربعين، فكان اسماً جديراً بماضيها المجيد، وأثرها في خدمة الإسلام(٩)، فقد كان الرسول ﷺ يدعو فيها إلى الإسلام، ويجتمع فيها سراً بالمسلمين خوفاً من أن تنال منهم قريش، يشرح لهم فيها الإسلام، وتعاليمه السمحة، ويؤدي بهم فيها الصلاة، ويعلمهم ما

كان دار السلام اسماً جديراً بماضيها المجيد. وأثرها في خدمة الإسلام

(٧) ابن عبدالبر، الاستيعاب، ١٣٢/١. والمقدسي، التبيين، ٣٨٩. والجزري، أسد الغابة، ٧٥/١. وابن حجر، الإصابة، ٤٤/١. وابن سعد، الطبقات، ١٨٥/٣. والفاسي، العقد، ٢٨١/٣، ٢٨٢.

(٨) ابن سعد، الطبقات، ١٨٤/٣.

(٩) السيد أحمد العربي، "دار الأرقم بن أبي الأرقم أول طلبة في الإسلام"، المنهل، مج٦، ع١١ (ذو القعدة ١٣٦٥هـ)، ٥٤٠.

أنزل عليه من القرآن بوساطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، فقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يجتمعون في الشعاب؛ فيصلون فيها سراً، وحدث في السنة الرابعة من النبوة أن رآهم نفر من كفار قريش؛ فسبوهم وقاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص رجلاً، فسال دمه؛ مما حدا برسول الله ﷺ أن يتخذ هذه الدار مكاناً يجتمع فيه سراً بأصحابه بعد هذه الحادثة مباشرة حتى إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ذي الحجة من السنة السادسة من النبوة، وهذا يعني أن الاجتماعات السرية في هذه الدار دامت حوالي عامين، وربما يرجع السبب في اختيار هذه الدار مكاناً لاجتماع الرسول ﷺ بمن أسلم إلى انكفائها عن الكعبة المشرفة خلف الصفا، ولبعدها عن شعب بني هاشم.

وفيها أسلم من أعز الله به الإسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومنها خرج الرسول ﷺ والمسلمون في صفين، أحدهما فيه عمر، والآخر فيه حمزة رضي الله عنهما إلى الكعبة المشرفة بعد أن ظل المسلمون لا يجرؤون على الخروج إليها، ومنها صدح صوت الإسلام في وادي إبراهيم على مرأى ومسمع من المشركين[١٠].

ومن أسماء هذه الدار أيضاً "المختبأ"[١١]؛ لأن رسول الله ﷺ وصحابته الكرام كانوا يختبئون فيها عندما كانت الدعوة الإسلامية في مرحلتها السرية على النحو الذي أشرنا إليه آنفا.

ومن أسمائها "دار الخيزران"، نسبة إلى الخيزران زوجة المهدي وأم الخليفتين موسى الهادي وهارون الرشيد[١٢]؛ ذلك أن الخليفة

---

(١٠) انظر قصة إسلام عمر مفصلة في: ابن هشام، السيرة، ١/٣٦٧ - ٣٧٥.

(١١) علي بن عبدالقادر الطبري، الأرج المسكي في التاريخ المكي وتراجم الملوك والخلفاء، تحقيق أشرف أحمد الجمال، إشراف سعيد عبدالفتاح، ط١ (مكة المكرمة: المكتبة التجارية، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م)، ٧٠. وعبدالملك بن عبدالقادر بن علي المعروف بالطرابلسي، ملخص مناسك الحج ويليه دليل الآثار المطلوبة في مكة المحبوبة، ط١ (مكة المكرمة: مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ١٣.

(١٢) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٨، ط٢ (بيروت: دار سويدان، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م)، ٢٣٢.

العباسي أبا جعفر المنصور اشترى هذه الدار من أبناء الأرقم، ومنحها لولده المهدي، ثم أهداها المهدي لزوجته الخيزران[١٣]، فأعادت - رحمها الله - توظيف هذه الدار بجعلها مسجداً يصلى فيه[١٤]، واشترت دوراً حولها عرفت بدار الخيزران، وقد عد الفاسي دار الخيزران من أربطة مكة المكرمة[١٥]، إلا أن هذا لا يعني أن دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي التي أعيد توظيفها عام ١٧١هـ؛ لتصبح مسجداً بعد أن كانت دارا للسكنى قد قامت بدور الرباط الذي يسكنه الفقراء، وطلبة العلم، والغرباء، بل إن الرباط الذي عناه الفاسي يتمثل في الدور التي اشترتها الخيزران حول دار الأرقم.

وقد أحسن محمد الصباغ[١٦] حين ذكر أن هذه الدار - أي: دار الخيزران - عبارة عن دور عدة حول المختبأ (دار الأرقم)، الذي كان الرسول ﷺ والمسلمون يجتمعون فيه سراً قبل إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

كما أسماها المقدسي دار الأربعين[١٧]؛ لأن عدد الصحابة الذين كانوا يجتمعون فيها بلغ أربعين صحابياً[١٨].

---

(١٣) ابن سعد، الطبقات، ١٨٤/٣.

(١٤) الأزرقي، أخبار، ٢٠٠/٢.

(١٥) أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي المكي المالكي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، حققه ووضع فهارسه عمر عبدالسلام تدمري، ج١، ط١ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ٥٣٢.

(١٦) محمد بن أحمد الصباغ، تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام والمشاعر العظام، نسخة مصورة على ميكرو فيلم بمعهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، لوحة ١٦٧.

(١٧) شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر البنا، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط٢ (ليدن: ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م)، ٩٦.

(١٨) العربي، (دار الأرقم)، ٥٤٠.

ثانياً: موقع الدار

أجمع المؤرخون المكيون[١٩]، وكذلك الرحالة[٢٠] الذين زاروا مكة المكرمة على أن دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي تقع عند الصفا (لوحة رقم ٢)، فالأزرقي وهو أقدم مؤرخ مكي ذكرها في ربع آل الأرقم عند الصفا، وتفصلها عن المسجد الحرام طريق مسلوكة عرضها مئة ذراع واثنا عشر ذراعاً ونصف ذراع[٢١]، وزاد

---

(١٩) الأزرقي، أخبار، ٢/٢٠٠. وأبو عبدالله محمد بن إسحاق الفاكهي، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، دراسة وتحقيق عبدالملك بن عبدالملك بن دهيش، ج٤، ط٢ (بيروت: دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م)، ١٢. والفاسي، العقد، ١/٩٨. والفاسي، شفاء، ١/١٢٢. والنجم عمر بن فهد محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن فهد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق وتقديم فهيم محمد شلتوت، ج١، ط٢ (مكة المكرمة: مطابع جامعة أم القرى، إصدار: مركز البحوث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، سلسلة من التراث الإسلامي، الكتاب العشرون، د.ت)، ٢٦٧. ومحمد بن أحمد بن محمد النهروالي، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، تحقيق وتقديم: هشام عبدالعزيز عطا، إشراف: سعيد عبدالفتاح، ط١ (مكة المكرمة: المكتبة التجارية، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م)، ٣٩٢. والطبري، الإرج، ٧٠. وأحمد بن محمد بن أحمد الحضراوي المكي الهاشمي، كتاب العقد الثمين في فضائل البلد الأمين، تقديم وتحقيق وتعليق محمد زينهم محمد عزب، ط١ (بورسعيد: مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠١م)، ١١٥.

(٢٠) أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير، رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك المعروفة بـ: رحلة ابن جبير، ط٢ (بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٩٨٦م)، ١٢٩، ١٣٠. والقاسم بن يوسف التجيبي السبتي، مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق وإعداد عبدالحفيظ منصور، (ليبيا - تونس: الدار العربية للكتاب، د.ت)، ٣٣٦. وحمد الجاسر، ملخص رحلتي ابن عبدالسلام الدرعي المغربي، ط٢ (الرياض: دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ١٣٨. ومحمد لبيب البتنوني، الرحلة الحجازية، ط٣ (الطائف: مكتبة المعارف، د.ت)، ٥٥. وإبراهيم رفعت باشا، مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية محلاة بمئات الصور الشمسية، ج١، (بيروت: دار المعرفة، د.ت)، ١٩٢. ومحمد حسين هيكل، في منزل الوحي، ط٤ (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٧م)، ٢٣١ - ٢٣٤.

(٢١) الأزرقي، أخبار، ٢/١١٩، اختلف في تقدير الذراع، ففالتر هنتس قدره بـ ١٨٧ و٥٨ سم، وباسلامه قدره بـ ٥٦,٥سم، فالتر هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، ط١ (عمان: الجامعة الأردنية، ١٩٧٠م)، ٨٧. وحسين عبدالله باسلامة، تاريخ عمارة المسجد الحرام بما احتوى من مقام إبراهيم وبئر زمزم والمنبر وغير ذلك، ط٣ (جدة: تهامة، سلسلة الكتاب العربي السعودي رقم ١٩، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ٦٨.

الفاكهي على ذلك بأنها تقع خلف دار أحمد بن إسماعيل على الصفا[٢٢]، كما عدها مؤرخو مكة المكرمة حد المعلاة من شق مكة المكرمة الأيمن[٢٣].

وقد ظلت هذه الدار خارج المسجد الحرام؛ إذ كانت تشاهد على يسار الصاعد إلى الصفا من المسجد الحرام من الناحية الشرقية، وذكر الكردي[٢٤] أنها كانت تبعد عن الحافة الشرقية للمسعى مما يلي الصفا بمقدار ستة وثلاثين متراً باستقامة خط المشي، أو ثمانية وأربعين متراً إذا انعطف السالك ناحية الحارة التي كانت تقع بها الدار، ثم أدخلت في التوسعة السعودية الأولى للمسجد الحرام عام ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م؛ حيث هدمت في ٢٨/١٠/١٣٧٥هـ.

وأكد ذلك أيضاً السباعي[٢٥]، حيث ذكر أن هذه التوسعة شملت الدار، وحدد موضعها بأنه على بعد ثلاثين متراً من الباب الذي يخرج منه إلى عمارة الأوقاف الجديدة التي أزيلت أيضاً فيما بعد.

ومن خلال خريطة هيئة المساحة المصرية التي رسمت للمسجد الحرام والمنطقة المحيطة به، يتبين لنا أنها كانت تقع خارج المسجد على مقربة منه كما ذكر كل من الكردي والسباعي والبلادي، بين باب النعوش[٢٦]

---

(٢٢) الفاكهي، أخبار، ٢/٢٠٨.

(٢٣) الأزرقي، أخبار ٢/٢٦٦. والفاكهي، أخبار، ٢/٢٠٨. والفاسي، شفاء، ١/٣٣.

(٢٤) محمد طاهر الكردي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ج٢، ط١ (مكة المكرمة: مكتبة النهضة الحديثة، د. ت)، ٨٨.

(٢٥) أحمد السباعي، تأريخ مكة دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران، ط٧ (مكة المكرمة: مطابع الصفا، إصدار نادي مكة الثقافي، سلسلة رقم ٦، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م)، ١٥٧.

(٢٦) كان هذا الباب أول باب في الجدار الجنوبي للمسجد الحرام مما يلي الشرق، عرف منذ إنشائه في عهد الخليفة العباسي المهدي باسم: باب بني عائذ، ثم في القرن الخامس الهجري عرف باسم: باب الدقاقين، ثم عرف منذ العصر المملوكي حتى تم هدمه في التوسعة السعودية الأولى عام ١٣٧٥هـ باسم: باب بازان، ثم باب النعوش. طه عبدالقادر عمارة وعدنان محمد فائز الحارثي، دراسة تاريخ عمارة وأسماء أبواب المسجد الحرام، بحث غير منشور معهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحج بجامعة أم القرى (غير مؤرخ)، ٩٣، ٩٤.

وباب البغلة[٢٧]، حيث يصعد إليها الخارج من باب البغلة مخترقاً بداية المسعى مما يلي الصفا سالكاً زقاقاً ضيقاً ينعطف منه يساراً إلى الدار (اللوحتان ٢، ٤).

وقد ذكر البلادي أن مكانها كان في ساحة وقوف السيارات شرق المسعى، وذكر أيضاً أنه رأى في مكانها علامة لا يعرفها أكثر الناس اليوم[٢٨] (لوحة رقم٣).

ثالثاً: تاريخ عمارتها

بنيت هذه الدار قبل الإسلام، وكانت سكناً لآل الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، ثم لما آلت إلى الخيزران أمرت بتحويلها إلى مسجد عام ١٧١هـ/٧٨٧م[٢٩]، إحياء لذكرى هذه الدار بجوار دورها التي اشترتها؛ لذلك عرفت باسم "دار الخيزران" من باب إطلاق الجزء على الكل، حيث أشارت المصادر التاريخية إلى قيام الخيزران بشراء عدد من الدور حولها، فهدمتها، وبنتها داراً لها[٣٠]، وبذلك فإن دار الأرقم ليست دار الخيزران، بل كانت بجوارها[٣١].

وقد وهم بعض المؤرخين[٣٢] أن دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي دخلت في توسعة المسجد الحرام التي تمت في عهد الخليفة العباسي

---

(٢٧) يقع هذا الباب بالجدار الجنوبي للمسجد الحرام غربي باب النعوش، عرف منذ إنشائه في عهد الخليفة العباسي المهدي باسم: باب بني سفيان بن عبدالأسد، وذكره الأزرقي باسم باب السمانين، كما ذكره ناصر خسرو باسم: باب الفساتين، وربما قصد السفيانيين، ولكن الكلمة حرفت للغته الأعجمية، كما سمي: باب الخياطين في القرن الثامن الهجري إلا أن اسم باب البغلة أصبح علماً عليه منذ العصر المملوكي حتى تم هدمه في التوسعة السعودية الأولى للمسجد الحرام عام ١٣٧٥هـ. طه وآخر، دراسة، ٩٧، ٩٨.

(٢٨) عاتق بن غيث البلادي، معالم مكة التاريخية والأثرية، ط١ (مكة المكرمة: دار مكة للنشر والتوزيع، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ٢٧٢.

(٢٩) الأزرقي، أخبار، ٢/٢٠٠.

(٣٠) النهروالي، الإعلام، ١٤٧.

(٣١) السباعي، تأريخ، ١٥٧، حاشية ٥.

(٣٢) أبو الفداء إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، جـ١٠، ط٣ (د. م: د. ن، ١٩٧٩م)، ١٦٤. والكردي، التاريخ، ٢/٨٨.

المهدي فيما بين عامي ١٦٤- ١٦٧هـ/ ٧٨٠-٧٨٣م، وهو وهم في غير محله، للأسباب الآتية[٣٣]:

١ - إجماع المؤرخين على أن دار الأرقم كانت في الصفا، وموضعها لم يمتد إليه المسجد الحرام إلا في التوسعة السعودية الأولى عام ١٣٧٥هـ.

٢ - إنه لو أدخلت هذه الدار في توسعة المهدي للمسجد الحرام لأشار إلى ذلك المؤرخون، الذين أفاضوا في الحديث عن الدور التاريخية الأخرى التي أدخلت في التوسعة آنذاك، وهي أقل أهمية منها.

٣ - إن توسعة المهدي شملت باب إبراهيم وباب الزيادة، ولم يزد في المسجد حتى زمن الفاسي أي زيادة في الجهة التي تقع فيها الدار، وحتى الزيادة العثمانية في هذه الجهة لم تمتد إلى الدار.

٤ - إن الخيزران بنتها مسجداً عام ١٧١هـ/٧٨٧م، والتوسعة المشار إليها تمت فيما بين عامي ١٦٤-١٦٧هـ/٧٨٠-٧٨٣م، فلو أدخلت الدار في التوسعة فكيف تبنيها مسجداً، وقد أصبحت جزءاً من المسجد الحرام.

٥ - ما بين الصفا والمسجد الحرام في صدر الإسلام كان مسيلاً ووادياً نازلاً، إذاً كان الصفا منفصلاً عن المسجد الحرام، وهذا يعني أن دار الأرقم كانت على قمة جبل الصفا، وبينها وبين المسجد الحرام مسيل الوادي.

وقد جددت عمارة هذا المسجد مرات عدة خلال العصر الإسلامي، حيث جدد عمارته أمين الملك مصلح[٣٤]، وأشار البتنوني إلى أن هذا التجديد سُجِّل على حجر من الصوان نقش عليه

(٣٣) الكردي، التاريخ القويم، ٢/٨٨، ٨٩.

(٣٤) لم أعثر له على ترجمة.

ما نصه(٣٥): "بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ [النور: ٣٦] . هذا مختبأ رسول الله ودار الخيزران، وفيها مبتدأ الإسلام. أمر بتجديده الفقير إلى مولاه أمين الملك مصلح ابتغاء ثواب الله ورسوله. والله لا يضيع أجر المحسنين".

كما جدد عمارته الوزير الجواد جمال الدين شرف الإسلام أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور الأصبهاني عام ٥٥٥هـ/١١٦٠م(٣٦)، وقد سُجِّلت هذه العمارة على حجر من الصوان مثبت في الركن الشرقي من هذه الدار، نصه(٣٧): "بسم الله الرحمن الرحيم. هذا مختبأ رسول الله ﷺ المعروف بدار الخيزران. أمر بعمله وإنشائه العبد الفقير لرحمة الله تعالى جمال الدين شرف الإسلام أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور الأصبهاني وزير الشام والموصل. الطالب الوصول إلى الله تعالى. الراجي رحمته. أطال الله في الطاعة بقاه. وأنَالَه في الدارين مناه سنة خمس وخمسين وخمسمائة".

ووصفها ابن جبير بقوله(٣٨): "دخلنا دار الخيزران التي كان منها منشأ الإسلام، وهي بإزاء الصفا، ويلاصقها بيت صغير عن يمين الداخل إليها كان يسكنه بلال رضي الله عنه، ويدخل إليها على حلق كبير شبيه

(٣٥) البتنوني، الرحلة، ٥٥، وقد جانب الصواب الفاسي في قراءة هذا النقش؛ مما أوقعه في خطأ نسبة هذه العمارة إلى شخصية غير الشخصية التي سجل النقش باسمها.

(٣٦) الكردي، التاريخ القويم،٩١/٢. وجمال الدين أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور الأصبهاني وزير الآتابك صاحب الموصل، عُرف بالجواد، لجوده، وكان كثير الصلات والبر والصدقات، له مآثر كثيرة بمكة المكرمة والمدينة المنورة، توفي عام ٥٥٩هـ. شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، إشراف: شعيب الأرناؤوط، ج٢٠، ط٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ٣٤٩، ٣٥٠. والفاسي، العقد، ١١٢/٢ - ٢١٧.

(٣٧) البتنوني، الرحلة، ٥٥.

(٣٨) ابن جبير، رحلة، ١٣٠.

الفندق، قد أحدقت به البيوت للكراء من الحاج، والدار المكرمة دار صغيرة يجدها الداخل إلى الحلق المذكور عن يساره، وهي مجددة البناء أنفق في بنائها جمال الدين، المذكور أثره الكريم في هذا المكتوب، نحو الألف دينار، نفعه الله بما أسلفه من العمل الصالح. وعن يمين الداخل الدار المباركة باب يدخل منه إلى قبة كبيرة بديعة البناء، فيها مقعد النبي ﷺ، والصخرة التي كان إليها مستنده، وعن يمينه موضع أبي بكر الصديق، وعن يمين أبي بكر موضع علي بن أبي طالب، والصخرة التي كان إليها مستنده هي داخلة في الجدار كشبه المحراب".

وكذلك عمرها الخليفة العباسي أبو جعفر المستنصر بالله[٣٩]، فيما بين عامي ٦٢٤-٦٣٤هـ/١٢٢٦-١٢٣٦م على الأرجح[٤٠]، كما عمرته مجاورة يقال لها: مرة العصماء[٤١]، ثم عمر أيضاً في عام ٨٢١هـ/١٤١٨م بأمر السلطان المملوكي المؤيد شيخ المحمودي، وكان المتولي على هذه العمارة علاء الدين علي بن ناصر محمد بن الصارم المعروف بالقائد[٤٢].

وقد وصف الفاسي هذه العمارة بقوله[٤٣]: "وطول هذا المسجد ثمانية أذرع إلا قيراطين، وعرضه سبعة أذرع وثلث، الجميع بذراع الحديد"، (اللوحتان ٥، ٦).

---

(٣٩) الكردي، التاريخ القويم، ٢/٩١.

(٤٠) بنيت هذا الرأي استنادًا إلى العثور على عدد من النقوش الكتابية التي تؤرخ لأعمال معمارية أمر بها هذا الخليفة في الكعبة المشرفة، والمطاف، ومسجد البيعة، وأعلام عرفة، وعين زبيدة وغيرها. انظر: الفاسي، شفاء، ١/١٦٤، ٤٢١، ٤٨٧، ٥٥٤.

(٤١) الفاسي، شفاء، ١/٤٤٠.

(٤٢) الفاسي، شفاء، ١/٤٤٠. وابن فهد، إتحاف، ٣/٥٦١.

(٤٣) الفاسي، شفاء، ١/٤٤٠.

أما في العصر العثماني فقد عمر هذا المسجد مرتين: الأولى في عهد السلطان مراد خان[٤٤]، والثانية في عهد السلطان أحمد خان، بمباشرة إبراهيم آغا المعمار، حيث ذكر السنجاري في أخبار سنة ١١١٢هـ/١٧٠٠م[٤٥]: "دخل مكة إبراهيم آغا المعمار...، ومعه ثلاثة أوامر لمولانا الشريف وللقاضي وللباشا صاحب جدة، ومضمونها: النظر والالتفات إلى عمارة دار الخيزران وغيرها...، وشرع المعمار في عمله، وأشرف على دار الخيزران...".

وذكر الطبري - أن إبراهيم آغا المعمار - "جددها من أساسها إلى فوقها، وجعل فيها قبة عظيمة وطاجنين [قبتان صغيرتان]، وطبطب سطحها بالنورة"[٤٦]. (اللوحتان ٧، ٨).

وقد سُجِّل تاريخ هذه العمارة في لوح تأسيسي من الرخام، كان مثبتاً فوق الباب، مكون من ستة أسطر، بخط ثلث جميل، كل سطرين منها متقابلان على غرار كتابة الأبيات الشعرية، وذلك على النحو الآتي[٤٧]:

السطر الأول:

هذه دار سيدنا أرقم رضي الله عنه المسماة

بدار الخيزران وقد دخلت في حوزة ميراث شيخ الإسلام

---

(٤٤) الكردي، التاريخ، ٢/٩١.

(٤٥) علي بن تاج الدين بن تقي الدين السنجاري، منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم، ج٥، تحقيق ملك محمد خياط، ط١ (مكة المكرمة: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، ١٤١٩هـ/١٩٨٩م)، ٢٦١، ٢٦٢.

(٤٦) محمد بن علي بن فضل المحبي الطبري، إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن وولاية قتادة، مخطوط مصور على ميكرو فلم، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، رقم ١٩٠٣، ورقة ١٤١. والكردي، التاريخ القويم، ٢/٩١.

(٤٧) الكردي، التاريخ القويم، ٢/٨٨. وحسين عبدالعزيز حسين شافعي، الرباط في مكة المكرمة منذ البدايات وحتى نهاية العصر المملوكي دراسة تاريخية حضارية، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، جامعة أم القرى (١٤١٦هـ/١٩٩٥م)، ١٨.

السطر الثاني:

حلال معضلات الأنام باهر الفضل طاهر الأصل

السيد فيض الله ابن السيد محمد حبيب المفتي

السطر الثالث:

بالسلطنة العثمانية أدامه الله تعالى بالفضائل

السنية في سنة ثلث عشرة ومائة وألف

وقد ذكر المكي أن هذا المسجد جددت عمارته في عهد السلطان العثماني محمود خان الثاني بن عبدالحميد الأول (١٢٢٣-١٢٥٥هـ/١٨٠٨-١٨٣٩م)[٤٨]، وأورد أيضاً أن السلطان العثماني عبدالحميد خان الثاني بن عبدالمجيد الأول (١٢٩٣-١٣٢٧هـ/١٨٧٦-١٩٠٩م) قد وجه الوالي عثمان نوري باشا بترميم هذا المسجد، حيث رممه ضمن مجموعة من المباني التي رُمِّمت في مكة المكرمة[٤٩].

وقد وصف هذه العمارة الرحالة الذين زاروا مكة المكرمة في أواخر العصر العثماني، فقد وصفها البتنوني بقوله[٥٠]: "وباب هذه الدار يفتح إلى الشرق، ويدخل منه إلى فسحة سماوية طولها ثمانية أمتار في عرض أربعة، وعلى يسارها إيوان مسقوف على عرض نحو ثلاثة أمتار، وفي وسط الحائط التي على يمينها باب يدخل منه إلى غرفة طولها ثمانية أمتار في عرض نحو نصف ذلك مفروشة بالحصير"، ثم وصفها إبراهيم رفعت باشا بوصف لا يخرج عن الوصف السابق[٥١].

---

(٤٨) محمد أمين المكي، الآثار المبرورة لسلاطين آل عثمان في الحرمين الشريفين، ترجمة سعد الدين أونال، نسخة غير منشورة من الترجمة محفوظة في معهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحج بخط اليد، ٣١.

(٤٩) المكي، الآثار، ٣.

(٥٠) البتنوني، الرحلة، ٥٥.

(٥١) باشا، مرآة، ١/١٩٢ - ١٩٣.

أما هيكل فقال عنها[٥٢]: "ودار الأرقم أو الخيزران من أشهر هذه الدور وأثبتها نسباً، وهي تثير في النفس ذكرى من أروع الذكريات في حياة محمد عليه السلام، فقد كان يجلس في هذه الدار يوماً مع أصحابه والإسلام لا يزال في أول عهده، وقريش تحاول القضاء عليه...؛ وقد ذهبت إلى زيارتها على مقربة من الصفا، وانعطفت إليها في طريق من حارة الباب، وأشار الشيخ عبدالحميد إلى باب مغلق، وقال لي: هذه هي الدار".

وفي عهد الملك عبدالعزيز - رحمه الله - أعيد توظيف هذه الدار بجعلها مدرسة للحديث عرفت باسم مدرسة دار الحديث المكية[٥٣].

وهكذا اتضح لنا من خلال هذه الدراسة أن هذه الدار اشتراها من أبناء الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، ثم منحها لابنه المهدي، الذي أهداها بدوره لزوجته الخيزران، ثم انتقلت ملكيتها بعد ذلك إلى عدد من الملاك، من أبرزهم شخصية تدعى غسان بن عباد، ثم السلطان العثماني مراد خان، ثم الشيخ فيض الله المفتي بالسلطنة العثمانية، ويعكس تعدد الملكيات لهذه الدار أهميتها ومكانتها في نفوس المسلمين، وعلى الرغم من ذلك فإن هذه الدار اشتهرت خلال القرون الإسلامية المختلفة باسم "دار الخيزران".

كما اتضح لنا من خلال هذه الدراسة أهمية هذه الدار، والأدوار الدينية والتاريخية والحضارية التي أدتها، مما أسهم في نشر الإسلام، فإلى جانب دورها الأصلي المتمثل في اتخاذها مسكناً لآل الأرقم،

---

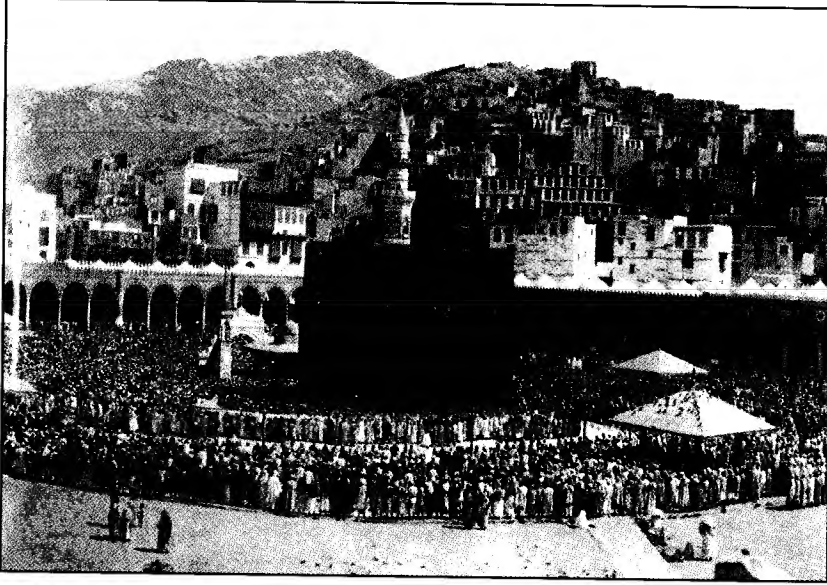
(٥٢) هيكل، في منزل الوحي، ٢٣٣.

(٥٣) إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم الحربي، كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق حمد الجاسر، ط١ (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، سلسلة نصوص وأبحاث جغرافية تاريخية عن جزيرة العرب رقم ٩، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ٤٧٩ حاشية ١ المحقق. وقد هدمت القبة عام ١٣٤٣هـ. الكردي، التاريخ، ٩١/٢، نقلاً عن: الغازي في إفادة الأنام.

فقد قدر لها أن لا تكون كذلك بعد ذلك، حين أصبحت قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة المنورة مدرسة ومسجداً ومقراً لنشر الدعوة إلى الإسلام، ثم في لحظة تاريخية حاسمة أخذت دوراً إعلامياً خطيراً، تمثل في خروج الرسول ﷺ وأصحابه منها، لإعلان الإسلام والمجاهرة بالدعوة إليه، دون خوف أو وجل بعد إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم بعد ذلك أدت دور المسجد، ثم دور المدرسة التي يدرس فيها الحديث النبوي الشريف، ثم بعد إدخالها في المسجد الحرام في التوسعة السعودية الأولى أصبحت جزءاً منه، فهي إذاً بيتٌ من بيوت الله على هذه الأرض رغم تنوع وظائفها التي مرت بها.

ملاحق البحث

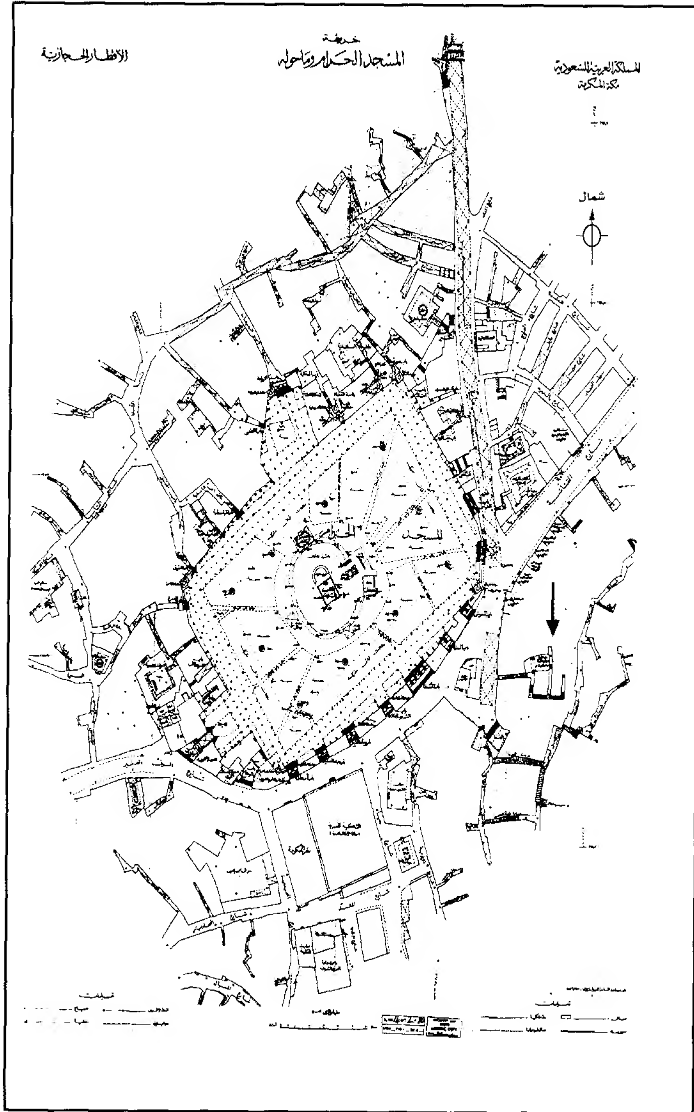
اللوحات



لوحة رقم (١)

منظر عام لمنطقة الدار قبل إدخالها في التوسعة السعودية الأولى للمسجد الحرام،

نقلاً عن: فيسي وغرانت، المملكة، ص ٣٠.



لوحة رقم (٢)

خريطة للمسجد الحرام والأحياء المحيطة به.

وتلحظ دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي في الجهة الجنوبية الشرقية من المسجد،

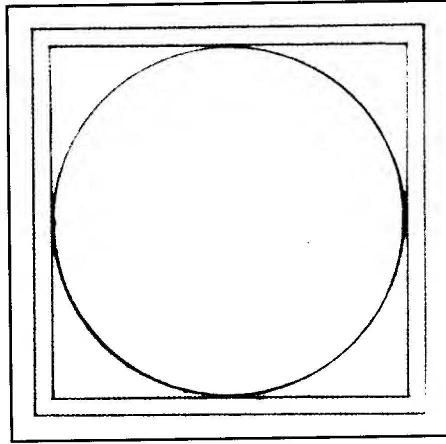
نقلاً عن: خريطة هيئة المساحة المصرية.

لوحة رقم (٣)

مسقط أفقي للمسجد الحرام، وقد وقع الباحث دار الأرقم بن أبي الأرقم على المسقط، والخريطة نقلاً عن: محمد إلياس عبدالغني، تاريخ مكة قديماً وحديثاً ص ٨٨.

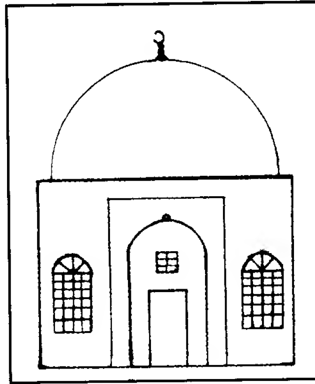
لوحة رقم (٤)

مسقط أفقي لموقع دار الأرقم مكبر من خريطة هيئة المساحة المصرية.



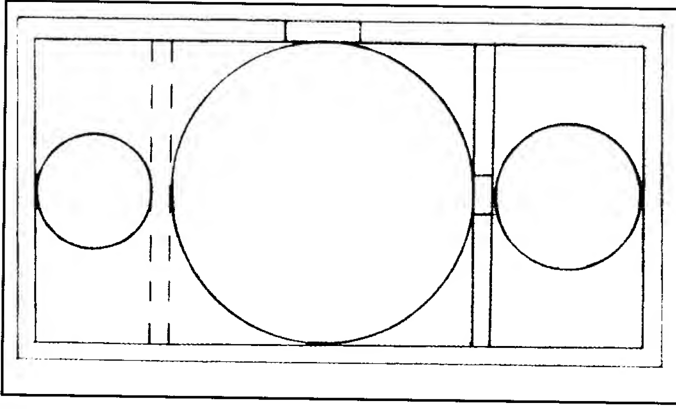
لوحة رقم (٥)

مسقط أفقي تخيلي من عمل الباحث لدار الأرقم كما وصفها ابن جبير والفاسي.



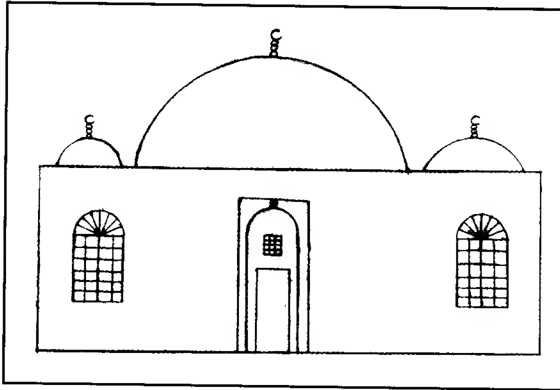
لوحة رقم (٦)

قطاع رأسي تخيلي من عمل الباحث لواجهة مدخل دار الأرقم في عهد الفاسي.



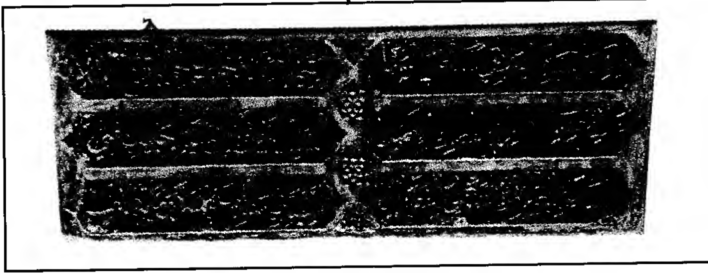
لوحة رقم (٧)

مسقط أفقي تخيلي من عمل الباحث لدار الأرقم بعد إتمام عمارتها عام ١١١٣هـ.
كما وصفها البتنوني وإبراهيم باشا.



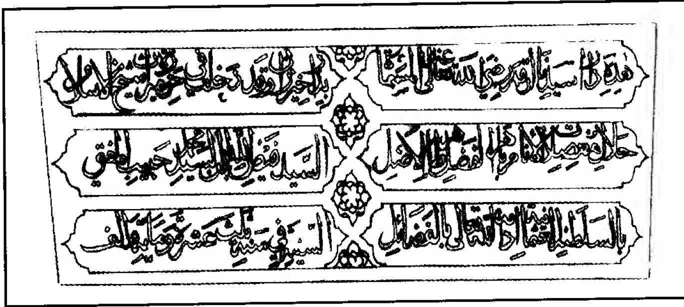
لوحة رقم (٨)

قطاع رأسي تخيلي من عمل الباحث لواجهة مدخل دار الأرقم بعد إتمام عمارتها عام ١١١٣هـ.



لوحة رقم (٩)

صورة النقش التأسيسي الذي يؤرخ لعمارة دار الأرقم عام ١١١٣هـ، نقلاً عن: الكردي، كتاب التاريخ القويم، ٨٨/٢.



لوحة رقم (١٠)

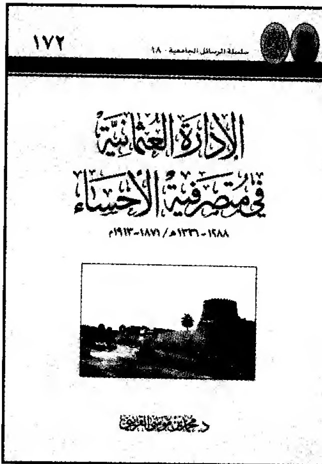
تفريغ النقش الكتابي السابق.

الإدارة العثمانية
في متصرفية الأحساء
(١٢٨٨-١٣٣١هـ/ ١٨٧١-١٩١٣م)

تأليف

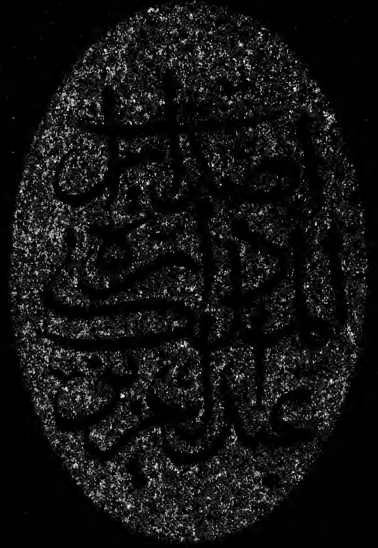
د. محمد بن موسى القريني

٣٩٠ صفحة



يقدم هذا الكتاب رصدًا تاريخيًا للإدارة العثمانية في الأحساء وما جاورها في أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع عشر الميلادي، وأوائل القرن الرابع عشر الهجري/ العشرين الميلادي.

وقد رصد أبعاد تلك الإدارة العثمانية والمشكلات التي واجهتها سلطاتها، ومدى قدرتها على مواجهة تلك المشكلات، وتطرق أيضًا إلى شؤون السكان وحال الإدارة العثمانية في الأحساء وما جاورها.





ص.ب ٢٩٤٥ - الرياض ١١٤٦١ - المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٠١١٩٩٩/٤٠١٢١٦٤ - فاكس ٤٠١٣٥٩٧
بريد الكتروني info@darah.org.sa

النشاط التجاري والحرفي في مكة في العصر الأموي من خلال كتاب الفاكهي:

أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه

د. إبراهيم بن عبدالعزيز الجميح
قسم التاريخ - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة الملك عبدالعزيز

احتوى كتاب الفاكهي: "أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه" على معلومات تجارية وحِرفية قيّمة تعكس تنوع وغِنى النشاط التجاري والحِرفي في مكة في العصر الأموي، ولكن من هو الفاكهي؟ وما أهمية كتابه لتاريخ مكة؟

التعريف بالفاكهي:

الفاكهي: هو أبو عبدالله محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي المكي[١]. ونسبة الفاكهي - كما يذكر الزبيدي - إليه أتت من الفاكه بن عمرو بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مُدركة بن إلياس بن مُضر بن نزار بن معد بن عدنان[٢].

---

(١) انظر: محمد بن أحمد بن علي الفاسي المكي (ت٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م)، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، د. ت، ج١، ص٤١٠؛ انظر أيضاً: حاجي خليفة (ت ١٠٦٧هـ/ ١٦٥٦م)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت: دار الكتب، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ج١، ص ص ٢٧٧ - ٢٧٨. ج٦، ص١٧.

(٢) محمد بن مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م)، تاج العروس من جواهر القاموس، بيروت: دار مكتب الحياة، د. ت، ج٩، ص٤٠٤؛ وانظر نسب الفاكه بن عمرو بن الحارث عند: هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت ٢٠٤هـ/ ٨١٩م)، جمهرة النسب، تحقيق ناجي حسن، ط١، بيروت: عالم الكتب، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص١٦٥.

غير أن المعلومات المتاحة عن الفاكهي شحيحة، بل نادرة إذ تقتصر - المصادر المتاحة - على ذكر اسمه وكتابه عن تاريخ مكة والفترة الزمنية التي عاش فيها[٣] دون تفصيل وتوضيح عن سيرة وحياة هذا المؤرخ.

فلا تحتوي كتب التراجم المتاحة على ترجمة وافية عن حياة هذا المؤرخ الجليل، ولا يُعرف متى وُلِدَ، وكيف نشأ وتعلم، ولا متى تُوفي بالتحديد، وليست هناك معلومات متوافرة وكافية عن حياته الاجتماعية وظروفها.

وقد أشار إلى هذه الحقيقة الفاسي مستغرباً من إهمال العلماء لترجمته قائلاً: "وإني لأعجب من إهمال الفضلاء لترجمته فإن كتابه يدل على أنه من أهل الفضل، فاستحق الذكر، وأن يوصف بما يليق به من الفضل والعدالة، أو الجرح، وحاشاه من ذلك..."[٤].

وقد أورد عبدالملك بن عبدالله بن دهيش - محقق كتاب الفاكهي[٥] - معلومات قيمة عن حياة الفاكهي، فمن خلال دراسة شيوخ الفاكهي وسنوات وفاتهم استنتج عبدالملك بن دهيش بأن

---

(٣) انظر هنا: محمد بن إسحاق بن النديم (ت بعد ٣٨٥هـ/ ٥٩٥م)، الفهرست، بيروت: دار المعرفة، د. ت، ص١٥٩؛ محمد بن عبدالرحمن السخاوي (ت٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م)، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص ١٣٢.

(٤) الفاسي، العقد الثمين، ج١، ص٤١١.

(٥) حقق الدكتور عبدالملك بن عبدالله بن دهيش كتاب الفاكهي (ت بعد ٢٧٢هـ/ ٨٨٥م) "أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه" في ستة أجزاء. وقد صدرت الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ثم صدرت الطبعة الثانية في ستة أجزاء أيضاً سنة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م عن دار خضر للطباعة والنشر في بيروت، وهي الطبعة المعتمدة في هذه الدراسة. ولابد من الإشارة هنا إلى أن كتاب الفاكهي قد قام بتحقيقه الدكتور فواز بن علي الدهاس، وحصل به على درجة الدكتوراه من جامعة إكستر في عام ١٤٠٤هـ الموافق ١٩٨٣م بعنوان:

A critical Edition of KITAB AKHABAR MAKKAH by Al-Fakihi, Abu Abdullah, Muhammad b. Ishaq b. al-Abbas (died c. 279-289).

وهي رسالة علمية غير منشورة.

الفاكهي ولد بين السنوات التالية ٢١٥ -٢٢٠هـ/ ٨٣٠ -٨٣٥م(٦). أما فرانز روزنثال (F. Rosenthal) - الذي أورد للفاكهي مقالة في الموسوعة الإسلامية - فيعتقد أن ولادة الفاكهي كانت سنة ٢٢٥هـ/ ٨٤٠م(٧).

وعلى هذا الأساس يمكن القول: إن ولادة الفاكهي كانت في السنوات العشر ما بين سنة ٢١٥هـ/ ٨٣٠م وسنة ٢٢٥هـ/ ٨٤٠م.

أما عن نشأة الفاكهي ورحلاته طلباً للعلم، فالمؤكد أنه نشأ في مكة، وقابل علماءها، والتقى علماء المسلمين الوافدين لمكة للحج والعمرة والزيارة(٨).

غير أن الفاكهي لم يكتف بمقابلة العلماء في مكة والأخذ عنهم، بل رحل في طلب العلم والمعرفة إلى بعض المراكز الثقافية الإسلامية السائدة في تلك الفترة التاريخية كبغداد والكوفة وصنعاء. فقد أشار في كتابه إلى أنه رحل إلى بغداد، وسمع عن أحد علمائها، وهو أحمد بن عبدالجبار العُطارِدي (ت٢٧٢هـ/ ٨٨٥م)(٩). وكذلك سافر إلى الكوفة، وسمع عن أحد علمائها وهو إسماعيل بن محمد الأحمسي(١٠). كما رحل إلى صنعاء فسمع وأخذ العلم عن بعض علمائها، ومنهم محمد بن علي النجار(١١).

---

(٦) انظر هنا: الفاكهي، أخبار مكة، مقدمة المحقق، ج١، ص ١١.

(7) F. Rosenthal, Al-FAKIHI, Encyclopedia of Islam, New Ed. Leiden :Ej. Brill, Luzac: London, 1960, vol., 2, p 757.

انظر أيضاً: حمد الجاسر "مكة وأخبارها" تأليف: محمد بن إسحاق الفاكهي، مجلة العرب، ج١١ -١٢، السنة ٨، جماديان ١٣٩٤هـ/ حزيران - تموز (يونية - يولية) ١٩٧٤م، ص ص ٨٠٧ -٨٠٨.

(٨) الفاكهي، أخبار مكة، مقدمة المحقق، ج١، ص ١١.

(٩) الفاكهي، أخبار مكة، مقدمة المحقق، ج١، ص١٢؛ ج٢، ص ٨. وانظر ترجمة أحمد العُطاردي عند: أحمد بن حجر العسقلاني، (ت٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)، تهذيب التهذيب، ط١، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، ج١، ص ص ٣٦ -٣٧.

(١٠) الفاكهي، أخبار مكة، مقدمة المحقق، ج١، ص١٢؛ ج٣، ص ١٣٤.

(١١) الفاكهي، أخبار مكة، مقدمة المحقق، ج١، ص١٢؛ ج٢، ص ١٣٥.

ويظهر من خلال ما كتبه الفاكهي أنه من رجالات مكة الذين يُوضعون في الحسبان، ودلت بعض الأخبار التي أوردها على أنه عَلَم من أعلام مكة المميزين، خاصة بعد نضوجه العلمي، فقد وصف في كتابه أخبار مكة مواضع وأماكن لا تتاح لطالب علم عادي أن يصلها أو يراها، كما روى حوادث ومراسلات بين الأمراء لا يمكن الاطلاع عليها إلا للخاصة(١٢).

ويستنتج من حادثة رواها الفاكهي في كتابه سنة ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م على مكانته الاجتماعية العالية، وتميزه العلمي، وعلاقته الودية مع أمراء مكة وولاتها في تلك الفترة التاريخية، فقد ذكر أن حجبة البيت دخلوا على والي مكة علي بن الحسن وهو - أي الفاكهي - عنده، فكلموه في المقام وتجديده؛ لأنه ضعف ووهن، فأجابهم إلى طلبهم(١٣).

ويتميز الفاكهي -كمؤرخ- بالدقة فقد روى عن أئمة وحفظة مشهورين بالإتقان، والعناية بالحديث وروايته، ومن هؤلاء محمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ/ ٧٨٠م)، ومسلم بن الحجاج (ت٢٦١هـ/ ٨٧٤م)، وأبي حاتم الرازي (ت٣٢٧هـ/ ٩٣٨م) وغيرهم(١٤). حتى إن محقق المخطوطة - عبدالملك بن دهيش - يكاد يجزم بأن الأحاديث الموضوعة في كتاب الفاكهي لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة؛ وهذا أكبر دليل على تميز هذا المؤرخ الجليل(١٥).

كما روى الفاكهي - أيضاً - عن العديد من الصحابة والتابعين المشهورين بالتصنيف في الحديث والأخبار والأنساب وغيرها من العلوم الإسلامية. ومن هؤلاء: عبدالله بن عمرو بن العاص (ت ٦٥هـ/ ٦٨٤م)، وجابر بن عبدالله الأنصاري (ت ٧٨هـ/ ٦٩٧م)، والحسن بن أبي الحسن

---

(١٢) الفاكهي، أخبار مكة، مقدمة المحقق، ج١، ص ١٢.

(١٣) الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص ٤٤٧؛ وانظر أيضاً: مقدمة المحقق، ج١، ص ص ١٢ -١٣.

(١٤) الفاكهي، أخبار مكة، مقدمة المحقق، ج١، ص ١٤.

(١٥) الفاكهي، أخبار مكة، مقدمة المحقق، ج١، ص ٥٠.

البصري (ت ١١٠هـ/ ٧٢٨م)، وغيرهم[١٦]. ويظهر من إسناد روايات الفاكهي مدى استقلالية هذا المؤرخ وجهده في جمع مادته العلمية[١٧].

أما عن وفاة الفاكهي فلم تحدد المصادر وكتب التراجم المتاحة سنة وفاته بالتحديد، ناهيك عن إعطاء ترجمة وافية له، فالفاسي الذي قدم ترجمة مختصرة ولا تغني - عن الفاكهي - يقول: "وما عرفت متى مات إلا أنه كان حياً في سنة اثنين وسبعين ومئتين [٢٧٢هـ/ ٨٨٥م]؛ لأنه ذكر فيها قضية تتعلق بالمسجد الحرام، وما عرفت من حاله سوى هذا"[١٨].

والمرجح أن سنة وفاة الفاكهي تنحصر بين سنة ٢٧٢هـ/ ٨٨٥م وسنة ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م. كما استنتج روزنثال، وكذلك محقق مخطوطة الفاكهي عبدالملك بن دهيش، من روايات ذكرها الفاكهي في كتابه[١٩].

وعلى الرغم من إهمال أصحاب التراجم سيرة الفاكهي، إلا أن ذلك لا يقلل بأي حال من قيمة كتابه.

أهمية كتاب الفاكهي:

يعد كتاب الفاكهي: "أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه"، من أهم الكتب التاريخية التي تناولت أخبار مكة الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والأدبية منذ العصر الجاهلي وحتى أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي من العصر العباسي، فقد أورد الفاكهي في هذا الكتاب الموسوعي معلومات قيمة تتناول بتفاوت فيما بينها جميع تلك النواحي.

---

(١٦) الفاكهي، أخبار مكة، مقدمة المحقق، ج١، ص ص ٦٠ -٦١. هذا وقد أورد محقق كتاب الفاكهي عبدالملك بن دهيش مبحثًا خاصًا لموارد كتاب الفاكهي أورد فيه أهمهم. انظر: الفاكهي، أخبار مكة، ج١، ص ص ٥٩ -٦٠.

(17) Rosenthal, Al-Fakihi, E.I, vol..2, p. 757.

(١٨) الفاسي، العقد الثمين، ج١، ص ٤١١؛ الفاكهي، أخبار مكة، مقدمة المحقق، ج١، ص ٣١.

(١٩) انظر: Rosenthal, Al-Fakihi, E.I, vol.,2, p. 757.؛ الفاكهي، أخبار مكة، مقدمة المحقق، ج١، ص ص ٣١ -٣٢؛ وانظر: حاجي خليفة، كشف الظنون، ج١، ص ص٢٧٧ - ٢٧٨؛ الجاسر، مكة وأخبارها، ص٨٣٧.

ومن هنا فكتاب الفاكهي من كتب التاريخ المحلي الشامل الذي لم يقتصر على جانب واحد، بل يظهر من اختيار الفاكهي عنوانه، وهو "أخبار مكة" دقة في التعبير تنطبق على الكتاب الذي يهدف به الفاكهي إلى تعريف المسلمين بتاريخ مكة(٢٠).

كما تكمن أهمية كتاب الفاكهي في النصوص الكثيرة التي حفظها الفاكهي من كتب مفقودة(٢١). حيث إن ضخامة حجم هذا الكتاب، ومنهجه الموسوعي الشامل، الذي سار عليه الفاكهي في تأليفه، جعلته يتوسع في المصادر التي اعتمدها، من المعارف المتداولة في زمانه، ويبقي على العديد من النصوص المفقودة محفوظة في هذا الكتاب(٢٢). وهي نصوص لا تقتصر على تاريخ مكة والمسجد الحرام، بل تتناول الحديث الشريف والآثار، والسيرة والمغازي(٢٣).

وبالإضافة إلى إبقاء الفاكهي على النصوص الحديثية والتاريخية والأدبية من الضياع، فقد استفاد من كتابه كثير من المؤرخين ومن هؤلاء أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي المتوفى سنة ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م في كتابه "المناسك"(٢٤)، وأبو عبيد البكري المتوفى سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م في كتابه "معجم ما استعجم"(٢٥)، وغيرهما من المؤرخين والجغرافيين(٢٦).

---

(٢٠) انظر: فرانز روزنثال، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد العلي، ط٢، دمشق: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٣م. ص٢٢٤.

(٢١) الفاكهي، أخبار مكة، مقدمة المحقق، ج١، ص ص٣٣ -٣٤.

(٢٢) الفاكهي، أخبار مكة، مقدمة المحقق، ج١، ص ٣٤.

(٢٣) الفاكهي، أخبار مكة، مقدمة المحقق، ص ص ٣٤ -٣٥.

(٢٤) انظر: إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم الحربي (ت٢٨٥هـ/ ٨٩٨م)، كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق حمد الجاسر، ط٢، الرياض: منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤١٠هـ/ ١٩٨١م، ص٤٧٩.

(٢٥) انظر: أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز البكري (ت٧٨٤هـ/ ١٠٩٤م)، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٧١هـ/ ١٩٥١م، ج٢، ص ١٠٠٩.

(٢٦) انظر: الفاكهي، أخبار مكة، مقدمة المحقق، ج١، ص ص ٣٥ -٣٩.

وليس هناك أكثر دلالة على أهمية كتاب الفاكهي "أخبار مكة" إلا ما قاله الفاسي من أنه: "كتاب حسن جداً لكثرة ما فيه من الفوائد النفيسة"(٢٧).

كما يقرر الفاسي أيضاً بتواضع العلماء على قيمة المادة العلمية والتاريخية التي يحتوي عليها كتاب الفاكهي، وأنها تفوق في غزارتها ما يحتوي عليه كتابيه عن مكة، وما دوّنه أيضاً الأزرقي في كتابه "أخبار مكة"(٢٨). حيث يقول الفاسي: "وفي كتاب الفاكهي أمور كثيرة مفيدة جداً ليست من معنى تأليف الأزرقي، ولا في المعنى الذي ألفناه"(٢٩).

ولا غرو أن يحتفي الفاسي بكتاب أخبار مكة للفاكهي فقد حوى الكثير من المعلومات، وتضمن مادة علمية غزيرة عن مكة تتعلق بالأحوال والأوضاع الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والأدبية(٣٠)، وهي معلومات لا تقتصر على تاريخ مكة في العصر الأموي، بل في العصر الجاهلي وعصر الخلفاء الراشدين والعصر العباسي.

وقد تناولت هذه الدراسة جانباً مما حواه كتاب الفاكهي من معلومات اقتصادية تعكس النشاط التجاري والحِرفي في مكة في العصر الأموي.

---

(٢٧) الفاسي، العقد الثمين، ج١، ص٤١١.

(٢٨) انظر: أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد الأزرقي (ت٢٤٤هـ/ ٨٥٨م)، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي صالح ملحس، ط٣، مكة المكرمة: مطابع دار الثقافة، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

(٢٩) الفاسي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ، ج١، ص ٤؛ انظر أيضاً: الفاكهي، أخبار مكة، مقدمة المحقق، ج١، ص ٣٣.

(٣٠) انظر: الفاكهي، أخبار مكة، ج١، ص ص ٣٩ -٤٣، حيث أورد محقق الكتاب عبدالملك بن دهيش عرضًا لأهم ما احتوى عليه الكتاب من معلومات.

النشاط التجاري والحرفي في مكة في العصر الأموي

احتوى كتاب الفاكهي (أخبار مكة) على معلومات قيمة عن الأنشطة التجارية والحِرفية السائدة في مكة في العصر الأموي؛ تتعلق بالأسواق التجارية وأنواعها، والسلع المتداولة بها وتجارتها الخارجية وأسعار بعضها والعوامل المؤثرة فيها. وتجارة العقار ومردوده المالي والمتمثل في كِراء وبيع وشراء دور مكة. بالإضافة إلى الأنشطة الحِرفية والمهنية في مكة.

أولاً: الأسواق التجارية والسلع المتداولة

كان مركز النشاط التجاري في مكة يتمثل في الأسواق التجارية، وقد تعددت هذه الأسواق وتنوعت السلع التجارية بها. ويمكن تقسيم الأسواق التي أوردها الفاكهي في كتابه (أخبار مكة) إلى أسواق تجارية عامة تُباع فيها شتى السلع والبضائع، وإلى أسواق تجارية متخصصة حسب السلع والبضائع التي تُباع فيها.

١ - الأسواق التجارية العامة

أورد الفاكهي العديد من الأسواق العامة في مكة والتي تُباع فيها شتى السلع والبضائع.

ولعل من المفيد هنا الإشارة بأن هذه الأسواق التجارية كانت قديمة في مكة، واستمر أغلبها وتطور في العصر الأموي وما بعده، وتقلص دور بعضها، كما سيلحظ من خلال ربط هذه الأسواق بالظروف التاريخية والسياسية المصاحبة لها. وأهمها ما يأتي:

أ - سوق الحَزْوَرَة:

لا تحدد المصادر المتاحة سبب تسمية هذا السوق بسوق الحَزْوَرَة، ولعل اسمه أتى من حَزْر الطعام؛ أي: قدره، أو من حَزْرَة المال؛ أي: خياره(٣١).

---

(٣١) محمد بن مكرم بن منظور (ت٧١١هـ/ ١٣١١م)، لسان العرب، بيروت: دار صادر، د. ت، ج٤، ص ص ١٨٥ -١٨٦.

أو قد يكون اسمه أتى من موقعه الجغرافي، فالحَزْوَرَة: الرابية الصغيرة[٣٢].

وكانت الحَزْوَرَة سوق مكة القديم. يقول الفاكهي: "والحَزْوَرَة: كانت سوق مكة القديم، وكان فيه مجتمع الناس للبيع والشراء"[٣٣].

وتعد سوق الحَزْوَرَة من أقدم أسواق مكة التجارية، وقد استمرت إلى العصر الأموي. غير أن مكانة هذه السوق تدهورت بسبب ضم أرضه – الملاصقة للحرم – إلى توسعات المسجد الحرام، فدخلت هذه السوق في المسجد الحرام[٣٤]، حيث تمت إزالة ما بقي منه، وضم إلى التوسعة التي قام بها الخليفة العباسي المهدي (١٥٨ -١٦٩هـ/ ٧٥٥ – ٧٨٥م) في سنة ١٦٧هـ/ ٧٨٣م[٣٥].

ب - سوق الليل:

لا تشير المصادر المتاحة إلى سبب نسبة هذا السوق إلى الليل. ولعل تسميته بسوق الليل أتت من أن البيع يستمر فيه ليلاً، وهو من الأسواق القديمة بمكة، واستمر إلى العصر الأموي وما بعده. ويقع سوق الليل بجوار المسجد الحرام[٣٦]، حيث يطل أحد أبواب المسجد

---

(٣٢) ياقوت بن عبدالله الحموي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، معجم البلدان، بيروت: دار صادر ودار بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ج٢، ص ٢٥٥؛ ابن منظور، لسان العرب، ج٤، ص١٨٦.

(٣٣) الفاكهي، أخبار مكة، ج٤، ص ص ٢٠٦ -٢٠٧؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٩٤.

(٣٤) الفاكهي، أخبار مكة، ج٤، ص ٢٠٦؛ وقارن: ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص ٢٥٥.

(٣٥) الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص ١٧٣. ج٣، ص٢٧١؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ص ٦٢، ٨٠. وانظر أيضاً: عبدالعزيز بن صالح الهلابي، "الأسواق في مكة حتى نهاية العهد الأموي"، دراسات في تاريخ الجزيرة في العصر الأموي، جامعة الملك سعود، الكتاب الرابع، الرياض: النشر العلمي والمطابع، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص ١٩٩.

(٣٦) الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص ص ٨٨، ٢٠٣؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ص٩٧ -٩٨. وفي سوق الليل يوجد سوق الرقيق. انظر الفقرة الآتية: ٢ – الأسواق التجارية المتخصصة، ج – سوق الرقيق.

الحرام على هذا السوق[٣٧]. كما كانت بعض الدور تشرف على هذا السوق[٣٨]، ومنها الدار التي اشتراها الوزير العباسي يحيى بن خالد بن برمك (ت ١٩٠هـ/ ٨٠٦م)[٣٩].

ج - سوق ساعة:

لا تذكر المصادر المتاحة سبب نسبة هذا السوق إلى ساعة. ولعل نسبته إلى ساعة أتت من أساع ماله؛ أي: أضاعه[٤٠]. أو من ساعت الإبل؛ أي: أسيء حفظها فضاعت[٤١].

وسوق ساعة من الأسواق القديمة بمكة. وقد أشار إليه الفاكهي في تحديده لموقع البطحاء[٤٢] بمكة، فقال: "وحدّ البطحاء فيما يقال - والله أعلم -: ما بين دار ابن برمك[٤٣] إلى سوق ساعة، فذلك يقال له: البطحاء"[٤٤].

---

(٣٧) الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص ١٨٩.

(٣٨) الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٠٨؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٢٦٥. وانظر ترجمة يحيى بن خالد بن برمك عند: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، حوادث ووفيات ١٨١ -١٩٠هـ، تحقيق عمر عبدالسلام التدمري، ط١. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص ص ٤٤٨ -٤٥١. وليس لهذا الكتاب أجزاء، بل سنوات للعهود والحوادث، وسيشار إليه كما اعتمده المحقق.

(٣٩) الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٠٨؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٦٥.

(٤٠) ابن منظور: لسان العرب، ج٨، ص ص ١٦٩ -١٧٠.

(٤١) ابن منظور: لسان العرب، ج٨، ص ص ١٦٩ -١٧٠؛ وانظر أيضاً:

E.W. Lane, Arabic - English Lexicon, the Islamic Texts society, Cambridge: London, 1984, vol., 1, p. 1467.

(٤٢) البطحاء: أصل البطحاء السيل الواسع فيه دقاق الحصى، وهو مسيل وادي مكة. ومنه سميت قريش البطاح الذين ينزلون أباطح مكة وبطحاءها. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص ٤٤٦؛ ابن منظور، لسان العرب، ج٢، ص ص ٤١٢ -٤١٣.

(٤٣) ابن برمك: هو يحيى بن خالد بن برمك. انظر الهامش السابق رقم ٣٨.

(٤٤) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٧٥. وانظر: ملاحظات محقق كتاب الفاكهي عبدالملك بن دهيش في المصدر نفسه، هامش رقم ٢؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٢٤٢.

أما مكان سوق ساعة فلا يوضحه الفاكهي، غير أن الأزرقي يحدده عند ذكره لرباع[٤٥] أسيد بن أبي العيص بن أمية[٤٦]. حيث يقول: "ولهم دار الحارث، ودار الحصين اللذان بالمعلاة[٤٧] في سوق ساعة، عند فوّهة شعب ابن عامر"[٤٨].

وعلى هذا الأساس يمكن الاستنتاج أن سوق ساعة يقع عند مدخل شعب عبدالله بن عامر.

د - سُوَيْقة:

السُوَيِّقة التجارة، وهي تصغير السوق، وسميت بها لأن التجارة تُجلب إليها، ويتسوق الناس بها؛ أي: يبيعون ويشترون[٤٩].

وقد أشار الفاكهي إلى مكان السُوَيِّقة، فقال: "والسُوَيِّقة: على فم قُعَيقعان"[٥٠]. وقال أيضاً: "وعند السُويقة ردمٌ[٥١] عمله عبدالله

(٤٥) الرباع: جمع الرَّبْع، وهو المنزل ودار الإقامة. انظر: المبارك بن محمد الجزري بن الأثير (ت٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م)، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي. بيروت: المكتبة العلمية، د. ت، ج٢، ص١٨٩؛ ابن منظور، لسان العرب، ج٨، ص١٠٢.

(٤٦) انظر ترجمته عند: المصعب بن عبدالله بن المصعب الزبيري (ت٢٣٦هـ/ ٨٥٠م)، نسب قريش، تحقيق إ. ليفي بروفينسال، ط٣، القاهرة: دار المعارف، د. ت، ص ص ١٨٣ –١٨٧.

(٤٧) المعلاة: ما ارتفع عن المسجد الحرام. ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص ١٨٧. وحول تحديد المعلاة، انظر: الفاكهي، أخبار مكة، ج٤، ص ص ١٢٩ –١٣٠.

(٤٨) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٤٢. وشعب ابن عامر نسبة إلى عبدالله بن عامر بن كريز، كان شيخاً كريماً كثير المال توفي سنة ٥٩هـ/ ٦٧٨م. انظر ترجمته عند: محمد بن سعد بن منيع البصري (ت٢٣٠هـ/ ٨٤٤م)، الطبقات الكبرى، بيروت: دار صادر، د. ت، ج٥، ص ٤٤ –٤٩؛ انظر أيضاً: ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج٣، ص ص ١٧٨ –١٧٩؛ وانظر: الفاكهي، أخبار مكة، ج٤، ص ١٣٨؛ وانظر أيضاً ملحوظات محقق كتاب الفاكهي عبدالملك بن دهيش في المصدر نفسه، هامش رقم ٢.

(٤٩) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ج٢، ص٤٢٤؛ ابن منظور، لسان العرب، ج١٠، ص ص١٦٧ –١٦٨.

(٥٠) الفاكهي، أخبار مكة، ج٤، ص ١٧٤؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٨٤. وقُعَيقعان: اسم جبل بمكة. ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص ص ٣٨٩ –٣٨٠.

(٥١) الرَّدْمُ: هو السَّد. ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص ٢٣٦.

بن الـزبيـر – رضي الله عنـهـمـا – حين بنى داره بقُعَيقِعان ليـرد السيلَ..."[٥٢].

ويقع سُوَيّقة في الجزء الشمالي من المسجد الحرام، حيث يذكر الفاكهي أن في الجانب الذي يلي دار الندوة – وهو الشِق الشامي من الأبواب – ستة أبواب، والباب السادس منها هو باب دار شيبة بن عثمان (ت٥٩هـ/ ٦٧٨م)[٥٣]، فيه طريق يُسلك منه إلى السُويقة[٥٤].

٢ - الأسواق التجارية المتخصصة

تطرق الفاكهي إلى العديد من الأسواق التجارية المتخصصة في سلع وبضائع معينة. وأشار إلى التجارة الخارجية لبعض هذه السلع والعوامل المؤثرة في أسعارها، ويمكن تقسيم هذه الأسواق حسب السلع والبضائع التي تباع فيها، وهي كالآتي:

أ - أسواق المواد الغذائية:

تناول الفاكهي في كتابه الحديث عن العديد من الأسواق التجارية في مكة التي تباع فيها المواد الغذائية والأطعمة؛ كالتمور والحبوب والخضروات والفواكه والألبان والدهون. كما استعرض التجارة الخارجية في الحبوب والأطعمة وغيرها من السلع والعوامل المؤثرة في أسعارها.

فقد ذكر الفاكهي سوق التمّارين[٥٥]، بالإضافة لزقاق التمّارين[٥٦]، وهم الذين يجلبون التمر لبيعه والمتاجرة به[٥٧].

---

(٥٢) الفاكهي، أخبار مكة، ج٤، ص ١٧٥؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٨٤.

(٥٣) هو شيبة بن عثمان بن أبي طلحة بن عبدالله الحجبي، كان يتولى حجابة الكعبة. انظر ترجمته عند: ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج٢، ص ص ٥٢١ -٥٢٢.

(٥٤) الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص ص ١٩٦ -١٩٧؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٩٤.

(٥٥) الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٠٧؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٣٩. حيث يذكر سوق الرطب.

(٥٦) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ١٠٠؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٣٩.

(٥٧) ابن منظور، لسان العرب، ج٤، ص ص ٩٢ -٩٣.

وأشار إلى سوق الحناطين، وذكر باباً يؤدي إليهم من المسجد الحرام[٥٨]، وهم الذين يبيعون الحنطة؛ وهي: البُر[٥٩].

أما الخضروات كالبقول؛ وهي نوع من النبات الأخضر المأكول الذي ليس له سيقان عند حصاده[٦٠]. فذكر الفاكهي أن البقالين الذين يبيعون البقول لهم مكان عند باب للخارج من المسجد الحرام يؤدي إليهم اسمه "باب البقالين"[٦١]. كما أشار الفاكهي إلى الفواكه ومكان بيعها، فذكر سوق الفاكهة[٦٢].

ومن المنتوجات الغذائية التي ذكر الفاكهي سوقاً لها الدهون، فأشار إلى زقاق أصحاب الشيِرق[٦٣]، وهو زيت السمسم[٦٤].

ولم يغفل الفاكهي المكان الذي تُباع فيه المنتوجات الحيوانية كالألبان، فذكر اللبانين، حيث يقول: "ولبني مخزوم دار حُزابة[٦٥]، وهي الدار التي عند اللبانين بفوهة خط الخزامية[٦٦] شارعة في الوادي"[٦٧].

---

(٥٨) الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص ١٧٥؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٨١.

(٥٩) ابن منظور، لسان العرب، ج٧، ص ٢٧٨. والمرجح أن سوق الحناطين تُباع فيه جميع الحبوب. انظر: الهلابي، الأسواق في مكة، ص٢٠٢.

(٦٠) ابن منظور، لسان العرب، ج١١، ص ص ٦٠ -٦١.

(٦١) الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص ص١٧٣ -١٧٥؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ص٨٠ - ٨١.

(٦٢) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ١٠٠.

(٦٣) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ص٢٧٤، ٣١٦؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ص٢٣٤، ٢٥٦.

(٦٤) انظر: الزبيدي، تاج العروس، ج٢، ص٦٤.

(٦٥) دار حُزابة: لعلها نسبة إلى حُزابة بن معبد المخزومي. انظر ترجمته عند: الزبيري، نسب قريش، ص ٣٤٦.

(٦٦) خط الخزامية: لعله نسبة إلى بني مخزوم. وعن بني مخزوم انظر: الزبيري، نسب قريش، ص ص٢٩٩ -٣٤٦.

(٦٧) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٣٣٠؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٦٠.

والجدير بالملاحظة أن التجارة الخارجية في المواد الغذائية كالحبوب والأطعمة كانت رائجة في مكة، حيث تجلب إليها، وتباع في أسواقها؛ وذلك لأن مكة فقيرة في مواردها الطبيعية والغذائية؛ مما أدى إلى ندرة السلع والمواد الغذائية بها.

كانت التجارة الخارجية في المواد الغذائية كالحبوب والأطعمة رائجة في مكة

وقد أورد الفاكهي روايات عدة تدل على رواج التجارة في المواد الغذائية المجلوبة لمكة، حيث أفاد أن الحبوب كانت تجُلب إلى مكة بوساطة القوافل وتباع بها، فقد روى أن لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ساحة بمكة تسمى بين الدارين، وكانت القوافل القادمة لمكة تحط بها حاملة الحبوب والحنطة(٦٨). ولا يشير الفاكهي إلى مصدر هذه القوافل، غير أن الأزرقي يذكر بأن هذه القوافل تأتي من السراة(٦٩) والطائف وغيرهما، وتحمل بالإضافة للحبوب والحنطة، السمن والعسل(٧٠).

وتحدث الفاكهي عن علاقة مدينة جدة التجارية بمكة، فروى أن مدينة جدة كانت تُعد خزانة مكة(٧١)، وأنها مصدر لتموين مكة

(٦٨) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٢٨٨؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٣٩. حيث يذكر أن القوافل المحملة بالحبوب والسمن والعسل تنزل حمولتها بين الدارين وتباع بها. وبين الدارين هي المساحة من الأرض التي بين دار أبي سفيان ودار حنظلة بن أبي سفيان. انظر: الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٢٨٨؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٢٣٩.

(٦٩) السراة: هي الجبال والأرض الحاجزة بين تهامة واليمن، وتنقسم إلى أقسام عدة. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص ص٢٠٤ -٢٠٥.

(٧٠) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٣٩. وانظر هنا: عبدالله بن محمد السيف، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي، ط٢، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص٩٦.

(٧١) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ص ٥٢ -٥٣؛ وقارن: إبراهيم بن محمد الإصطخري (ت٣٤٦هـ/ ٩٥٧م)، مسالك الممالك، تحقيق دي غويه، ط٢، ليدن: طبعة بريل، ١٩٢٧م، ص١٩. حيث يذكر أن مدينة جدة تعد فرضة أهل مكة وأنها مدينة عامرة كثيرة التجارات والأموال.

بالحبوب، حيث روى عن شاهد عيان قوله: "رأيت تاجراً قَدِمَ من جدة، فدخل من أسفل مكة بأحمرة تحمل قمحاً..."(٧٢).

ولا شك أن ما ذكره الفاكهي يدل على علاقة تجارية قوية بين جدة ومكة، تمثلت في تموين مدينة جدة الساحلية ذات الميناء المشهور لمكة بالمؤن الغذائية وغيرها.

وبالإضافة إلى السلع الغذائية التي كانت تجلب لمكة من السراة والطائف وجدة من داخل الجزيرة العربية، ارتبطت مكة بعلاقة تجارية خارجية مع مصر، تمثلت في استيراد العديد من الأمتعة كالمواد الغذائية وغيرها من البضائع والسلع.

وقد اشتهر بالتجارة مع مصر بعض أهالي مكة المكرمة، فقد روى الفاكهي أن صفوان بن أمية الجمحي (ت ٤٢هـ/ ٦٦٢م)(٧٣) كانت له دار بأسفل مكة المكرمة اسمها (دار مصر). وقد علل الفاكهي تسميتها بدار مصر بقوله: "وإنما سميت دار مصر، أن صفوان بن أمية كان يأتيه من مصر تجارات وأمتعة، فكان إذا أتته أنيخت في داره تلك، فيأتيه الناس إلى أسفل مكة، فيشترون منه المتاع، ولا تجوز تجارته إلى غير مصر، فنُسب الدار إلى ما كان يُباع فيها من متاع مِصر"(٧٤).

واستعرض الفاكهي أسعار المواد الغذائية والعوامل المؤثرة فيها، التي سادت في مكة خلال الأزمات السياسية، فأشار إلى ارتفاع أسعار الحبوب والمؤن الغذائية خلال حصار الحجاج بن يوسف الثقفي لعبدالله بن الزبير في حج عام ٧٢هـ/ ٦٩٢م، حيث تعرضت

(٧٢) الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص ٣٧١.

(٧٣) انظر ترجمته عند: ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج٢، ص ٥٥٣.

(٧٤) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٣٤٢؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٢٦٣. والمتاع: ما يستمتع به الإنسان من غذاء وزاد وسلع وأثاث وغيره. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج٨، ص ص ٣٣٢ -٣٣٣.

مكة للحصار الاقتصادي الذي ضُرب عليها بهدف إنهاء حركة عبدالله بن الزبير السياسية(٧٥).

وقد وصف الفاكهي ما أصاب الناس في هذا الحصار من مجاعة شديدة لندرة السلع الغذائية، وإقبالهم على شراء الطعام بالسعر الذي يحدده التجار، حيث سادت حالة من الاحتكار في هذه المجاعة، وأصبح عرض السلعة خاضعاً لتحكم التجار الذين يهدفون إلى تحقيق أقصى ربح ممكن؛ وذلك لعدم وجود سلع بديلة.

فذكر الفاكهي ندرة المؤن الغذائية في مكة - خلال حصار عبدالله بن الزبير - بالرغم من توافر السيولة النقدية لشرائها، فروى عن طلحة بن عبدالله بن عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق(٧٦) قوله: "كنا مع ابن الزبير - رضي الله عنهما - فبلغ منّا الجهد، فأرسلنا إلى ابن الزبير نخبره بحالنا، وأن معنا نفقة لا نجد ما نبتاع..."(٧٧).

كما تحدث الفاكهي عن غلاء الأسعار وارتفاعها - خلال هذا الحصار - ارتفاعاً شديداً، حيث روى عن شاهد عيان قوله: "اشتريت مُدّاً من ذرة بعشرين درهماً..."(٧٨) كما روى أيضاً عن شاهد عيان رؤيته لتاجر قَدِمَ من جدة، وباع الصاع من القمح بالسعر الذي يراه(٧٩).

---

(٧٥) انظر: الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص ص ٣٧٠ -٣٧٢. وقد استقل عبدالله بن الزبير بالحجاز بعد موت يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـ/ ٦٨٣م، وأعلن نفسه خليفة، وبويع أميرًا للمؤمنين. وقد سيطر على العراق واليمن ومصر وأكثر الشام. انظر: أحمد بن جعفر بن واضح اليعقوبي (ت٢٨٤هـ/ ٨٩٧م)، تاريخ اليعقوبي، بيروت: دار صادر، د. ت، ج٢، ص٢٥٥؛ علي بن الحسين بن هبة الله بن عساكر (ت٥٧١هـ/ ١١٧٥م)، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، هذبه عبدالقادر بدران، ط٣، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج٣، ص ٣٣٩. وقد تم القضاء على حركة عبدالله بن الزبير وقُتل على يد الحجاج بن يوسف الثقفي في خلافة عبدالملك بن مروان سنة ٧٣هـ/ ٦٩٢م. انظر: محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ/ ٩٢٢م)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٤، القاهرة: دار المعارف، د. ت، ج٦، ص١٨٧.

(٧٦) انظر ترجمته عند: ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج٣، ص١٥.

(٧٧) الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص ٣٧١.

(٧٨) الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص ٣٧٠.

(٧٩) الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص ٣٧١.

غير أن ندرة السلع الغذائية، وارتفاع أسعارها في مكة كان أمراً طارئًا وخلال الحصار الذي تعرض له عبدالله بن الزبير، ولا يعكس حالة الأسعار المستقرة العامة في مكة التي سادت بها خلال فترات الاستقرار السياسي في العصر الأموي.

ومن جهة أخرى، يصور الفاكهي حالة الرخاء الاقتصادي عند الحجاج بن يوسف وجيشه المُحَاصِر لعبدالله بن الزبير، وتوافر المؤن الغذائية عندهم، والتي كانت تأتيهم عبر القوافل التجارية من الشام، فيروي عن أحد حُجَّاج عام ٧٢هـ/ ٦٩٢م قوله: "ورأيت الطعام عندهم كثير، ورأيت العِيرات(٨٠) تأتي من الشام، تحمل الكعك والسويق(٨١) والدقيق، فرأيت أصحابه مخاصيب(٨٢)، وقد ابتعنا من بعضهم كعكاً بدرهم كفانا حتى بلغنا الجُحفة(٨٣) وإنا لثلاثة"(٨٤).

ب - أسواق المنسوجات والألبسة:

تناول الفاكهي في كتابه الحديث عن الأسواق التجارية الخاصة بالملابس وتجارتها الخارجية، وذكر تنوع الملابس ورواجها بمكة.

فقد أشار إلى الخياطين الذين ينسجون الملابس لبيعها، وذكر سوقهم بجوار المسجد الحرام(٨٥)، حيث روى أن "دار أم هانئ بنت

---

(٨٠) العيرات: جمع عير، وهي الإبل التي تحمل المؤن الغذائية. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج٤، ص٦٢٤.

(٨١) السويق: شراب يتخذ من الحنطة والشعير. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج١٠، ص ١٧٠.

(٨٢) مخاصيب من الخِصب، وتعني هنا أن طعامهم وزادهم كثير. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج١٠، ص ص ٣٥٥ - ٣٥٦.

(٨٣) الجُحفة: قرية على الطريق بين مكة والمدينة، وهي ميقات لأهل مصر والشام. ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص ١١١.

(٨٤) الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص ص ٣٦٨ -٣٦٩؛ وقارن: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٦، ص ١٧٥.

(٨٥) الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص ص ١٧٥، ٢٠٠، ٢٠٣، ٢٠٧. ج٣، ص ص ٢٧١، ٢٨٤؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ص ٢٣٤، ٢٥٤.

أبي طالب رضي الله عنها[٨٦] كانت عند الخياطين في أصل المنارة، فدخلت في المسجد حين وسعه [الخليفة العباسي] المهدي في الهدم الآخر سنة سبع وستين ومئة، [١٦٧هـ - ٧٨٣م] ..."[٨٧].

أما البَزّازون، وهم الذين يتاجرون في البزّ، وهو نوع من الثياب والمنسوجات الجيدة[٨٨]. فقد ذكر الفاكهي مكانهم، حيث قال: "ومن رباع بني عائد[٨٩]: دار ابن صيفي[٩٠]، وهي الدار التي فيها البَزّازون، صارت ليحيى بن برمك"[٩١].

وأشار الفاكهي إلى تجارة الملابس الرائجة في مكة التي تُجلب إليها، وتُباع في أسواقها، فذكر بعض الملابس المجلوبة إلى مكة، وهي البرود القطرية ذات اللون الأحمر الجيدة والمنسوبة إلى مدينة قطر بالبحرين[٩٢]. فروى عن شاهد عيان رؤيته لفقيه الحجاز عطاء بن أبي رباح (ت ١١٥هـ/ ٧٣٣م)[٩٣] بفناء الكعبة وعليه ثوبان

(٨٦) أم هانئ بنت أبي طالب: هي فاختة، ويقال: هند بنت أبي طالب بن عبدالمطلب خطبها الرسول ﷺ فاعتذرت إليه؛ لأنها أم لصبية صغار. انظر ترجمتها عند: ابن سعد، الطبقات، ج٨، ص ص ١٥١ -١٥٣؛ الزبيري، نسب قريش، ص ٣٩.

(٨٧) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٢٧١؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ص ٢٣٤.

(٨٨) ابن منظور، لسان العرب، ج٥، ص٣١١.

(٨٩) بني عائذ: هم ولد عائذ بن عبدالله بن عمر بن مخزوم. انظر: الكلبي، جمهرة النسب، ص٩٠؛ انظر أيضاً: الزبيري، نسب قريش، ص٣٣٣.

(٩٠) ابن صيفي: لعله محمد بن صيفي بن أمية بن عائذ بن عبدالله بن عمر بن مخزوم. انظر ترجمته عند: الزبيري، نسب قريش، ص ص ٣٣٣ -٣٣٤.

(٩١) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٣٢٩؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٦٠.

(٩٢) ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص٣٧٣؛ وقارن: ابن منظور، لسان العرب، ج٥، ص ص١٠٥ -١٠٦. وحول المنسوجات القطرية، انظر: صالح أحمد العلي، المنسوجات والألبسة العربية في العهود الإسلامية الأولى، ط١، بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ٢٠٠٣م، ص ص ٨٦ -٨٩.

(٩٣) انظر ترجمته عند: ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج٤، ص ص ١٢٨ -١٣٠.

قَطَريَّان[٩٤]. وكذلك روى أن أبا حمزة الخارجي (ت ١٣٠هـ/ ٧٤٧م) خطب على منبر مكة وعليه ثوبان قَطَريَّان[٩٥].

ولا شك أن وجود مثل هذه الثياب بمكة يدل على رواج تجارة الألبسة المستوردة من خارج الحجاز.

ويستدل مما رواه الفاكهي على تنوع الملابس والثياب وانتشارها في مكة، إلى رواج تجارتها. فروى أن عبدالله بن الزبير - رضي الله عنهما - كسا أصحابه ثياباً[٩٦].

كما ذكر الفاكهي انتشار استعمال الثياب المورّدة؛ وهي المصبوغة بلون الورد الأحمر الضارب إلى الصُفرة[٩٧]. فروى أن عبدالله بن عمر بن الخطاب (ت ٧٤هـ/ ٦٩٣م) كان يطوف بالبيت وعليه ثوبان مورّدان[٩٨].

وأورد الفاكهي روايات تفيد انتقاد بعض الفقهاء لبعض الملابس التي يرتديها فتيان مكة، وخاصة الثياب المُمَشقة، وهي المصبوغة بالمِشق، وهو الطين الأحمر[٩٩].

فروي أن طاووس بن كيسان (ت ١٠٦هـ/ ٧٢٤م)[١٠٠] رأى فتية من قريش يطوفون بالبيت، فقال لهم: "إنكم لتلبسون لباساً ما كان يلبسه آباؤكم..."[١٠١]. وذكر انتقاد الفقيه عبدالملك بن عبدالعزيز بن جُريج

(٩٤) الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص ٣٤٢.

(٩٥) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ١٤١. وأبو حمزة الخارجي هو المختار بن عوف الأزدي خرج على آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد، ثم دخل مكة سنة ١٢٩هـ/ ٧٤٧م، وقُتِلَ سنة ١٣٠هـ/ ٧٤٨م. انظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٧، ص ص ٣٨٥، ٣٩٨ -٣٩٩.

(٩٦) الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص ٣٣٣.

(٩٧) ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص ٤٥٦.

(٩٨) الفاكهي، أخبار مكة، ج١، ص ٢٩٦.

(٩٩) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، ج٤، ص٣٣٤؛ وانظر: ابن منظور، لسان العرب، ج٥، ص ص ١٨١ -١٨٢.

(١٠٠) انظر ترجمته عند: ابن سعد، الطبقات، ج٥، ص ص ٥٣٧ -٥٤٢.

(١٠١) الفاكهي، أخبار مكة، ج١، ص ٢١٤.

(ت ١٥٠هـ/ ٧٦٧م)[١٠٢] لبعض فتيان مكة الذين يلبسون الثياب المشققة، حيث قال لهم وهم عند المروة: "الله الله يا فتيان أن تذهبوا بهيئاتكم هذه أو صوركم إلى ما يسخط الله عز وجل..."[١٠٣].

ج - سوق الرقيق:

أورد الفاكهي معلومات عن سوق الرقيق في مكة وتجارته الرائجة، حيث أشار الفاكهي إلى سوق قديم للرقيق بمكة، يُباع فيه الرقيق بين الصفا والمروة، حيث ذكر أن دار العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه التي بين الصفا والمروة، التي أصبحت فيما بعد في أيدي العباسيين من ولد موسى بن عيسى[١٠٤]: "هي الدار المنقوشة التي عندها العَلَمُ الذي يسْعَى منه من جاء من المروة يريد الصفا، وقد كان في موضعها في قديم الدهر سوق يُباع فيه الرقيق"[١٠٥]. وحدد الفاكهي مكان هذا السوق الذي في موضع دار العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه بأنه في سوق الليل[١٠٦].

وأورد الفاكهي روايات عدة تفيد برواج تجارة الرقيق بمكة، وأن البيع والشراء كان مزدهراً في هذه التجارة حيث روى عن يحيى بن أبي عمر العدني المكي[١٠٧] قوله: "أدركت الرقيق يباعون في موضع دار العباس رضي الله عنه في سوق الليل"[١٠٨].

---

(١٠٢) انظر ترجمته عند: ابن سعد، الطبقات، ج٥، ص٤٩١؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج٣، ص ص٥٠١ -٥٠٣.

(١٠٣) الفاكهي، أخبار مكة، ج١، ص ٢٩٩.

(١٠٤) هو موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس. انظر ترجمته عند: علي بن أحمد بن سعيد بن حزم (ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م)، جمهرة أنساب العرب، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص ص ٣٢ -٣٣.

(١٠٥) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٢٧٠؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ص ٢٣٣ -٢٣٤.

(١٠٦) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ص ٢٧٠ -٢٧١؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ص ٢٣٣ -٢٣٤؛ وانظر هنا أيضاً: الهلابي، الأسواق في مكة، ص٢٠٤.

(١٠٧) انظر ترجمته عند: ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج٦، ص ١٦٥.

(١٠٨) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ص ٢٧٠ -٢٧١. وحول تجارة الرقيق ومصادره بمكة، انظر: إلهام أحمد البابطين، الحياة الاجتماعية في مكة منذ ظهور الإسلام حتى نهاية العصر الأموي، ط١، الرياض: مطابع الخالد للأوفست، ١٤١٩هـ، ص ص ٦٤ -٦٧.

وقد استمرت تجارة الرقيق رائجة في مكة في العصر الأموي، فقد اشترى عطاء بن أبي رباح غلاماً، وكان له بعض الموالي(١٠٩).

ومما يدل على رواج تجارة الرقيق بمكة ما يرويه الفاكهي عن كثرة أعدادهم، فقد كان لعبدالله بن الزبير دار في مكة اسمها دار الزِنْج(١١٠). وكان لخالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي دار بمكة بمجتمع أجيادين، اسمها دار العلوج، "وإنما سُميت دار العلوج؛ لأنه كان فيها عُلوجٌ من عُلوج الحبشة"(١١١).

والجدير بالملاحظة، أن تُجَّار الرقيق كانوا يتخذون أساليب متنوعة للترغيب والترويج لتجارتهم، فقد روى الفاكهي أن الجارية كانت تُزين وتُعرض للبيع بالمسجد الحرام، ويُطاف بها مسفرة حول البيت؛ ليُشهر أصحابها أمرها، ويُرغّبوا الناس في شرائها، فيأتي الناس فينظرون ويشترون(١١٢).

وأفاد الفاكهي أن بعض الفقهاء أجازوا لمن أراد أن يشتري الجواري النظر إليهن، فروى أن عطاء بن أبي رباح سُئل: "عن النظر إلى الجواري اللائي يُطاف بهن حول البيت للبيع، فكره ذلك إلا لمن أراد أن يشتري"(١١٣).

والواقع، أن سعر المعروض من الجواري كانت تحدده جودة المعروض منهن وصفاتهن، ولهذا يزداد الطلب عليهن، ويصل أحياناً لمبالغ طائلة، فقد روى الفاكهي أن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب

---

(١٠٩) الفاكهي، أخبار مكة، ج١، ص ص ٢٨٩ - ٢٩٠.

(١١٠) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٣٠٨؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٥٢. حيث يذكر أنها سُميت دار الزنج؛ لأنه كان فيها رقيق زنج لعبدالله بن الزبير.

(١١١) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٣٢٣؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٥٨. وانظر ترجمة خالد بن العاص المخزومي عند: الزبيري، نسب قريش، ص ص ٣١٢ - ٣١٣.

(١١٢) الفاكهي، أخبار مكة، ج١، ص ٣١٧.

(١١٣) الفاكهي، أخبار مكة، ج١، ص ٣١٧.

(٨٠هـ/ ٦٩٩م) قَدِمَ حاجاً؛ فاشترى جارية من مولاها بأربعين ألف درهم[١١٤].

د - أسواق الماشية والطيور والأسماك:

تناول الفاكهي في كتابه العديد من الأسواق الخاصة بالماشية: كالأغنام والبقر والإبل والحمير، بالإضافة للطيور؛ كالحمام والدجاج، وكذلك الأسماك، وتناول أسعار بعضها.

فقد ذكر الفاكهي سوق الغنم القديم التي بالشعب، فقال: إن "دور عبدالله بن عامر التي في الشعب، التي يقال لها: شعب المطابخ[١١٥] كانت لمعاوية رضي الله عنه، ويقال: كان في فناء دورهم هذه سوق الغنم القديم"[١١٦].

أما سوق البقر فقد ذكر الفاكهي زقاق البقر في المسفلة[١١٧]، كما ذكر موقف البقر عند جبل خليفة[١١٨].

---

(١١٤) الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص ص ٣٢٧ -٣٢٨؛ وقارن: أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني (ت٣٥٦هـ/ ٩٦٧م)، كتاب الأغاني، بيروت: مؤسسة جمال للطباعة والنشر، د. ت، ج١٧، ص ١٧٥؛ ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ج٧، ص ٣٤١. وانظر ترجمة عبدالله بن جعفر عند: ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج٣، ص ص ١١٣ -١١٤.

(١١٥) يذكر الفاكهي أن شعب عبدالله بن عامر بن كريز كله يقال له: المطابخ، لأن الملك تُبّع لما قدم مكة طبخ فيه ونحر. الفاكهي، أخبار مكة، ج٤، ص١٣٨. وعلق محقق كتاب الفاكهي عبدالملك بن دهيش قائلاً: "لا زال هذا الشعب يحمل اسم (شعب عامر)، وهو مشهور، اكتنفه العمران شعاباً وجبالاً ...". الفاكهي. المصدر نفسه، هامش٢.

(١١٦) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٢٨٤؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة. ج٢، ص ٢٤٤.

(١١٧) الفاكهي، أخبار مكة، ج٤، ص ١٣٠؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٦٦. والمسفلة: ما نزل عن المسجد الحرام. ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص ١٨٧؛ وانظر حد المسفلة عند: الفاكهي، أخبار مكة، ج٤، ص ص ١٢٩ -١٣١؛ وقارن: الأزرقي. أخبار مكة، ج٢، ص ٢٦٦.

(١١٨) الفاكهي. أخبار مكة، ج٤، ص ١٩١. وجبل خليفة جبل مشهور يُشرف على أجياد الكبير. انظر: الفاكهي، أخبار مكة، ج٤، ص١٩١. وانظر الهامش الآتي رقم ١٢٤.

وأشار الفاكهي إلى سوق الظَهْر، وهي الإبل[١١٩]، وحدد مكان هذا السوق، فقال: "ولمعاوية رضي الله عنه دار رابعة بأعلى مكة...، وهي عند سوق الظَهْر في أصل قرن مصقلة"[١٢٠].

كما ذكر سوق الحمّارين - أصحاب الحُمُر - وموقعه بجانب دار أبان بن عثمان بن عفان (ت ١٠٥هـ/ ٧٢٤م)[١٢١].

وبالإضافة إلى الماشية، أشار الفاكهي إلى أسواق الطيور فذكر سوقاً للدجاج، وكذلك سوقاً للحمام بجوار المسجد الحرام، وأنه في زقاق مسلوك إلى السُوَيْقة[١٢٢]. وروى أن ذلك الزقاق كان يُباع فيه الدجاج والحمام[١٢٣]. وكذلك ذكر الفاكهي سوقاً للسمك، فأشار إلى سوق لأصحاب السمك في أجياد الكبير[١٢٤].

وقد أورد الفاكهي روايات مقتضبة عن أسعار بعض السلع الغذائية الحيوانية كالدجاج والأسماك، حيث أشار إلى أسعار الدجاج إبّان الحصار الاقتصادي الذي تعرض له عبدالله بن الزبير في سنة ٧٢هـ/ ٦٩٢م؛ ولذلك فلا يستغرب ارتفاع أسعارها، فقد روى عن شاهد عيان قوله: "رأيت الدجاجة [تُباع] بعشرة دراهم..."[١٢٥].

---

(١١٩) ابن منظور، لسان العرب، ج٤، ص ٥٢٢.

(١٢٠) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٢٨٩؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٣٨. وقرن مصقلة: جبل بأعلى مكة، يُنسب إلى رجل اسمه مصقلة كان يسكنه في الجاهلية. انظر تحديده عند: الفاكهي، أخبار مكة، ج٤، ص١٣٧.

(١٢١) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ص ٢٧٩، ٢٩٩؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٣٨. وانظر ترجمة أبان بن عثمان عند: ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج١، ص ٦٥.

(١٢٢) الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص ١٩٦. ج٣، ص ١٠٠.

(١٢٣) الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص ١٩٦.

(١٢٤) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٢٧٩؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٤٤، حيث يذكر الحواتين. وأجياد الكبير: موضع بمكة يلي الصفا، وهما أجيادان أجياد الكبير هذا وأجياد الصغير. ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص ١٠٥. وحول حدودهما وتسميتهما، انظر: الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ص ١٨٩ -١٩٠.

(١٢٥) الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص ٣٧٠.

وبالإضافة إلى الدجاج أشار الفاكهي كذلك إلى ارتفاع أسعار السمك خلال الحصار الاقتصادي الذي تعرض له عبدالله بن الزبير، فروى عن شاهد عيان قوله: "رأيت صياداً قدم بحيتان قشير، فباع كل حوت بدرهم"(١٢٦).

ولا شك أن ارتفاع الأسعار هذا كان طارئًا ولأسباب سياسية، ولا يعكس حالة الأسعار العامة في مكة في فترات الهدوء والاستقرار السياسي.

هـ - سوق أصحاب الأدم:

الأدم هي الجلود، وقيل: هي الجلود المدبوغة(١٢٧). وقد أشار الفاكهي إلى أصحاب هذه المهنة ومكانهم وتجارتهم، فذكر حوانيت أصحاب الأدم وتجارتهم في رحبة(١٢٨) الخليفة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ التي أقامها توسعة للناس، ولكن بقيت فيها حوانيت أصحاب الأدم، حيث قال: "وقد بقيت منها حوانيت فيها أصحاب الأدم، وأرض تلك الحوانيت كلها من رحبة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان فيها قومٌ يبيعون في مقاعدهم"(١٢٩).

وذكر الفاكهي استمرار تجارة الأدم في حديثه عن مقاعد تجار الأدم في رحبة الخليفة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأنها صارت مع الزمن بيوتاً تُكرى منهم، وتدر عليهم أموالاً كثيرة(١٣٠).

---

(١٢٦) الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص ٣٧١؛ وقشير: أي: كثير القشر. انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج٥، ص ٩٤. ولعل المقصود هنا (قتير)؛ أي: أن الحيتان ذات رائحة. ابن منظور، لسان العرب، ج٥، ص٧١؛ انظر: الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص ٣٧١، هامش ٢. وفيه تعليق محقق كتاب الفاكهي عبدالملك بن دهيش عن معنى قشير.

(١٢٧) ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص ص ٩ -١٠.

(١٢٨) الرحبة هي المساحة والأرض الواسعة. ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص ٤١٥. ورحبة الخليفة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هي مكان الدار التي كانت لوالده بجوار الصفا والمروة فهدمها الخليفة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وتصدق بها، وجعلها ساحة ومناخاً لأصحاب الإبل. الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص٣٣٢.

(١٢٩) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٣٣٢؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ص ٢٦٢ -٢٦٣.

(١٣٠) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٣٣٢؛ وقارن الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٢٦٣.

ولا شك أن ازدهار تجارة الأدم في مكة وخصوصاً في أشهر الحج، كان راجعًا لكثرة ما ينحر من إبل وبقر وأغنام ويُقدم هديًا وأضاحي في مكة؛ إذ يستفيد أصحاب الأدم من جلود تلك الحيوانات بدبغها، ومن ثم المتاجرة بها.

و - سوق عرفة:

لم يقتصر الفاكهي على ذكر الأسواق العامة والمتخصصة في مكة، بل أشار إلى الأسواق الخاصة بأيام الحج؛ وهي أسواق موسمية، ومنها سوق عرفة، حيث ذكر الفاكهي سوق عرفة وحدد مكانه، فذكر أن عبدالله بن عامر بن كريز بنى سبعة حياض، "وهي في سوق عرفة، في الحائط الذي يلي السوق، ومنها يشرب الناس ويستقون في يوم عرفة وفي غيره"(١٣١).

ولا شك أن سوق عرفة كانت سوقًا رائجة بالسلع والبضائع وخاصة الغذائية، حيث يجتمع الحجَّاج لتأدية ركن الحج الأعظم وهو الوقوف بعرفة. غير أن الفاكهي لا يشير إلى السلع المتداولة وأسعارها في سوق عرفة، ولكن يستدل مما رواه الفاكهي أن بعض أسعار الماشية كانت غالية وخاصة الإبل؛ لأنها وسيلة المواصلات في تلك الفترة التاريخية للحج وحمل السلع، فقد روى الفاكهي أن جابر بن زيد (ت ١٠٣هـ/ ٧٢١م) كانت له ناقة يقف عليها بعرفة، وأنه أعطي فيها مئتي دينار فلم يبعها(١٣٢).

والملاحظ - من استعراض الأسواق السابقة - أن أغلبها يتمركز حول المسجد الحرام؛ حيث توفر للمصلين والمعتمرين والحُجَّاج ما يحتاجونه من سلع وخدمات.

(١٣١) الفاكهي، أخبار مكة، ج٥، ص ٤٢؛ وقارن: ابن سعد، الطبقات، ج٥، ص ٤٧. وذكر محقق كتاب الفاكهي عبدالملك بن دهيش أن سوق عرفة بقي قائماً إلى عهد ليس ببعيد. انظر: الفاكهي، أخبار مكة، ج٥، ص ٤٢، هامش ١.

(١٣٢) الفاكهي، أخبار مكة، ج١، ص ٤٠١؛ وقارن: أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني (ت٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط٥، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٧م، ج٣، ص ص ٨٦ -٨٧. وجابر بن زيد هو مفتي أهل البصرة وعالمهم. انظر ترجمته عند: ابن سعد، الطبقات، ج٧، ص ص ١٧٩ -١٨٢.

ومن هنا، كانت أسواق مكة عامرة بالتجارة على مدار العام، وتميزت أيضاً برواج التجارة في أنواع عدة من السلع الاقتصادية ذات المنفعة والندرة النسبية.

ثانياً: تجارة العقار ومردوده المادي

قدم الفاكهي معلومات قيمة عن تجارة العقار ومردوده المالي في مكة في العصر الأموي، فتناول الكِراء والبيع والشراء في بيوت مكة، بعد أن ذكر جدل الفقهاء حول كراء دور مكة وبيعها.

١ - جدل الفقهاء حول كِراء دور مكة وبيعها:

أورد الفاكهي روايات عدة تفيد وجود جدل بين الفقهاء حول كراء بيوت مكة وبيعها، حيث كَرّهه البعض، وأباحه البعض الآخر[١٣٣]. فروى الفاكهي أن عطاء بن أبي رباح كان: "ينهى عن الكِراء في الحرم"[١٣٤]. كما روى أيضاً أن عطاء بن أبي رباح: "كرّه أجور بيوت مكة"[١٣٥].

أورد الفاكهي روايات عدة تفيد وجود جدل بين الفقهاء حول كراء بيوت مكة وبيعها.

وبالإضافة إلى عطاء بن أبي رباح، ذكر الفاكهي أن الخليفة عمر بن عبدالعزيز (ت١٠١هـ/ ٧٢٠م) كان ينهى عن كِراء بيوت مكة، وأنه كتب إلى عامله على مكة المكرمة عبدالعزيز بن عبدالله بن خالد بن أسيد الأموي[١٣٦] يأمره بذلك، فروى الفاكهي عن عبدالعزيز بن جريج[١٣٧]

---

(١٣٣) انظر: الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ص٢٤٣ -٢٥٩؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ص١٦٢ -١٦٦.

(١٣٤) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٢٤٨؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ١٦٣.

(١٣٥) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٢٤٨.

(١٣٦) انظر ترجمته عند: ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج٣، ص ٤٦٤. وكان عبدالعزيز بن عبدالله الأموي عاملاً على مكة للخليفتين سليمان بن عبدالملك وعمر بن عبدالعزيز. انظر: خليفة بن خياط العصفري (ت٢٤٠هـ/ ٨٥٤م)، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، ط٣، الرياض: دار طيبة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص ص ٣١٧، ٣٢٣.

(١٣٧) هو عبدالعزيز بن جريج المكي مولى قريش. انظر ترجمته عند: ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج٣، ص٤٥٨.

قوله: "قرأتُ كتاباً من عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه إلى عبدالعزيز بن عبدالله يأمره ألا يَكري بمكة شيئاً"(١٣٨).

ومن جهة أخرى، أورد الفاكهي روايات تشير أن بعض الفقهاء رخّص بكراء وبيع بيوت مكة المكرمة، فروى عن مجاهد بن جبر المكي (ت ١٠٤هـ/ ٧٢٢م)(١٣٩) قوله: "لا أرى بكراء بيوت مكة بأساً"(١٤٠). كما روى عن ابن أبي ذئب (ت ١٥٩هـ/ ٧٧٥م)(١٤١) قوله: "لا بأس بكرائها ولا بأس ببيع رباعها، فقد كانت تُباع في الجاهلية والإسلام"(١٤٢).

وكذلك روى الفاكهي أن عمرو بن دينار (ت ١٢٦هـ/ ٧٤٣م)(١٤٣) كان لا يرى بكراء بيوت مكة بأساً، وكان يقول: "كيف يكون به بأس، والربع يُباع فيؤكل ثمنه..."(١٤٤).

٢ - كِراء الدور في مكة:

الواقع، أن كِراء الدور بمكة كان رائجاً، إذ أخذ الناس برخصة من أجاز ذلك من الفقهاء؛ لأن الكِراء يلبي مصالحهم ومنافعهم، فعندما منع الخليفة عمر بن عبدالعزيز كِراء بيوت مكة، كان الناس يتكارون في زمنه خفية، فقد روى الفاكهي أن عبدالعزيز بن أبي

(١٣٨) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٢٤٩؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ١٦٣؛ أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت٢٧٩هـ/ ٨٩٢م). فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، بيروت: دار الكتب العلمية. ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص ٥٦.

(١٣٩) انظر ترجمته عند: ابن سعد، الطبقات، ج٥، ص ص ٤٦٦ -٤٦٧؛ الأصبهاني، حلية الأولياء، ج٣، ص ص ٢٧٩ -٣١٠.

(١٤٠) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٢٥٧؛ وانظر أيضاً: المصدر نفسه، ص ٢٥١.

(١٤١) هو محمد بن عبدالرحمن بن المغيرة بن الحارث. انظر ترجمته عند: الذهبي، تاريخ الإسلام (١٤١ -١٦٠هـ)، ص ص ٦٠٠ -٦٠٤.

(١٤٢) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٢٥٦؛ وانظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٥٧. حيث يروي أن: "ابن أبي ذئب كان يأتيه كراء داره بمكة بين الصفا والمروة".

(١٤٣) هو عمرو بن دينار أبو محمد الجمحي المكي. انظر ترجمته عند: الذهبي، تاريخ الإسلام (١٢١ -١٤٠هـ)، ص ص ١٨٦ -١٨٩؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج٤، ص ص ٣٣٥ -٣٣٦.

(١٤٤) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٢٥٨؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ١٦٥.

رَوّاد (ت ١٥٩هـ/ ٧٧٥م)[١٤٥] قال: "دخلتُ مكة في زمان عمر بن عبدالعزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فوجدنا عمر قد حرّم كِراء بيوت مكة، قال: فتكارينا سِرا"[١٤٦]. كما كان الناس يؤجرون بيوتهم، فقد روى الفاكهي أن طاووس بن كيسان سُئل عن كِراء بيت بمكة، فأجاز لصاحبه كِراءه[١٤٧].

وبالإضافة لذلك وصف الفاكهي بيوت أصحاب الأدم (الجلود) بجوار المسجد الحرام، وكيف تطور بنيانها، حتى أصبحت تُكرى في مواسم الحج بالدنانير الكثيرة، فروى أن: "هذه البيوت الصغار التي كانت في رحبة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من صدقة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وإنما كانت هذه المقاعد في أول الزمان يقعد فيها الناس، ثم يحجزونها بالجريد والسعف، فلبثت من الزمان ما شاء الله، ثم جعلوا يبنونها باللَّبِن النَّيء، وكسار الآجُرّ - فيما ذكروا - حتى صارت بيوتاً صغاراً يكرونها من أصحاب الأدم بالدنانير الكثيرة، وصارت غلّةً..."[١٤٨].

ويدل هذا النص على ازدهار تجارة الدور بمكة، كما يدل من جهة أخرى على التطور العمراني في الدور التجارية والأسواق بمكة.

٣ - البيع والشراء في دور مكة:

أورد الفاكهي معلومات قيمة تدل على رواج البيع والشراء في دور مكة، والمردود المالي لبعض هذه الدور، فروى أن معاوية بن أبي سفيان (ت٦٠هـ/ ٦٨٠م) اشترى عدداً من الدور بمكة ومنها؛ دار المراجل[١٤٩]،

---

(١٤٥) انظر ترجمته عند: الذهبي، تاريخ الإسلام (١٤١ -١٦٠هـ)، ص ص ٥٠٢ -٥٠٥؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج٣، ص ص ٤٦١ -٤٦٢.

(١٤٦) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٢٥٠؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ١٦٤.

(١٤٧) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٢٥٨؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ١٦٥.

(١٤٨) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٣٣٢؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٦٣.

(١٤٩) المراجل: جمع مِرجَل، وهو القدر من النحاس الذي يطبخ فيه. ابن منظور، لسان العرب، ج١١، ص٢٧٤.

وقد ابتاعها من آل المؤمل من بني عدي بن كعب(١٥٠)، ويذكر الفاكهي أنها سميت دار المراجل؛ لأنه كانت فيها قدورٌ صُفْر(١٥١) كان يطبخ فيها طعام الحُجَّاج، وطعام شهر رمضان في زمن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه (٤١ -٦٠هـ/ ٦٦١ -٦٨٠م)(١٥٢).

واشترى معاوية بن أبي سفيان دار أوس، وهي تنسب إلى أوس وهو رجل خزاعي، وكانت لناس من خُزَاعة(١٥٣) اشتراها معاوية بن أبي سفيان منهم وبناها(١٥٤).

واشترى أيضًا دار الشِّعْب بالثنية(١٥٥) من بني عدي بن كعب(١٥٦). وكذلك اشترى داراً من دور عامر بن لؤي(١٥٧)، وكانت عند زقاق الحدادين(١٥٨).

---

(١٥٠) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ص ٢٨٧، ٣٣٦؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ص ٢٣٧، ٢٦٢ -٢٦٣.

وآل المؤمَّل: نسبة إلى مؤمل بن حبيب بن عبدالله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب. انظر: الكلبي، جمهرة النسب، ص ص ١٠٥ -١٠٧.

(١٥١) الصُّفر: النحاس. ابن منظور، لسان العرب، ج٤، ص٤٦١.

(١٥٢) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٢٨٧؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٣٧.

(١٥٣) خُزاعة: هم بنو لحُي بن عامر بن قمعة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. انظر: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ص ٤٦٧، ٤٨٠؛ وقارن أيضاً: الزبيري، نسب قريش، ص ص ٧ -٨.

(١٥٤) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٢٨٨؛ وانظر: المصدر نفسه، ص ٢٨٤؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٣٨.

(١٥٥) دار الشِّعْب: نسبة إلى شعب ابن عامر. والثنية: في الأصل كل عقبة في الجبل مسلوكة. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص ٨٥؛ ويقصد بها الثنية التي عند الدارين. انظر: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ص ٢٣٨ -٢٣٩؛ وانظر الهامش السابق رقم ٦٨.

(١٥٦) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٢٨٩؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ص ٢٣٨ -٢٣٩.

(١٥٧) عامر بن لؤي: هم ولد عامر بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك القرشيين. انظر الزبيري، نسب قريش، ص ص ١٠ -١٢؛ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ١٢.

(١٥٨) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٢٨٩؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٣٩.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز العدد الثالث رجب ١٤٣٦هـ السنة الحادية والأربعون
الدارة

كما اشترى معاوية بن أبي سفيان دار سعد التي تنسب إلى سعد القصر[١٥٩]، وهو غلام معاوية بن أبي سفيان، وهو الذي بناها بالحجارة المنقوشة[١٦٠]. ويقال: إنها كانت لسعد بن أبي طلحة العبدري[١٦١]، فاشتراها منه معاوية بن أبي سفيان[١٦٢].

وساوَمَ معاوية بن أبي سفيان خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومي[١٦٣] في دار لآل هشام بن المغيرة المخزومي بأسفل مكة يُقال: إن هشام بن المغيرة دُفِنَ فيها، فرفض خالد بن العاص بيعها لمعاوية بن أبي سفيان، وقال: "وهل يبيع الرجُلُ موضع قبر أبيه؟"[١٦٤].

والملاحظ، أن الفاكهي لم يُحدد أسعار هذه الدور السابقة التي اشتراها معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، غير أنه يذكر سعر دار واحدة باعها معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وهي دار الندوة[١٦٥]، التي اشتراها

---

(١٥٩) سعد القصر: هو مولى معاوية بن أبي سفيان. ويرد اسمه عند الأزرقي سعد القصير. الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٣٨؛ وقارن: صلاح الدين المنجد. معجم بني أمية، ط١، بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٧٠م، ص ١٩١. قال عنه معاوية: "أغبطُ الناس عندي سعد مولاي - وكان يلي أمواله بالحجاز - يتربع جدة، ويتقيظ الطائف، ويتشتى مكة". انظر: عبدالله بن مسلم بن قتيبة (ت٢٧٦هـ/ ٨٨٩م)، عيون الأخبار، بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت، ج١، ص٢١٤؛ وقارن: ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص ١٢.

(١٦٠) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٢٨٩ -٢٩٠؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٢٣٨.

(١٦١) لم يقف الباحث على ترجمة لسعد بن أبي طلحة العبدري في المصادر المتاحة، ويظهر من اسمه أنه يُنسب لطلحة من بني عبدالدار بن قصي. انظر: الزبيري، نسب قريش، ص ص ٢٥٠ -٢٥١.

(١٦٢) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٢٩٠؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٣٨.

(١٦٣) انظر ترجمته عند: الزبيري، نسب قريش، ص ص ٣١٢ -٣١٣. ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص١٤٦.

(١٦٤) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٣٢٥؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٥٨.

(١٦٥) دار الندوة: سميت لأن قريش كانوا يجتمعون بها للمشاورة إذا حدث بهم أمر، وهي من المسجد الحرام، وكانت لبني عبدالدار. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص ص ١٨٧، ٢٨٩.

منه ابن الرهين(١٦٦) بمئة ألف درهم، وكان لها باب يُفتح على المسجد الحرام(١٦٧).

وبالإضافة لمعاوية بن أبي سفيان، أشار الفاكهي إلى الدور التي اشتراها عبدالله بن الزبير (ت٧٣هـ/ ٦٨٢م) فقال: "ولعبدالله بن الزبير رضي الله عنهما الدور الثلاث التي بقُعَيْقِعان المصطفة، يقال لها: دور الزبير. وفي الدار الدنيا التي هي أقربَ الدور إلى المسجد، كان يسكن عبدالله بن الزبير. ولم تكن هذه الدور للزبير ملكًا، ولكن عبدالله اشتراها من آل عفيف بن نبيه السهميين(١٦٨)..."(١٦٩).

كما اشترى عبدالله بن الزبير داراً من آل سمير بن موهب السهميين(١٧٠)، ويقال لها: دار العَجَلة، ويذكر الفاكهي أنها: "سُميت دار العَجَلة أن ابن الزبير رضي الله عنهما عَجّل ببنائها فيما زعموا، وبادر بها، فكانت تبنى بالليل والنهار حتى فرغ منها سريعاً.

---

(١٦٦) ابن الرهين: من ولد النضر بن الحارث بن كلدة بن عبدمناف بن عبدالدار بن قصي. انظر: ابن سعد، الطبقات، ج٥، ص ٤٧٨: ويذكر الفاكهي أن ابن الرهين اسمه النضر، وسمي ابن الرهين: لأن قريشاً رهنت جَدّه النضر. الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ١٢٤: وحول الرهن عند قريش وأسبابه انظر: محمد بن حبيب البغدادي (ت٢٤٥هـ/ ٨٥٩م)، المنمق في أخبار قريش، ط١، تحقيق خورشيد أحمد فاروق، بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص ص ١٧٩ -١٨٠: وقارن: الكلبي، جمهرة النسب، ص٦٦: البلاذري، فتوح البلدان، ص٦٤. حيث يذكران أن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبدمناف بن عبدالدار هو الذي اشترى دار الندوة من معاوية بن أبي سفيان.

(١٦٧) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٣١١: وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٥٣: الكلبي، جمهرة النسب، ص ٦٦: البلاذري، فتوح البلدان، ص٦٤.

(١٦٨) آل عفيف بن نُبيه السهميين: نسبة إلى عفيف بن نُبيه بن الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم. انظر: الزبيري، نسب قريش، ص ص ٤٠٠ -٤٠٥: وقارن: الكلبي، جمهرة النسب، ص ص ١٠٠ -١٠٢.

(١٦٩) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٣٠٨: وانظر أيضاً: المصدر نفسه، ص ٣٤٧: وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٥١ -٢٥٢.

(١٧٠) آل سمير بن موهب السهميين: نسبة إلى سمير بن مَوْهبة بن عبدالعُزى بن حُذافة بن سعد بن سهم. انظر: الزبيري، نسب قريش، ص ص ٤٠٠ -٤٠٥.

ويقال: بل اتخذ فيها عَجَلاً كانت تُحملُ عليها الحجارة، وتجرها البقر والبُخت"(١٧١).

وأشار الفاكهي أيضاً إلى أن مصعب بن الزبير (ت٧١هـ/ ٦٩٠م) اشترى من وَلَدِ الخطاب بن نفيل(١٧٢) دارين عند دار العَجَلَة(١٧٣).

كما أشار الفاكهي إلى بعض الدور التي اشتراها الخلفاء المروانيون. فذكر أن الخليفة عبدالملك بن مروان (٦٥ -٨٦هـ/ ٦٨٥ -٧٠٥م)، اشترى داراً بمكة مقايضة بدار أخرى، حيث روى عن أوس بن سعد بن أبي سرح(١٧٤) قوله: "كان لنا مسْكَنٌ في دار الحكم(١٧٥)، فقال عبدالملك [بن مروان] في إمارته: بعني مسكنك الذي في دار أبي العاص(١٧٦). قال: قُلتُ: ما هي بدار أبي العاص، ولكنها دارنا، كانت لنا في الجاهلية ثم أسلمْنا فيها، قال: ما كانت لكم إلا عُمْرَي(١٧٧).

(١٧١) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٣٠٩؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٥٢. والبُخْت: هي الإبل الخُرسانية، وهي الأنثى من الجمال ذات الأعناق الطويلة. ابن منظور، لسان العرب، ج٢، ص ٩.

(١٧٢) وَلَد الخطاب بن نفيل: نسبة إلى الخطاب بن نُفيل بن عبدالعزى بن رياح بن عبدالله بن قُرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، وهو والد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. انظر: الزبيري، نسب قريش، ص ص ٣٤٦ -٣٥٠.

(١٧٣) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٣٠٩؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٥٢.

(١٧٤) هو أوس بن سعد بن أبي سرح العامري، أسلم بعد فتح مكة وعاش إلى خلافة عبدالملك بن مروان. انظر: ترجمته عند: ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، بيروت: دار الفكر العربي، د. ت، ج١، ص ص ٨٤ -٨٥. ويرد اسمه الأول في كتب الأنساب أويس بدلاً من أوس. انظر: الزبيري، نسب قريش، ص٤٣٣؛ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص١٧٠.

(١٧٥) الحكم: هو الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبدشمس القرشي الأموي، عم الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه ووالد مروان. انظر ترجمته عند: ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ج١، ص ص٣٤٤ -٣٤٥.

(١٧٦) أبو العاص: هو أبو العاص بن أمية الأكبر بن عبدشمس بن عبدمناف، ومن بنيه بنو مروان بن الحكم بن أبي العاص. انظر: الكلبي، جمهرة النسب، ص ص ٣٨ -٣٩. الزبيري، نسب قريش، ص ص ١٥٩ -١٦٠.

(١٧٧) العُمْرَي: أصل العمري مأخوذ من العمر، وهو أن يدفع الرجل إلى أخيه داراً ويقول: هذه لك عُمْرَك أو عُمْري، أينا مات دفعت الدار إلى أهله، وكان ذلك في الجاهلية، وبعد الإسلام أبطل ذلك العمل، وأصبح من أعمر داراً فهي لورثته. =

قال: قلت: إنما كانت هي لنا بقضاء رسول الله ﷺ. قال: صدقت، فَبِعْنيها، قال: قلت: أما بمالٍ فلا، لا أبيعُكها إلا بدار. قال [عبدالملك]: فانظر أي دوري شئتَ بمكة..."(١٧٨)، فباع أوس بن سعيد تلك الدار لعبدالملك بن مروان بدار اختارها(١٧٩).

وأشار الفاكهي إلى دار اشتراها الخليفة الوليد بن عبدالملك (٨٦ -٩٦هـ/ ٧٠٥ -٧١٥م). فروى: "ولعمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه دارُه، وكانت قَبْلَه لناس من بني الحارث بن عبدمناة(١٨٠)، ثم ابتاعها الوليدُ بن عبدالملك، فبناها له عمر بن عبدالعزيز، ثم توفي الوليد قبل أن يفرغ منها، ثم صارت بعد ذلك لعمر بن عبدالعزيز، فتصدق بها على الحجاج والمعتمرين..."(١٨١).

وبالإضافة إلى الخلفاء، استثمر بعض عمال بني أمية أموالهم في بيوت اشتروها بمكة. ومن هؤلاء الحجاج بن يوسف الثقفي (ت ٩٥هـ/ ٧١٤م)، حيث روى الفاكهي أن الحجاج بن يوسف أمر أخاه محمد بن يوسف الثقفي (ت ٩١هـ/ ٧١٠م)(١٨٢) أن يشتري له داراً كانت لعبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف، فاشتراها بمئة ألف درهم(١٨٣)، ثم أمر الحجاج بن يوسف أخاه محمداً أن يبنيها،

= ابن منظور، لسان العرب، ج٤، ص ص ٦٠٢ -٦٠٣؛ وانظر هنا: مالك بن أنس الأصبحي (ت١٧٩هـ/ ٧٩٥م): الموطأ، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٥م، كتاب الأقضية، باب القضاء في العمري، ج٢، ص ص ٧٥٦ -٧٥٧.

(١٧٨) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ص ٢٨٥ -٢٨٦؛ وقارن: ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ج١، ص ص ٨٤ -٨٥.

(١٧٩) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص٢٨٦؛ وقارن: ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ج١، ص ص٨٤ -٨٥.

(١٨٠) هم بنو الحارث بن عبدمناة بن كنانة. انظر نسبهم عند: الكلبي، جمهرة النسب، ص ص ١٦١ -١٦٣؛ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ١٨٨.

(١٨١) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٢٩١؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ص ٢٤٠ -٢٤١.

(١٨٢) انظر ترجمته عند: الذهبي، تاريخ الإسلام (٨١ -١٠٠هـ)، ص ص ٤٧٠ -٤٧١.

(١٨٣) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٢٦٦.

فبناها وكلاء محمد، وبلغ المال الذي أنفقه على بنائها ثلاثين ألف دينار[١٨٤].

كما اشترى خالد بن عبدالله القسري (ت ١٢٦هـ/ ٧٤٣م)[١٨٥] - الذي تولى إمارة مكة في عهد الخليفة الوليد بن عبدالملك - بيوتاً صغاراً من حلفاء لآل حرب بن أمية، فكانت تُعرف به[١٨٦].

والواقع، أن حركة البيع والشراء في دور مكة تدل على اهتمام الخلفاء الأمويين وولاتهم بأن تكون لهم دار إقامة بمكة بجوار المسجد الحرام. كما تدل بعض الأسعار التي أوردها الفاكهي على غلاء البيوت سواء عند بيعها أو شرائها وخاصة الدور التي بجوار المسجد الحرام. ولا غرابة في ذلك فالمسجد الحرام هو مقصد المسلمين الذي تدور حوله الحياة الاقتصادية والتجارية في مكة.

ثالثاً: النشاط الحِرفي

أورد الفاكهي معلومات قيّمة عن النشاط الحِرفي السائد في مكة، فذكر أصحاب المهن والحِرف وأماكنهم، وهم كالآتي:

١ - **الصيارفة**: وهم الذين يتعاملون بالأموال، فيبيعون الذهب بالفضة، ويصرفون الدراهم بالدنانير[١٨٧].

وقد أشار الفاكهي إلى سوق الصيارفة في حديثه عن دور بني مخزوم، فروى أن: "دار العباس بن محمد [ت ١٨٦هـ/ ٨٠٢م][١٨٨]

---

(١٨٤) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٢٦٧.

(١٨٥) انظر ترجمته عند: ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج٢، ص ٦٣.

(١٨٦) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٢٩٩؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٤٩. حيث يذكر أنها تعرف بدار القسري.

(١٨٧) ابن منظور، لسان العرب، ج٩، ص ١٩٠. وانظر: البابطين، الحياة الاجتماعية، ص ١٥٧.

(١٨٨) هو العباس بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب. انظر ترجمته عند: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ص ٢٠، ٣٣ -٣٤؛ الذهبي، تاريخ الإسلام (١٨١ -١٩٠هـ)، ص ص ٢٠٤ -٢٠٥.

التي على الصيارفة، فإنه من ربع العائذيين من حق آل صيفي بن عائذ بن عبدالله بن عمر بن مخزوم"(١٨٩).

وروى الفاكهي أن مكان الصيارفة بجوار البَزّازين وبالقرب من الصفا(١٩٠). ولا شك أن وجود سوقٍ للصيارفة يدل على الانتعاش التجاري الذي كان سائداً في مكة.

٢ - **العطارون**: وهم الذين يبيعون العطر وهم اسم جامع للطيب، وحرفتهم العطارة(١٩١).

وقد ذكر الفاكهي العطارين وأماكنهم وأسواقهم في مكة، فروى أن دار يعلي بن مُنْيَة(١٩٢) التي كانت خلف المسجد الحرام يقال لها: "ذات الوجهين، كان لها بابان، وكان يوجد فيها العطارون، وكانت مما يلي الباب الذي يقال له: باب بني شيبة، دخلت في المسجد الحرام"(١٩٣).

وذكر الفاكهي في مواضع عدة من كتابه زقاق العطارين(١٩٤)، وحدد مكانه في حديثه عن أبواب المسجد الحرام، فروى أن: "باب النبي ﷺ وهو الباب الذي يقابل زقاق العطارين، وهو الزقاق الذي يُسلك منه إلى بيت النبي ﷺ وهو البيت الذي كان تسكنه خديجة بنت خويلد رضي الله عنها..."(١٩٥).

---

(١٨٩) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٣٢٢؛ وانظر: المصدر نفسه، ص٣٢٩؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٦٠.

(١٩٠) الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٠٨. ج٣، ص ٣٢٩؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٥٩.

(١٩١) ابن منظور، لسان العرب، ج٤، ص ٥٨٢.

(١٩٢) هو يَعْلي بن أمية بن أبي عبيدة التميمي المكي، وينسب إلى أمه مُنْية بنت غزوان، ولم تحدد المصادر سنة وفاته، وقيل: بقي إلى أواخر خلافة معاوية بن أبي سفيان. انظر ترجمته عند: الذهبي، تاريخ الإسلام (٤١ -٦٠هـ)، ص ص ٣٢٥ - ٣٢٦؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج٦، ص ص ٢٥١ -٢٥٢.

(١٩٣) الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص ص ٢٩٦ -٢٩٧؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٤٨.

(١٩٤) الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٠٨، ج٣، ص ص ١٦، ١٩، ٣١٨، ٣٣٠؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ص ٧٨، ٨٧، ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٦٠.

(١٩٥) الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص١٧٠؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٧٨.

٣ - **الصيادلة**: هم الذي يبيعون العقاقير التي يحتاجها المرضى[١٩٦]. وقد أشار الفاكهي إلى الصيادلة ومكانهم، فروى في حديثه عن الدور التي تستقبل المسجد الحرام من جانبه الشرقي، مكان إقامة الصيادلة[١٩٧].

٤ - **الحطابون**: هم الذين يجلبون الحطب لبيعه ومهنتهم الحطابة، وقد ذكر الفاكهي أصحاب الحطب، فذكر حمَّام الحويطبيين عند دارهم في زقاق لهم[١٩٨]. وأشار إلى سوق الحطب بأسفل مكة[١٩٩].

والجدير بالملاحظة، أنه كان يُباح للحطابين وغيرهم من أصحاب المهن، ممن لهم حاجة تتكرر، كالحمالين والرعاة دخول مكة بغير إحرام؛ وذلك لارتباط مصالحهم بمصالح الناس، ولأنه يصعب عليهم كلما أرادوا دخول مكة الإحرام[٢٠٠]. فقد روى الفاكهي أن عبدالله بن العباس رضي الله عنهما قال: "لا يدخل إنسان مكة إلا الحمالين والحطابين وأصحاب منافعنا إلا وهو محرم"[٢٠١].

---

(١٩٦) ابن منظور، لسان العرب، ج١١، ص ص ٣٧٨، ٣٨٦ -٣٨٧.

(١٩٧) الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص ص ٢٠٩؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٥٥. حيث يذكر دارًا على الصيادلة بين الصفا والمروة.

(١٩٨) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ١٠٠.

(١٩٩) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ١٥٤؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٣٢. ويذكر محقق كتاب الأزرقي، رشدي صالح ملحس أن سوق الحطب يُسمى اليوم (الهجلة). انظر: المصدر السابق، ج٢، هامش ٧.

(٢٠٠) محمد بن إدريس الشافعي (ت٢٠٤هـ/ ٨٢٠م)، الأم، تحقيق محمد زهري النجار، بيروت: دار المعرفة، د. ت، ج٢، ص ص١٤٠ -١٤٢؛ أحمد بن عبدالحليم بن تيمية (ت٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م)، شرح العمدة في بيان مناسك الحج والعمرة، تحقيق صالح بن محمد الحسن، ط١، الرياض: مكتبة الحرمين ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، ج١، ص ص٣٢٨، ٣٥٢ -٣٥٣؛ وقارن: السيد سابق، فقه السنة، بيروت: دار الكتاب العربي، د. ت، ج١، ص ص٦٩١ -٦٩٢.

(٢٠١) الفاكهي، أخبار مكة، ج١، ص ٤١٣؛ وقارن: أحمد بن عبدالله بن محمد الطبري (ت٦٩٤هـ/ ١٣٠٧م)، القرى لقاصد أم القرى، تحقيق مصطفى السقا، ط٣، القاهرة: دار الفكر، ١٩٨٣م، ص ٢٥٩؛ ابن تيمية، شرح العمدة، ج١، ص ص٣٥٢ -٣٥٣.

٥ - **الجزارون:** ومهنتهم الجزارة، وهي من المهن الحِرفية المزدهرة بمكة لعلاقتها بكثرة ما يُنحر من الإبل والبقر والغنم في أيام الحج بمكة ومنى. وقد أشار الفاكهي إلى مهنة الجزارة السائدة في مكة، فروى مكان الجزارين وسوقهم، فخلال حديثه عن حصار الحجاج بن يوسف لعبدالله بن الزبير، ذكر أن عبدالله بن الزبير عندما فرغ من صلاة الصبح حمل على أهل مصر في الجيش الشامي بالسيف "حتى بلغ موضع الجزارين حيث كانوا عند دار أم هانئ رضي الله عنها ثم يرجع فيستلم الركن"(٢٠٢).

وذكر الفاكهي سوق الجزارين الأول عند دار الإمارة، فروى عن شاهد عيان: "أنه قد رأى في موضع دار الإمارة الجزارين يعملون، وهي كانت موضع سوقهم في الزمان الأول"(٢٠٣). كما ذكر زقاقاً للجزارين، فروى أنه كانت فيها دار لسعد بن أبي طلحة العبدري، فابتاعها منه معاوية بن أبي سفيان(٢٠٤).

٦ - **الدبّاغون:** هم الذين يدبغون الأديم وهي الجلود، وحرفتهم الدباغة(٢٠٥). وهي من الحرف المزدهرة في مكة، حيث يستفيد الدباغون من جلود الحيوانات التي تنحر في مواسم الحج وغيرها. وقد أشار الفاكهي إلى الدبّاغين ومكانهم، فروى أن دار صفوان بن أمية الجمحي بأسفل مكة، يقال لها: "دار مصر، فيها الدبّاغون"(٢٠٦).

٧ - **الحذاؤون:** هم الذين يصنعون النعل(٢٠٧)، وقد ذكر الفاكهي الحذائين وأن لهم سوقاً في مكة يقيمون بها(٢٠٨)، وحدد مكانهم

---

(٢٠٢) الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص ٣٦٠.
(٢٠٣) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٢٧٤.
(٢٠٤) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٢٩٠؛ وانظر: المصدر نفسه، ص ٣١٧؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٣٨.
(٢٠٥) ابن منظور، لسان العرب، ج٨، ص ٤٢٤.
(٢٠٦) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٣٤٢.
(٢٠٧) ابن منظور، لسان العرب، ج١٤، ص ١٧٠.
(٢٠٨) الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص ١٦٦؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٧٥.

فقال: إن للمسجد الحرام أربع منارات، وإن المنارة الرابعة كانت مطلّة على دار الإمارة وعلى الحذائين[٢٠٩]. كما ذكر أن هناك داراً في زقاق الحذائين، اشتراها معاوية بن أبي سفيان[٢١٠].

وقد أوضح الفاكهي أن الحذائين استمروا يزاولون عملهم بجوار المسجد الحرام على الجانب الشرقي منه إلى العصر العباسي. حتى إن دار عيسى بن جعفر (ت ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م)[٢١١] كان فيها الحذاؤون[٢١٢].

٨ - **الحدادون**: هم الذين يعالجون الحديد ويصنعونه[٢١٣] للانتفاع به، ومهنتهم الحدادة، حيث يقومون بصناعة بعض الأواني المنزلية الحديدية، وكذلك صناعة الأسلحة[٢١٤]، وقد أشار الفاكهي إلى الحدادين في مكة، فذكر داراً للحدادين، وقال: إن لمعاوية بن أبي سفيان داراً في زقاق الحدّادين[٢١٥].

٩ - **النجارون**: هم الذين يحترفون النجارة، وهي نحت الخشب[٢١٦] للانتفاع به، وقد ذكر الفاكهي النجارين في مكة، فقال: إن لبني عبدشمس بن عبدمناف دار عمرو بن سعيد بن العاص (ت٧٠هـ/ ٦٨٩م) التي عند النجارين[٢١٧] كما أشار إلى زقاق النجارين[٢١٨].

---

(٢٠٩) الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص ص٢٠٢ -٢٠٣؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٩٨.

(٢١٠) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٢٧٤؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٣٤.

(٢١١) عيسى بن جعفر من ولد موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. انظر ترجمته عند: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ص ٥٩ -٥٨.

(٢١٢) الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٠٩؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٥٥.

(٢١٣) ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص ١٤١.

(٢١٤) انظر: السيف، الحياة الاقتصادية، ص ١٥٦.

(٢١٥) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ص ٢٨٨ -٢٨٩؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٣٩.

(٢١٦) ابن منظور، لسان العرب، ج٥، ص ١٩٣.

(٢١٧) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٢٧٧؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٤٠. وانظر ترجمة عمرو بن سعيد عند: ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج٤، ص ص ٣٤٠ -٣٤١.

(٢١٨) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٢٨٣؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٤٣.

١٠ - **الخياطون:** هم الذين يخيطون الأثواب[٢١٩]، ومهنتهم الخياطة، وقد أشار الفاكهي إلى الخياطين وأسواقهم[٢٢٠].

١١ - **الحجَّامون:** هم الذين يقومون بمهنة الحجامة، وهي مص دم الرأس بآلة كانت تُسمى المحجم يُجمع فيها الدم[٢٢١]، وقد ذكر الفاكهي الحجامين ومكانهم في حديثه عن دور بني نوفل بن عبدمناف، فقال: "ومن رباعهم أيضاً: الدارُ التي عند المروة، في صف دار عمر بن عبدالعزيز، وجهُها شارعٌ على المروة، الحجّامون في دُبُرها، وهي اليوم في الصوافي..."[٢٢٢].

١٢ - **الخرّازون:** هم الذين يقومون بخياطة الجلود[٢٢٣]، وحرفتهم الخرازة، حيث يستفيدون من الجلود في صناعة الأحذية والنعل والأواني الجلدية وغيرها من المصنوعات الجلدية[٢٢٤]، وقد أشار الفاكهي إلى الخرّازين في حديثه عن دور بني عبدشمس بن عبدمناف، فقال: "ودار حنظلة بن أبي سفيان[٢٢٥] التي فيها أصحاب الخَرَز، كانت من دور أبي سفيان..."[٢٢٦].

---

(٢١٩) ابن منظور، لسان العرب، ج٧، ص ٣٩٨.

(٢٢٠) انظر الفقرة السابقة: ٢ - الأسواق التجارية المتخصصة، ب - أسواق المنسوجات والألبسة.

(٢٢١) ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص ص ١١٦ -١١٧؛ وانظر أيضاً: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط٢، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٨م، ج٧، ص ص ٥٨٣ -٥٨٤.

(٢٢٢) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٢٩٩؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٤٩.

(٢٢٣) ابن منظور، لسان العرب، ج٥، ص ص ٣٤٤ -٣٤٥.

(٢٢٤) السيف، الحياة الاقتصادية، ص ص ١٥٩ -١٦٠. وانظر أيضاً: عبدالعزيز بن إبراهيم العُمري، الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول ﷺ، ط٣، الرياض: دار إشبيليا للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ص ص ٢٨٢ -٢٨٤.

(٢٢٥) هو حنظلة بن أبي سفيان بن حرب بن أمية قُتل في موقعة بدر. انظر: الزبيري، نسب قريش، ص ص ١٢١ -١٢٣.

(٢٢٦) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٢٧٨؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٥٥. حيث يذكر زقاق الخرازين.

١٣ - **القوّاسون**: وهم الذين يقومون بصناعة الأقواس، وهي آلة لرمي السهام(٢٢٧)، وقد أشار الفاكهي إلى القواسين ومكان إقامتهم بمكة، فقال: "وكانت دار لُبابة بنت علي بن عبدالله بن عباس(٢٢٨) التي عند القوّاسين لحنظلة بن أبي سفيان"(٢٢٩).

ويرتبط بالقواسين أصحاب الشوحط؛ وهم الذين يجلبون الشوحط، وهو نوع من النبات ينمو بجبال السراة(٢٣٠)، وتُتخذ منه القسي(٢٣١)، وقد ذكر الفاكهي أصحاب الشوحط ومكانهم، فقال في حديثه عن رباع حلفاء بني زهرة(٢٣٢): "ولآل القاريين(٢٣٣) الدارُ التي فيها أصحاب الشوحط، كانت قبلهم لبني زُهّرة"(٢٣٤).

خاتمة:

كان الهدف من هذه الدراسة هو محاولة إعطاء صورة عن النشاط التجاري والحِرفي في مكة في العصر الأموي من خلال المعلومات المتاحة في كتاب الفاكهي: أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه.

وقد بدأت الدراسة بتمهيد يتناول التعريف بالفاكهي وأهمية كتابه لتاريخ مكة، كونها استقت المعلومات التجارية والحِرفية في مكة في العصر الأموي من خلال المعلومات التي أوردها في كتابه.

---

(٢٢٧) ابن منظور، لسان العرب، ج٦، ص ١٨٥.

(٢٢٨) انظر ترجمتها عند: الزبيري، نسب قريش، ص ص ١٢١ -١٢٣.

(٢٢٩) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٢٨٨؛ وقارن: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص ٢٣٩.

(٢٣٠) جبال السراة: هي سلسلة جبال عالية بالحجاز تنمو فيها أنواع عدة من الأشجار. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص ص ٢٠٤ -٢٠٥.

(٢٣١) ابن منظور، لسان العرب، ج٧، ص ٣٢٨.

(٢٣٢) هم بنو زهرة بن كلاب، ومنهم آمنة بنت وهب بن عبدمناف بن زهرة بن كلاب أم الرسول ﷺ. انظر: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ص ١٢٨ -١٢٩.

(٢٣٣) هم بنو الهون بن خزيمة ويقال لهم: القارَة. انظر: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ١٩٠.

(٢٣٤) الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص ٣١٨.

وقد بينت الدراسة أهمية المؤرخ الفاكهي، ودقته في المعلومات التي أوردها. وكذلك بينت أهمية كتابه لتاريخ مكة، ليس فقط في النواحي التجارية والحِرفية التي تناولتها هذه الدراسة، بل في النواحي الدينية والسياسية والاجتماعية والعلمية والأدبية. وهي مجال رحب لدراسات عن تاريخ مكة احتواها هذا الكتاب منذ عصر ما قبل الإسلام حتى العصر العباسي.

ثم ركزت الدراسة على الأنشطة التجارية والحِرفية التي كانت سائدة في مكة في العصر الأموي والتي أظهرها كتاب الفاكهي القيم، وهي مظهر من مظاهر الأنشطة الاقتصادية القديمة في مكة والتي استمرت في العصر الأموي وبعضها استمر إلى ما بعد العصر الأموي.

وقد بدأت بدراسة الأسواق التجارية والسلع المتداولة بها، وقسمتها إلى نوعين من الأسواق؛ وهما الأسواق التجارية العامة والتي تباع فيها شتى السلع التجارية، والأسواق التجارية المتخصصة بأنواع منفردة من السلع. ومن خلال استعراض الدراسة للأسواق أظهرت مدى المعلومات القيمة التي أوردها الفاكهي عن العديد من الأسواق العامرة كأسواق المواد الغذائية، والمنسوجات والألبسة، والرقيق، والماشية والأغنام وغيرها من الحيوانات، والجلود.

وأوضحت الدراسة التجارة السائدة في أسواق مكة وأنواعها؛ كتجارة المواد الغذائية، والرقيق، والملابس، والماشية وغيرها من الحيوانات كالطيور والأسماك، وتجارة الجلود. وبينت انتعاش هذه التجارات ورواجها في مكة مهبط الوحي ومقصد المسلمين للحج والعمرة.

كما بينت الدراسة التجارة الخارجية في بعض السلع التي كانت تُجلب لمكة وتُباع فيها كالحبوب والملابس.

وأوضحت الدراسة انتعاش تجارة العقار ومردوده المالي في مكة؛ فتناولت رواج الكِراء في دور مكة وكذلك انتعاش البيع والشراء لبيوتها من خلال تبيين الدور التي اشتراها الخلفاء الأمويون، وكذلك الزبيريون وعمال بني أمية، وأن أسعار بعض هذه الدور كانت غالية الثمن لقربها من المسجد الحرام.

وبينت الدراسة أنواع الحرف السائدة في مكة، فعرفتها وبينت أصحابها وأماكنهم، وهي حِرف مرتبطة بالحياة الاقتصادية في مكة، تلبي حاجات الناس وطلباتهم.

ويستنتج من الدراسة، أهمية كتاب الفاكهي وقيمته العلمية بما احتواه من معلومات اقتصادية متنوعة تجارية وحِرفية عكست الحياة الاقتصادية بغناها وتعددها في مكة في العصر الأموي، وهي تمثل جانبًا واحدًا من جوانب عدة احتواها كتاب الفاكهي.

وتبين من خلال المعلومات الاقتصادية التي وفرها الفاكهي أن النشاط التجاري والحِرفي في مكة كان أغلبه يتمركز حول المسجد الحرام الذي يؤمه المصلون، والحُجَّاج والمعتمرون.

كما يستنتج من الدراسة، حالة مزدهرة من البيع والشراء في أسواق مكة لتنوع السلع التجارية المعروضة بها، وازدياد الطلب عليها، ليس فقط في المواسم، بل على مدار العام.

وأخيراً، لعل هذه الدراسة قد أوفت الموضوع حقه من الاهتمام والعناية، وهي - على أية حال - محاولة قصد بها تسليط الضوء على الأنشطة التجارية والحِرفية في مكة في العصر الأموي من خلال المعلومات القيمة التي أوردها الفاكهي في كتابه: أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه.

جهود الخلافة العباسية في عمارة الحرمين الشريفين ومشاعر الحج في الحجاز (١٣٢-٦٥٦هـ)

د. محمد بن عبدالله القدحات

قسم التاريخ - كلية التربية المطورة - حفر الباطن

ظل العباسيون يتمتعون بالسيادة على الحجاز لا ينازعهم فيه منازع حتى أقام الفاطميون دولتهم في أفريقيا[١]، وأخذوا يعملون على توسيع رقعتها على حساب الخلافة العباسية، وكانت البداية استيلاءهم على مصر والشام[٢]، فلما تم لهم فتح هذه البلاد، وأصبحت القاهرة مقر خلافتهم تطلعوا إلى بسط نفوذهم على الأراضي المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة[٣]؛ ليكسبوا خلافتهم قوة شرعية أمام العالم الإسلامي، ويضعفوا من شأن الخلافة العباسية في نفوس المسلمين.

---

(١) كانت بداية تأسيس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب عام ٢٩٦هـ على يد عبيدالله المهدي. للتفاصيل انظر: حسن إبراهيم حسن وطه شرف، عبيدالله المهدي إمام الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب، القاهرة، ١٩٤٧م، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، القاهرة: (د. ن)، ١٩٥٩م، محمد جمال الدين سرور، الدولة الفاطمية، القاهرة: دار الفكر العربي (د. ت). فهذه الكتب ترشد بدورها إلى المصادر الأولية التي تناولت قيام الدولة الفاطمية في المغرب.

(٢) استطاع الفاطميون السيطرة الكاملة على مصر عام (٣٥٨هـ). حسن إبراهيم، الدولة الفاطمية، ص ٢٤-٨٥، سرور، الدولة الفاطمية، ص ٦٤-٦٦.

(٣) محمد جمال الدين سرور، النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، ط٤، القاهرة: (د. ن)، ١٩٦٤م، ص١٤، عطية القوصي، تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الدولة العباسية، القاهرة: (د. ن)، ١٩٧٦م، ص١٠٨-١٠٩.

لم يدر بخلد العباسيين بعد أن تقلدوا الخلافة أن الاحتفاظ بالسيادة على مكة والمدينة سيكون له أثر في وثوق رعاياهم من المسلمين بأحقيتهم بالخلافة، فلما طمع الفاطميون بالسيطرة على هاتين المدينتين، ظهرت من ثنايا الصراع فكرة جديدة تتضمن أن أمير المؤمنين هو من استطاع بسط نفوذه على الحرمين (المكي والمدني)، وأن نفوذ خلافته لا تكتمل عناصرها في نظر المسلمين ما لم تؤيده الخطبة له بالحرمين[٤].

فالحجاز مهبط الوحي والرسالة الإسلامية، ومركز الحج الذي يتوافد إليه المسلمون في كل عام؛ لأداء أحد أركان الإسلام. إضافة إلى أهميته الجغرافية كحلقة وصل بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها، وبلاد الشام ومصر، حيث تمر القوافل التجارية من خلال طرقه[٥].

وكان العلويون بهذا النزاع الخصم الثالث الذي يأتي أخيراً، فيفوز بالغنيمة، فاستقل أمراء الأشراف من بني الحسن بمكة، كما استقل الأشراف من بني الحسين بالمدينة[٦]. وأصبح هؤلاء الأمراء سادة الحرمين[٧] مستغلين التنافس بين الخلافتين؛ لتعزيز مركزهم في

---

(٤) محمد جمال الدين سرور، النفوذ الفاطمي في بلاد العراق والشام في القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٥٧م، ص ١٤.

(٥) عبدالقادر بن محمد الجزيري (ت ٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م)، درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٨٤هـ، ص٥٦٧.

(٦) تجدر الإشارة إلى أن الحجاز منذ القرن الرابع الهجري أصبحت ولاية شبه مستقلة من الناحية العملية عن الدولة العباسية، وتقتصر العلاقة على إعلان أمراء مكة والمدينة الخطبة لأي من المتنافسين: العباسيين والفاطميين. ومنذ ذلك التاريخ تعاقب على حكم مكة ثلاث أسر، هم: الأشراف الموسويون، ثم أسرة الهواشم، ثم بنو قتادة. أما المدينة فقد تولتها أسرة واحدة من أحفاد الحسين بن علي بن أبي طالب، التي عرفت فيما بعد بأسرة بني مهنا. أحمد بن علي بن عنبة (ت٨٢٨هـ/ ١٤٢٤م)، عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، عمان: صورة المخطوط نشرتها وزارة الثقافة، ١٩٩٦م، ص١٠٨-١١٩، سليمان خرابشة، التنافس السلجوقي الفاطمي على الحجاز، الأردن، إربد: مطبوعات جامعة اليرموك، ١٩٩٩م، ص١٣-١٤.

(٧) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٦٧م، ج٢، ص٥-٦.

شرافة الحجاز. لذا كانوا لا يترددون في الخطبة لأي منهما بحسب ما يقدمه من أموال وأعطيات[٨].

بدأ التنافس المعلن بين العباسيين والفاطميين سنة (٣٥٨هـ/ ٩٦٨م)[٩] بعد أن نجح الفاطميون في مد نفوذهم إلى إقليم الحجاز، حيث سارع شريف مكة جعفر بن محمد بن الحسن بالخطبة باسم الخليفة المعز لدين الله، معلناً تبعية بلاده للخلافة الفاطمية[١٠]. كما أقيمت في العام التالي الخطبة للمعز بالمدينة المنورة، وحذف اسم الخليفة العباسي المطيع لله من الخطبة[١١]. ومقابل ذلك بعث المعز الفاطمي إلى شريف مكة بتقليده الحرمين وأعمالهما، وأرسل إليه عشرين حملاً من المال[١٢].

استمرت الخطبة بعد ذلك للفاطميين في مكة والمدينة لمدة قرن من الزمان، التزم الفاطميون خلالها بدفع المستحقات المالية المترتبة عليهم تجاه أمراء الحرمين الشريفين[١٣].

ورغم منافسة العباسيين الضعيفة للفاطميين، وحرصهم الشديد على أن تكون لهم السيادة على الحجاز، إلا أنهم فشلوا في ذلك؛ بسبب ضعف مركزهم السياسي، وتغلب العناصر الأجنبية على السلطة.

---

(٨) خرابشة، التنافس السلجوقي الفاطمي، ص٣٥.

(٩) بدأ الاهتمام بالحجاز من قبل الفاطميين سنة ٣٤٨هـ عندما تدخل المعز لدين الله لحل النزاع الذي وقع بين بني الحسن وبني جعفر، حيث أنفذ لهم سراً مالاً ورجالاً سعوا بالصلح بينهما، وقام رسل الخليفة بأداء دية القتلى من بني الحسن؛ مما كان له أطيب الأثر في نفوسهم. تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٤٨م، ج٢، ص ١٤٥-١٤٦.

(١٠) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص١٠١.

(١١) أبو الحسن علي بن الأثير (ت٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، بيروت: دار صادر، ١٩٦٦م، ج٧، ص٣٠-٣١.

(١٢) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٢٢٥، سرور، النفوذ الفاطمي، ص١٥.

(١٣) تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي (٨٣٢هـ/ ١٤٢٩م)، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، ط١، تحقيق فؤاد السيد، القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، ١٩٧٦م، ج١، ص٤٤١، محمد المناوي، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٠م، ص٢١٠.

ومع منتصف القرن الخامس الهجري ظهرت قوة سياسية عسكرية جديدة في المشرق الإسلامي، ونقصد بها السلاجقة[١٤] الذين استطاعوا تأسيس دولة مترامية الأطراف في المشرق، شملت إقليم بلاد ما وراء النهر[١٥] وطبرستان[١٦]. وعلى الرغم مما كانت تتمتع به من نفوذ إلا أنها كانت بحاجة إلى دعم معنوي يقوي نفوذها، ويسبغ عليها الشرعية، ونقصد بذلك الاعتراف الرسمي من قبل الخليفة العباسي ببغداد.

كان المسلمون السنة في العراق وغيره من الأقاليم ينظرون إلى السلاجقة (السنة) نظرة متفائلة، وأنهم حماة المذهب، بعد الذي تعرضوا له على أيدي البويهيين ببغداد[١٧]، والفاطميين الشيعة،

---

(١٤) للمزيد عن قيام الدولة السلجوقية وتوسعها، انظر: صدر الدين علي بن نصر الحسيني (٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م)، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، تحقيق محمد نور الدين، بيروت: دار اقرأ للنشر والتوزيع، ١٩٨٥م، المؤلف نفسه، العراضة في الحكاية السلجوقية، ترجمة عبدالنعيم حسنين وحسين أمين، بغداد: مطبعة جامعة بغداد، ١٩٧٩م، عبدالنعيم حسنين، سلاجقة إيران والعراق، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٠م، تمارا رايس، السلاجقة، تعريب لطفي الخولي، بغداد، ١٩٦٨م، محمد مسفر الزهراني، نفوذ السلاجقة السياسي في الدولة العباسية، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٢م، دائرة المعارف الإسلامية: مادة سلاجقة.

(١٥) يقصد بها: بلاد ما وراء نهر جيحون. شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، معجم البلدان، بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٠م، ج٥، ص٤٥.

(١٦) مسمى يشمل بلادًا كثيرة من بلاد المشرق، منها دهستان وجرجان وآمل. ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص١٣.

(١٧) استولى بنو بويه على السلطة ببغداد عام (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) بعد حالة الضعف التي وصلت إليها الخلافة العباسية، وكان البويهيون شيعة على المذهب الزيدي، وبعد أن رسخوا وجودهم في بغداد، نجدهم يقربون الشيعة، ويولونهم المناصب، بل قاموا بإحياء بعض الأعياد الخاصة بالشيعة كيوم عاشوراء. للمزيد، انظر: أبو الفتح محمد بن عبدالكريم الشهرستاني (ت٥٤٨هـ/ ١١٥٣م)، الملل والنحل، تحقيق أمير مهنا وعلي فاعور، ط١، بيروت: دار المعرفة، ١٩٩٨م، ص١٨٠، أحمد محمد حلمي، الخلافة والدولة في العصر العباسي، ط٢، القاهرة: مكتبة الشباب، ١٩٧٢م، ص ٨٠، حسن منيمنة، تاريخ الدولة البويهية، ط١، بيروت: الدار الجامعية، ١٩٨٧م، Gibb, Government and Islam under the earl abbasid, Paris 1961. p.8, p.126.

الذين استغلوا ضعف الخلافة العباسية، فمدوا نفوذهم إلى بلاد الشام والعراق أيضاً(١٨).

كان السلاجقة قادرين على دخول بغداد، لكنهم حرصوا على أن يكون دخولهم بدعوة من الخليفة العباسي حتى لا يظهر دخولهم على أنه اجتياح أو احتلال. ونتيجة للظروف الصعبة التي كانت تعيشها الخلافة العباسية اضطر الخليفة القائم بأمر الله إلى الاستعانة بالسلاجقة بزعامة طغرلبك لإنقاذه من محنته(١٩).

وعندما قرر طغرلبك دخول بغداد عام (٤٤٧هـ/ ١٠٨٤م) علل أسباب قدومه بأنها لا تتعدى تقديم الولاء والطاعة للخليفة، ومساعدته على إقامة موسم الحج، وتأمين طريقه، ثم التوجه إلى مصر؛ لإعادة الخطبة للخليفة العباسي على منابرها(٢٠).

وكان تدهور أحوال الدولة الفاطمية في منتصف القرن الخامس الهجري عاملاً مهماً أسهم في تشجيع السلاجقة على إكمال مشروعهم التوسعي، وضم الحجاز إلى مملكتهم، فالدولة التي كانت ترعى الحرمين - الدولة الفاطمية - تعاني من الأزمات الاقتصادية المتعاقبة بدءاً من سنة (٤٤٤هـ/ ١٠٨١م)، حيث عم القحط، وانقطع فيضان النيل؛ فقل الإنتاج الزراعي، وانتشرت المجاعات والأوبئة(٢١). وقد استمرت هذه الأزمة سبع سنين (٤٤٦ - ٤٥٤هـ/ ١٠٥٤ - ١٠٦٢م)(٢٢).

---

(١٨) سرور، الدولة الفاطمية، ص٢٧٤، ص ٣١١.

(١٩) أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي (ت٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عطا ومصطفى عطا، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية (د. ت)، ج١٥، ص٣٤٨.

(٢٠) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٣٤٨، ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٧١.

(٢١) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٢٧٣.

(٢٢) المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٤٠م، ص٢٣-٢٤، خرابشة، التنافس السلجوقي الفاطمي، ص ٣٠-٣١.

وقد انعكس هذا سلباً على أحوال الدولة الفاطمية في مصر والخارج، وخاصة الحجاز، تمثل بعجزها عن الإيفاء بالتزاماتها المالية تجاه أشراف الحجاز الذين كانوا يلحون في المطالبة برسومهم، وأعطياتهم التي اعتادوا على تلقيها من الدولة الفاطمية[٢٣].

استغل أشراف الحجاز هذه الظروف، فسعوا في إقامة علاقات ودية مع السلاجقة، معتمدين على فكرة ترسخت مع الأيام تتمثل في استعدادهم لتقديم الولاء والطاعة لمن يقدم الأموال والخلع من القوى المتنافسة لبسط سيطرتها على الحجاز. بعث شريف مكة محمد بن جعفر إلى السلطان ألب أرسلان سنة (٤٦٤هـ/ ١٠٧١م) يخبره بإقامة الخطبة للخليفة العباسي القائم بأمر الله وللسلطان السلجوقي، وإسقاط اسم الخليفة الفاطمي المستنصر بالله من الخطبة، وترك الآذان بـ"حي على خير العمل"[٢٤]. فبعث إليه السلطان بثلاثين ألف دينار وخلع، وأجرى له كل سنة عشرة آلاف دينار، ووعد أنه إذا قام أمير المدينة بحذف اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة، وإقامتها للخليفة العباسي، فسوف يمنحه عشرين ألفاً، ويجري له كل سنة خمسة آلاف دينار[٢٥]. وقد شجع هذا العرض أمير مكة على الزحف إلى المدينة المنورة، وأخرج منها بني الحسين. وبذلك جمع بين إمارتي الحرمين، ودانت بلاد الحجاز مرة أخرى للعباسيين[٢٦].

ويلحظ خلال الفترة (٤٦٢-٥٥٠هـ/ ١٠٦٩-١١٥٥م) تذبذب ولاء أمراء الحجاز في ولائهم، فتارة يخطبون باسم العباسيين، وتارة

---

(٢٣) تقي الدين أحمد الفاسي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق عمر تدمري، ط١، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٥م، ج٢، ص٣١١.

(٢٤) محمد بن عمر فهد (٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م)، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق فهيم شلتوت، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٨٣م، ج٢، ص٤٧٣، خرابشة، التنافس السلجوقي الفاطمي، ص٣٩.

(٢٥) الجزيري، درر الفوائد، ص٢٥٥.

(٢٦) الجزيري، درر الفوائد، ص٢٥٥.

أخرى باسم الفاطميين، آخذين بعين الاهتمام قوة كل منهما، ومدى التزامه بدفع أعطياتهم(٢٧).

وكان سقوط الخلافة الفاطمية عام (٥٦٧هـ/ ١٢٠٠م)(٢٨) نقطة النهاية، فلم يعد أمامهم إلا إعلان التبعية للخليفة العباسي ببغداد، خاصة إذا علمنا أن العباسيين في الفترة المتأخرة - نتيجة للظروف السياسية التي أصبحوا يعيشونها - لم تتعد مطامحهم بالنسبة للحجاز التبعية الاسمية، تاركين شؤون الحكم والإدارة لأمرائها من العلويين.

ويستخلص من كل ما سبق أن أمراء الحجاز آثروا مصالحهم الخاصة على مصلحة البلاد التي يتولون الإمارة عليها، فاستغلوا التنافس بين العباسيين والفاطميين لإشباع مطامعهم، وصاروا يقيمون الخطبة للخلفاء الذين يواصلون إمدادهم بالأموال، ولا يعنون بإدخال ضروب الإصلاح في بلادهم، مما أدى إلى إضعاف شأنها وتأخيرها مادياً ومعنوياً، حتى إن المقدسي لما زار بلاد الحجاز في القرن الرابع الهجري لحظ قلة عدد سكانها، وقدرهم بألفين(٢٩).

وبعد هذه التوطئة، نتناول في الصفحات الآتية الجهود التي بذلتها الخلافة العباسية في رعاية الحرمين الشريفين، والمشاعر المقدسة في الحجاز.

---

(٢٧) للاطلاع على تفاصيل هذه المرحلة من تاريخ الحجاز وعلاقاتها مع الدولتين، انظر: أحمد السباعي، تأريخ مكة، مكة المكرمة: دار مكة للطباعة، ١٣٩٩هـ، ص١٧٧ وما بعدها، عائشة عبدالله باقاسي، بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، مكة: دار مكة للطباعة والنشر، ١٤٠٠هـ. ص٢٤ - ٣٣.

(٢٨) عز الدين أبو الحسن علي بن الأثير (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبدالقادر طلميات، القاهرة: دار الكتب الحديثة، ١٩٦٣م، ص١٥٦.

(٢٩) أبو عبدالله محمد بن أحمد المقدسي (ت٣٨٠هـ/ ٩٩٠م)، أحسن التقاسيم إلى معرفة الأقاليم، طبعة دي غويه، ليدن، ١٩٠٦م، ص١٠٣.

عمارة المسجد الحرام

تعاقبت جهود الخلفاء العباسيين على عمارة المسجد الحرام، منهم من زاد في مساحته، ومنهم من بذل الأموال في عمارته وإصلاحه. وكانت أول عمارة للعباسيين تمت في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور.

كان المنصور قد خرج عام (١٣٦هـ/ ٧٥٣م) أميراً لقافلة الحاج، وعندما وصل إلى مكة لفت انتباهه صغر مساحة المسجد الحرام، مع تزايد أعداد الحجاج في كل عام[٣٠]. ويبدو أنه قرر العزم على نقل ما شاهده ورغبته في التوسعة إلى الخليفة أبي العباس السفاح، لكن نعي أخيه السفاح جاءه قبل أن يصل بغداد مقروناً بالبيعة له بالخلافة[٣١]. فكان أول عمل قام به هو إصدار أوامره بتوسعة المسجد الحرام، وأوكل هذه المهمة إلى عامله على مكة زياد بن عبيدالله الحارثي. وقد بدأ العمل في التوسعة في العام التالي لخلافته (١٣٧هـ/ ٧٥٤م)، فقام زياد الحارثي بشراء الدور الواقعة شمالي المسجد وغربه وهدمها، ثم ضمها إلى مساحة المسجد[٣٢].

كانت الزيادة من الجهتين: الشمالية الشرقية من المسجد الذي يلي دار الندوة إلى أن ينتهي إلى منارة باب العمرة، والجانب الغربي من المسجد. ولم يزد من الجهة الجنوبية؛ لاتصالها بمجرى سيل وادي إبراهيم، ولصعوبة البناء بها. وبنى في هذه التوسعة أول منارة في تاريخ المسجد الحرام. كما عمل المنصور رواقاً دائرياً في صحن المسجد

---

(٣٠) علي بن تاج الدين السنجاري (ت ١١٢٥هـ/ ١٧١٣م)، منائح الكرام في أخبار مكة والبيت الحرام وولاة الحرم، ط١، مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ١٤١٩هـ، ج٢، ص٩٠.

(٣١) محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ/ ٩٢٢م)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: دار سويدان، ج٧، ص٤٧١.

(٣٢) أبو عبدالله محمد بن إسحاق الفاكهي (ت ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م)، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق عبدالملك بن دهيش، ط٣، بيروت: دار خضر، ١٤١٩هـ، ج٢، ص١٢٦٢.

بأساطين من الرخام، أقيمت حول المطاف، وزخرفت بالفسيفساء وماء الذهب، وزينت السقوف بأنواع من الزخرفة الإسلامية[٣٣].

وقام المنصور بكسوة جدران المسجد بالرخام من الداخل والخارج وبارتفاع الجدار نفسه[٣٤]. وهذه أول مرة تتم فيها تغطية جدران المسجد الحرام بكامله بالرخام؛ لوقايتها من السيول[٣٥]. وألبس حجر إسماعيل بالرخام من داخله وخارجه[٣٦]، وأمر المنصور أيضاً بتظليل الصحن أيام الصيف بستور تنشر على حبال ممدودة على خشب؛ لتقي المصلين حرارة الشمس[٣٧].

وعلى ضوء هذه الزيادة أصبحت مساحة المسجد الحرام تقدر بحوالي (١٥٤٤٠م٢)، بزيادة قدرها (٤٧٠٠م٢)، وبذلك بلغت الزيادة ضعف المساحة السابقة[٣٨]. وقد استمرت أعمال التوسعة ثلاثة أعوام (١٣٧-١٤٠هـ/ ٧٥٤-٧٥٧م)[٣٩].

وفي العام الذي انتهت فيه التوسعة حج الخليفة المنصور، فشاهد التوسعة، ولفت انتباهه بروز حجارة الحِجر[٤٠]، فأمر عامله على مكة

(٣٣) الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ١٧٢-١٧٤. أبو الوليد محمد بن عبدالله الأزرقي (٢٤٤هـ/ ٨٥٨م)، أخبار مكة، تحقيق رشيد ملحس، ط٣، مكة: دار الثقافة، ١٣٩٩هـ، ج٢، ص٥٨، عبداللطيف بن دهيش، عمارة المسجد الحرام والمسجد النبوي في العهد السعودي، الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ، ص٦٠.

(٣٤) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٥٨. حسين عبدالله باسلامة، تاريخ عمارة المسجد الحرام، ط٤، جدة: دار تهامة للنشر، ١٤٠٥هـ، ص٢٥.

(٣٥) ابن دهيش، عمارة المسجد الحرام، ص٦٠.

(٣٦) الأزرقي، تاريخ مكة، ج٢، ص٥٨.

(٣٧) محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي المشهور بابن بطوطة (٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)، الرحلة، كتب حواشيها طلال حرب، بيروت: دار الكتب العلمية (د. ت)، ص١٣٩.

(٣٨) محمد بن مساعد آل عبدالله، الزيادات في الحرم المكي الشريف من العصر النبوي حتى العهد السعودي، ط١، مكة: دار الصفا، ١٤١٦هـ، ص٦١.

(٣٩) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٥٨.

(٤٠) يقصد به حجر إسماعيل عليه السلام.

زياد الحارثي بتغطيتها بالرخام ليلاً، حتى إذا أصبح لا يراها إلا مغطاة، وقد فعل زياد ما أمره به الخليفة على سراج القناديل قبل أن يصبح الصباح[٤١]. وقد خلد المنصور عمله بنقش يحمل اسمه فوق باب بني جمح[٤٢].

وحظي المسجد الحرام بعناية فائقة في عهد الخليفة المهدي، فشهد زيادتين: الأولى بعد توليه الخلافة بعام (١٦٠هـ/ ٧٧٦م)؛ حيث حج ورأى ضيق مساحة المسجد ومعاناة الحجاج من الزحام، فأمر بتوسعته، وأوكل هذه المهمة إلى قاضي مكة محمد بن عبدالرحمن الأوقصي المخزومي، وكانت أول خطوة للتوسعة شراء الأراضي والدور المحيطة بالمسجد وإزالتها، وكان ثمن كل ذراع دخل في المسجد ٢٥ ديناراً، وخمسة عشر ديناراً مما دخل في الوادي. وشملت التوسعة الجهتين الشمالية والجنوبية[٤٣].

وأمر الخليفة المهدي بنقل أساطين الرخام من الشام ومصر إلى ميناء جدة، ثم نقلت على عربات إلى مكة[٤٤]. أما الأروقة فقد عملها على أساطين الرخام، وسقفت بخشب الساج[٤٥]. وقد انتهت أعمال التوسعة الأولى عام (١٦٤هـ/ ٧٨٠م)[٤٦]، وبلغت حوالي (٧٩٥٠م٢)، فصارت مساحة المسجد (٢٣٣٩٠م٢)[٤٧].

(٤١) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٧٢ -٧٣، إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٤٤هـ، ج١، ص٢٣٧.

(٤٢) انظر نص النقش: باسلامة، تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص٢٦.

(٤٣) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٧٤، رفعت، مرآة الحرمين، ج١، ص٢٣٩.

(٤٤) أبو البقاء محمد بن أحمد بن محمد بن الضياء المكي (ت٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م)، تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة المنورة والقبر الشريف، تحقيق علاء إبراهيم الأزهري وأيمن نصر الأزهري، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م، ص١٥٣، السنجاري، منائح الكرام، ج٢، ص١١٠، السباعي، تاريخ مكة، ج١، ص١٥٨.

(٤٥) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٧٦.

(٤٦) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٦٠، باسلامة، تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص٣٠.

(٤٧) آل عبدالله، الزيادات في الحرم المكي، ص٢٩.

وفي العام الذي انتهت به أعمال التوسعة قدم الخليفة المهدي إلى مكة؛ لأداء فريضة الحج، ومشاهدة أعمال التوسعة. فلحظ أن الكعبة المشرفة لا تتوسط المسجد بسبب صغر المساحة الواقعة بين الكعبة والرواق النبوي(٤٨). وقد تأكد من ذلك بعد أن صعد إلى جبل أبي قبيس(٤٩)، ثم دخل المسجد مرة أخرى، ولحظ الصعوبات التي تواجه الحجاج، فكانوا يسلكون الوادي خارج المسجد، ومنه إلى زقاق ضيق حتى يخرجوا إلى الصفا(٥٠)؛ فقرر إصلاح ذلك.

وقد استشار الخليفة المهدي المهندسين في إجراء التوسعة، فاستقر رأيهم على استحالة إجراء التوسعة لوقوعها في مجرى السيل، لكن المهدي أصر على التوسعة فقال: "لابد لي من سعة المسجد، حتى تكون الكعبة في وسطه، ولو أنفقت فيه ما في بيوت المال"(٥١). ولم يكن أمام المهندسين إلا الرضوخ لرغبة الخليفة المهدي، فعادوا من جديد إلى إجراء القياسات اللازمة، فرأوا أن ذلك يتطلب اقتطاع جزء من مجرى السيل من جهة المسجد مع توسعة مجرى السيل من الجهة الأخرى(٥٢). كما احتاطوا للسيل إذا زاد عن منسوبه بأن جعلوا أمام باب الهواشم (باب علي) بابا يقابله، فإذا دخل السيل من الأول خرج من الثاني، وهو باب الحزوزة (باب الوداع)(٥٣)، ووسع مجرى السيل من الجهة المقابلة بعد شراء الدور المطلة عليه(٥٤). وبعد هذه التوسعة صارت الكعبة تتوسط المسجد الحرام(٥٥).

---

(٤٨) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٧٩-٨٠، ابن أبي الضياء المكي، تاريخ مكة، ص١٥٤، رفعت، مرآة الحرمين، ج١، ص٢٣٧.

(٤٩) ابن أبي الضياء، ص١٥٣، ابن دهيش، عمارة المسجد الحرام، ص٦٣.

(٥٠) السباعي، تاريخ مكة، ج١، ص١٥٩.

(٥١) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٧٩.

(٥٢) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٨٠.

(٥٣) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٨٠-٨١، رفعت، مرآة الحرمين، ج١، ص٢٣٨.

(٥٤) ابن دهيش، عمارة المسجد الحرام، ص٦٣.

(٥٥) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٧٩، ابن أبي الضياء المكي، تاريخ مكة، ص١٥٥.

ودخل بهذه التوسعة جزء كبير من المسعى في المسجد، فقد كانت منطقة المسعى في صدر الإسلام عريضة، فبنى بعض السكان دورهم في جزء من عرضها، بينها وبين المسجد، فاستعيدت تلك الأرض بشراء الدور التي عليها. وبانتهاء أعمال التوسعة أصبح المسجد مطلاً على المسعى لا تفصله البيوت(٥٦).

أنشأ المهدي للمسجد الحرام ثلاث منارات: الأولى في الجهة الشرقية الشمالية عند باب السلام، والثانية في الجهة الشرقية الجنوبية عند باب علي، والثالثة في الجهة الجنوبية الغربية عند باب الوداع(٥٧). وقد خلد الخليفة المهدي هذا العمل على أحد جدران المسجد، وأشار إلى ذلك ابن بطوطة: "وكتب اسمه على مواضع من المسجد"(٥٨). لكن الموت داهم المهدي قبل إتمام أعمال الإعمار كافة للمسجد الحرام، فتكفل ابنه الخليفة الهادي بإتمام العمل، فبنى الأساطين من الحجارة، ثم طليت بالجص، لكن عمله لم يكن بإتقان عمل والده(٥٩). وأصبحت مساحة المسجد بعد الزيادة الثانية للخليفة المهدي (٢٥٧٥٠م٢)(٦٠).

ولم تقتصر عمارة المهدي على التوسعة للمسجد، بل كانت هناك إضافات أخرى لمرافقه، فقد أضاف خمسة أبواب للمسجد، هي: باب دار شيبة بن عثمان، والباب الكبير الذي كان يدخل منه الخلفاء، ويعرف بباب بني شيبة الكبير، والباب الذي في دار القوارير، وباب

---

(٥٦) السباعي، تاريخ مكة، ج١، ص١٥٩-١٦٠.

(٥٧) ابن أبي الضياء المكي، تاريخ مكة، ص١٥٩. باسلامة، تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص٣٦.

(٥٨) ابن بطوطة، الرحلة، ص١٣٩، وقد أزيلت هذه الكتابة عند تجديد عمارة المسجد الحرام من قبل السلطان العثماني سليم بن سليمان، وابنه مراد عام ٩٨٤هـ. باسلامة، تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص٣٥.

(٥٩) الأزرقي، تاريخ مكة، ج٢، ص٨١.

(٦٠) آل عبدالله، الزيادات في الحرم المكي، ص٢٩.

النبي ﷺ، وباب العباس بن عبدالمطلب الذي عند العلم، الذي يسعى منه من أقبل من المروة يريد الصفا، فصار للمسجد تسعة عشرة باباً، تنفتح على ثمانية وثلاثين طاقاً(٦١).

وفي خلافة المعتمد على الله تصدعت بعض جدران المسجد من الجهة الغربية؛ لأن داراً بجوار باب إبراهيم سقطت على سطح المسجد، فتكسرت بعض أخشابه، وانهدمت أسطوانتان من أسطوانات المسجد، فصدر أمر الأمير الموفق وكان المتغلب على الخلافة عام (٢٧١هـ/ ٨٨٤م)(٦٢) إلى والي مكة بعمارة ما تهدم من جدران المسجد، فأعيد البناء، وأقيمت الأسطوانتان، وبنيت عقودهما(٦٣).

وظل المسجد الحرام بعد أعمال المهدي على حدوده التي وصفناها حتى نهاية العصر العباسي. ولكن كانت هناك زيادتان للمسجد دون أن تخلا بتربيعه، تمثلتا بإضافة ما تبقى من دار الندوة الواقعة في الجهة الشمالية في عهد الخليفة المعتضد(٦٤) عام (٢٨٤هـ/ ٨٩٧م)؛ حيث جعل سقفها مساوياً لسقف المسجد، وجعل فيها منارة جديدة، كما أضاف باباً للمسجد عرف

ظل المسجد الحرام بعد أعمال المهدي على حاله حتى نهاية العصر العباسي

---

(٦١) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٧٨.

(٦٢) يقول صاحب الفخري في وصف العلاقة بين الخليفة المعتمد وأخيه الموفق طلحة: "وكانت دولة المعتمد عجيبة الوضع، كان هو وأخوه الموفق طلحة كالشريكين في الخلافة، للمعتمد الخطبة والسكة والتسمي بإمرة المؤمنين، ولأخيه طلحة الأمر والنهي وقيادة العسكر". محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا (٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م)، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ط١، بيروت: دار الصفا، ١٩٦٦م، ص٢٢٠-٢٢١.

(٦٣) باسلامة، تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص٥٢-٥٣. وفيها نص النقش الذي خلد به هذا العمل.

(٦٤) وكان صاحب الرأي في هذه الزيادة هو أمير مكة نجح بن حاج مولى المعتضد، فقد أرسل رسائل عدة إلى وزير المعتضد عبيدالله بن سليمان في أمر الزيادة، مبيناً أن دار الندوة عظم خرابها، وأصبحت مجمعا للقاذورات حتى صارت ضررا على المسجد، فرفع الوزير الأمر إلى الخليفة، فأصدر أوامره بالزيادة. باسلامة، عمارة المسجد الحرام، ص ٥٦.

بباب الزيادة، ثم قام بصيانة عامة للمسجد ومرافقه[٦٥]، وكان مقدار الزيادة نحو (١٢٥٠م٢)[٦٦].

وبعد توليه الخلافة، أمر الخليفة المقتدر عام (٣٠٦هـ/ ٩١٨م) بوصل مسجد دار الندوة بالمسجد الحرام حتى أصبحت جزءاً منه[٦٧]. كما أمر بالاستفادة من الساحة التي كانت بين دارين لزبيدة، فهدمتا، وألحقتا بالمسجد من الجهة الغربية، وعرفت هذه الزيادة بزيادة باب إبراهيم[٦٨]، وكان مقدارها (٨٥٠م٢)[٦٩].

عمارة الكعبة

كانت أول عملية تعمير وإصلاح في العصر العباسي لأرضية الكعبة وجدرانها من الداخل في عهد الخليفة المتوكل على الله سنة (٢٤٠هـ/ ٨٥٤م) بعد أن كتب إليه ولي عهده الأمير أبو جعفر المنتصر - وكان واليه على الحجاز - يصف حال الكعبة، وما لحق أرضيتها وجدرانها: "إني دخلت الكعبة، فرأيت الرخام المفروش به أرضها قد تكسر وصار قطعا، وأن الرخام الموجود على جدرانها قد تهدم"[٧٠]. وكتب للخليفة بمثل ذلك صاحب بريد مكة[٧١].

فاستجاب الخليفة لهذه الرغبة، وأسند مهمة الإصلاح إلى أحد شيوخ الحرفة ببغداد إسحاق بن سلمة الصائغ، ووجه معه ثلاثين من الصناع الذين اختارهم بنفسه، وزوده بمئة لوح من الرخام، وما يحتاجه من الذهب والفضة[٧٢].

---

(٦٥) ابن دهيش، عمارة المسجد الحرام، ص٦٤.
(٦٦) آل عبدالله، الزيادات في الحرم المكي، ص٣٥.
(٦٧) ابن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٣٦٦، ابن دهيش، عمارة المسجد الحرام، ص٦٥.
(٦٨) باسلامة، تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص٦٢.
(٦٩) آل عبدالله، الزيادات في الحرم المكي، ص٣٥. وانظر الملحق رقم (١)، ففيه توضيح لمراحل التوسعة للمسجد الحرام في العصر العباسي.
(٧٠) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص ٢٩٩.
(٧١) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص ٢٩٩.
(٧٢) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص٣٠١.

وابتدأ العمل بالإصلاح في رجب من عام (٢٤١هـ/ ٨٥٥م)، فقلع الصناع الرخام المتساقط من جدران الكعبة، ووضعوا مكانه الرخام الجديد، وألصقوه بجبس صنعاني أحضر من صنعاء لهذه الغاية. كما أصلح عتبة باب الكعبة التي كانت من خشب الساج الذي تلف، فاستبدلها بقطع جديدة، ثم ألبسها بصفائح من الفضة[٧٣]، وقام إسحاق أيضاً بتلبيس زوايا الكعبة من الداخل بالذهب[٧٤].

بعد أن أعيد ترميم الكعبة عمل إسحاق على حمايتها وحماية البيت الحرام من السيول التي كثيراً ما كانت تداهمه، فعمل جداراً لحجز السيل، ثم هدم الجزء الذي تضرر من المسجد، وأعاد بناءه[٧٥]، وأصلح الطريق التي سلكها الرسول ﷺ مع عمه العباس التي يقال لها: شعب الأنصار، والتي أخذ بها الرسول البيعة من الأنصار. وكانت هذه الطريق قد اندثرت حتى زالت الجمرة من موضعها (بفعل عامة الناس)، فردها إلى موضعها، وبنى من خلفها جداراً؛ لئلا يصل إليها من أراد الرمي من أعلاها[٧٦]، وكانت تكاليف الإصلاح قد كلفت الدولة مبالغ كبيرة[٧٧].

وجُدد رخام الكعبة مرة أخرى في عهد الخليفة المقتفي لأمر الله[٧٨]، كما استبدل ميزاب الكعبة بآخر جديد[٧٩].

كذلك لقي باب الكعبة عناية خاصة من قبل الخلفاء العباسيين، فاهتموا به من حيث التجديد والتحلية والتغيير. ويعد الخليفة الأمين أول خليفة عباسي قام بتحلية باب الكعبة بالذهب، فقد بعث إلى واليه

(٧٣) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص ٣٠٥.
(٧٤) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص ٣٠٦.
(٧٥) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص٣٠٣.
(٧٦) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص٣٠٣.
(٧٧) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص٢٧٧.
(٧٨) الفاسي، العقد الثمين، ج٢، ص٢١٢.
(٧٩) ابن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٥٠٤.

على مكة بثمانية عشر ألف دينار، عمل منها صفائح من ذهب وألصقها على باب الكعبة[٨٠]، وأرسل الخليفة المعتصم بالله للباب قفلا من الذهب، قدرت تكاليفه بألف دينار[٨١]. وكان باب الكعبة من خشب الساج، ولحمايته أمر الخليفة المتوكل عام (٢٣٧هـ/ ٨٥١م) بتلبيس الباب بالفضة، كما جعل له غلقاً من الفضة، وعلى الباب ملبن ساج ملبس بالفضة، وعمل على الباب حلقة من الفضة بقفل من حديد[٨٢].

وجدد الخليفة المقتفي باب الكعبة سنة (٥٥٢هـ/ ١١٥٧م)، فقلع الباب القديم، واتخذ باباً من العقيق[٨٣]، وصفحه بالفضة المذهبة، وطلب من أمير مكة قاسم بن فليته أن يرسل له الباب القديم، ليعمل منه تابوتاً له[٨٤].

ويعد الحجر الأسود من أهم أركان الكعبة. ولهذه الأهمية لقي اهتماماً خاصاً من قبل حكام المسلمين عبر العصور، فعلى إثر حريق أصاب الكعبة، قام عبدالله بن الزبير بربطه بالفضة، بعد أن قام بهدم الكعبة حتى انتهى إلى أساسها، ثم بناها على قواعد إبراهيم[٨٥].

---

(٨٠) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص٢١٢.

(٨١) الرشيد بن الزبير (ت٥٦٣هـ/ ١١٦٨م)، الذخائر والتحف، تحقيق محمد حميد الله، الكويت، ١٩٥٩م، ص١٣٦، ضيف الله الزهراني، نفقات عمارة الكعبة المشرفة في صدر الإسلام حتى نهاية العهد العثماني، الرياض: بحوث تاريخية، الجمعية التاريخية السعودية، ط٢، ١٤١٣هـ، ص٥٤.

(٨٢) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص٢٩٤.

(٨٣) جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، تاريخ الخلفاء، تحقيق إبراهيم صالح، ط١، دار البشائر، دمشق، ١٩٩٧م، ص ٥١٩.

(٨٤) أبو الفداء إسماعيل بن علي بن محمود بن أيوب، (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، المختصر في أخبار البشر، وضع حواشيه محمود ديوب، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م، ج٢، ص ١٠٥.

(٨٥) كان ذلك بعد موقعة الحرة عام ٦٤هـ، حيث أمر يزيد بن معاوية قائده مسلم بن عقيل أن يتوجه لقتال ابن الزبير بمكة، ولكن أدركت الوفاة مسلماً، فتولى القيادة الحصين بن نمير، الذي سار حتى وصل إلى مكة، فنصب المجانيق، ورمى الكعبة بالنفط والحجارة حتى احترقت كسوتها، وتصدعت جدرانها. الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص ١٣٥.

ولكن من كثرة مس الطائفين للحجر تزعزعت الفضة من مكانها حتى خشي على الركن الأسود أن ينهار. فلما اعتمر الخليفة هارون الرشيد عام (١٨٩هـ/ ٨٠٤م) أمر بثقب الحجارة التي حول الحجر الأسود، ثم صُب سائل الفضة فيها[٨٦].

وقد تعرض الحجر الأسود للسرقة عام (٣١٧هـ/ ٩٢٩م) على يد القرامطة. فبعد أن أسسوا دولتهم في بلاد البحرين، أخذت أعينهم ترنو إلى التوسع على حساب الدولة العباسية، مستغلين حالة الضعف التي وصلت إليها بعد سيطرة العناصر الأجنبية على مقاليد السلطة، فقد سار أبو طاهر القرمطي في ٧ ذي الحجة عام (٣١٧هـ/٩٢٩م) إلى مكة، لانتزاعها من عامل العباسيين، وما أن وصل إلى مكة حتى دخل الحرم، واستباحه، وقتل من فيه من الطائفين[٨٧]، وركض أبو طاهر وهو سكران شاهراً سيفه، ودخل المطاف، فبالت فرسه فيه، ثم صعد إلى باب الكعبة وهو يقول:

أنـــا بالـلـه وبالـلـه أنـــا يخلق الخلق وأفنيهم أنا[٨٨]

وفي ١٤ ذي الحجة قلع الحجر الأسود من مكانه، وذهب به إلى بلاده، وبقي موضعه خالياً يضع فيه الناس أيديهم للتبرك نحو اثنتين وعشرين سنة. ورغم ما بذله لهم بجكم التركي[٨٩] من الأموال مقابل إعادة الحجر الأسود إلى مكانه، إلا أنهم رفضوا، ولم يعيدوه إلا بعد

---

(٨٦) الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص٩٧، ابن أبي الضياء، تاريخ مكة، ص١٢٧.

(٨٧) ياقوت، معجم الأدباء، ج٣، ص١٢٢.

(٨٨) محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر تدمري، ط١، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٧م، ج٢٣، ص٣٨١.

(٨٩) أحد القادة الأتراك، تولى إمرة الأمراء في بغداد سنة ٣٢٦هـ، قتل سنة ٣٢٩هـ. أبو بكر محمد بن يحيى الصولي (ت٣٥٥هـ/ ٩٤٦م) أخبار الراضي بالله والمتقي لله، نشره هيورت دن، القاهرة: مطبعة الصاوي، ١٩٣٥م، ص٤١، ص١٨٤، تقي الدين الدوري، منصب إمرة الأمراء في العراق، ط١، بغداد: مطبعة أسعد، ١٩٧٥م، ص ٨٢ -٩٣.

عشرين عامًا بوساطة الشريف أبي علي بن عمر بن يحيى العلوي في خلافة المطيع لله(٩٠)، قائلين: "أخذناه بقدرة الله، ورددناه بمشيئة الله"(٩١). وقد أحضر إلى الكوفة، ثم نقل إلى مكة ليوضع مكانه في جدار الكعبة(٩٢).

وخوفا على الحجر الأسود من مثل هذا العمل، قام سدنة الكعبة سنة (٣٤٠هـ/ ٩٥١م) بقلع الحجر من موضعه، وجعلوه في جوف الكعبة. ثم أعيد إلى مكانه بعد أن صنعوا له طوقاً من الفضة، وقيل: إن قيمة ما جعلوه على الطوق من الفضة ثلاثة آلاف وتسعة وتسعين درهماً(٩٣).

ومقابل باب الكعبة مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام، وقد اهتم به الخلفاء كاهتمامهم بالبيت، وكان الخليفة المهدي أول من حلّى المقام سنة (١٦١هـ/ ٧٧٧م). روى الأزرقي عن عبدالله بن شعيب، قال: "ذهبت أرفع المقام في خلافة المهدي، فانثلم، قال: وهو حجر رخوة، فخشينا أن يتفتت، فكتبنا في ذلك إلى المهدي، فبعث إلينا بألف دينار، فضببنا فيه المقام أسفله وأعلاه"(٩٤).

وكان من جملة أعمال المتوكل العمرانية في المسجد الحرام عام (٢٣٦هـ/ ٨٤٦م) تحلية المقام بالذهب، واستبدال صفائح الرصاص التي كانت تلبس الكرسي الذي عليه المقام بالفضة، كما اتخذ له قبة من خشب الساج(٩٥).

وبعد أن قام والي مكة جعفر بن الفضل العباسي سنة (٢٥١هـ/٨٦٥م) بخلع الذهب الذي على المقام؛ ليستعين به على حرب

---

(٩٠) السيوطي، تاريخ، ص٤٥٢.

(٩١) ياقوت، معجم الأدباء، ج٣، ص١٢٢، السباعي، تاريخ مكة، ج١، ص١٧٢.

(٩٢) ياقوت، معجم الأدباء، ج٣، ص١٢٢.

(٩٣) ابن أبي الضياء المكي، تاريخ مكة، ص١٢٧.

(٩٤) الفاسي، العقد الثمين، ج٢، ص٢١٣.

(٩٥) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٣٦، ابن أبي الضياء المكي، تاريخ مكة، ص١٣١.

إسماعيل[٩٦] بن حسين العلوي، أمر المتوكل سنة (٢٥٦هـ/ ٨٧٠م) بتحلية المقام بالذهب من جديد[٩٧].

كسوة الكعبة

حظيت كسوة الكعبة برعاية واهتمام حكام المسلمين، فقد تواترت الروايات على اهتمام الخلفاء العباسيين الذين ساروا على نهج الصحابة والخلفاء الأمويين في كسوة الكعبة، وما يشهد للخلفاء العباسيين بهذا الأمر أنهم كسوا الكعبة خلال أربع وأربعين سنة مئة وسبعين ثوباً، "إلا أنه كان يخفف عنها الشيء بعد الشيء حتى لا تثقل الكعبة، فتهدم جدرانها"[٩٨].

كانت أول إشارة إلى كسوة الكعبة في العصر العباسي تعود إلى الخليفة المهدي، حيث استغل القائمون على رعاية المسجد الحرام وجود الخليفة المهدي بمكة لأداء فريضة الحج عام (١٦٠هـ/ ٧٧٦م)، فرفعوا إليه خوفهم على جدران الكعبة من كثرة الكسوة التي عليها، وسألوه التخفيف عنها[٩٩]، فاستجاب الخليفة لرغبتهم بعد أن شاهد ذلك بعينه[١٠٠]، ثم ضمخها بالمسك والعنبر من الداخل والخارج، وأمر بكسوتها ثلاث كُسًا: قباطي وخز وديباج[١٠١]. وبعد أن كانت تكسى في كل سنة كسوتين: كسوة ديباج، وكسوة قباطي، كسوة الديباج يوم التروية، وكسوة القباطي يوم السابع والعشرين من رمضان، رفع سدنة الكعبة إلى الخليفة المأمون أن الديباج يبلى قبل بلوغ عيد الفطر، فاستشار المأمون مبارك الطبري صاحب

(٩٦) ينتهي نسبه بالإمام علي بن أبي طالب، ثار على العباسيين عام ٢٥١هـ، وتغلب على مكة بعد أن هرب واليها جعفر بن الفضل، لكنه سرعان ما توفي بالجدري. للمزيد انظر: الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص١٨٧.

(٩٧) ابن أبي الضياء، تاريخ مكة، ص١٣١.

(٩٨) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص٢٦٣.

(٩٩) ابن أبي الضياء، تاريخ مكة، ص١٢٠.

(١٠٠) الطبري، تاريخ، ج٨، ص١٣٣.

(١٠١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٢٤.

بريد مكة في أي الكسوة تكون الكعبة أحسن؟ فأجابه بالبياض، فأمر بكسوة جديدة من الديباج الأبيض، فصارت الكعبة تكسى ثلاث كُسًا: الديباج الأحمر يوم التروية، والقباطي يوم هلال رجب، والديباج الأبيض يوم السابع والعشرين من رمضان(١٠٢).

وفي عهد المتوكل، رفع إليه سدنة الكعبة أن الإزار الأحمر يبلى قبل بلوغ هلال رجب من لمس الناس له، فأمر الخليفة بزيادة إزارين مع الإزار الأول(١٠٣).

وإبان السيطرة السلجوقية على بغداد، تولى كسوتها السلاطين السلاجقة، فقد كسا السلطان محمود بن سبكتكين الكعبة ديباجاً أصفر(١٠٤).

وبعد تخلص الخلافة العباسية من السيطرة السلجوقية، عادت الكسوة؛ لتصبح من واجبات الخليفة العباسي، فقد كساها الخليفة الناصر لدين الله (٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م) كسوة سوداء وأخرى خضراء(١٠٥)، يقول السيوطي نقلاً عن الفاسي: "وقد استمرت إلى الآن"(١٠٦)؛ أي: عام ٨١٢هـ.

وكان الخليفة يعهد بحمل الكسوة، وإيصالها إلى مكة إلى أحد العلماء(١٠٧)؛ ويكون خروجه مع خروج الحاج من بغداد(١٠٨)، وجرت

---

(١٠٢) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص٢٦٣، أحمد بن إسحاق بن جعفر اليعقوبي (ت ٢٩٢هـ/٩٠٤م) تاريخ اليعقوبي، علق على حواشيه خليل منصور، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م، ج٢، ص٢٧٧.

(١٠٣) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص٢٥٦.

(١٠٤) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٨٥.

(١٠٥) رفعت، مرآة الحرمين، ج١، ص٢٨٣.

(١٠٦) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٥٣٩، الزهراني، عمارة الكعبة المشرفة، ص٤٥.

(١٠٧) ظهير الدين علي بن محمد البغدادي المشهور بابن الكازروني (٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م)، مقامة في قواعد بغداد، تحقيق كوركيس عواد وميخائيل عواد، منشورة في مجلة المورد، بغداد، المجلد ٨، العدد ٤، ١٩٧٩م، ص٢٣٦.

(١٠٨) كمال الدين عبدالرزاق بن الفوطي (ت ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م)، تلخيص مجمع الآداب في مجمع الألقاب، تحقيق مصطفى جواد، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ١٩٦٢-١٩٦٥م، ج٤، ق٢، ص٨٥٥.

العادة أن ترسل مع الكسوة كل سنة آنيتان من النحاس مملوءتان بماء الورد النقي لغسيل الكعبة قبل الكسوة(١٠٩).

تحلية الكعبة

كان الخليفة أبو العباس السفاح أول من حلى الكعبة، فقد أرسل صحيفة خضراء من الزبرجد، لتعلق على باب الكعبة(١١٠). أما الخليفة المأمون فقد أرسل إلى الكعبة السرير الذي أهداه له ملك التبت بعد إسلامه(١١١). وفي عام (٢٤٥هـ/٨٥٩م) أمر الخليفة المتوكل بتحلية الكعبة بالذهب من الداخل، وبلغت قيمة التحلية ثمانية عشر مليون دينار(١١٢).

وكانت الشمسة(١١٣) من جملة الهدايا التي ترسل إلى الكعبة، ويعد الخليفة المتوكل من أكثر الخلفاء اهتماما بها، حتى قيل: إنه أول من بعث بها إلى الكعبة، فكان يبعث بها كل عام مع قافلة الحج لتعلق على بابها بعد الكسوة(١١٤).

وكان للخليفة المقتدر إسهام في تحلية الكعبة، فقد صفح أساطينها بالذهب، كما أمرت والدته السيدة شغب سنة (٣١٠هـ/ ٩٢٢م) بإلباس الإسطوانة التي تلي باب الكعبة بصفائح من الذهب من أسفلها إلى أعلاها(١١٥).

---

(١٠٩) رفعت، مرآة الحرمين، ج١، ص٣٠٠.

(١١٠) أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (ت ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م)، الجماهر في معرفة الجواهر، بيروت: عالم الكتب، (د. ت)، ص٦٧.

(١١١) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص٢٢٧.

(١١٢) الزهراني، نفقات عمارة الكعبة، ص٥٧.

(١١٣) الشمسة نوع من الحلية كانت تزين بها واجهة الكعبة في موسم الحج، تعلق بسلسلة من الذهب. أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية (٣٠٥- ٤٨٧هـ)، الرياض: مطبعة جامعة الرياض، ١٤٠١هـ، ص١٢٥.

(١١٤) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج١، ص١٤١.

(١١٥) الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص ١١٨، يوسف أحمد، المحمل والحج، القاهرة: مطبعة حجازي، ١٣٥٦هـ، ص ٢١٧.

وبعث الخليفة المطيع سنة (٣٥٩هـ/ ٩٦٩م) قناديل من الفضة، وقنديلاً من الذهب، علقت في جوف الكعبة[١١٦].

إنارة المسجد الحرام ومشاعر الحج في مكة

ومن الخدمات التي حرص الخلفاء العباسيون على توفيرها في المسجد الحرام والمشاعر الإضاءة، وكانت إضاءة المسجد الحرام والمشاعر تعتمد في البدايات على الجهود الفردية لسكان مكة، من إيقاد النيران خارج مكة، أو تعليق الأسرجة على سطوح منازلهم، إلى أن كانت ولاية خالد القسري في عهد الخليفة عبدالملك بن مروان، فوضع مصباحاً واحداً على عمود عند بئر زمزم مقابل الركن الأسود.

استمر الوضع على ذلك إلى خلافة المأمون، فأمر واليه على مكة محمد بن سليمان سنة (٢١٦هـ/ ٨٣١م) بوضع عمود مقابل عمود زمزم بحذاء الركن الغربي. فلما ولي مكة محمد بن داود أضاف عمودين آخرين؛ أحدهما بحذاء الركن اليماني، والآخر بحذاء الركن الشامي، فأصبح المسجد الحرام يضاء من جهاته الأربع[١١٧].

أما الخليفة المعتصم، فقد كان أول من أشعل النفاطات في ليالي موسم الحج بين الصفا والمروة، يقول الأزرقي: إن الأعمدة التي وضعت عليها النفاطات أحضرت من قصر بابك الخرمي بعد القضاء على حركته[١١٨].

وفي خلافة الواثق بالله أمر بعمل عشرة أعمدة جعلت حول المطاف، وتضيء كذلك ما بين الصفا والمروة، كما علقت ثمان ثريات، اثنتان في كل جهة من واجهات المسجد الحرام[١١٩].

---

(١١٦) الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص١١٨، الزهراني، نفقات عمارة الكعبة، ص ٥٨.
(١١٧) ابن أبي الضياء، تاريخ مكة، ص١٢٤.
(١١٨) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص٢٨٧.
(١١٩) الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص٢٨٨.

عمارة المسجد النبوي بالمدينة المنورة

نال المسجد النبوي في المدينة المنورة الاهتمام نفسه الذي ناله المسجد الحرام من حيث الرعاية والإعمار في جميع مراحل التاريخ الإسلامي.

كان الخليفة أبو جعفر المنصور قد عزم على توسعة المسجد النبوي، لكنه توفي قبل أن ينفذ ما عزم عليه، ولكن كان له إسهام في إعماره، فقد أمر والي المدينة الحسن بن زيد بن علي بتجديد رخام جدران المسجد سنة (١٥١هـ/ ٧٦٧م)[١٢٠]. وفي خلافة هارون الرشيد أجريت إصلاحات في سقف المسجد من جهة قبر الرسول ﷺ عام (١٩٣هـ/ ٨٠٩م)[١٢١].

ولم تحدث زيادات للمسجد النبوي إلا في عهد الخليفة المهدي (١٥٨-١٦٩هـ/ ٧٧٥-٧٨٥م)؛ وذلك أنه عندما حج المهدي عام (١٦٠هـ/ ٧٧٧م)، رأى الزحام في المسجد، فقرر التوسعة بعد أن استشار زعماء أهل المدينة. ولأجل هذه الغاية استعمل على المدينة جعفر بن محمد بن سليمان العباسي، وأوكل إليه مهمة الإشراف على الزيادة، ومعه كل من عبدالله بن عاصم بن عمر بن عبدالعزيز وعبدالملك بن شبيب الغساني[١٢٢]، وأوصاهما بأن تبدأ عمليات التوسعة والبناء بعد رحيل الحجاج عن المدينة، على أن يرسل لهم

---

(١٢٠) علي بن عبدالله بن أحمد السمهودي (ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد الأمين الجكني، ط١، المدينة المنورة: (د. ن)، ١٤١٨هـ، ج١، ص٣٤٤.

(١٢١) السمهودي، وفاء الوفا، ج٢، ص٥٦٠.

(١٢٢) محمد بن محمود بن النجار البغدادي (ت ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م)، الدرة الثمينة في أخبار المدينة، عني بنشره حسن محمود شكري، الرياض: دار المدينة المنورة للطباعة، ١٤١٨هـ، ص١٠٤. ابن أبي الضياء المكي، تاريخ مكة، ص٢٨٤. ويشير اليعقوبي إلى أن أحد الأسباب التي كانت وراء أعمال العمران للمسجد الحرام هي الزلازل التي هدمت بعض أجزائه. اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم وما يغلب عليهم في كل عصر، تحقيق محمد كمال الدين، ط١، عالم الكتب، القاهرة، (د. ت)، ص٣٥.

الأموال اللازمة للبناء إذا عاد إلى بغداد. ثم توفي عبدالله بن عاصم أحد المكلفين بالعمارة، فكتب جعفر بن محمد بن سليمان إلى الخليفة بذلك، فأرسل عوضاً عنه عبدالله بن موسى الحمصي[١٢٣].

قام المكلفون بالعمارة بتحديد الدور المراد هدمها بغرض إدخالها في التوسعة، ومن تلك الدور دار مليكة، ودار شرحبيل بن حسنة، وبقية دار عبدالله بن مسعود، ودار المسور بن مخرمة الزهري، التي تم تثمينها وشراؤها من أصحابها، ثم هدمها[١٢٤]. وجاءت الزيادة في الجهة الشمالية من المسجد فقط، وكانت الزيادة بحدود (٢٤٥٠م٢)، فأصبحت المساحة الكلية للمسجد (٨٨٩٠م٢)[١٢٥]. وقد انتهت أعمال العمارة في سنة (١٦٥هـ/ ٧٨٣م)[١٢٦].

وأجريت في عهد الخليفة المأمون عملية إصلاح وترميم عامة للمسجد النبوي[١٢٧]. وفي عام (٢٤٦هـ/ ٨٦٠م) أمر الخليفة المتوكل على الله بترميم بعض الجدران التي ظهر عليها التلف، كما أعيدت كسوة عقود الأعمدة بالفسيفساء، وتبليط أرض الأروقة من جديد بالرخام الأبيض، وإنشاء حزام من الرخام على الجدران من الداخل بارتفاع قامة الإنسان، وقد أشرف على هذا العمل إسحاق بن سلمة[١٢٨]. وقام الخليفة المقتفي عام (٥٤٨هـ/ ١١٥٣م) بإرسال

---

(١٢٣) عبدالباسط بدر، التاريخ الشامل للمدينة المنورة، المدينة المنورة، ١٩٩٣م، ج٢، ص٦٥.

(١٢٤) ابن النجار، أخبار المدينة، ص١٠٤، ابن أبي الضياء المكي، تاريخ مكة، ص٢٨٤.

(١٢٥) انظر تفاصيل ذلك: صالح لمعي، المدينة المنورة، تطورها العمراني وتراثها المعماري، بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨١م، ص٧٥ -٧٩، الوكيل محمد السيد، المسجد النبوي عبر التاريخ، ط١، جدة: دار المجتمع للنشر، ١٤٠٩هـ، ص٧١، ابن دهيش، عمارة المسجد الحرام، ص٢٧٤ -٢٧٥.

(١٢٦) ابن أبي الضياء، تاريخ مكة، ص٢٨٤.

(١٢٧) لمعي، المدينة المنورة، ص٧٨.

(١٢٨) ابن أبي الضياء المكي، تاريخ مكة، ص ٣٢٩، السمهودي، وفاء الوفا، ج٢، ص٥٠٥-٥١١، ابن دهيش، عمارة المسجد الحرام، ص٢٧٨.

الأموال إلى والي المدينة القاسم بن مهنا الحسيني، وذلك لتجديد الوزرة الخارجية لجدار قبر الرسول ﷺ(١٢٩).

ولم يشهد المسجد النبوي عمارة بعد ذلك حتى خلافة الناصر لدين الله (٥٧٥ -٦٢٢هـ/١١٧٩-١٢٥٥م)، حيث أمر بعمل قبة في وسط الصحن، لحفظ ذخائر المسجد، مثل: مصحف عثمان عام (٥٧٦هـ/ ١١٨٠م)(١٣٠). كذلك جدد الحائط الشرقي من المئذنة الشمالية الشرقية سنة (٥٨٩هـ/ ١١٩٣م)(١٣١)، وجدد المنبر الأموي في سنة (٥٩٣هـ/ ١١٩٦م)(١٣٢). كما أن الخلفاء العباسيين كانوا يرسلون باستمرار القناديل وزيوتها والشموع لإنارة المسجد النبوي، والطرقات المحيطة به، وينفق عليها من بيت مال المسلمين(١٣٣).

ونلحظ استمرار الإصلاحات والتعمير في المسجد النبوي طوال العصر العباسي، ولم تظهر الحاجة لإعادة البناء أو التوسعة إلا بعد أن احترق سقف المسجد النبوي بكامله، وتلف المنبر والأبواب والخزائن والشبابيك، ولم يسلم من الحريق إلا الحجرة النبوية والقبة التي في وسط الصحن، وكان ذلك أول شهر رمضان من سنة (٦٥٤هـ/ ١٢٥٤م). وسبب ذلك أن أحد فراشي المسجد النبوي دخل إلى مخزن المسجد، وكان بيده مصباح موقد، فوضعه فوق أحد الأقفاص، وكان به بعض الأقمشة، فاشتعلت النار بالقفص، وانتقلت بسرعة إلى جميع نواحي المسجد، وعلقت بالسقف والحصر والبسط، فاجتمع الناس، وحاولوا إطفاء النار، فلم يستطيعوا إلا إبعاد النار عن الحجرة الشريفة(١٣٤).

---

(١٢٩) السمهودي، وفاء الوفا، ج٢، ص ٥٧٠ - ٥٧٥، لمعي، المدينة المنورة، ص٧٨.

(١٣٠) لمعي، المدينة المنورة، ص ٧٨.

(١٣١) السمهودي، وفاء الوفا، ج٢، ص٦٠٠ - ٦٠٣.

(١٣٢) السمهودي، وفاء الوفا، ج٢، ص٤٠٥. وانظر الملحق رقم (٢)، ففيه توضيح لمراحل التوسعة للمسجد النبوي في العصر العباسي.

(١٣٣) ابن النجار، أخبار المدينة، ص١٠٩، ابن دهيش، عمارة المسجد الحرام، ص٢٧٩.

(١٣٤) ابن النجار، أخبار المدينة، ص١٠٩ -١١٠، ابن دهيش، عمارة المسجد الحرام، ص٢٧٩.

ولما علم الخليفة المستعصم بالله (٦٤٠ -٦٥٦هـ/ ١٢٤٢-١٢٥٨م) أرسل في العام نفسه الصناع والمؤن مع ركب الحاج العراقي، وابتدأ في العمارة في سنة (٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م)، وقد أخذ العمال في إعادة بناء المسجد النبوي من جديد، إلا أن العمارة توقفت بنهاية الدولة العباسية في بغداد باستيلاء المغول عليها عام (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، غير أنه في هذه الفترة عمل سقف الحجرة النبوية وما حولها إلى الحائط الشرقي إلى باب جبريل، ومن الجنوب إلى حائط القبلة، ومن الغرب إلى المنبر(١٣٥).

وبعد ذلك أصبح إكمال البناء من واجبات السلطان المملوكي في مصر(١٣٦).

توفير المياه في المشاعر المقدسة

اهتم الخلفاء العباسيون بتوفير المياه في مكة لأجل سكانها من جهة، وللحجاج القادمين من شتى أرجاء المعمورة من جهة أخرى، وذلك من خلال المحافظة على ما كان متوفراً من المصادر وصيانتها، وتجهيز مصادر جديدة من آبار وعيون.

كانت بئر زمزم على رأس المشاريع المائية التي حرص الخلفاء على صيانتها وترميم آبارها، لأهميتها الدينية(١٣٧)، ولوجودها في المسجد الحرام(١٣٨).

---

(١٣٥) السمهودي، خلاصة الوفاء، ص٣١٧-٣١٨، لمعي، المدينة المنورة، ص٧٩، ابن دهيش، عمارة المسجد الحرام، ص٢٨٠.

(١٣٦) انظر تفاصيل ذلك: لمعي، المدينة المنورة، ص٧٩، ابن دهيش، عمارة المسجد الحرام، ص٢٨١ -٢٨٣.

(١٣٧) ذكر ابن ماجه في سننه عن رسول الله ﷺ: "ماء زمزم لما شرب له، إن شربته لتستشفي به شفاك الله، وإن شربته يشبعك أشبعك الله، وإن شربته لقطع ضمئك قطعه الله، وهي هزمة جبريل، وسقيا الله إسماعيل". سنن ابن ماجه، بإشراف صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ، الرياض: دار السلام، دار الفيحاء، ١٤٢٠هـ، ص٤٤٢، حديث رقم ٣٠٦٢.

(١٣٨) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٥٥.

وكان الخليفة أبو العباس السفاح أول من اهتم ببئر زمزم، فلأجل رعايته أمر ببناء حجرة قريبة من البئر تكون مقراً لمن يتولى السقاية والإشراف على الماء(١٣٩). وقام الخليفة المنصور بفرش الأرضية بالرخام، وبنى قبة على البئر، وكانت قبل ذلك مكشوفة(١٤٠)، وقد جددت القبة في عهد الخليفة المهدي(١٤١).

وحرص الخليفة هارون الرشيد أثناء تأديته فريضة الحج عام (١٧٣هـ/ ٧٨٩م) على توفير المياه للحجاج، فأمر بزيادة عدد أحواض المياه داخل المسجد الحرام، وخصص خمسين غلاماً من الخرسانيين لسقاية الحجاج بالقرب والروايا المجلوبة من ماء زمزم(١٤٢). وفي عام (٢٢٠هـ/ ٨٣٥م) أوعز الخليفة المعتصم لواليه على مكة عمر بن فرج الرخجي بعمارة بئر زمزم، فسقف زمزم كلها بالساج المذهب من الداخل، كما علق بها قناديل للإضاءة، وعمل لها باباً من حديد(١٤٣).

وقد أشار الأزرقي إلى أن بئر زمزم في عام (٢٢٣هـ/ ٨٣٧م) قل ماؤه "حتى كادت أن تجم"، فتم الحفر فيها بعمق تسعة أذرع، ثم جاءت الأمطار في العام التالي، فتدفقت من جديد(١٤٤).

أما الخليفة المتوكل، فقد أمر ببناء مظلة المؤذنين الواقعة فوق زمزم، وأصلح البرك المتصدعة داخل الحرم(١٤٥). كما جدد تلك البرك الخليفة المهتدي عام (٢٥٦هـ/ ٨٦٩م)، وأعاد ترميم الباب الذي صنعه المعتصم(١٤٦).

---

(١٣٩) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص١٠٧.
(١٤٠) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص١٠٢.
(١٤١) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص١٠٢.
(١٤٢) الفاسي، العقد الثمين، ج١، ص١٦٧.
(١٤٣) الأزرقي، أخبار مكة، ج، ص١٠٢.
(١٤٤) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٦١. ابن أبي الضياء المكي، تاريخ مكة، ص١٤٢.
(١٤٥) الفاسي، العقد الثمين، ج١، ص١٧٠.
(١٤٦) الفاسي، العقد الثمين، ج١، ص١٧٣.

ولم تقتصر جهود الخلفاء على بئر زمزم، بل اهتموا بمختلف مصادر المياه من آبار وعيون، فقد قام الخليفة الرشيد بتجديد العيون التي طمرت، وأجرى مياهها في عين واحدة عرفت بعين الرشا[١٤٧]، وأمر بتجهيز البرك في أعلى مكة وأسفلها، لتصب فيها مياه العين[١٤٨].

مع مرور الأيام، لم تعد عين الرشا قادرة على توفير المياه لأهل مكة حتى جفت عام (١٩٣هـ/ ٨٠٨م) وكان لجفافها أثر عظيم، مما دفع أهل مكة للخروج إلى الآبار وجلب الماء، لبيعها للحجاج بأسعار باهظة "حتى بيعت الروية بعشرة دراهم"[١٤٩].

وصادف في هذا العام أداء السيدة زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد فريضة الحج، ورأت ما يعانيه الحجاج من أجل الحصول على الماء، فأمرت بجر الماء إلى مكة، وكلفت بعض المهندسين بهذه المهمة، الذين وجدوا أن أفضل وسيلة لتوفير الماء هو جرها من عين حنين، فاشترت الأرض المحيطة بالعين، وبنت قنوات لتنقل بها المياه إلى أطراف مكة[١٥٠]. وأصلحت البرك الموجودة في مكة، وبنت عدداً من البرك على طول مجرى القناة حتى وصلت المياه إلى الحرم[١٥١]. وكانت نفقات السيدة زبيدة على هذه الأعمال عظيمة، "وأنفقت في ذلك من الأموال ما لم يكن تطيب به نفس كثير من الناس"[١٥٢]. وبعد انتهاء أعمال البناء، حضر المتولون إلى قصر السيدة زبيدة لعرض تفاصيل الحساب، فأمرت بإلقاء الدفاتر بنهر دجلة، وقالت: "تركنا الحساب ليوم الحساب، فمن بقي

من بقي عنده من المال شيء فهو له. ومن بقي له عندنا شيء أعطيناه

(١٤٧) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٢٣٠.
(١٤٨) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٢٣١.
(١٤٩) الفاكهي، المنتقى في أخبار أم القرى، بيروت، ١٩٦٧م، ص٦٠.
(١٥٠) اليعقوبي، مشاكلة الناس، ص٣٧.
(١٥١) اليعقوبي، مشاكلة الناس، ص٣٧.
(١٥٢) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٢٣١.

عنده من المال شيء فهو له، ومن بقي له عندنا شيء أعطيناه"(١٥٣). ولأجل استمرارية أعمالها الخيرية في الحرمين قامت بتخصيص الأوقاف اللازمة للإنفاق عليها(١٥٤).

ويبدو أن المياه لم تصل إلى جميع أحياء مكة، فقد رفع صالح بن العباس إلى الخليفة المأمون عام (٢١٠هـ/ ٨٢٥م) شكوى أهل السوق، وبعض الأحياء، والمتمثلة بعدم وصول ماء عين حنين إلى أحيائهم، فأمره الخليفة بعمل بازانات(١٥٥) تغذى من العين مباشرة، فأنشأ خمس برك: جعل الأولى عند شعب ابن يوسف، والثانية عند الصفا، والثالثة عند سوق الخياطين، والرابعة عند سوق الحطب، والخامسة عند ماجل أبي صلابة(١٥٦). وقد أزعج هذا العمل السيدة زبيدة، ووجهت اللوم إلى صالح بن العباس بقولها: "إنما قمت به من عمل ما أريد ألا أن أكمله"، فقدم صالح اعتذاره قائلاً: "إنما قمت به من عمل ما هو إلا إكمالاً لعملك الخيري"(١٥٧).

وقد استمرت عين حنين في التدفق والجريان، لكنها كانت بحاجة دائمة للإصلاح والترميم، ففي عام (٢٥٢هـ/ ٨٦٦م) أرسل الخليفة المعتز إلى والي مكة الأموال اللازمة لإصلاح ما تهدم من العين وقنواتها(١٥٨). ولحمايتها نجد الخليفة المعتمد على الله بعد قيامه عام (٢٧٠هـ/ ٨٨٣م) ببعض الإصلاحات يتخذ ثلاثمئة من الحراس يحرسونها ليلاً ونهاراً(١٥٩).

---

(١٥٣) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص٢٧٧، رفعت، مرآة الحرمين، ج١، ص٢١٤.

(١٥٤) ابن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص٢٧٧.

(١٥٥) لفظ أعجمي معرب، عبارة عن برك لحفظ المياه في الموسم. محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت٨١٧هـ/ ١٤١٤م)، القاموس المحيط، ط١، بيروت: دار التراث العربي، ١٩٩٧م، ج٢، ص ١٥٥١.

(١٥٦) الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص٢١٠.

(١٥٧) أبو الفلاح عبدالحي بن العماد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت: دار الكتب العلمية، (د. ت)، ج٢، ص١٨٢.

(١٥٨) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص١٩٧.

(١٥٩) رفعت، مرآة الحرمين، ج١، ص٢١٢.

ولم تقتصر جهود الخلفاء على توفير المياه في مكة والمسجد الحرام، بل شملت جهودهم بتوفيرها في المشاعر؛ لذا قام الخلفاء العباسيون الأوائل بتخصيص عدد من الغلمان لجلب المياه بالقِرب من خارج مكة إلى المشاعر(١٦٠)، كما اهتموا بإصلاح الآبار الموجودة فيها، فقد أمر أبو جعفر المنصور عام (١٣٨هـ/ ٧٥٥م) بإصلاح بئر الياقوتة(١٦١)، كما أمر المهدي عام (١٥٩هـ/ ٧٧٥م) بإصلاح بئر السقيا، وأوكل هذه المهمة إلى مولاه خالص؛ لذا اصطلح على تسمية البئر ببئر خالصة(١٦٢).

وكان من جملة أعمال السيدة زبيدة في مكة، جر مياه عين النعمان إلى عرفة(١٦٣)، وإنشاء صهاريج تجتمع فيها مياه الأمطار في مزدلفة(١٦٤).

وفي عهد السيطرة السلجوقية على الخلافة ببغداد عمرت عين النعمان على يد الوزير أبي نصر الأستراباذي عام (٤٦٦هـ/ ١٠٧٤م)(١٦٥).

كما نشر إبراهيم رفعت أربعة نقوش أثرية كانت موجودة في زمانه على أربع لوحات رخامية أسفل جبل الرحمة بعرفة، ثلاثة تشير إلى إصلاح عين النعمان في عهد الخليفة الناصر لدين الله (ت٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م). والإصلاح الرابع في عهد الخليفة المستنصر بالله، حيث عمرها ثلاث مرات في أعوام: (٦٢٥هـ/ ١٢٢٨)، (٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م)، (٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م)(١٦٦).

---

(١٦٠) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٢٠٧.

(١٦١) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٩٠.

(١٦٢) ابن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٢٠٧.

(١٦٣) الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص٣٤٦.

(١٦٤) ابن بطوطة، الرحلة، ص١٨٧.

(١٦٥) الفاسي، العقد الثمين، ج٣، ص١٦٧.

(١٦٦) رفعت، مرآة الحرمين، ج١، ص٢١٤- ٢١٥.

وإذا أنهى الحجاج أداء مناسك الحج في مكة، توجهوا إلى المدينة المنورة لزيارة مسجد الرسول ﷺ والسلام عليه، ونظراً لطول المسافة؛ حرص الخلفاء على الاهتمام بالطريق وإصلاحها، وتوفير المياه للحجاج. فبعد عام من توليه الخلافة، أمر أبو العباس السفاح واليه على مكة بإصلاح الآبار الموجودة واستحداث أخرى، كما أمره بوضع علامات على الطريق ليسترشد بها الحجاج(١٦٧). وأضاف الخليفة المنصور بركتين؛ الأولى: في عسفان، والأخرى: في بدر(١٦٨). وأنشأت السيدة زبيدة صهاريج للمياه في منطقة الحاجر قبل المدينة المنورة(١٦٩).

وكانت إصلاحات الخليفة المهدي إضافة نوعية على طريق الحاج بين مكة والمدينة، حيث أمر بإضاءة الطريق بالشموع، كما أمر صاحب البريد ببناء محطات للبريد على طول الطريق، حتى يكون على علم بأحوال الحجاج طوال رحلتهم بين المدينتين(١٧٠). وفي العام التالي أمر بزيادة عدد البرك في تلك الطريق(١٧١).

أما في المدينة فلم ترد في مصادرنا إشارات إلى وجود مشكلة في توفير المياه، ويعود ذلك إلى طبيعة موقعها، حيث تكثر بها العيون والآبار(١٧٢). كما أنها لم تتعرض للسيول كمكة التي كانت تطمر عيونها وآبارها.

---

(١٦٧) ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص٤٤٥.

(١٦٨) مالكي، مرافق الحج، ص١٢٦.

(١٦٩) اليعقوبي، مشاكلة الناس، ص٣٧.

(١٧٠) ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص٧٤.

(١٧١) السيوطي، تاريخ، ص٣٢٤.

(١٧٢) تخترق منطقة المدينة أودية عدة، من أهمها وادي بطحان، ووادي القطيعة، ثم يلتقيان بوادي قناة الماء، وكان لتعدد هذه الأودية آثاره في غزارة المياه. اليعقوبي، البلدان، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٨م، ص٧٦، أحمد الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول، ط١، القاهرة: دار الفكر، ١٩٦٥م، ص ٢٨٧ - ٢٨٩.

وقد توافرت المياه في المدينة من خلال الآبار الموجودة في الأحياء والبيوت، إضافة إلى العيون التي من أشهرها: عين الحيف الواقعة شمال المدينة. لكن الاستفادة منها كانت مقصورة على حجاج الركب الشامي[١٧٣]. وتشير المصادر إلى أن هذه العين تم إصلاحها في عهد الخليفة المنصور عام (١٤١هـ/ ٧٥٨م)[١٧٤]، ثم في عهد الخليفة هارون الرشيد[١٧٥].

وكانت عين الزرقاء الواقعة جنوب غرب المدينة هي العين الرئيسة؛ لإيصال المياه إلى أحياء المدينة المنورة، إذ تتجمع مياهها في ثلاثة بازانات داخل المدينة[١٧٦]. وفي عهد المنصور، أمر بزيادة البازانات في شمال المدينة وغربها، وأوصلها بقناة عين الزرقاء[١٧٧]. وعندما علم الخليفة المأمون عام (٢١٠هـ/ ٨٢٥م) بالخراب الذي حل ببعض قنواتها، أصدر أوامره إلى والي المدينة بإصلاحها، وإعادتها إلى ما كانت عليه[١٧٨].

---

(١٧٣) عبدالقدوس الأنصاري، آثار المدينة المنورة، ط٣، المدينة المنورة: المكتبة السلفية، ١٣٩٣هـ، ص١٠٢.

(١٧٤) الأنصاري، آثار المدينة، ص١٠٣.

(١٧٥) الأنصاري، آثار المدينة، ص١٠٤.

(١٧٦) زين الدين أبو بكر بن الحسين المراغي، تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة، صححه وعلق عليه محمد عبدالجواد الأصمعي، ط١، المدينة المنورة: المكتبة العلمية، ١٣٧٤هـ، ص ١٣٥.

(١٧٧) الأنصاري، آثار المدينة، ص٢٦٢.

(١٧٨) الأنصاري، آثار المدينة، ص ٢٦٢.

الخاتمة

بعد دراسة جهود الخلافة العباسية في رعاية الحرمين ومشاعر الحج في الحجاز يمكن استنتاج ما يأتي:

١ - لم تكن جهود الخلافة العباسية في عمارة الحرمين الشريفين ومشاعر الحج منتظمة، بل اعتمدت على الجهد الفردي لبعض خلفاء وأمراء البيت العباسي. كما أنه لم يكن هناك ديوان خاص يتولى مهمة الإشراف على رعاية المشاعر المقدسة في الحجاز.

٢ - ارتبطت عمليات الإعمار والبناء بالحالة السياسية للدولة العباسية، فلما تراجعت قوتها برزت مطامع الدويلات المستقلة، وخاصة الدولة الفاطمية، التي أخذت تزاحمها في السيطرة على الحجاز؛ لما لها من مكانة في نفوس المسلمين.

٣ - ازداد تمسك خلفاء الدولة العباسية بعمارة الحرمين الشريفين والمشاعر المقدسة بعد أن اتضحت لهم أهمية تلك السيطرة الدينية على الحجاز في نفوس رعاياهم من المسلمين، فالحجاز مهبط الوحي والمركز الروحي لعامة المسلمين، ولا يجوز لحكامهم التخلي عن تلك السيطرة؛ لأن ذلك ينقص من عناصر سيادتهم. لذا نجد أن الخلفاء العباسيين ظلوا متمسكين بالحجاز وإدارتها - رغم انقطاع تلك السيطرة فترة من الزمن - حتى لو كانت تلك السيطرة اسمية، طالما أن اسم الخليفة يذكر على منابر الحرمين.

٤ - إن أمراء الحجاز من الأشراف لم يكن لهم ذلك الدور الواضح في عمليات الإعمار للمشاعر المقدسة في بلادهم، معتمدين في ذلك على التنافس العباسي - الفاطمي، وما يقوم به الطرفان من أعمال الإعمار، مكتفين بما يقدمونه لهم من أعطيات وهبات، مُؤثرين مصالحهم الخاصة على مصالح البلاد.

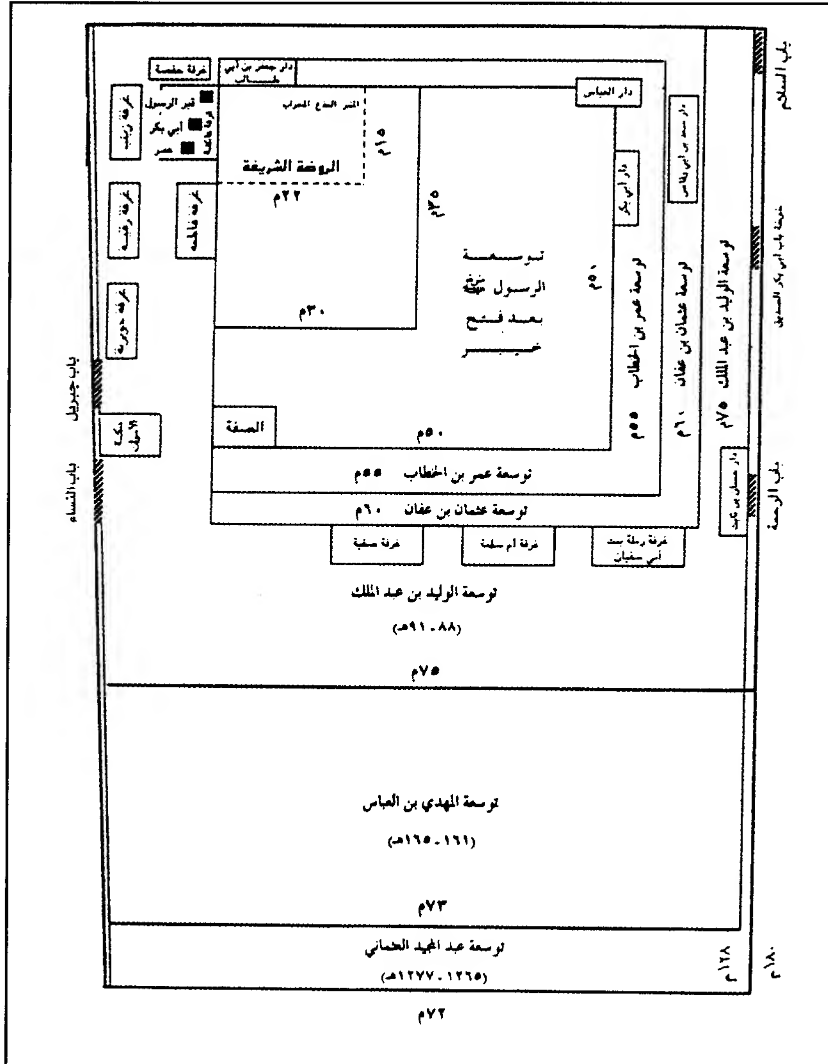
الملاحق

ملحق رقم (١)

الزيادات التي طالت الحرم خلال العصر العباسي

نقلاً عن : عبداللطيف بن دهيش: عمارة المسجد الحرام والمسجد النبوي

ملحق رقم (٢)



مراحل توسعة المسجد النبوي حتى نهاية العصر العباسي

نقلاً عن : عبداللطيف بن دهيش: عمارة المسجد الحرام والمسجد النبوي

المقامات

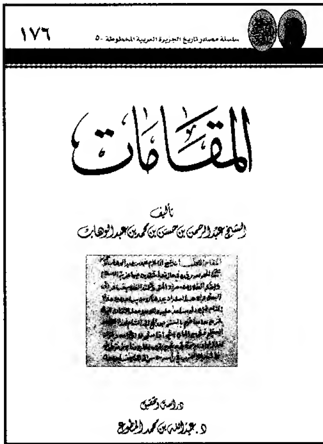
تأليف

الشيخ عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب

دراسة وتحقيق

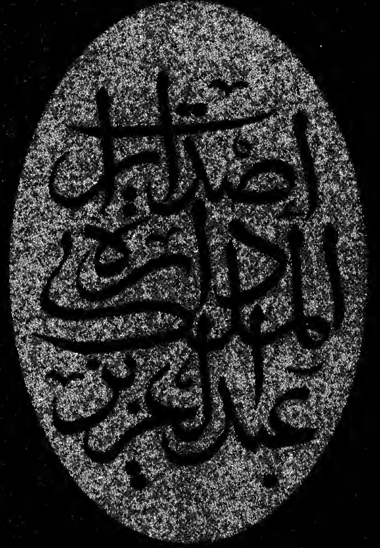
د. عبدالله بن محمد المطوع

١٧٢ صفحة



كتب الشيخ عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب (١٢٨٥هـ) العديد من الرسائل القصيرة، ومن بينها هذا الكتاب، الذي وسمه بالمقامات وعددهن تسع، وهي في الأساس ردٌّ على الشيخ عثمان بن منصور.

وتعود القيمة التاريخية لهذه المقامات إلى مكانة مؤلفها ومعاصرته لعدد من الأحداث المسجلة فيها، وظهور أثر ذلك فيما أورده من روايات وأخبار لم ترد في المصادر الأخرى.





ص.ب ٢٩٤٥ - الرياض ١١٤٦١ - المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٠١١٩٩٩/٤٠٢١٦٤ - فاكس ٤٠١٣٥٩٧
بريد الكتروني info@darah.org.sa

مكة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري كما وصفها المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم

د. عبدالعزيز بن راشد السنيدي

قسم التاريخ - كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية - جامعة القصيم

خيّم الغموض ردحاً من الزمن على تاريخ مكة رغم مكانتها السامقة في النفوس، بعد تراجع واضح من المؤرخين - سواء كانوا من أبنائها أو غيرهم - عن الكتابة فيه؛ فلا نرى من يُعنى بتتبع مناشط الحياة العامة في مكة ويُدوّن تاريخها بدقة وتوسع بعد وفاة مؤرخيها البارزين، مثل: أبي الوليد الأزرقي (ت حوالي سنة ٢٥٠هـ/ ٨٦٣م)، وأبي إسحاق الفاكهي (ت بعد سنة ٢٧٢هـ/ ٨٨٥م)، حتى قيّض الله تعالى لها تقي الدين الفاسي (ت ٨٣٢هـ/ ١٤٢٩م)، ونجم الدين بن فهد (ت ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م)، وابنه عز الدين (ت ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م)، وحفيده جار الله (ت ٩٥٤هـ/ ١٥٤٧م)، وغيرهم ممن شمروا عن ساعد الجد محاولين أن يتداركوا ما أهمل من التاريخ المكي، ويلموا شعثه بما صنفوه من كتب، حاولت - رغم عدم توافر المادة العلمية الكافية للفترة التي أعقبت الأزرقي والفاكهي - أن تغطي بمضامينها المختلفة جوانب هذا التاريخ المتعددة.

وجاءت بعض كتب الرحلات لتتيح - بما جاء فيها من مادة علمية متنوعة - رافداً يسَّر للباحثين الوصول لبعض الحقائق التاريخية والمعلومات الحضارية المهمة، وكانت خير معين في رفع الستار،

وكشف الغموض عن أجزاء مبهمة أو غير واضحة من تاريخ مكة في فترته الغامضة.

ويأتي كتاب "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" الذي صنفه محمد بن أحمد المقدسي - بعد رحلة أمضاها سائحاً في الأمصار الإسلامية إبان النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، ومتردداً خلال ذلك على مكة حاجاً ومجاوراً - من أبرز الكتب التي صنفت في هذا المجال بعد أن حرص المقدسي على أن يُخرج هذا الكتاب وفق خطة مرسومة تخضع لمعايير منهجية واضحة وصارمة. ولا غرو فقد أرضى المقدسي طموحه وتطلعاته حتى أصبح مصنفه، بمنهجه المتميز، ومادته العلمية الثرة والمتنوعة التي بزّ بها سابقيه ومعاصريه من الجغرافيين والرحالة، مرجعاً للكثير من الباحثين، ومثار إعجاب عدد من الكتاب المحدثين، سواء كانوا من العرب أو المستشرقين، ممن أفاضوا في دراسة منهجه، والإفصاح عن مكانته وقيمته العلمية[١].

بيد أن هذا التميز الذي حظي به كتاب أحسن التقاسيم للمقدسي قد دفعنا لإعمال النظر في محتوياته، والغوص في مظانه، لمعرفة ما حفل به من معلومات تاريخية وحضارية تسلط الضوء على الحياة العامة في مكة إبان القرن الرابع الهجري، وتسد - في الوقت عينه - جزءاً من ذلك النقص الواضح الذي أشرنا إليه في تاريخها. ولعلنا لا نغالي إذا قلنا: إن ما ألفيناه - بعد البحث والتقصي - من معلومات متنوعة عن مكة في هذا الكتاب قد أفسحت المجال للوصول إلى معرفة الكثير من الجوانب التاريخية والحضارية؛ مما نخال أنه سيغطي - بإذن الله - جانباً من النقص الذي لازم التاريخ المكي آنذاك، لا سيما وأن المقدسي قد بسط القول في موضوعات حضارية صرفة ونادرة عن كل إقليم تحدث عنه، ومن ذلك مكة، في وقت أغفلت كتب التاريخ - في الغالب - هذه المعلومات، وتناولت جزئيات عامة منها

(١) هذا ما سوف نتحدث عنه بتوسع في المحور الأول من هذه الدراسة.

بعض المصادر المعنية بالنظم والحضارة. فضلاً عن ذلك فإن معظم ما جاء به المقدسي من معلومات قد بُني على المعاينة المباشرة، واتكأ عليها، فجمع بذلك بين الدقة والمعاصرة.

ومما يحسب لهذا الكتاب أيضاً أن مؤلفه جاء إلى مكة في فترة هدوء نسبي أتى بعد مرحلة انتقالية خضعت المنطقة في نهايتها لسيطرة الدولة العبيدية (الفاطمية) في مصر بعد نزاع حاد مع العباسيين. كما شهدت هذه الحقبة التاريخية أيضاً تحركاً ملموساً للنشاط التجاري في البحر الأحمر وموانئه، عقب زيادة الانفتاح العبيدي على العالم الخارجي. ولهذا وذاك فلا مشاحة أن المقدسي قد أمدنا بمعلومات غاية في الأهمية عن هذه التغيرات السياسية والحضارية التي تخللت النصف الثاني من القرن الرابع الهجري.

لقد أملت علينا الاعتبارات السابقة برمتها تسليط الضوء على ما جاء من معلومات مختلفة عن مكة في كتاب أحسن التقاسيم للمقدسي[٢]، وجمعها في قالب واحد، ثم صياغتها بعد إخضاعها للتمحيص والتحقيق والتحليل والتفسير العلمي المتجرد، وكشف المبهم، وتفسير الغامض، كل ذلك بعد التزود بالأدوات المختلفة التي تساعد على التعايش مع الأحداث المحيطة، وإدراك المتغيرات الزمانية والمكانية المختلفة.

ووفق ما أملته المادة العلمية المتاحة، واقتضته طبيعة الدراسة، فقد تم تناول الموضوع - والذي جاء تحت عنوان، "مكة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري كما وصفها المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" عبر محورين، جاء المحور الأول منهما - بعد هذه المقدمة - ليلقي الضوء على شخصية المقدسي وكتابه

(٢) سوف نستند في هذا البحث على كتاب المقدسي أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، الذي حققه الدكتور محمد مخزوم، ونشرته دار إحياء التراث العربي ببيروت، عام ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

أحسن التقاسيم؛ فشمل بذلك حياة المقدسي ومكانته ومنهجه في تأليف كتابه ومصادره، ثم أهمية هذا الكتاب ومكانته. أما المحور الثاني - وهو مرتكز الدراسة - فكان عن مكة كما وصفها المقدسي، وفيه أميط اللثام عن الجوانب المختلفة التي وصفها المقدسي في مكة، فضم هذا المحور؛ الموقع والمناخ، ثم مكانة مكة وأهميتها، ثم تخطيطها وعمارتها، وتبع ذلك الحديث عن وصف المقدسي للكعبة والحجر الأسود والحِجْر (حِجْر إسماعيل) والمطاف وعمارة المسجد الحرام وذكر أبوابه، ثم وصفه لقبة زمزم وقبة الشراب ومقام إبراهيم والمسعى. وعقب ذلك تناولنا ما ذكر المقدسي عن المصادر المائية المختلفة في مكة، ثم ما أتى به من معلومات عن النشاط التجاري، سواء عن الأسواق أو البضائع والسلع أو الاستثمار العقاري أو المكاييل والموازين أو العملات المتداولة أو المكوس والضرائب. وجاء بعد ذلك الحديث عمَّا أتحفنا به من معلومات عن الحالة الاجتماعية بجوانبها المختلفة في مكة. ثم ما ذكر عن الجوانب الفكرية والعلمية فيها. وأوردنا بعدها معلوماته عن المشاعر المقدسة؛ وهي منى والمزدلفة وعرفة، ثم أتينا بأقواله حول حدود الحرم المكي، وأجملنا بعد ذلك - وتحت عنوان معلومات أخرى - جوانب متفرقة لا يجمعها رابط واحد، أشار إليها المقدسي في حديثه عن مكة. ثم جاءت بعد ذلك الخاتمة، وفيها حاولنا تتبع أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

وأخيراً، أسأل المولى - جل شأنه - أن يكون التوفيق حليفي فيما ذهبت إليه، كما آمل أن أكون قد قدمت بهذا العمل جديداً يخدم تاريخنا المجيد، والحمد لله أولاً وآخراً.

أولاً: المقدسي وكتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم

١ - حياته ومكانته(٣)

هو شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي، وعُرف بالبشاري أيضاً(٤)، كما أطلقت عليه ألقاب أخرى كثيرة(٥). ولد في مدينة بيت المقدس سنة ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م(٦)، وقيل

(٣) سوف أكتفي في هذا الجانب بتناول بعض المعلومات المختصرة عن حياة المقدسي وكتابه أحسن التقاسيم، حيث كفيت مؤنة ذلك من قبل عدد من الباحثين الذين تناولوا المقدسي وكتابه بحديث مبسوط: سواء كان ذلك بدراسات مفردة، أو ضمن كتابات شاملة تختص بالجغرافيين والرحالة المسلمين وتراثهم. ولمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع يمكن الرجوع - على سبيل المثال - للكتب والأبحاث الآتية: عدي يوسف مخلص، المقدسي البشاري: حياته - منهجه. ط١، النجف: مطبعة النعمان ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م؛ إبراهيم خوري، نوابغ الجغرافية العربية في القرون الوسطى "المقدسي البشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم". بيروت: دار الشروق، (د. ت)؛ فلاح شاكر أسود، المقدسي (ضمن سلسلة نوابغ الفكر العربي) ط١، بغداد: دار الشؤون الثقافية ١٩٨٨م؛ غازي طليمات، من أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم لمحمد بن أحمد المقدسي، دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي ١٩٨٠م؛ عبدالفتاح فتحي عبدالفتاح، المقدسي مؤرخاً لبلدان العرب من خلال كتابه أحسن التقاسيم، مجلة المؤرخ العربي (القاهرة)، م١، ع٧، ١٩٩٩م، ص٢٠٣-٢٧٤؛ ناصر عبدالرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ط١، القاهرة: دار النشر للجامعات المصرية - دار الوفاء ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ص١٧٢-٢٠٦.

(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت: دار صادر ودار بيروت ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ج٤، ص٤٦٤؛ خير الدين الزركلي، الأعلام، ط٦، بيروت: دار العلم للملايين ١٩٨٤م، ج٦، ص٣١٢؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، لبنان: مكتبة المثنى، ودار إحياء التراث العربي ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م، ج٨، ص٢٣٨. وقال عبدالفتاح فتحي عبدالفتاح: "لم أقف على أصل تلك النسبة فيما تيسر لي من معاجم اللغة، ومصادر الأنساب". (المرجع السابق، ص٢٤٥).

(٥) ذكر أنه سمي خلال تجوله ورحلاته بأسماء عدة، فقال: "ولقد سميت بستة وثلاثين اسما دعيت وخوطبت بها، مثل مقدسي وفلسطيني ومصري ومغربي وخراساني وسلمي ومقرئ وفقيه وصوفي وولي وعابد وزاهد وسياح ووراق ومجلد وتاجر ومذكر وإمام ومؤذن وخطيب وغريب وعراقي وبغدادي وشامي وحنيفي ومتأدب وكري ومتفقه ومتعلم وفرائضي وأستاذ ودانشومند وشيخ ونشاسته وراكب ورسول، وذلك لاختلاف البلدان التي حللتها وكثرة المواضع التي دخلتها". (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. تحقيق، محمد مخزوم. بيروت: دار إحياء التراث العربي ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، ص٤٩-٥٠).

(٦) عدي مخلص، المقدسي البشاري، ص٢٣؛ ناصر الموافي، الرحلة في الأدب العربي، ص١٧٢.

سنة ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م[٧]. أما وفاته فقد اختلف فيها على أقوال عدة؛ فقيل: إنها كانت سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م[٨]، وقيل: في حوالي سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م[٩]، وقيل: خلال سنة ٣٩٠هـ/ ٩٩٩م، أو بعدها بقليل[١٠].

وعاش المقدسي صباه في كنف أسرة تميزت بالثراء المادي وحب العلم، وعُرف خلال حياته بالتقوى والورع والزهد[١١]. وفي شبابه انتقل إلى مدينة بغداد، ودرس على بعض العلماء فيها[١٢]. ورغم أنه اطلع على الكثير من العلوم ودرسها، إلا أنه - وبعد طول نظر - آثر التعمق في الفقه على المذهب الحنفي[١٣]. كما مارس المقدسي مهنًا عدة، كان من أبرزها التجارة التي حذق فيها كثيراً[١٤].

وقد حج المقدسي سنة ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م بعد أن بلغ سن العشرين، كما حج مرة أخرى سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م[١٥]، إضافة إلى ذلك فقد جاور في مكة[١٦]، واستفاد من بعض العلماء فيها[١٧]. وقد أمضى حوالي عشرين سنة من عمره يتجول في البلدان الإسلامية، قبل أن يؤلف كتابه سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م[١٨].

---

(٧) خير الدين الزركلي، الأعلام، ج٦، ص٣١٢؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج٨، ص٢٣٨.

(٨) عمر رضا كحالة، المرجع السابق، ج٨، ص٢٣٨.

(٩) الزركلي، المرجع السابق، ص٣١٢؛ كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة، أحمد عثمان هاشم، ط٢، بيروت: دار الغرب الإسلامي ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، ص٢٢٩؛ عدي مخلص، المرجع السابق، ص٢٥؛ إبراهيم خوري، نوابغ الجغرافية العربية، ص١٧.

(١٠) غازي طليمات، المرجع السابق، ص٣٦.

(١١) عبدالفتاح فتحي عبدالفتاح، المقدسي مؤرخاً لبلدان العرب، ص٢٠٥، ٢٠٨.

(١٢) عدي مخلص، المقدسي البشاري، ص٢٤.

(١٣) ناصر عبدالرزاق الموافي، الرحلة عند العرب، ص١٧٣.

(١٤) عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج٨، ص٢٣٩.

(١٥) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٩٥.

(١٦) المصدر نفسه، ص٥٠.

(١٧) المصدر نفسه، ص٧٧، ٧٩.

(١٨) المصدر نفسه، ص٢٣.

وقد أمدنا أبو عبدالله المقدسي بمعلومات عن نفسه، غطت إغفال معظم المصادر الحديث عنه، ويسرت لنا - في الوقت نفسه - الوقوف على جوانب من حياته الشخصية وأطوارها المختلفة، فضلاً عن مكانتيه العلمية والاجتماعية؛ فأفاد من خلال ذلك بأنه تولى - خلال تجواله في البلدان الإسلامية - العديد من المناصب الإدارية والدينية، ومارس مختلف المهن، كما عانى من الكثير من الشدائد والمحن[١٩].

---

(١٩) يقول المقدسي موضحاً ما عاناه خلال أسفاره: "ثم أنه لم يبق شيء مما يلحق المسافرين إلا وقد أخذت منه نصيبا غير الكدية وركوب الكبيرة، فقد تفقهت، وتأدبت، وتزهدت، وتعبدت، وفقهت، وأدبت، وخطبت على المنابر، وأذنت على المنائر، وأممت في المساجد، وذكرت في الجوامع، واختلفت إلى المدارس، ودعوت في المحافل، وتكلمت في المجالس، وأكلت مع الصوفية الهرائس، ومع الخانقائيين الثرائد، ومع النواتي العصائب، وطردت في الليالي من المساجد، وسحت في البراري، وتهت في الصحاري، وصدقت في الورع زمانا، وأكلت الحرام عيانا، وصحبت عباد جبل لبنان، وخالطت حينا السلطان، وملكت العبيد، وحملت على رأسي بالزبيل، وأشرفت مرارا على الغرق، وقطع على قوافلنا الطرق، وخدمت القضاة والكبراء، وخاطبت السلاطين والوزراء، وصاحبت في الطرق الفساق، وبعت البضائع في الأسواق، وسجنت في الحبوس، وأخذت على أني جاسوس، وعاينت حرب الروم في الشواني، وضرب النواقيس في الليالي، وجلدت المصاحف بالكرى، واشتريت الماء بالغلا، وركبت الكنائس والخيول، ومشيت في السمائم والثلوج، ونزلت في عرصة الملوك بين الأجلة، وسكنت بين الجهال في محلة الحاكة، وكم نلت العز والرفعة، ودبر في قتلي غير مرة، وحججت، وجاورت، وغزوت، ورابطت، وشربت بمكة من السقاية السويق، وأكلت الخبز والجلبان بالسيق ومن ضيافة إبراهيم الخليل وجميز عسقلان السبيل، وكسيت خلع الملوك، وأمروا لي بالصلات، وعريت، وافتقرت مرات، وكاتبني السادات، ووبخني الأشراف، وعرضت علي الأوقاف، وخضعت للأخلاف، ورميت بالبدع، واتهمت بالطمع، وأقامني الأمراء والقضاة أمينا، ودخلت في الوصايا، وجعلت وكيلا، وامتحنت الطرارين، ورأيت دول العيارين، واتبعني الأرذلون، وعاندني الحاسدون، وسعي بي إلى السلاطين، ودخلت حمامات طبرية والقلاع الفارسية، ورأيت يوم الفوارة وعيد بربارة وبئر بضاعة وقصر يعقوب وضياعه ومثل هذا كثير. (أحسن التقاسيم، ص٥٠-٥١). وقال غازي طليمات عن شخصيته: "إنها متعددة الجوانب، مشحوذة الملكات، صقلتها الأسفار، وراضتها التجارب، لكنها ظلّت أبيّة قوية، لا تخشع ولا تتواضع". (من أحسن التقاسيم، ص٣٨).

٢ - كتاب أحسن التقاسيم: منهجه، ومصادره، ومكانته، وأهميته

كان الاطلاع على كتب الجغرافية، والتعمق في دراستها مما استهوى المقدسي خلال طلبه للعلم، فأعمل النظر في مؤلفات السابقين في هذا المجال، وأحس بأن هناك نقصاً قد لازم ما طرقوه من موضوعات، وخللاً في ما قدموا من مادة علمية في كتبهم، ولا سيما وأن بعضهم لم يعتمد على المشاهدة الفعلية فيما دوّنه. وبعد طول تأمل في هذه المصنفات قرر المقدسي تأليف كتاب شامل يصف فيه البلدان الإسلامية، ويعتمد بالدرجة الأولى على السماع المباشر والمعاينة، ليسد ما رآه من نقص، ويقيم ما وجده من خلل في المصنفات السابقة. ولهذا الهدف قضى المقدسي من عمره عشرين سنة تقريباً، تنقل فيها بين الأقاليم الإسلامية، واحتك خلالها بأجناس متنوعة، وفئات مختلفة، وطبقات متفاوتة، كما استعان بذوي العلم والخبرة، فضلاً عن النظر في كثير من الخزائن ودور الكتب في الأمصار التي زارها(٢٠). كل ذلك لكي يصل إلى معلومات شاملة ودقيقة، تحقق مبتغاه وهدفه، وتروي نهم من تطلعوا للوصول لحقائق ومعلومات وافية عن الأقاليم الإسلامية؛ سواء منهم من شجعوه على إصدار ما جمع من معلومات(٢١) أو غيرهم ممن أولعوا بطلب العلم، في عصر بلغ فيه التقدم العلمي ذروته، وهو القرن الرابع الهجري. وكان نتيجة ذلك أن أتحفنا المقدسي بكتابه الذي أطلق عليه اسم "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، الذي لم يخرجه للناس إلا في سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م(٢٢)، بعد أن بلغ الأربعين من العمر، وأقرّ مادته العلمية جمع من الأئمة والعلماء بعد أن استشارهم في إصداره(٢٣).

---

(٢٠) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٦-١٧.

(٢١) المصدر نفسه، ص٢٣.

(٢٢) ويرى كراتشكوفسكي أن المقدسي قدم نسخة الكتاب الأولى في سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م إلى آل سامان حكام المشرق آنذاك، كما قدم منه نسخة ثانية إلى الفاطميين في مصر سنة ٣٧٨هـ. (تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص٢٢٨-٢٢٩).

(٢٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٢٣.

وقد اقتصر المقدسي في أحسن التقاسيم على الحديث عن الأقاليم الإسلامية دون غيرها[٢٤]. كما حرص على أن يغطي بكتابه معظم الجوانب الجغرافية والحضارية المتعلقة بهذه البلدان، فقال موضحاً منهجه وما تطرق إليه في هذا الكتاب[٢٥]: "فرأيت أن أقصد علماً قد أغفلوه، وأنفرد بفن لم يذكروه إلا على الإخلال، وهو ذكر الأقاليم الإسلامية وما فيها من المفاوز والأبحار والبحيرات والأنهار، ووصف أمصارها المشهورة، ومدنها المذكورة، ومنازلها المسلوكة، وطرقها المستعملة، وعناصر العقاقير والآلات ومعادن الحمل والتجارات، واختلاف أهل البلدان في كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم ومذاهبهم ومكاييلهم وأوزانهم ونقودهم وصروفهم وصفة طعامهم وشرابهم وثمارهم ومياههم ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم، وما يحمل من عندهم وإليهم، وذكر مواضع الأخطار في المفازات، وعدد المنازل في المسافات، وذكر السباخ والصلاب والرمال والتلال والسهول والجبال والحواوير والسماق والسمين منها والرقاق ومعادن السعة والخصب ومواضع الضيق والجدب، وذكر المشاهد والمراصد والخصائص والرسوم والممالك والحدود والمصارد والجروم والمخاليق والزموم والطساسيج والتخوم والصنائع والعلوم والمباخس والمشاجر والمناسك والمشاعر".

وقسم المقدسي كتابه قسمين، تضمن القسم الأول منه مقدمة سلط من خلالها الضوء على سبب تأليف كتابه وأهدافه وموضوعه وفوائده وأهميته والجهد الذي بذل فيه. كما تحدث في القسم نفسه وتحت عنوان "مقدمات وفصول لا بد منها" عن أسس منهجه ومصادر كتابه، ومآخذه على السابقين في هذا المجال. ثم أعقب ذلك بحديث

---

(٢٤) المصدر نفسه، ص٢٣.

(٢٥) المصدر نفسه، ص١٥-١٦. ولكي لا يطول بنا الحديث فلن أتطرق لتعريف بعض الكلمات التي أوردها المقدسي هنا، ومن أراد معرفتها فليرجع للكتاب نفسه، حيث اجتهد المحقق في تعريف كثير من الألفاظ الغامضة.

شامل عن البحار والأنهار في البلدان الإسلامية. كما أشار ضمن هذه المقدمات إلى اتفاقات الأسامي وتباين مواقعها، وإلى المواضع المختلف فيها، وتحدث أيضاً عن خصائص الأقاليم الإسلامية، والمذاهب والديانات المنتشرة فيها. ثم شرح معاناته والمشاق التي واجهها في سبيل جمع مادة كتابه العلمية. ثم عقد باباً خصصه للفقهاء، استعرض فيه باختصار الأقاليم الإسلامية التي سيتحدث عنها في كتابه، وتقسيماتها، وما يتبعها من كور وأمصار وغيرها.

أما القسم الثاني من الكتاب فقد تكلم فيه المقدسي عن الأقاليم الإسلامية، بعد أن قسمه إلى جزئين، خصص الجزء الأول منهما للحديث عن ستة أقاليم عربية، ابتدأها بإقليم جزيرة العرب، والآخر عن ثمانية من الأقاليم الأعجمية[٢٦].

وقد قسم المقدسي الحديث عن كل إقليم إلى ثلاثة أقسام متباينة في أحجامها، ومقدار المادة العلمية فيها، وجاءت محتويات هذه الأقسام الثلاثة وفق ما ذكر عدي مخلص على النحو الآتي[٢٧]: "القسم الأول يتناول الجغرافية الإقليمية، فيتحدث عن أقسام الإقليم ومدنه. وفي الثاني يتناول الجغرافية الطبيعية والبشرية والاقتصادية، فيبحث في المناخ والزراعة والطوائف السائدة واللغة والتجارة والأوزان والنقود والعادات والمياه والمعادن والأماكن والأخلاق والتبعية السياسية للقطر وخراجه. في حين يتناول القسم الثالث ذكر المسافات وطرق المواصلات".

(٢٦) ذكر المقدسي الأقاليم الإسلامية، فقال: "فالأقاليم أربعة عشر، ستة عربية؛ جزيرة العرب، ثم العراق، ثم أقور، ثم الشام، ثم مصر، ثم المغرب، وثمانية أعجمية؛ المشرق، ثم الديلم، ثم الرحاب، ثم الجبال ثم خوزستان، ثم فارس، ثم كرمان، ثم السند. ولابد لكل إقليم من كورة، ثم لكل كورة من قصبة، ثم لكل قصبة من مدن، إلا الجزيرة والمشرق والمغرب فإن لكل واحد مصرين، والمصر قصبة كورته، وليس كل قصبة مصراً. (أحسن التقاسيم، ص٥٤).

(٢٧) المقدسي البشاري، ص٦٨.

وكان المقدسي قد ضمّن كتابه خريطة ملونة بيّن فيها حدود الأقاليم وخططها، ورسم فيها - وبألوان مختلفة - البحار والأنهار والطرق والرمال والجبال[٢٨]. ولكن هذه الخريطة المهمة لم تصل إلينا[٢٩].

أما مصادر المقدسي التي اعتمد عليها في جمع المادة العلمية لهذا الكتاب، فقال شارحاً لها[٣٠]: "فانتظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام أحدها ما عايناه، والثاني ما سمعناه من الثقات، والثالث ما وجدناه في الكتب المصنفة في هذا الباب وفي غيره". كما قال أيضاً[٣١]: "وما بقيت خزانة ملك إلا وقد لزمتها، ولا تصانيف فرقة إلا وقد تصفحتها، ولا مذاهب قوم إلا وقد عرفتها، ولا أهل زهد إلا وقد خالطتهم، ولا مذكرو بلد إلا وقد شهدتهم، حتى استقام لي ما ابتغيته في هذا الباب".

يقول إبراهيم خوري مبيّناً ما بذله المقدسي في سبيل تحصيل مادة أحسن التقاسيم العلمية[٣٢]: "لا شك أن البشاري بذل جهوداً حثيثة في سبيل الوصول إلى الوثائق المكتوبة أو الحصول عليها. ولا ريب أنه أرهق مادياً ومعنوياً وجسدياً في تجواله في أقاليم مملكة الإسلام؛ ليراها عياناً، وفي سعيه للاجتماع بـ"الثقات من الرجال"، وسؤال ذوي العقول من الناس؛ ليسمع منهم الأخبار الصحيحة، ودام نشاطه على هذا المنوال تسعة عشر عاماً استطاع في نهايتها أن ينجز كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم".

---

(٢٨) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٢٣.

(٢٩) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري. نقله إلى العربية، محمد عبدالهادي أبو ريدة. ط١، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م، ص٦.

(٣٠) أحسن التقاسيم، ص٤٩.

(٣١) المصدر نفسه، ص٤٩.

(٣٢) المقدسي البشاري، ص٢٦-٢٧.

وتتجلى أهمية كتاب المقدسي في تسليط الضوء على الكثير من المواضيع والجوانب التي لم تحظ إلا باهتمام محدود ممن سبقه في هذا المضمار، خصوصاً ما يتعلق بجوانب الحضارة المختلفة، ومظاهر الحياة في البلدان، التي وصفها لنا كما وجدها عند زيارته لها. ولذا فقد أدرك الكثير من الكتاب أهمية كتاب المقدسي وقيمته العلمية، فقال إبراهيم خوري مستعرضاً آراء بعض المستشرقين في كتاب أحسن التقاسيم ومبدياً رأيه فيه[٣٣]: "وقد كشف سبرنجر أول مخطوطة لأحسن التقاسيم، فاعتبر المقدسي أكبر جغرافيّ عرفته البشرية قاطبة. وعدّ كرامرز كتابه أفضل مصنّفات الأدب الجغرافي العربي. وذكر غلد ميستر أن البشاري يتميز بوفرة مشاهداته وسعة اطلاعه. ورأى ألد ميلي أن ابن حوقل والمقدسي أبرز جغرافيّي القرن الرابع الهجري. وقال كراتشكوفسكي: إن المقدسي جغرافيّ عظيم، وكاتب عربي كبير. وأكّد أندريه ميكيل أن إسهام المقدسي في الجغرافية يتمثل، لا في أصالة بحثه، بل في مهارته بعرض الجغرافية البشرية الموروثة عن السلف لا سيما عن الاصطخري وابن حوقل. أما نحن فيبدو لنا أن أحسن التقاسيم أول مصنّف جغرافي عربي يتضمن كثيراً من أفكار الجغرافيا الحديثة دون تقنياتها".

وقال عبدالفتاح فتحي عبدالفتاح[٣٤]: إن المقدسي "نجح في أن يوائم بين المعلومات الجغرافية والمادة التاريخية، فقدم للباحثين المعاصرين في مجال التاريخ مادة حضارية غزيرة، تسد كثيراً من الثغرات الموجودة في كتب التاريخ الأصيلة، ومن هنا حق لنا أن نعد (أحسن التقاسيم) مصدراً جديداً من مصادر تاريخ العرب".

أما عدي مخلص فقال عن المقدسي وكتابه[٣٥]: "إننا لا يمكن أن نتجاهل ما قدمه لنا من المعلومات القيمة عن التجارة وطرق

---

(٣٣) المقدسي البشاري، ص٤٦.
(٣٤) المقدسي مؤرخاً لبلدان العرب، ص٢٤٣.
(٣٥) المرجع نفسه، ص١٥٤.

المواصلات والمعادن، وغيرها من المعلومات عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والأمور الإدارية، تلك المعلومات التي لا يستهان بها في الكشف عن تاريخ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) من الناحية الحضارية". وعن قيمة كتاب المقدسي التاريخية أيضاً قال عدي مخلص[٣٦]: "أما أهمية المقدسي من الناحية التاريخية فتتجلى بما أفادنا به من المعلومات القيمة عن الأحوال الإدارية والاقتصادية والاجتماعية للبلدان التي زارها...، وتتجلى أهميته التاريخية أيضاً بتحريه الحقائق، وبهذا كان من الناحية التاريخية أميناً في نقل المعلومات التي يمكن الركون إليها. كما أن المقدسي أدرك نقطة حساسة من الناحية التاريخية، وهي تطور الأحوال بتطور الزمن وتقدمه".

ثانياً: مكة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري كما وصفها المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم

الموقع والمناخ

اهتدى المقدسي بعد طول نظر وتأمل في الكون إلى انقسام الأرض إلى سبعة أقاليم فقط[٣٧]، وجعل موقع مكة الجغرافي ضمن نطاق الإقليم الثاني[٣٨]. كما ألمح إلى تضاريس مكة فبيّن أنها تقع في

---

(٣٦) المرجع نفسه، ص٣١٥.

(٣٧) خالف المقدسي - على حدّ قوله - من سبقوه في هذا الموضوع، حيث جعلوا الأقاليم أربعة عشر إقليماً. (أحسن التقاسيم، ص٦٦).

(٣٨) المصدر السابق، ص٦٧. وقال المقدسي في تحديد هذا الإقليم: "الإقليم الثاني أوله حيث يكون الظلّ إذا استوى الليل والنهار عند الظهيرة قدمين وثلاثة أخماس قدم، والذي بين طرفيه ثلاثمئة وخمسون ميلاً قاصداً، ووقع وسطه قرب يثرب، وأقصى جنوبيه وراء مكة، والآخر من قبل الشمال عند الثعلبية فمكة، والثعلبية بين إقليمين، ووقع في هذا الإقليم من المدن: مكة ويثرب والربذة وفيد والثعلبية وأسوان مصر إلى حد النوبة والمنصورة واليمامة وطائفة من بلاد السند والهند، وكل ما كان على خط هذه البلدان شرقاً وغرباً فهو داخل فيه. (أحسن التقاسيم، ص٦٧-٦٨).

شعب واد، وشبه تضاريسها بعَمّان الشام، واصطخر بفارس، والحمراء بخراسان[٣٩]. كما ذكر محاذاة جبلي قعيقعان وأبي قبيس لبعضهما البعض، وكأنه يشير دون تصريح بوقوع مكة بينهما[٤٠].

وسلط المقدسي الضوء على مناخ مكة، فقال[٤١]: "حارة في الصيف إلا أن ليلها طيب قد رفع الله عنهم مؤونة الدفأ وأراحهم من كلف الاصطلاء". وقال عنه أيضاً[٤٢]: "والليل بمكة في الصيف رطب... ويكون بالحرم حرٌّ عظيم، وريح تقتل، وذباب في غاية الكثرة". أما مناخ إقليم الجزيرة العربية بصفة عامة، فقال عنه[٤٣]: "وهو إقليم شديد الحر، إلا السروات؛ فإن هواءها معتدل". وقال عنه وهو يتحدث عن خصائص الأقاليم[٤٤]: "وأشدها حراً وقحطاً ونخيلاً جزيرة العرب".

مكانة مكة وأهميتها

قسم المقدسي البلدان الإسلامية التي خصص كتابه للحديث عنها - كما أشرنا سابقاً - إلى أربعة عشر إقليماً، وجعل الجزيرة العربية - التي قدمها على جميع الأقاليم الإسلامية في حديثه[٤٥] - إقليماً

---

(٣٩) أحسن التقاسيم، ص٧٥.

(٤٠) المصدر نفسه، ص٩٦.

(٤١) المصدر نفسه، ص٧٥.

(٤٢) المصدر نفسه، ص٩٠.

(٤٣) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٤٤) المصدر نفسه، ص٤١.

(٤٥) قال المقدسي معللاً سبب بدايته بالجزيرة العربية: "إنما بدأنا بجزيرة العرب؛ لأن بها بيت الله الحرام، ومدينة النبي عليه الصلاة والسلام، ومنها انتشر دين الإسلام. وفيها كان الخلفاء الراشدون، والأنصار والمهاجرون. وبها عُقدت رايات المسلمين، وقويت أمور الدين. وأيضاً فإن بها المشاعر والمناسك والمواقيت والمناحر. ثم هي عشرية قد ذكرها الأئمة في دواوينهم، ولابدّ للمدرسين من معرفتها في شروحهم، ولأن منها دحيت الأرض، ودعا إبراهيم عليه السلام الخلق". (المصدر السابق، ص٧٣).

واحداً، تضم مصرين[٤٦] هما: مكة وزبيد[٤٧]، وعدّ هذين المصرين من أبرز سبعة عشر مصراً إسلامياً[٤٨]. كما بيّن المقدسي من خلال حديثه عن الحجاز أن مكة هي عاصمته وأكبر مدينة فيه، فقال[٤٩]: "فأما الحجاز فقصبته مكة..."، وقال في موضع آخر، وهو يتحدث عن بلاد الحجاز أيضاً[٥٠]: "مكة، هي مصر هذا الإقليم". وقد كشف لنا المقدسي من خلال معلوماته السابقة المكانة السياسية التي بلغتها مكة خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، ومدى ما وصلت إليه حدودها الإدارية التي شملت جميع مدن بلاد الحجاز وقراه، التي عدّها المقدسي - حسب تقسيمه ومنهجه - مجرد نواحٍ لمكة وتوابع لها. ومن هذا المنطلق فإننا لا نستبعد أن الدولة العبيدية (الفاطمية) - التي امتد حكمها إلى بلاد الحجاز منذ سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م[٥١]،

(٤٦) قال المقدسي في توضيح منهجه في تقسيم العالم الإسلامي آنذاك: "واعلم أنا جعلنا الأمصار كالملوك، والقصبات كالحجاب، والمدن كالجند، والقرى كالرجالة. وقد اختلف في الأمصار، فقالت الفقهاء: المصر كل بلد جامع يقام فيه الحدود، ويحله أمير، ويقوم بنفقته، ويجمع رستاقه، مثل: عثّر، ونابلس، وروزن. وعند أهل اللغة المصر كل ما حجز بين جهتين، مثل: البصرة، والرقة، وأرجان. والمصر عند العوام كل بلد كبير جليل، مثل: الري، والموصل، والرملة. وأما نحن فجعلنا المصر كل بلد حله السلطان الأعظم، وجمعت إليه الدواوين، وقُلّدت منه الأعمال، وأضيف إليه مدن الإقليم، مثل: دمشق، والقيروان، وشيراز. وربما كان للمصر أو القصبة نواح لها مدن، مثل: طخارستان لبلخ، والبطائح لواسط، والزاب لأفريقية". (أحسن التقاسيم، ص٥٤).

(٤٧) أما بقية المدن في إقليم الجزيرة فقد عدّها قصبات ونواحي ومدنًا وقرى، كما سنذكر.

(٤٨) أحسن التقاسيم، ص٥٤-٥٥.

(٤٩) المصدر نفسه، ص٧٤.

(٥٠) المصدر نفسه، ص٧٥.

(٥١) استغل أشراف الحجاز امتداد النفوذ العبيدي إلى مصر سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م؛ لإعلان تبعيتهم وولائهم لهم، في ظل مضايقة العباسيين، وكبتهم لأي محاولة علوية للظفر بحكم الحجاز. فقام بنو الحسن بالاستقلال بمكة، وبنو الحسين في المدينة، ومنذ ذلك الحين بدأ الصراع بين العباسيين والعبيديين على النفوذ في بلاد الحجاز. وكان أمير مكة خلال الفترة التي جاء فيها المقدسي إلى مكة - عقب قيام حكم الأشراف - عيسى بن جعفر بن محمد الموسوي الحسني الذي خلف والده =

ودخلت في صراع مع الدولة العباسية عليه - قد منحت شريف مكة آنذاك حكم الحجاز بصفة عامة، خصوصاً بعد أن نجح حكامها في السيطرة التامة على الحجاز منذ سنة ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م[٥٢]، بعد أن وجدوا ميلاً وولاءً من الأشراف خاصة وأهل الحجاز عامة، وهو ما رآه المقدسي خلال مجيئه لمكة، وأكده في كتابه[٥٣]. ومن جانب آخر فإن في ذكر المقدسي لتوابع مكة الإدارية دليلاً على توسع نطاق إمارتها، وبالتالي ازدياد نفوذ حاكمها، حيث أدّرج ضمن توابع مكة مجموعة من المدن والمناطق البعيدة عنها جغرافياً التي لم تكن - في الوقت ذاته - ضمن نطاقها الإداري سابقاً[٥٤]. إن هذا وذاك يدفعنا إلى القول بأن معظم أشراف مكة كانوا أكثر ولاءً وانقياداً للعبيديين من أشراف المدينة، فنالوا بذلك ثقتهم، وتفضيلهم على غيرهم في المنطقة.

= على السلطة. لمزيد من المعلومات، انظر: الفاسي، شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام. تحقيق، د. عمر عبدالسلام تدمري، ط١، بيروت: دار الكتاب العربي ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج٢، ص٣٥١-٣٥٤؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى. تحقيق، فهيم محمد شلتوت، ط١، مكة المكرمة: مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م، ج٢، ص٤٠٦-٤١٦؛ أحمد بن عمر الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية" ٣٠١-٤٨٧هـ". ط١، الرياض: عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص٤٢-٤٥؛ صبحي عبدالمنعم محمد، العلاقات بين مصر والحجاز زمن الفاطميين والأيوبيين. القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، (د. ت). ص٨١-٩٠.

(٥٢) الفاسي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: فؤاد سيد، ط٢، بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م. ج١، ص١٨٦. للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، انظر: نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٤١٣ وما بعدها؛ صبحي عبدالمنعم محمد، العلاقات بين مصر والحجاز، ص٨٨-٩١.

(٥٣) أحسن التقاسيم، ص٩٧-٩٨. وقد أكد نجم الدين بن فهد أن مكة استمرت في ولائها للدولة العبيدية - رغم محاولات العباسيين إعادتها لسلطتهم - نحو قرن من الزمن، فقال وهو يذكر قطع محمد بن جعفر بن أبي هاشم الخطبة للحاكم العبيدي المستنصر سنة ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م: "وأعاد الخطبة العباسية بعد قطعها من الحجاز نحو مئة سنة". (إتحاف الورى، ج٢، ص٤٧٣).

(٥٤) قال المقدسي في ذكر توابع مكة: ولمكة: منى، أمج، الجحفة، الفرع، جبلة، مهايع، حاذة، الطائف، بلدة. (أحسن التقاسيم، ص٦١).

لقد هيأت الظروف السابقة لمكة إبان النصف الثاني من القرن الرابع الهجري السبل الكفيلة لتطورها في شتى نواحي الحياة، فبلغت مكة آنذاك - ومن خلال نظرة المقدسي وشهادته - مكانة تفوقت بها على عدد من المدن المعروفة في الحجاز وغيره؛ فقد عدّها المقدسي - كما بيّنا سابقاً - قصبة بلاد الحجاز ومصره، ثم أشار خلال حديثه عن المدينة أن عمارتها أقل من نصف مكة[٥٥]، كما ذكر أيضاً أن مكة أكبر من مدينة بيت المقدس[٥٦]. فضلاً عن ذلك فقد أشاد بمكانتها في الحجاز وعظم عمارتها، مع كثرة عدد سكانها، وازدهار تجارتها آنذاك، فقال وهو يتحدث عن ناحية قُرح[٥٧]: "ناحية قرح: تسمى وادي القرى، وليس بالحجاز اليوم بلد أجل وأعمر وآهل وأكثر تجاراً وأموالاً وخيرات بعد مكة من هذا".

هيأت الظروف السابقة لمكة السبل الكفيلة لتطورها في شتى نواحي الحياة

وفي إمعان النظر في أقوال المقدسي وإشاراته السابقة كَشْف للكثير من الحقائق والمعلومات التاريخية والحضارية المتعلقة بمكة، فهي توحي بدخول مكة في عهد جديد من الاستقرار الأمني والتطور الحضاري خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، بعد أن عانت مكة خلال النصف الأول من القرن نفسه الكثير من المشاكل السياسية، والأزمات الحضارية، التي نتج عنها اضطراب الأوضاع الأمنية، وتدهور الأوضاع الاقتصادية المختلفة، وتفاقم العديد من المشاكل الاجتماعية في ظل انشغال العباسيين بمشاكلهم عن بلاد الحجاز وإهمال شؤونه، وتزايد هجمات القرامطة والأعراب وتنوعها على مكة وطرق الحج، وكثرة نزاعات الأشراف على السلطة. من جانب آخر فإن معلومات المقدسي - المذكورة آنفًا - لتفصح لنا أيضاً

(٥٥) المصدر نفسه، ص٨١.
(٥٦) المصدر نفسه، ص١٤٤.
(٥٧) المصدر نفسه، ص٨٣.

عن واقع ملموس أصبحت مكة بمقتضاه أكبر مدينة حجازية من الناحيتين الإدارية والحضارية خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، بعد أن كانت المدينة تتبوأ المكانة عينها قبل ذلك.

تخطيطها وعمارتها

قسم المقدسي المعمور في مكة بعد أن أكد وقوعه حول الكعبة قسمين رئيسين، فقال[٥٨]: "وكل ما نزل عن المسجد الحرام يسمونه المسفلة، وما ارتفع عنه المعلاة. وعرضها سعة الوادي، والمسجد في ثلثي البلد إلى المسفلة، والكعبة في وسطه". وبهذا بيّن لنا المقدسي أن مكة كانت خلال زيارته لها عبارة عن جزئين؛ المعلاة في شمال المسجد الحرام وشمال شرقه، وتشكل بمساحتها العمرانية ثلثي البلد. في حين تأتي إلى الجنوب تقريباً من المسجد المسفلة، ويشكل عمرانها الثلث المتبقي من مكة.

من جانب آخر أشار المقدسي في حديثه المقتضب عن تخطيط حي أو جانب مخصص لسكن المصريين، وهو مجموعة من الدور الواقعة إلى الغرب من المسجد الحرام[٥٩]. ولا نستبعد أن هذه الدور التي خصصت لسكن المصريين كانت حديثة النشأة، وجاءت على أثر تغلغل نفوذ حكومة مصر العبيدية في بلاد الحجاز، وخضوع أشرافه لسلطتها.

وقد وضح المقدسي أن مكة كانت إبان زيارته لها محصنة بالأسوار[٦٠]، كما بيّن أن الدخول إليها يتأتى عبر أربعة أبواب، مصنوعة

---

(٥٨) المصدر نفسه، ص٧٥.

(٥٩) المصدر نفسه، ص٧٦.

(٦٠) المصدر نفسه، والصفحة نفسها. ويبدو أن هذا السور هو ما بناه الخليفة العباسي المقتدر بالله (٢٩٥-٣٢٠هـ/ ٩٠٨-٩٣٢م) على مكة. (التلمساني، وصف مكة ووصف المدينة ووصف بيت المقدس. تحقيق، حمد الجاسر. مجلة العرب، س٨، ج١، ١٣٩٣هـ، ص٣٣٤). وكان أول من وضع سوراً على مكة واليها يزيد بن محمد بن حنظلة المخزومي. (الفاسي، العقد الثمين، ج٧، ص٤٦٧).

من الحديد؛ اثنين منها في الجهة الشرقية من السور، حيث يدخل منها القادمون من العراق، والثالث في الجهة الشمالية، ومنه يدخل القادمون من جهة التنعيم، أما الرابع ففي الجهة الجنوبية، وعبره يجتاز إلى داخل مكة الوافدون من اليمن. يقول المقدسي مبيّناً ذلك[٦١]: "ويدخل إليها من ثلاثة وجوه، أبواب منى نحو العراق دربان، ثم درب العمرة، ثم درب اليمن بالمسفلة، والجميع مصفحة بالحديد"[٦٢].

أما عن دور مكة وبنائها والمواد المستخدمة في ذلك فذكر المقدسي أن منازلها على شكل طبقات، تبنى من الحجارة المختلفة الألوان والآجر، وتسقف بخشب الساج، فقال عنها[٦٣]: "بناؤها حجارة سود ملس وبيض أيضا، وعلوها الآجر، كثيرة الأجنحة من خشب الساج، وهي طبقات مبيضة نظيفة". وقال موضحاً مواد البناء المستخدمة في أسواق منى[٦٤]: "... وحوانيت حسنة البناء بالحجر وخشب الساج".

وصف الكعبة

تحدث المقدسي عن الكعبة بشكل مقتضب، فلم يدخل في التفاصيل الجزئية لمكوناتها، أو يتطرق لوصف محتوياتها الداخلية، وكان أبرز ما تناوله في هذا الجانب باب الكعبة؛ فبيّن أن ارتفاعه عن مستوى الأرض يقارب طول قامة رجل[٦٥]. كما أشار إلى أنه عبارة

(٦١) أحسن التقاسيم، ص٧٦.

(٦٢) وللمزيد من المعلومات عن سور منى وأبوابه، انظر؛ التلمساني، وصف مكة والمدينة وبيت المقدس، ص٣٣٤؛ ابن جبير، الرحلة، بيروت: دار بيروت ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص٨٧-٨٨، ٩١؛ مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار. تحقيق، سعد زغلول عبدالحميد. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة (د. ت)، ص٦-٧.

(٦٣) أحسن التقاسيم، ص٧٥.

(٦٤) المصدر نفسه، ص٧٨-٧٩.

(٦٥) المصدر نفسه، ص٧٥.

عن مصراعين[٦٦] ملبسين بصفائح الفضة التي طليت بالذهب[٦٧]. فضلاً عن ذلك فقد أكد وجوده في جدارها الشرقي[٦٨]. وعندما نمعن النظر في معلومات المقدسي السابقة عن باب الكعبة - وهو الذي زار مكة مرتين، وجاور فيها، كما أشرنا سابقاً - نجدها معلومات مختصرة لا تشبع نهم الباحثين أو المهتمين وتروي غليلهم، فلم يمدنا المقدسي بمعلومات عن مقاسات الباب المختلفة، أو يصف شكله، أو يذكر المواد التي صنع منها، أو غير ذلك من جوانب تتعلق بهذا الباب لفتت أنظار كثير من المؤرخين والجغرافيين والرحالة، فضمنوا مصنفاتهم وصفاً دقيقاً لها[٦٩].

---

(٦٦) وخالف الاصطخري الكثير ممن تحدثوا عن باب الكعبة، فذكر أنه مصراع واحد فقط. (مسالك الممالك، ليدن ١٩٢٧م، ص١٥).

(٦٧) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٧٥. وكان الوليد بن عبدالملك أول من ضرب على باب الكعبة صفائح الذهب، وهو أول من ذهّب البيت الحرام في الإسلام. ولم يستمر عمله طويلاً حيث رق وتفرق، فقام الخليفة العباسي الأمين أثناء خلافته بتكليف سالم بن الجراح - واليه على صوافي مكة - لعمل صفائح الذهب على الباب مرة أخرى، وزوده بثمانية عشر ألف دينار؛ ليضيفها لما تبقى من عمل الوليد، ويلبسها باب الكعبة. انظر: الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار. تحقيق، رشدي ملحس. ط٩، مكة المكرّمة: دار الثقافة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ج١، ص٢١٠-٢١١.

(٦٨) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٧٥. الجدير بالذكر أن أصل باب الكعبة المذكور كان من عمل الحجاج بن يوسف الثقفي عندما بنى الكعبة سنة ٧٣هـ. (البكري، المسالك والممالك، تحقيق: أدريان فان ليوفن وأندري فيري. تونس: الدار العربية للكتاب والمؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات ١٩٩٢م. ج١، ص٣٩٠). وقد استمر هذا الباب حتى سنة ٥٥١هـ عندما قام الوزير جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور المعروف بالجواد، وبأمر من الخليفة العباسي المقتفي بعمل باب للكعبة. لمزيد من المعلومات حول باب الكعبة والمستجدات التي حدثت له، انظر: الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص١٦٨-١٧١؛ حسين عبدالله باسلامة، تاريخ الكعبة المعظمة (عمارتها وكسوتها وسدانتها). ط٢، جدة: دار تهامة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص١٩٤-٢٠٣؛ إسماعيل أحمد حافظ، باب الكعبة المعظمة عبر العصور، مجلة الدارة، س٧، ع٣، ١٤٠٢هـ، ص٧-٢٥.

(٦٩) لمزيد من المعلومات عن باب الكعبة وما يتعلق به، انظر: الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص٣٠٥-٣٠٧؛ الحربي، المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة. تحقيق: حمد الجاسر. ط٢، الرياض: دار اليمامة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٧م، ص٤٩٨-٤٩٩؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد. تحقيق: مفيد محمد قميحة وعبدالمجيد الترحيني. ط١، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م، ج٧، ص٢٨٣-٢٨٤؛ التلمساني، وصف مكة =

ورغم تفاوت أقوال من سبقوا المقدسي أو جاؤوا بعده في مقدار ذرع طول الكعبة وعرضها، والذي يرجع في الغالب إلى اختلاف مقياس الذراع بينهم(٧٠)، وكذلك ميل بعضهم أيضاً إلى عدم تساوي أضلاعها المتقابلة، إلا أن المقدسي أكد أن الكعبة عبارة عن مستطيل متساوي الأضلاع، فقال(٧١): "وطول الكعبة أربعة وعشرون ذراعاً وشبر في ثلاث وعشرين ذراعاً وشبر".

= والمدينة وبيت المقدس، ص٣٤٠؛ ناصر خسرو، سفر نامة "رحلة ناصر خسرو القبادياني". ترجمة وتقديم، أحمد خالد البدلي، الرياض: عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص١٤٨-١٤٩؛ مؤلف مجهول، الاستبصار، ص١٦-١٧؛ ابن جبير، الرحلة، ص٦٠.

(٧٠) هناك آذرع معروفة في الأوساط الإسلامية، منها: ذراع العمل، والذراع الزيادي، والذراع الهاشمي وغيرها. لمزيد من المعلومات حول ذلك، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا. شرحه وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج٣، ص٥١٣-٥١٤.

(٧١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٧٥. ويبدو أن سبب الاختلاف بين المصادر في تحديد أطوال الكعبة - بالإضافة لما ذكرنا من التفاوت في مقدار طول الذراع - زيادة الشاذروان، أخذ بعضهم المقياس من أسفلها، وبعضهم ربما أخذ القياس من فوق الشاذروان. ولذا فقد تفاوتت المقياسات بين المصادر.

وقد توافق مقياس المقدسي بدقة مع ابن خرداذبة، انظر: (المسالك والممالك، ليدن ١٨٨٩م، ص١٣٢-١٣٣). كما وافقه على تساوي أضلاعها المتناظرة رغم الاختلاف في مقدار الذرع كل من: الحربي، المناسك، ص٤٩٦-٤٩٧ (وإن كان قد شك في طول الضلع الشرقي)؛ ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ليدن ١٣٠٢هـ، ص٢٠؛ الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، (د. ت)، ج١، ص١٣٩-١٤٠؛ ابن جبير، الرحلة، ص٦٣؛ مؤلف مجهول، حدود العالم من المشرق إلى المغرب. تحقيق، يوسف الهادي. ط١، القاهرة: الدار الثقافية للنشر ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص١٢٤. وهناك من رأى اختلاف أطوال أضلاعها المتقابلة، ولا سيما الضلع الواقع ما بين الحجر الأسود والركن اليماني مع الركن المقابل له عند الحجر، ومن هؤلاء على سبيل المثال: الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص٢٨٨؛ اليعقوبي، البلدان. تحقيق، محمد أمين ضنّاوي. ط١، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ص١٥٣-١٥٤؛ ابن رستة، الأعلاق النفيسة، تحقيق، خليل المنصور، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص٣٤؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٧، ص٢٨٣؛ التلمساني، وصف مكة والمدينة وبيت المقدس، ص٣٣٧؛ البكري، المسالك والممالك، ج١، ص٣٩٢؛ مؤلف مجهول، الاستبصار، ص١٠-١١؛ الدياربكري =

أما ارتفاع الكعبة - الذي توافق فيه كلام المقدسي مع عدد كبير ممن أشاروا إليه[٧٢] - فبلغ على حدّ قوله سبعة وعشرين ذراعاً[٧٣]. ورغم أن المقدسي لم يحدد نقاط قياسه هذا، أهو من خارج الكعبة أم من داخلها؟ وهل أدخل الشاذروان[٧٤] فيه أم لا؟ إلا أن الذي يتضح أن هذا المقياس كان من خارج الكعبة، كما أنه أيضاً لا يشمل الشاذروان، ويؤكد ما ذهبنا إليه الأزرقي حيث يقول[٧٥]: "ذرع الكعبة

= تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس. مؤسسة شعبان، (د. ت)، ج١، ص١١٩-١٢٠. أما الزهري فقد ذكر أن أضلاع الكعبة الأربعة متساوية في الطول والعرض. (كتاب الجغرافية، ص٣٤).

(٧٢) انظر: الحربي، المناسك، ص٤٩٦؛ ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص١٣٣؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص١٤٠. وجاء في بعض المصادر أن ارتفاع البيت ثمانية وعشرون ذراعاً. (اليعقوبي، البلدان، ص١٥٣؛ إسحاق ابن الحسين، آكام المرجان في ذكر المدن المشهورة في كل مكان. تحقيق، فهمي سعد، ط١، بيروت: عالم الكتب ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص٢٧). وذكر ناصر خسرو أن الكعبة "بناء مربع إلى الاستطالة أقرب للزاوية الممتدة من الشمال إلى الجنوب، وتبدو أطول من الزاوية الممتدة من الشرق إلى الغرب". (سفر نامه، ص١٤٧-١٤٨). أما ابن جبير فقال عن ارتفاع الكعبة مستنداً على قول حاجب البيت آنذاك محمد بن إسماعيل بن عبدالرحمن الشيبي: "ارتفاعه في الهواء من الصفح الذي يقابل باب الصفا، وهو من الحجر الأسود، إلى الركن اليماني تسع وعشرون ذراعاً، وسائر الجوانب ثمان وعشرون، بسبب انصباب السطح إلى الميزاب". (الرحلة، ص٥٩).

(٧٣) أحسن التقاسيم، ص٧٥.

(٧٤) قال النووي: شاذَرْوان الكعبة، بناء لطيف جداً ملصق بحائط الكعبة، وارتفاعه عن الأرض في بعض المواضع نحو شبرين، وفي بعضها نحو شبر ونصف، وعرضها في بعضها نحو شبرين ونصف، وفي بعضها نحو شبر ونصف. (تهذيب الأسماء واللغات، بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت، ج٣، ص١٧١-١٧٢). وقال الفاسي: أما شاذروان الكعبة فهو الأحجار الملاصقة بالكعبة التي عليها البناء المسنم المرخّم في جوانبها الثلاثة، الشرقي والغربي واليماني، وبعض حجارة الجانب الشرقي لا بناء عليه، وهو شاذروان أيضاً. أما الحجارة الملاصقة بجدار الكعبة الذي يلي الحِجْر فليست شاذرواناً؛ لأن موضعها بالكعبة بلا ريب، والشاذروان هو ما نقصته قريش من عرض جدار أساس الكعبة حتى ظهر على الأرض كما هي عادة الناس في الأبنية. (شفاء الغرام، ج١، ١٨٣). وللمزيد من المعلومات عن الشاذروان وما يتعلق به من معلومات، انظر: الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص٣٠٨؛ الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص١٨٣-١٨٥؛ باسلامة، تاريخ الكعبة المعظمة، ص١٤٣-١٤٨.

(٧٥) أخبار مكة، ج١، ص٣٠٨.

من خارجها في السماء من البلاط المفروش حولها تسعة وعشرون ذراعاً وستة عشر إصبعاً، وطولها من الشاذروان سبعة وعشرون ذراعاً". وكذلك التلمساني الذي قال[٧٦]: "وارتفاع البيت في الهواء من خارج الأرض إلى أعلى البيت ثلاثون ذراعاً، طول جدار البيت منها سبعة وعشرون ذراعاً، وعليه طرابزين، تعلق منه الكسوة، وقد استعلت عليه بذراعين، فكمل بذلك ارتفاع البيت مع الكسوة والطرابزين ثلاثون ذراعاً، هذا ارتفاع البيت من الخارج".

وقد أتحفنا المقدسي - وهو يتحدث عن الكعبة - بمسافة الطواف حولها، فأشار إليه قائلاً[٧٧]: "وذرع الطواف مئة ذراع وسبعة أذرع". ويبدو أن اختلافه في مقدار طول الطواف مع عدد من المصادر ناتج عن الاختلاف في التحديد الدقيق لمقدار وحدة القياس آنذاك، وهي الذراع، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً[٧٨].

وصف الحِجْر (حِجْر إسماعيل)

تحدث المقدسي عن إدخال عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما الحِجْر ضمن الكعبة عندما أعاد بناءها خلال حركته التي قام بها في الحجاز ضد الأمويين، كما ذكر موقف الحجاج بن يوسف من ذلك بعد قضائه على حركة ابن الزبير سنة ٧٣هـ/ ٦٩٢م، فقال المقدسي بعد أن ساق حديث عائشة رضي الله عنها الذي ينص على أن الحِجْر ضمن الكعبة[٧٩]: "ويقال: إن ابن الزبير أدخل عشرة من مشايخ

(٧٦) وصف مكة والمدينة وبيت المقدس، ص٣٢٨.

(٧٧) أحسن التقاسيم، ص٧٥.

(٧٨) ومن ذلك - مثلاً - الأزرقي الذي ذكر أن ذرع طواف واحد يبلغ (١٢٣) ذراعاً و(١٢) إصبعاً. (أخبار مكة، ج١، ص٣١٩)؛ والحربي الذي بيّن أن طوله (١٢٠) ذراعاً. (المناسك، ص٤٩٩)، وابن الفقيه الذي أشار إلى أن المطاف حول الكعبة يبلغ (١٠٥) أذرع. (مختصر كتاب البلدان، ص٢١). أما ابن خرداذبة فقد وافق المقدسي في ذرعه للطواف. (المسالك والممالك، ص١٣٣). وهذا يزيد التأكيد على أن المقدسي قد نقل جميع القياسات التي أوردها في كتابه من ابن خرداذبة، كما ألمحنا إلى ذلك سابقاً.

(٧٩) أحسن التقاسيم، ص٧٧.

الصحابة حتى سمعوا ذلك منها، ثم أمر بهدم الكعبة؛ فاجتمع إليه الناس، وأبوا ذلك، فأبى إلا هدمها، فخرج الناس إلى فرسخ خوفاً من نزول عذاب، وعظم ذلك عليهم، ولم يكن إلا الخير. وبناها على ما حكت عائشة، وتراجع الناس، فلما قدم الحجاج تحرم ابن الزبير بالكعبة، فأمر بوضع المنجنيق على أبي قبيس، وقال: ارموا الزيادة التي ابتدعها هذا المكلف، فرموا موضع الحطيم، وأخرج ابن الزبير وصلبه، ورد الحائط كما كان في القديم، وأخذ بقية الأحجار، فسد منها الباب الغربي، ورصف بقيتها في البيت كيلا تضيع"(٨٠).

وقد أتى المقدسي في حديثه عن ذرع تدوير الحجر بمقياس أقل بكثير عمَّا جاء في المصادر التي تحدثت عن هذا الجانب، فذكر أن ذرع تدويره خمسة وعشرون ذراعاً(٨١). ومن خلال التأمل الدقيق مع النظر في ما ورد في المصادر فقد تبين لنا أن المقدسي - رغم أنه لم يفصح عن ذلك - قد أخذ مقياسه المذكور من داخل الحجر، كما أنه بدأ مع بداية الجدار الموضوع على الحجر، ولم يبدأ بركن الكعبة المحاذي للجدار. ولعل في ما أورد كل من الأزرقي والحربي تبيان لذلك وتوضيح له، يقول الأزرقي عن مقياس تدوير الحجر من الداخل والخارج(٨٢): "وذرع تدوير الحجر من داخله ثمانية وثلاثون ذراعاً، وذرع تدوير الحجر من خارج أربعون ذراعاً وست أصابع"، كما ذكر الأزرقي ذرع باب الحجر، فقال(٨٣): "ذرع باب الحجر الذي يلي المشرق مما يلي المقام خمسة أذرع وثلاثة أصابع.... وذرع باب الحجر

---

(٨٠) لمعلومات أكثر تفصيلاً عن بناء ابن الزبير للكعبة سنة ٦٤هـ/ ٦٨٣م، وموقف الحجاج من بنائه بعد قتل ابن الزبير سنة ٧٣هـ/ ٦٩٢م، انظر: الأزرقي، أخبار مكة، ج١، ص٢٠٠-٢١٩؛ الحربي، المناسك، ص٤٨٨-٤٩٦؛ الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص١٥٧-١٦١؛ باسلامة، تاريخ مكة المعظمة، ص٦٧-٩٢.

(٨١) أحسن التقاسيم، ص٧٥.

(٨٢) أخبار مكة، ج١، ص٣١٨.

(٨٣) أخبار مكة، ج١، ص٣١٨-٣١٩.

الذي يلي المغرب سبعة أذرع". ويقول الحربي في هذا الجانب أيضاً[٨٤]: "وذرع تدوير الحجر من داخل ثلاث وثلاثون ذراعاً، وذرع تدوير الحجر أيضاً من خارج تسع وثلاثون ذراعاً وشبر، وذرع باب الحجر الشرقي ما يلي وجه الكعبة أربع أذرع وشبر، وذرع باب الحجر الغربي ست أذرع إلا أربع أصابع". ويبدو أن الأزرقي والحربي بمقياسيهما المذكورين للحجر قد ضما إلى تدوير مقياسه أطوال الأبواب اللافظة عليه.

من جانب آخر وصف المقدسي باختصار موقع الحِجْر وشكله، فقال[٨٥]: "والحِجْر من قبل الشام، فيه يقلب الميزاب شبه أندر[٨٦] قد ألبست حيطانه بالرخام مع أرضه[٨٧]، ارتفاعها حَقْو[٨٨]، ويسمونه

(٨٤) المناسك، ص٤٩٩.

(٨٥) أحسن التقاسيم، ص٧٥.

(٨٦) جاء عند ياقوت الحموي الذي نقل المعلومة عن المقدسي: شبه الأندر (معجم البلدان، ج٤، ص٤٦٤). والأَنْدَر: هو البَيْدَر. وهو الموضع الذي يداس فيه الطعام. وقيل: الكدس من القمح خاصة. (ابن منظور، لسان العرب، القاهرة: دار المعارف (د.ت)، ج١، ص٢٢٩، ج٧، ص٤٣٨٢). وهو بهذا - كما يظهر - يُشَبّه الحجر بالبيدر الذي غالباً ما يكون بشكل دائري.

(٨٧) قال الأزرقي عن الرخام الموضوع على جدران الحجر وأرضه بعد أن ذكر أن أبا جعفر المنصور قد كسا جدرانه بالرخام، ثم فرش المهدي أرضيته بالرخام أيضاً: "قال أبو محمد الخزاعي: أنا أدركت هذا الرخام الذي عمله (يقصد المهدي)، وكان رخاماً أبيض وأخضر وأحمر، وكان مزويا وشوابير صغاراً، ومدخلاً بعضه في بعض أحسن من هذا العمل، ثم تكسر: فجدده أبو العباس عبدالله بن محمد بن داود بن عيسى وهو أمير مكة في سنة إحدى وأربعين ومئتين، ثم جدد بعد ذلك في سنة ثلاث وثمانين ومئتين". وقال في موضع آخر: "فلم يزل رخام الحجر الذي عمله المهدي بعد عمل أبي جعفر أمير المؤمنين على حاله، وكان سيله يخرج من تحت الأحجار التي على بابها الغربي حتى رث في خلافة المتوكل على الله جعفر أمير المؤمنين، فقلع سنة إحدى وأربعين ومئتين، وألبس رخاماً حسناً قلع من جوانب المسجد الحرام من الشق الذي يلي باب العجلة إلى باب دار عمرو بن العاص، ومما يلي أبواب بني مخزوم والباب الذي مقابل باب عبدالله بن جدعان". (أخبار مكة، ج١، ص٣١٢، ٣١٥).

(٨٨) الحَقو، الخصر، ومشد الإزار من الجنب. (ابن منظور، لسان العرب، ج٢، ص٩٤٨).

الحطيم[٨٩]، والطواف من ورائه". ورغم اختصار المقدسي في وصف الحجر إلا أنه أمدنا بمعلومات طيبة عن موقع الحجر بالنسبة للكعبة عندما أشار إلى وجوده جهة الركن الشامي، وبيّن أن ميزاب الكعبة يصب فيه. كما زودنا بمعلومات أخرى حين أكّد أن جميع حيطانه وأرضه قد ألبست بالرخام، وأن ارتفاع جداره عن مستوى الأرض يقارب المتر.

الحجر الأسود

ألقى المقدسي الضوء على موقع الحجر الأسود في الكعبة وارتفاعه عن مستوى الأرض، فقال[٩٠]: "والحجر الأسود على الركن الشرقي عند الباب على لسان الزاوية مثل رأس الإنسان، ينحني إليه مَنْ قبَّله يسيراً". وقد بيّن من خلال قوله: ينحني إليه مَنْ قبَّله يسيراً، أن ارتفاعه قريب من قامة إنسان، وهذا ما أشار إليه بالفعل كل من الاصطخري[٩١] وابن حوقل[٩٢]. وكان المتوقع من المقدسي وهو قريب من أحداث هجوم القرامطة على مكة، وانتزاعهم الحجر الأسود سنة ٣١٧هـ/ ٩٢٩م، ثم أخذه إلى الأحساء، وبقائه عندهم حتى سنة ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م أن يشير إلى هذا الاعتداء الأثيم على الحجر الأسود، وما لحق به من ضرر على أيديهم، ثم ما عُمل له من طوق فضة بعد رده إلى موضعه[٩٣].

---

(٨٩) اختُلف حول تحديد مكان الحطيم، فقيل: إنه ما بين الحجر الأسود ومقام إبراهيم وزمزم وحِجْر إسماعيل، وقيل: الموضع الذي فيه ميزاب الكعبة، وقيل: جدار الحِجْر، وقيل: الشاذروان. (الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ٣١٨). وقال حسين باسلامة بعد أن ذكر الاختلافات حول تحديد مكان الحطيم بين المصادر: "فعلم مما تقدم أن الحجر يعرف أيضاً بالحطيم قديماً وحديثاً، كما أن الملتزم يعرف بالحطيم أيضاً، وما بين زمزم والمقام والكعبة يسمى الحطيم". (تاريخ الكعبة المعظمة، ص١٦٥).

(٩٠) أحسن التقاسيم، ص٧٥.

(٩١) مسالك الممالك، ص١٦.

(٩٢) صورة الأرض، بيروت: دار مكتبة الحياة ١٩٧٩م، ص٣٦.

(٩٣) وحول هذا الموضوع، انظر: الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ٣١٢-٣١٤؛ نجم الدين بن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٣٧٤-٣٨٠، ٣٩٤-٣٩٦.

ولكن يبدو أن ميل المقدسي للاختصار، فضلاً عن رغبته في عدم الدخول في أمور سياسية وعقدية قد تسبب له المشاكل في وقت كان للحركة القرمطية شأنها السياسي في الجزيرة العربية، قد جعله يعرض عن ذكر هجومهم على مكة، أو حتى الحديث عمَّا رآه في الحجر الأسود، رغم أهمية ذلك.

عمارة المسجد الحرام

حفل أحسن التقاسيم بمعلومات وافرة ومتنوعة عن المسجد الحرام، وجاءت أغلب هذه المعلومات مركزة على جوانب عمرانية وإنشائية، فكان مما تحدث عنه المقدسي في هذا الجانب عمارة المسجد الحرام، فذكر عمارة الخليفة العباسي المنصور للمسجد التي ابتدأت سنة ١٣٧هـ/ ٧٥٤م، وانتهت سنة ١٤٠هـ/ ٧٥٧م[٩٤]؛ وقد بيّن المقدسي - من خلال رواية أوردها عن بعض مشايخ القيروان الذين قابلهم في مكة، كما يبدو - سبب توسعة المنصور للمسجد، واعتراض أصحاب الدور المحيطة به، ثم تدخل الإمام أبي حنيفة وإقناعهم بالتوسعة، يقول المقدسي موضحاً ذلك[٩٥]: "سمعت بعض مشايخ القيروان يقول: حج المنصور؛ فرأى صغر المسجد الحرام وشعثه وقلة معرفتهم بحرمته، ورأى الأعرابي يطوف بالبيت على بعيره وبجاويّه[٩٦]؛ فساءه ذلك، وعزم على شراء ما حوله من الدور وزيادتها فيه، وتفخيمه وتجصيصه. فجمع أصحابها ورغّبهم في الأموال الجمّة، فتأبَّوا عن بيعها، وضنوا بجوار بيت الله الحرام، فاهتم لذلك، ولم يُجِزْ أن يغصبها عليهم، ولم يظهر للناس ثلاثة أيام. وتحدث الناس بذلك، وأبو حنيفة في تلك السنة حاج، وليس له بعدُ ذكر ولا ظهر الناس على فقهه، وصائب رأيه، قال: فقصد خيامه، وكانت

(٩٤) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٧٤؛ إسحاق بن الحسين، آكام المرجان، ص٢٧.

(٩٥) أحسن التقاسيم، ص٧٧-٧٨.

(٩٦) نوع من النوق ينسب إلى بلاد بُجاوة من أرض النوبة، وكانوا يطاردون عليها كما يطارد على الخيل. (ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص٢١٤).

بالأبطح، فسأل عن أمير المؤمنين وما الذي غيب شخصه. فذكرت القصة، فقال: هذا باب هيّن لو لقيته عرضته عليه. فأُنهي ذلك إليه، فأمر بإحضاره. فلما سأله عن ذلك قال أبو حنيفة: يحضرهم أمير المؤمنين؛ فيسألهم أهذه الكعبة نزلت عليكم أم نزلتم عليها. فإن قالوا: نزلت علينا كُذّبوا؛ لأن منها دحيت الأرض. وإن قالوا: نحن نزلنا عليها، فجوابهم أنه قد كثر زوَّارها وضاقت ساحتها، فهي أحق بفنائها، ففرِّغوه لها(٩٧). فلما جمعهم وسألهم قال سفيرهم، وكان رجلاً هاشمياً: نحن نزلنا عليها. قال: ردُّوا فناءها، فقد كثر زوارها، واحتاجت إليه، فبهتوا، ورضوا بالبيع". ولم يوضح المقدسي الجوانب المعمارية المتعلقة بهذه التوسعة ومقدارها، وإنما اكتفى بالمعلومات المذكورة فقط(٩٨).

من جانب آخر سلط المقدسي الضوء على البناء الذي رأى عليه المسجد الحرام عند زيارته لمكة، فقال(٩٩): "وأدير على صحنه أروقة ثلاثة على أعمدة رخام، حملها المهدي من الإسكندرية في البحر إلى جدة، والمسجد من بنائه، وقد ألبست حيطان الأروقة من الظاهر بالفسيفساء، حمل إليها صناع الشام ومصر، ألا ترى أسماءهم عليه". وقد أبان المقدسي من خلال حديثه هذا أن المسجد الحرام ما زال حتى أواخر القرن الرابع الهجري على بناء الخليفة العباسي المهدي، الذي

---

(٩٧) ذكر الأزرقي أن الذي أقنع أصحاب الدور بهذه الحجة هو الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أثناء توسعته للمسجد سنة ١٧هـ، كما أن الأزرقي لم يُشر في حديثه عن توسعة الخليفة المنصور للمسجد لدور أبي حنيفة. (أخبار مكة، ج٢، ص٦٩، ٧٢-٧٤). ويبدو أن ميل المقدسي للمذهب الحنفي وتفقهه فيه - كما ذكرنا سابقاً - قد شجعه لتضمين هذه الرواية التي ترفع من قدر الإمام أبي حنيفة رحمه الله في كتابه.

(٩٨) للمزيد من المعلومات عن توسعة الخليفة العباسي المنصور، انظر: الأزرقي، المصدر السابق، ج٢، ص٧٢-٧٤؛ الفاكهي، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه. تحقيق: عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، ط١، مكة: مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ج٢، ص١٦٢-١٦٥.

(٩٩) أحسن التقاسيم، ص٧٦.

تم خلال العقد السابع من القرن الثاني الهجري. كما أوقفنا على أجزاء من عمارة الخليفة المهدي فبيّن أن عدد أروقة المسجد ثلاثة، تدور على جنبات الصحن الأربع، وتقوم على أعمدة من الرخام الذي جلب إلى مكة من مصر. وأشار إلى أن جدران المسجد من الداخل قد زينت بالفسيفساء[١٠٠]، ووضح أن إنجاز هذه الأعمال كان بوساطة عمال مهرة جلبوا لهذا الغرض من بلاد الشام ومصر. ثم انفرد المقدسي بمعلومة غاية في الأهمية عندما بيّن لنا أن الصناع الذين قاموا بأعمال البناء في المسجد الحرام آنذاك قد نقشوا أسماءهم على أعمالهم العمرانية، وأنه رأى ذلك بعينه باقياً خلال وجوده بمكة[١٠١].

ومضى المقدسي في حديثه عن المسجد الحرام، فذكر أن طوله يبلغ ثلاثمئة وسبعين ذراعاً، وعرضه ثلاثمئة وخمسة عشر ذراعاً[١٠٢]. وفي ما أورده المقدسي عن طول المسجد وعرضه نظر، فبالرغم من أن المسجد لم تحصل له توسعة تذكر بعد عمارة الخليفة المهدي سوى إدخال الخليفة المعتضد العباسي سنة ٢٨٤هـ/ ٨٩٤م ما تبقى من دار الندوة ضمن الجهة الشمالية من المسجد، وزيادة الخليفة المقتدر العباسي سنة ٣٠٦هـ/ ٩١٨م للمسجد عند باب إبراهيم من الجهة الغربية[١٠٣]، إلا أن المقدسي ذكر أن مقدار طول المسجد ٣٧٠ ذراعاً كما بيّنا، في حين أكدت أكثر المصادر أن طوله أكثر من ٤٠٠ ذراع. وفي الوقت نفسه فقد زاد المقدسي في ذرع

---

(١٠٠) أشار إلى ذلك ابن عبد ربه، فقال: "وسور المسجد كله من داخله مزخرف بالفسيفساء". (العقد الفريد، ج٧، ص٢٨٣).

(١٠١) للمزيد من المعلومات عن توسعات الخليفة المهدي، انظر: (الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٧٤-٨١؛ الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص١٦٥-١٧٤).

(١٠٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٧٥.

(١٠٣) الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص٣٦٢-٣٦٩؛ النهرواني، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام. تحقيق، هشام عبدالعزيز عطا. ط١، مكة المكرمة: المكتبة التجارية ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص١٧٨-١٨٢، ١٩٢-١٩٣.

عرض المسجد عما جاء في المصادر عندما جعل عرضه ٣١٥ ذراعاً[١٠٤]. ويبدو أن المقدسي لم يقم بنفسه بأخذ مقياس طول المسجد الحرام وعرضه، وإنما اعتمد في ذلك على ما أورده ابن خرداذبة[١٠٥]. ولعل معرفة المقدسي ويقينه بأنه لم يطرأ على المسجد الحرام أي تغير فيما بعد ابن خرداذبة قد دفعه للاعتماد على معلوماته دون تمحيص أو تطبيق[١٠٦].

أبواب المسجد الحرام

تناول المقدسي بالحديث أبواب المسجد الحرام، فقال[١٠٧]: "وله تسعة عشر باباً: باب بني شيبة، باب النبي، باب بني هاشم، باب الزياتين، باب البزازين، باب الدقاقين[١٠٨]، باب بني مخزوم، باب الصفا، باب زقاق الشطوي، باب التمارين، باب دار الوزير، باب أجياد،

---

(١٠٤) اتفقت مجموعة من المصادر أن طول المسجد في عرضه (٤٠٣×٤٠٤). انظر: الأزرقي، ج٢، ص٨٢. (إلا أنه ذكر أن عرضه مع أطرافه يبلغ ٢٧٨ ذراعاً)؛ اليعقوبي، البلدان، ص١٥٣؛ ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص٤٦؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٧، ص٢٨٢؛ البكري، المسالك والممالك، ج١، ص٣٩١-٣٩٢. في حين جاء طوله وعرضه في مصادر أخرى (٤٠٧×٢٨٠). (التلمساني، وصف مكة والمدينة وبيت المقدس، ص٣٤٣؛ مؤلف مجهول، الاستبصار، ص٢٣-٢٤). كما ذكرت مصادر ثالثة أنه (٤٠٠×٣٠٤) ذراع. (إسحاق بن الحسين، آكام المرجان، ص٢٧؛ ابن جبير، الرحلة، ص٦٧: ناصر خسرو، سفر نامة، ص١٤٥). إلا أن ناصر خسرو أكد أن عرض المسجد متفاوت في مقياسه عندما قال: "ومساحة عرض المسجد ليست واحدة دائماً، ولكن ذرعت أوسع جهاته فبلغت ثلاثمئة ذراع في مكان وأربعمئة ذراع في مكان آخر، فهذا الجانب العرضي به نتوءات لا تسمح باطراده". أما ابن الفقيه - الذي يبدو أنه نقل من الأزرقي - فذكر أنه (٣٠٤×٢٧٨) ذراعاً. (مختصر كتاب البلدان، ص٢١).

(١٠٥) المسالك والممالك، ص١٣٢.

(١٠٦) الجدير بالذكر أن الفاسي أشار إلى أن رواية ابن خرداذبة في ذرع المسجد طولاً وعرضاً رواية غريبة. (شفاء الغرام، ج١، ص٣٧٠).

(١٠٧) أحسن التقاسيم، ص٧٦.

(١٠٨) قال ابن منظور: الدَّق كل شيء دق وصغر. والدقيق: الطحين. وأهل مكة يسمون توابل القدر كلها دُقة. والدقة: التوابل وما خلط بها من الأبزار. (لسان العرب، ج٣، ص١٤٠٢). ومن ذلك يتضح أن المقدسي أراد بذلك باعة التوابل وما شابهها، خصوصاً، وقد كانت هذه السلع منتشرة بكثرة في مكة آنذاك.

باب الحـزورة، باب إبراهيم، باب بني سـهم، باب بني جـمح، باب العجلة، باب الندوة، باب البشارة". وكما نرى فإن المقدسي اقتصر على ذكر عدد أبواب المسجد الحرام وأسمائها دون أن يذكر مواقعها بالنسبة لجهات المسجد.

وقد اتضح - بعد تتبع ما جاء عنها في عدد من المصادر - أن المقدسي بدأ بسرد أسمائها مبتدئاً من الجهة الشرقية، متجها من الشمال إلى الجنوب، وكان مما رآه في هذا الجانب خمسة أبواب؛ هي: باب بني شيبة، باب النبي، باب بني هاشم، باب الزياتين، وباب البزازين.

ثم أعقب ذلك بأبواب الشق الجنوبي من المسجد مبتدئاً من الشرق ومنتهياً بالغرب، وفيه أورد سبعة أبواب؛ هي: باب الدقاقين، باب بني مخزوم، باب الصفا، باب زقاق الشطوي، باب التمارين، باب دار الوزير، وباب أجياد.

وانتقل بعد ذلك إلى الجانب الغربي من المسجد، فذكر الأبواب الموجودة فيه من الجنوب إلى الشمال، وعددها ثلاثة أبواب؛ هي: باب الحزورة، باب إبراهيم، وباب بني سهم. ثم ختم كلامه بأبواب الشق الشمالي من المسجد، وذكر منها أربعة أبواب؛ هي من الغرب إلى الشرق: باب بني جمح، باب العجلة، باب الندوة، وباب البشارة.

وفي الاطلاع على ما جاء حول هذا الجانب في المصادر إبان العصور الإسلامية المختلفة نلحظ تبايناً واضحاً في أسماء أبواب المسجد الحرام وعددها. ويبدو أن ذلك قد تحكمت فيه اجتهادات المؤلفين، ولا سيما في تسمية الأبواب غير المشهورة(١٠٩). كما أن إدراج بعض الأبواب اللافظة على البيوت المجاورة للحرم مباشرة

---

(١٠٩) يقول ابن جبير موضحاً ذلك، بعد أن ذكر أبواب المسجد الحرام: "والروايات فيها تختلف، لكنا اجتهدنا في إثبات الأقرب من أسمائها إلى الصحة، والله المستعان لا رب سواه". (الرحلة، ص٨٣).

ضمن أبواب الحرم في بعض المصنفات، واقتصارها عند آخرين على ما يفتح على أزقة أو أسواق قد أدى إلى التفاوت الواضح في تعدادها بين المصادر(١١٠).

ونلحظ أن المقدسي قد اجتهد كثيراً في تسمية بعض الأبواب وذلك حسب ما رآه منتشراً من باعة وأسواق وبضائع لفتت انتباهه حول هذه الأبواب، ولا سيما في الجانبين الشرقي والجنوبي(١١١)، وما أملاه عليه حسه التجاري الذي تميز به، فأطلق عليها أسماء الباعة أو مبيعاتهم دون أن يرجع لمن سبقه ممن تحدثوا عن ذلك، كالأزرقي أو الفاكهي أو غيرهم. ولهذا فإننا نرى أن تسميات المقدسي لهذه الأبواب، التي ترتبط - كما يلحظ - بالتغيرات الزمانية والمكانية، كانت سبباً في عدم استمرار هذه الأسماء التي أطلقها، أو ذِكْرها في المصادر التي تناولتها، سواء قبل المقدسي أو بعده.

من جانب آخر فإن المقدسي ومن خلال تعداده لأبواب المسجد الحرام قد راعى - فيما يبدو - الأفضلية، فبدأ بذكر باب بني شيبة؛ لأن المستحب للمعتمر والحاج الدخول للمسجد من هذا الباب(١١٢).

---

(١١٠) وعن عدد أبواب المسجد الحرام وأسمائها، والاختلاف في ذلك، انظر على سبيل المثال: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٨٧-٩٥؛ الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص١٨٨-١٩٨؛ الحربي، المناسك، ص٤٧٥-٤٨٠؛ ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص٢١؛ ابن رستة، الأعلاق النفيسة، ص٤٩-٥٤؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٧، ص٢٨٣؛ التلمساني، وصف مكة والمدينة وبيت المقدس، ص٣٤٣-٣٤٥؛ إسحاق بن الحسين، آكام المرجان، ص٢٧؛ البكري، المسالك والممالك، ج١، ص٣٩٢-٣٩٣؛ مؤلف مجهول، الاستبصار، ص٢٤-٢٧؛ ابن جبير، الرحلة، ص٨٢-٨٣؛ الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص٣٨١-٣٨٥؛ باسلامة، تاريخ عمارة المسجد الحرام، ط٣، جدة: دار تهامة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص١١٢-١٣٤.

(١١١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٧٦.

(١١٢) يقول ابن جبير: "وكل وافد إلى مكة، شرفها الله، يدخلها بعمرة فيستحب له الدخول على باب بني شيبة". (الرحلة، ص٨٣). وهو المعروف الآن بباب السلام. (الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص٣٨١).

المطاف: أرضه وإنارته

أتحفنا المقدسي بمعلومات دقيقة وقيمة عن المطاف حول الكعبة، فذكر لنا أن مكان الطواف مفروش بالرمل، أما بقية أرضية المسجد فهي مغطاة بالحصى، يقول[١١٣]: "وقد فرش الطواف بالرمل، والمسجد بالحصى"[١١٤]. كما شرح طريقة إنارة المطاف، فقال[١١٥]: "وقد أحاط بالطواف أميال من الصفر، وخشبات فيها قناديل معلقة، ويجعل فوقها الشمع لملوك مصر واليمن والشار صاحب غرجستان". كما أشار إلى أن هذه القناديل كانت تعلق بالسلاسل، فقال وهو يتحدث عن بعض العادات السائدة في بلاد الشام[١١٦]: "ورسومهم أنهم يوقدون القناديل في مساجدهم على الدوام يعلقونها بالسلاسل مثل مكة". وقد وضح المقدسي من خلال ذلك كيفية إنارة المطاف، بعد أن بيّن أن هناك أعمدة، أطلق عليها اسم الأميال، مصنوعة من حديد الصفر، وتصل بينها أخشاب تعلق فيها القناديل بالسلاسل، وفي هذه القناديل كانت توضع الشموع[١١٧].

---

(١١٣) أحسن التقاسيم، ص٧٦.

(١١٤) جاء في كتاب الاستبصار ما نصه: "وأرض المسجد الحرام رملة في قوام السميد". (مؤلف مجهول، ص٢٩). أما ابن جبير فقال: "وموضع الطواف مفروش بحجارة مبسوطة كأنه الرخام حسناً، منها سود وسمر وبيض قد ألصق بعضها إلى بعض، واتسعت عن البيت بمقدار تسع خُطا إلا في الجهة التي تقابل المقام، فإنها امتدت إليه حتى أحاطت به. وسائر الحرم مع البلاطات كلها مفروش برمل أبيض". (الرحلة، ص٦٣).

(١١٥) أحسن التقاسيم، ص٧٦.

(١١٦) المصدر نفسه، ص١٥٦.

(١١٧) قال الأزرقي عن العمد الصفر بالمسجد الحرام: "أخبرني الثقة أن هذه العمد الصفر كانت في قصر بابك الخرمي بناحية أرمينية كانت في صحن داره يستصبح فيها، فلما خذله الله، وقتل بابك، وأتي برأسه إلى سامراء، وطيف به في البلدان، وكان قد قتل خلقاً عظيماً من المسلمين، وأراح الله منه هدمت داره، وأخذت هذه الأعمدة التي حول البيت الحرام في الصف الأول، ومنها في دار الخلافة أربعة أعمدة، وبعث بهذه الأعمدة المعتصم بالله أمير المؤمنين في سنة مئتين ونيف وثلاثين، فهذا خبر الأعمدة الصفر التي حول الكعبة وهي عشرة أساطين، وكانت=

من جهة أخرى فإن المقدسي قد أمدّنا - بطريق غير مباشر - في حديثه المذكور آنفًا بمعلومات سياسية غاية في الأهمية، فبيّن من خلال عدم مشاركة الخلافة العباسية في إنارة المسجد الحرام أن سلطتها لم تكن نافذة على حكام مكة خلال وجوده فيها، وفي الوقت نفسه أكّد ما أشار إليه سابقاً من أن نفوذ العبيديين (الفاطميين) كان سارياً آنذاك على أشراف مكة(١١٨).

أمدّنا المقدسي بطريق غير مباشر في حديثه بمعلومات سياسية غاية في الأهمية

من جانب آخر أشار المقدسي إلى مشاركة يمنية في الأعمال الخيرية بمكة، ويبدو أن خضوع بني زياد آنذاك للعبيديين، ودعوتهم لهم على المنابر اليمنية قد منح الحكومة الزيادية في اليمن فرصة المشاركة في بعض الأعمال الخيرية في مكة إبان نفوذ العبيديين فيها، ولا سيما في ظل قوة بني زياد السياسية والاقتصادية في اليمن إبان النصف الثاني من القرن الرابع الهجري(١١٩)، إضافة لاهتمامات وزير الزياديين - المعروف بالحسين بن سلامة - الخيرية، ورغباته المتنوعة لخدمة الحجاج؛ سواء على طرق الحج، أو في مكة والمشاعر المقدسة(١٢٠).

= أربع عشرة أسطوانة فأربع في دار الخلافة بسامراء". (أخبار مكة، ج ١، ص٢٨٦). وقال ناصر خسرو: "ويحيط بالكعبة من جميع جهاتها أساطين، ويربط كل عمودين غطاء خشبي في الأعلى مزين بنقوش وتهاويل كثيرة. ويتدلى من ذلك الغطاء سلاسل وحلقات يعلق عليها الشمع والمصابيح ليلاً، وتسمى بسكة المشاعل. والمسافة بين هذه المشاعل والكعبة نحواً من مئة وعشرين شبراً، وهي موضوعة بحيث لا تعيق الطائفين بالبيت". (سفر نامه، ص١٥٢).

(١١٨) كما ذكرنا سابقاً فإن المقدسي قد زار مكة حاجاً مرتين: إحداهما في سنة ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م، والأخرى سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م. (أحسن التقاسيم، ص٩٥). ويبدو أنه دون معلوماته هذه بعد زيارته الأخيرة، حيث كانت مكة خاضعة آنذاك للحكم العبيدي، عقب صراع مرير - كما ذكرنا سابقاً - بين العباسيين والعبيديين.

(١١٩) عن نفوذ الزياديين وثرائهم، وكذلك دعوتهم للعبيديين، انظر: ابن حوقل، صورة الأرض، ص٣٢.

(١٢٠) عمارة اليمني، تاريخ اليمن، المسمى "المفيد في أخبار صنعاء وزبيد". تحقيق، محمد علي الأكوع، ط٣، صنعاء: المكتبة اليمنية ١٩٨٥م، ص٦٧-٧٤.

وفي الوقت نفسه أفادنا المقدسي أيضاً - ومن خلال حديثه عن الإنارة في المطاف - بمعلومة ثمينة انفرد بها عن غيره، عندما أكّد مشاركة سلطان إقليم غرجستان - القابع في منطقة الجبال الواقعة شمال شرق مدينة هراة بخراسان - بأعمال خيرية في المسجد الحرام، وكان ملك هذه المنطقة المعروف بالشار، قد شُهر بالعدل حتى قال عنه المقدسي(١٢١): "وثَمّ عدل حقيقي، ونظر عزيزي، وبقية من سنن العُمَرين، ورسوم تقر بها العين، لا عمال ظلمة ولا أسباب مغيرة، ما يؤخذ من أغنيائهم فهو موضوع في فقرائهم، ومن جنى جناية فالعفو أو الحدُّ، ومع ذلك قوم سلماء صالحون من الطينة الأولى". كما قال عنه المقدسي أيضاً في موضع آخر(١٢٢): "طوبى لأهل الغرج بعدل الشار". ولا شك أن توجه ملك هذه المنطقة الديني، ورغبته في المشاركة في خدمة المسلمين، إضافة لمقدرته المادية في ظل ازدهار موارد بلاده الاقتصادية آنذاك، قد دفعه - بلا شك - للإسهام في خدمة المقدسات الإسلامية، والمشاركة بأعمال خيرية تذكر له فيها(١٢٣).

قبة زمزم وقبة الشراب

ولم يترك المقدسي - وهو يتحدث عمَّا رآه داخل المسجد الحرام - ذكر بئر زمزم، فقال عنها(١٢٤): "وقبة زمزم تقابل الباب والطواف بينهما"، وقد بيّن من خلال هذه الجملة المختصرة أن موقع بئر زمزم

(١٢١) أحسن التقاسيم، ص٢٤٣-٢٤٤.

(١٢٢) المصدر نفسه، ص٤٢.

(١٢٣) للمزيد من المعلومات عن منطقة غرجستان، انظر: الاصطخري، مسالك الممالك، ص٢٧١-٢٧٢؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٢٤٣-٢٤٤؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص١٩٣-١٩٤؛ كي لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية. ترجمة. بشير فرنسيس وكوركيس عواد. ط٢، بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص٤٥٨.

(١٢٤) المصدر السابق، ص٧٥.

مقابل لباب الكعبة، ولكنه لم يذكر بُعدها عنه. كما أشار إلى أن عليها قبة، دون أن يصف لنا حال زمزم في وقته، وما عليها من بنايات أخرى، وغور مائها، وأطوالها، أو حتى كيفية وضع هذه القبة ومواصفاتها العمرانية. ورغم إشارته إلى أن الطواف يقع فيما بين بئر زمزم والكعبة، إلا أنه أيضاً لم يذكر المسافة بينهما(١٢٥).

ثم أشار المقدسي إلى موقع آخر مجاور لزمزم مشابه لها، وهو قبة الشراب المعروفة بسقاية العباس وصُفّة زمزم أيضاً(١٢٦)، فقال بعد أن ذكر قبة زمزم(١٢٧): "ومن ورائها قبة الشراب، فيها حوض كان يسقى فيه السويق والسكر في القديم". وبهذا فإن المقدسي قد أكّد من خلال ذلك أن بيت الشراب يقع خلف زمزم، وأن عليه بناء تغطيه قبة، وفيه بقايا حوض لسقاية الحجاج. كما أفادنا من خلال حديثه السابق أيضاً أن هذه السقاية كانت متوقفة في العهد الذي زار فيه

---

(١٢٥) قال التلمساني - الذي عاش في القرن الرابع الهجري - يصف بئر زمزم: "غور بئر زمزم من أعلاها إلى قاعها اثنان وسبعون ذراعاً، من وجه الماء إلى أعلى البئر أربعة وثلاثون ذراعاً، ومن وجه الماء إلى قاع البئر ثمانية ثلاثون ذراعاً لا يزيد ولا ينقص... ودور سعة البئر ثمانية عشر ذراعاً وذرع ضوئها ستة أذرع، وعليها قبة مربعة على ست عشرة سارية منقوشة كلها، وأربعة أركان مغلقة كلها بشراجب الحديد، ترجع إلى بُويب لطيف من ناحية سقاية زبيدة، قاعها مبسوط بالرخام، وسقفها مكنّس منقش من داخله في الساج، معمول من خارجه بالفسيفساء من أعلاه قبيبة سُوسنة من نحاس، يوقد على جميعها الشمع ليلة الختمة، وقبة زمزم هذه تقابل من الكعبة الملتزم، ما بين الركن الأسود وباب الكعبة، ويخرج ركن القبة عن ركن الكعبة". (وصف مكة والمدينة وبيت المقدس، ص٣٤٣). وقال ابن عبد ربه: "وزمزم بشرقي الركن الأسود بينهما مثل الثلاثين ذراعاً، وهي بئر واسعة، تنُّورها من حجر مطوق أعلاه بالخشب، وسقفها قبو مزخرف بالفسيفساء على أربعة أركان تحت كل ركن منهما عمودان من رخام متلاصقان، وقد سد ما بين كل ركنين منهما بشرجب خشب، ورد إلى باب من جهة المشرق، وحول القبو كله مثل البرطلة". (العقد الفريد، ج٧، ص٢٨٦).

(١٢٦) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص١٠٤-١٠٦؛ الفاكهي، أخبار مكة، ج٢، ص٨٣ -٨٥. ولمزيد من المعلومات عن هذه السقاية والقبة، انظر الصفحات المحددة من هذين المصدرين.

(١٢٧) أحسن التقاسيم، ص٧٥.

مكة، وهو في الوقت ذاته يؤكد - وبطريق غير مباشر - أن بيت الشراب كان يستعمل خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري - وهي فترة وجود المقدسي في مكة - كمخزن لحفظ أوقاف الحرم، وإن لم يصرح بذلك، وهذا ما أشار إليه التلمساني(١٢٨)، وأكّد استمراره حتى أواخر القرن السادس الهجري ابن جبير أيضاً(١٢٩). من جانب آخر فإن عدم إشارة المقدسي لبيت اليهودية، واقتصاره على ذكر قبة زمزم وقبة الشراب فقط كأبرز بنايتين داخل المسجد، ليؤكد أن هذا البيت كان خرباً آنذاك، وهذا ما صرح به التلمساني عند حديثه عن هذا المكان(١٣٠).

مقام إبراهيم

أما المقام فقد توسع المقدسي قليلاً في الحديث عنه، فأتحفنا خلال ذلك بمعلومات غاية في الأهمية، حيث قال(١٣١): "والمقام بإزاء وسط البيت الذي فيه الباب، وهو أقرب إلى البيت من زمزم، يدخل في الطواف أيام الموسم". والمقدسي بهذا النص بيّن لنا موضع المقام بالنسبة للبيت الحرام، ووضح أنه أقرب إليه من بئر زمزم، كما أشار إلى وجوده ضمن نطاق المطاف، ومع تكاثر الناس أيام الحج وازديادهم يطوف بعض الناس من ورائه.

---

(١٢٨) وصف مكة والمدينة وبيت المقدس، ص٣٤٣.

(١٢٩) قال ابن جبير عن قبة الشراب: "وتلي قبة زمزم من ورائها قبة الشراب، وهي المنسوبة للعباس ﵁. وتلي هذه القبة العباسية على انحراف عنها قبة تنسب لليهودية. وهاتان القبتان مخزنان لأوقاف البيت الكريم من مصاحف وكتب وأنوار شمع وغير ذلك. والقبة العباسية لم تخل من نسبتها الشرابية؛ لأنها كانت سقاية الحاج. وهي حتى الآن يبرد فيها ماء زمزم". (الرحلة، ص٦٦).

(١٣٠) قال التلمساني بعد أن تحدث عمّا رآه قائما في المسجد الحرام: "ليس في المسجد غير ذلك إلا أثر قبة اليهودية، وهو دور من رخام أسود بإزاء قبة الشراب، ارتفاعه من الأرض قدر الشبر". (وصف مكة والمدينة وبيت المقدس، ص٣٤٣). ويبدو أن بناءها قد أعيد فيما بعد حيث أشار ابن جبير - كما يتضح في الهامش السابق - أنها كانت ضمن مخازن أوقاف الحرم عندما زار مكة آنذاك.

(١٣١) أحسن التقاسيم، ص٧٦.

ثم وصف المقدسي الوضع الذي رأى عليه المقام ولونه وحجمه، فقال[١٣٢]: "ويُكبُّ عليه صندوق حديد عظيم راسخ في الأرض، طوله أكثر من قامة، وله كسوة، ويرفع المقام في كل موسم إلى البيت، فإذا رد جعل عليه صندوق خشب، له باب يفتح أوقات الصلاة، فإذا سلم الإمام استلمه ثم أغلق الباب، وفيه أثر قدم إبراهيم عليه السلام، مخالفة، وهو أسود وأكبر من الحجر". والمقدسي بهذا الطرح قد أفادنا - رغم عدم إسهابه في بعض الجوانب - بمعلومات ثرة وغنية عن بعض الجوانب والتنظيمات المتعلقة بالمقام آنذاك، فوضّح أن هناك صندوقين خُصصا لتغطيته حسب الظروف والمناسبات، أحدهما مصنوع من الحديد والآخر من الخشب[١٣٣]، كما أشار إلى أن المقام مرفوع عن مستوى الأرض بما يعادل قامة إنسان، وبيّن أنه رأى على المقام كسوة[١٣٤].

إضافة إلى ذلك فقد وضّح المقدسي أن المقام غير ثابت في مكانه طوال السنة، حيث ذكر أنه ينقل إلى داخل البيت الحرام في الموسم. فضلاً عن ذلك فقد أكّد أن لصندوقه الخشبي باباً يفتح للإمام عند أداء الصلاة، فإذا انتهى الإمام من أداء الفرض استلمه، ثم يغلق هذا الباب بعد ذلك[١٣٥]. وقد رأى المقدسي داخل الصندوق أثر قدم إبراهيم عليه السلام بشكل متخالف[١٣٦].

---

(١٣٢) المصدر نفسه، ص٧٦.

(١٣٣) ذكر ابن جبير أن صندوق الحديد يوضع على المقام أثناء الموسم؛ ليتحمل الزحام، أما في الأيام العادية فيوضع عليه صندوق من خشب. (الرحلة، ص٦٣).

(١٣٤) انفرد المقدسي بذكر هذه الكسوة، فلم أجد فيما توافر لدي من مصادر أي إشارة لهذه الكسوة. وقد ذكر باسلامة أن العثمانيين كانوا يكسون المقام مثل كسوتهم للكعبة. (تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص١٦٢).

(١٣٥) ذكر ابن جبير أن ذلك كان سائداً عند زيارته مكة في أواخر القرن السادس الهجري. (الرحلة، ص١٠٩).

(١٣٦) لم أجد فيما توافر لدي من مصادر من يؤيده فيما ذهب إليه في أن أثر القدمين متخالف.

أما عن لون حجر المقام وحجمه فقد قارنهما بالحجر الأسود، وأكد من خلال ذلك أنه أسود منه في اللون وأكبر منه أيضاً في الحجم(١٣٧).

المسعى

وكان مما تحدث عنه المقدسي المسعى، فقال(١٣٨): "ويقع السعي بين الصفا والمروة في السوق الشرقي، والعدو من قرنة المسجد إلى باب بني هاشم، وثمّ أميال خضر".

وقد بيّن من خلال ذلك أن الساعي بين الصفا والمروة لابد أن يجتاز السوق الشرقي المجاور للمسجد الحرام.

كما أشار إلى مواقع الأميال التي يرمل فيما بينها الحاج والمعتمر أثناء سعيه، فذكر أنها فيما بين زاوية المسجد الجنوبية الشرقية حتى باب بني هاشم، ووضح أن هذه الأميال قد طليت باللون الأخضر.

وقد بيّن المقدسي ما يقتضي التصاق الصفا بجبل أبي قبيس؛ وذلك عندما أشار إلى إطلالة هذا الجبل على المسجد الحرام، ووجود درج في الصفا يصعد منها إليه، فقال(١٣٩): "وأبو قبيس مطل على المسجد يصعد إليه من الصفا على درج"(١٤٠).

---

(١٣٧) للمزيد من المعلومات عن المقام، انظر: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٣٩؛ الفاكهي، أخبار مكة، ج١، ص٤٨١-٤٨٣؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٧، ص٢٨٥-٢٨٦؛ التلمساني، وصف مكة والمدينة وبيت المقدس، ص٣٤١-٣٤٢؛ ناصر خسرو، سفر نامه، ص١٥١؛ ابن جبير، الرحلة، ص٦٢-٦٣؛ مؤلف مجهول، الاستبصار، ص٢٠؛ الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص٣٢٧-٣٣٨؛ باسلامة، تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص١٣٥-١٦٧.

(١٣٨) أحسن التقاسيم، ص٧٦.

(١٣٩) المصدر نفسه، ص٧٦.

(١٤٠) قال التلمساني: "والصفا حجر أزرق عظيم، قد كسي بالدرج، ومن عليها يُصعد إلى أبي قبيس، عدد درجها ثلاثون درجة إلى موضع الوقوف منها ثماني عشرة درجة". (وصف مكة والمدينة وبيت المقدس، ص٣٤٥).

المصادر المائية

كشف المقدسي عن أنواع متعددة وأشكال مختلفة من مصادر المياه التي كانت تغذي مكة ومشاعرها المقدسة إبان النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، فكان مما ذكر في هذا الجانب ثلاث برك للماء في مكة نفسها، فقال[١٤١]: "وبمكة ثلاث برك تملأ من قناة شقتها زبيدة[١٤٢] من بستان بني عامر". ويؤكد المقدسي - وهو يكتفي بذكر ثلاث برك فقط في مكة دون تحديد مكانها - فقدان مكة آنذاك لخدمات مجموعة أخرى من البرك المُعدة لحفظ المياه في عدد من أحيائها، فالمعروف أن زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور قد وضعت في سنة ١٩٤هـ/ ٨٠٩م بركة ضخمة في المعلاة بعد أن جلبت لها المياه من خارج مكة عبر قنوات خصصت لهذا الشأن، كما أن الخليفة العباسي المأمون - وعن طريق واليه على مكة صالح بن العباس - قد أنشأ سنة ٢١٠هـ/ ٨٢٥م خمس برك أخرى في أحياء مكة، تمت تغذيتها بالماء من بركة زبيدة بالمعلاة[١٤٣]. من جانب آخر فإن معلومة المقدسي المذكورة آنفًا لتؤكد أيضاً استمرار عمل القناة التي شقتها زبيدة، إلا أن اقتصاره على ذكر بستان بني

---

(١٤١) أحسن التقاسيم، ص٧٦.

(١٤٢) هي أم جعفر بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور المعروفة بزبيدة زوج هارون الرشيد وأم ولده الأمين. كانت معروفة بالبذل على أهل العلم، والبر للفقراء والمساكين. ولها آثار خيرية كثيرة على طرق الحج العراقية، وكذلك بمكة والمدينة. توفيت ببغداد سنة ٢١٠هـ. (الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١٤، ص٤٣٣).

(١٤٣) لمزيد من المعلومات عن هذه الأعمال، انظر: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص٢٣١-٢٣٢؛ الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص١٥٢-١٥٥؛ العصامي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، القاهرة: المطبعة السلفية، (د. ت)، ج٤، ص٩٦-٩٧. وخراب بعض البرك في مكة أكده ابن حوقل عندما قال وهو يتحدث عن المياه فيها: "وكانت أكثر مياههم من السماء إلى مواجن وبرك كانت بها عامرة، فخربت باستيلاء المتوالين على أموال أوقافها واستئثارهم بها". (صورة الأرض، ص٣٧).

عامر مصدرًا تأتي منه مياه مكة آنذاك(١٤٤) دون غيره من المواقع الأخرى التي أجرت زبيدة منها مشروعها الخيري قد يوحي بتعطل هذه العيون، وتوقفها عن العمل إبان وجود المقدسي بمكة، ولا سيما وأن بعض المؤرخين مثلاً قد أشار إلى انقطاعها في بعض الفترات التاريخية عن مكة(١٤٥). الجدير بالذكر أن الماء في قناة زبيدة كان - وفق ما ذكر المقدسي - من النوع الخفيف(١٤٦).

ورغم إجماع كثير من المصادر على عدم صلاحية مياه آبار مكة للشرب بل وصعوبة استساغتها(١٤٧) إلا أن المقدسي قد أشار إلى وجود عدد من

(١٤٤) ويقصد - كما يبدو - العين المعروفة بالمُشَاش؛ لأن هذه العين جهة عرفة، حيث بستان ابن عامر هناك. ويؤكد ذلك ياقوت الحموي الذي قال: المشاش وهو الذي يجري بعرفات، ويتصل إلى مكة. (معجم البلدان، ج٥، ص١٣١). وكانت عين المشاش هذه قد تعرضت للتخريب سنة ٢٦٨هـ/ ٨٨١م من قبل عيسى بن محمد المخزومي الذي أرسله صاحب الزنج للسيطرة على مكة آنذاك. (ابن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٣٤٢-٣٤٣). ويبدو أنه أعيد إصلاح هذه العين فيما بعد، كما يتضح من كلام المقدسي المذكور آنفًا.

(١٤٥) العصامي، سمط النجوم العوالي، ج٤، ص٩٦.

(١٤٦) أحسن التقاسيم، ص٩٥. وقد أشار إلى مواصفات الماء الخفيف بقوله: "فإن قال قائل: ومن أين علمت خفَّة المياه من ثقلها قيل له: بأربعة أشياء، إحداهن: أن كل ماء يبرد سريعاً فهو خفيف... والثانية أن الماء الخفيف يبطي تحلبه، ومن شرب ماءً ثقيلاً أسرع بوله. والثالثة الماء الخفيف يُشهي الطعام ويهضمه. والرابعة إذا أردت أن تعرف ماء بلد: فاذهب إلى البزازين والعطارين، فتصفح وجوههم فإن رأيت فيها الماء؛ فاعلم خفته على قدر ما ترى من نضارتهم، وإن رأيتها كوجوه الموتى، ورأيتهم مطامني الرؤوس، فعجل الخروج منها". (أحسن التقاسيم، ص٩٥-٩٦).

(١٤٧) ومن المصادر التي ناقضته في مسألة عذوبة مياه آبار مكة - على سبيل المثال - اليعقوبي، حيث يقول: "وشرب أهل مكة من آبار ملحة، ومن القنوات التي حفرتها أم جعفر بنت جعفر بن أمير المؤمنين المنصور". (البلدان، ص١٥٤). وناصر خسرو الذي قال عن مياه مكة خلال سنة ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م: "والمياه في مكة كلها شديدة الملوحة، ظاهرة المرارة حتى لا يمكن استساغتها، ولكن يوجد في مكة كثير من الأحواض والمصانع العظيمة التي بلغت تكاليف إنشاء بعضها عشرة آلاف دينار، وتملأ هذه الأحواض والمصانع من السنين الخصبة التي تجود فيها السماء بالماء. أما هذا العام فإن تلك الأحواض والمصانع قد جفت ولا قطرة ماء بها". (سفر نامه، ص١٤٠). وقال الإدريسي أيضاً بعد أن ذكر ما أُجري لمكة بوساطة زبيدة: "ومياه مكة زعاق لا تسوغ لشارب، وأطيبها ماء بئر زمزم، وماؤه شروب غير أنه لا يمكن إدمان شربه". (نزهة المشتاق، ج١، ص١٤٠). أما الأزرقي والفاكهي فقد ذكرا عدداً من الآبار بمكة دون أن يشيرا إلى طبيعة مائها.

الآبار العذبة فيها، دون أن يحدد عددها أو مواقعها[١٤٨]. ويبدو أن المقدسي يقصد تلك البئر العذبة والعظيمة التي تكفل بحفرها الوزير العباسي علي بن عيسى[١٤٩] عند الحناطين[١٥٠]، والتي وَسَّعَتْ على أهل مكة والوافدين إليها، وخففت عنهم مشقة الحصول على الماء آنذاك[١٥١].

أما زمزم فذكر المقدسي - وهو يتحدث عن المياه في إقليم الجزيرة العربية بصفة عامة - أنه وجد الماء فيها كريها أثناء حجه سنة ست وخمسين وثلاثمئة، وطيباً خلال حجته الثانية التي أداها بها سنة سبع وستين وثلاثمئة[١٥٢]. ولا نغفل - ما دمنا في الحديث عن الآبار - مجموعة ذكر المقدسي أنه رآها في منى تؤدي دورها، ولكنه لم يحدد عدد هذه الآبار أو طبيعتها ونوعية مائها[١٥٣].

بيد أن هناك مصادر أخرى للمياه أشار إليها المقدسي في مكة ومشاعرها المقدسة، منها بعض المصانع[١٥٤] في منى[١٥٥]، وعدد من

---

(١٤٨) أحسن التقاسيم، ص٧٦.

(١٤٩) هو علي بن عيسى بن داود بن الجراح، ولد سنة ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م. تربى تربية صالحة في أسرة علمية، تولى مناصب مهمة عدة في الدولة العباسية، أبرزها الوزارة التي تولاّها أكثر من مرة، كان أولها سنة ٣٠١هـ/ ٩١٣م. توفي سنة ٣٣٤هـ. لمزيد من المعلومات عنه، انظر: الصابئ، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء. تحقيق، خليل المنصور. ط١، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص٢٠٧-٢٦٥؛ ضيف الله يحيى الزهراني، الوزير علي بن عيسى بن داود الجراح: إصلاحاته الاقتصادية والإدارية. ط١، مكة المكرمة: جامعة أم القرى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

(١٥٠) الصابئ، تحفة الأمراء، ص٢١١.

(١٥١) الصابئ، تحفة الأمراء، ص٢١١؛ آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج٢، ص٢٣٠.

(١٥٢) أحسن التقاسيم، ص٩٥. ويعلل عدي مخلص ذلك بقوله: "ولعل ذلك متأت من تفاوت كمية الماء في البئر بين موسم الجفاف وموسم الأمطار، وتأثير ذلك على تركيز المواد المعدنية في مياه البئر". (المقدسي البشاري، ص٤٥). ولم أجد في المصادر المتاحة ما يوحي بنقص المياه أو زيادتها في مكة خلال الفترة المذكورة.

(١٥٣) أحسن التقاسيم، ص٧٨.

(١٥٤) المصانع، هي أحباس تتخذ للماء، واحدها مصنعة ومصنع. (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص١٣٦).

(١٥٥) أحسن التقاسيم، ص٧٨.

البرك مع سقاية قرب جبل ثبير بالمزدلفة[١٥٦]، إضافة لمجموعة أخرى من السقايات والأحواض التي تغذيها قناة في عرفة، منها حوض أشاد المقدسي بكبر حجمه عند مصلاها[١٥٧]. فضلاً عن وجود عدد من السقايات في التنعيم[١٥٨]. ورغم هذه الإشارات المتعددة من المقدسي لنوعيات مختلفة من مصادر المياه في مكة، إلا أننا لم نر منه ما يروي غليل الباحث من وصف لهذه المنشآت أو ذكر لتاريخها أو تحديد أعدادها.

النشاط التجاري

لعل من حسن الطالع أن زيارة المقدسي لمكة جاءت في وقت شهدت فيه الأوضاع الأمنية في الحجاز نوعاً من الاستقرار والهدوء، فضلاً عن الانفتاح نحو مصر بخيراتها الاقتصادية المتعددة، وحكومتها العبيدية التي أولت الجانب التجاري آنذاك مزيداً من العناية، بعد أن وفرت السبل الكفيلة بنجاح التجارة الداخلية، وانفتحت على العالم الخارجي؛ لتزدهر الحركة التجارية في البحر الأحمر وتنمو التجارة في موانئه. وقد حفل كتاب أحسن التقاسيم بمعلومات اقتصادية ثرة ومتنوعة ولا سيما ما يتعلق منها بجوانب التجارة المختلفة، ويبدو أن المقدسي قد وجد من تطور التجارة في مكة آنذاك فرصة لإشباع ميوله ورغباته التجارية، فتحدث عن جوانبها بحس تجاري متمكن ودقيق.

١ - الأسواق

كانت الأسواق المنتشرة حول المسجد الحرام من أبرز ما تناوله المقدسي في حديثه عن النشاط التجاري في مكة، فقال في خضم حديثه عن المسجد[١٥٩]: "وإليه الأسواق من الشرق والجنوب"، وفي

(١٥٦) المصدر نفسه، ص٧٩.

(١٥٧) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(١٥٨) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(١٥٩) المصدر نفسه، ص٧٦.

تسميته لبعض أبواب المسجد الحرام تبيان لبعض هذه الأسواق، وإفصاح عن السلع والحرف الموجودة فيها، وكان مما ذكر باب الزياتين وباب البزازين في الجهة الشرقية، وباب الدقاقين وباب التمّارين، وباب زقاق الشطوي في الجهة الجنوبية(١٦٠). كما أشار المقدسي - وهو يتحدث عن المشاهد بمكة - إلى أبرز سوقين شرق المسجد الحرام، هما سوق البزازين وسوق العطارين، فقال(١٦١): "ودار الأربعين بالبزّازين(١٦٢)، ودار خديجة خلف العطارين". كما ألمح أيضاً إلى هذين السوقين دون أن يصرح باسمهما، وذلك عندما قال(١٦٣): "ويقع المسعى بين الصفا والمروة في السوق الشرقي، والعدو من قرنة المسجد إلى باب بني هاشم، وثمّ(١٦٤) أميال خضر، وخلف هذين السوقين آخران إلى آخر المعلاة بينهما منافذ"(١٦٥). أما السوقان الآخران اللذان أشار إليهما المقدسي في هذا النص فقد وضّح أن أحدهما هو سوق الردم(١٦٦)، والآخر سوق الليل، وذلك من خلال

---

(١٦٠) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(١٦١) المصدر نفسه، ص٩٦.

(١٦٢) والمقصود بها دار الأرقم بن أبي الأرقم، كما سيأتي بيان ذلك عند ذكر المشاهد بمكة في آخر البحث.

(١٦٣) المصدر نفسه، ص٧٦.

(١٦٤) قال ابن منظور: ثَمَّ في المكان: إشارة إلى مكان منزاح عنك. وثَمَّ: بمعنى هناك للتبعيد بمنزلة هنا للتقريب. (لسان العرب، ج١، ص٥٠٨).

(١٦٥) يقول ابن جبير موضحاً الأسواق الشرقية من المسجد الحرام: "وما بين الصفا والمروة مسيل هو اليوم سوق حفيلة بجميع الفواكه وغيرها من الحبوب وسائر المبيعات الطعامية، والساعون لا يكادون يخلصون من كثرة الزحام، وحوانيت الباعة يميناً وشمالاً، وما للبلدة سوق منتظمة سواها إلا البزازين والعطارين، فهم عند باب بني شيبة تحت السوق المذكورة وبمقربة تكاد تتصل بها". (الرحلة، ص٨٥).

(١٦٦) الردم: هو ما وضع لصرف السيول عن بعض الأماكن. وقد وضع في مكة في عصري الخلفاء الراشدين والأمويين أكثر من ردم. انظر: الفاكهي، أخبار مكة، ج٣، ص١١٢-١١٤. ورغم أن المقدسي لم يوضح اسم الردم الذي فيه السوق المذكور، إلا أن سياق الكلام يبيّن أن المقصود ردم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي يقع في المنطقة التي أشار إليها المقدسي.

قوله[١٦٧]: "فمن دخل من العراق وأراد باب بني شيبة فليتيامن، وليسلك سوق الردم، ولا يسلك سوق الليل".

إن معلومات المقدسي المذكورة آنفًا لتؤكد لنا كثرة الأسواق الدائمة، وانتشارها بشكل واسع حول المسجد الحرام، كما تفيدنا في الوصول إلى طبيعة مبيعاتها، فهناك المتخصص منها؛ كسوق العطارين، وسوق البزازين، وسوق الزياتين، وسوق الدقاقين، وسوق التمّارين، وسوق الأقمشة والملابس (الشطويين). ومنها ما هو عام - كما يبدو - كسوق الردم، وسوق الليل، الذي أكّد الأزرقي احتواءه على مجموعة من الأسواق المختلفة والسلع المتنوعة[١٦٨].

من جانب آخر فإن المقدسي، ورغم ما ذكر من معلومات عن انتشار الأسواق في مكة، فإنه لم يشر لأسواق أخرى كانت في مكة خلال القرن الثالث الهجري[١٦٩]. ويعود عدم ذكر المقدسي لهذه الأسواق - من وجهة نظرنا - إلى سببين؛ الأول، أنه لم يتطرق لها رغبة منه في الاختصار وعدم الإطالة، تمشياً مع المنهج الذي رسمه لكتابه. والثاني - وهو ما نميل إليه - أن هذه الأسواق قد اندثرت خلال القرن الرابع الهجري، عقب ما تعرضت له مكة من مشاكل سياسية عدة في النصف الأول من هذا القرن، والتي سبق وأن ألمحنا لها قبل ذلك.

الجدير بالذكر أن المقدسي أشار إلى سوق منى الذي يعقد كل موسم، وأكّد أن هذا السوق من أضخم أسواق الجزيرة العربية وأبرزها[١٧٠]. كما بيّن أيضاً أن في منى "قياسير[١٧١] وحوانيت حسنة البناء"[١٧٢].

(١٦٧) أحسن التقاسيم، ص٧٦.

(١٦٨) أخبار مكة، ج٢، ص٢٣٩.

(١٦٩) عن هذه الأسواق، انظر: عبدالعزيز السنيدي، الحياة العلمية في مكة خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين، ط١، الرياض ١٤٢٤هـ، ص٤٠-٤٣.

(١٧٠) أحسن التقاسيم، ص٩١.

(١٧١) وهي أسواق مغلقة تقفل مداخلها خلال الليل، وتحفظ فيها البضائع الثمينة. (عدي يوسف مخلص، المقدسي البشاري، ص١٨٩).

(١٧٢) أحسن التقاسيم، ص٧٨-٧٩.

٢ - البضائع والسلع

لم يقتصر المقدسي على ذكر أسماء الأسواق، بل أتحفنا بمعلومات مختلفة عما يُسَوَّق فيها من سلع وبضائع متنوعة، فأشار إلى شهرة مكة بإنتاج السنا[١٧٣]. وذكر أن الفواكه كانت تجلب إلى أسواق مكة المكرمة من الطائف، وأن أكثر الموجود في الأسواق المكية منها[١٧٤]. وأشار إلى الجهات التي تجلب منها الملابس والثياب إلى مكة المكرمة، فقال وهو يتحدث عما يحمل من إقليم الديلم من البضائع[١٧٥]: "ومن طبرستان الأكسية التي تفضل على الفارسية وطيالسة وثياب الخيش المحمولة إلى الآفاق، ويباع منها بمكة شيء كثير صغار الدراهم وكبار تسمى بالغرب المكية واللفائف". إضافة إلى الثياب الشطوية التي تجلب للحجاز من مدينة شطا في مصر، ولها سوق خاص بمكة المكرمة[١٧٦]. من جانب آخر بيّن المقدسي أن مصر كانت أيضاً تمد بلاد الحجاز ببعض المواد الغذائية، فقال عن مدينة المَشْتُول المصرية[١٧٧]: "المَشْتُول: كثيرة الطواحين، ومنها يحمل أكثر ميرة الحجاز من الدقيق والكعك، وأحصيت في وقت من السنة فإذا هو يبلغ ثلاثة آلاف حمل جمل في كل أسبوع، كلها حبوب ودقيق". كما قال مشيراً إلى أهمية مصر الاقتصادية لبلاد الحجاز[١٧٨]: "وبخيراته تعمر الحجاز، وبأهله يبهج موسم الحاج"، وقال أيضاً[١٧٩]: "والحجاز مع أهلها عياله".

---

(١٧٣) المصدر نفسه، ص٩٣. وقد ذكر البكري أن السنا الحرمي يصدر من مكة إلى الآفاق الأخرى. (المسالك والممالك، ج١، ص٣٦٢).

(١٧٤) أحسن التقاسيم، ص٨٠.

(١٧٥) المصدر نفسه، ص٢٨٢.

(١٧٦) المصدر نفسه، ص٧٦، ٩٨.

(١٧٧) المصدر نفسه، ص١٦٦.

(١٧٨) المصدر نفسه، ص١٦٥.

(١٧٩) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

ومن ناحية أخرى فقد أفاد المقدسي حين نسب بعض أبواب المسجد الحرام للسلع الموجودة حولها - كما أشرنا إلى ذلك سابقاً - في الوصول للكثير من البضائع الاستهلاكية المتوافرة في أسواق مكة، ومنها - على سبيل المثال - التمور، والتوابل، والزيوت، والبز، والأقمشة، والملابس، وأدوات العطارة، وغيرها.

الجدير بالذكر أن المقدسي قد أكّد أن ميناء جدة - الذي ازدهر بشتى التجارات آنذاك - كان بمثابة المصدر الرئيس لتمويل الأسواق المكية بما يرد إليه عن طريق البحر من بضائع مختلفة من عدد من الأقاليم والأمصار، حتى إنه وصف جدة بخزانة مكة[١٨٠].

٣ - الاستثمار العقاري

أوصلنا حس المقدسي، واهتمامه التجاري إلى نشاط مارسه المكيون آنذاك عندما أشار إلى استثمارهم العقاري لمنشآتهم العمرانية بقوله[١٨١]: "ومستغلاتهم الدور". وتؤكد هذه المعلومة - بالإضافة لأهميتها وقيمتها الاقتصادية - أمراً مهماً أحدث بلا شك تغيراً اجتماعياً واقتصادياً في المجتمع المكي، ألا وهو بدء استغلال المكيين تأجير الدور - الذي حرموا منه فيما قبل - للحجاج والمعتمرين وغيرهم، وذلك منذ وقعت حادثة القرامطة، وتقاعس العباسيون عن بذل الأموال والأعطيات التي دأبوا على منحها لأهل مكة[١٨٢].

٤ - المكاييل والموازين

وفي جانب اقتصادي آخر أشار المقدسي إلى المكاييل والموازين المنتشرة آنذاك، حيث بيّن المكاييل المستعملة منها في الجزيرة العربية

---

(١٨٠) المصدر نفسه، ص٨١.

(١٨١) المصدر نفسه، ص٧٦.

(١٨٢) سليمان عبدالغني مالكي، مرافق الحج والخدمات المدنية للحجاج في الأراضي المقدسة منذ السنة الثامنة من الهجرة حتى سقوط الخلافة العباسية، ص٧٦-٧٨.

بشكل عام، ووضح مقاديرها، قائلاً[١٨٣]: "ومكاييل هذا الإقليم الصاع والمد والمكوك، فالمد ربع الصاع، والصاع ثُلُث المكوك، هذا بالحجاز وهي مختلفة، والمستعمل منها يزن خمسة أرطال وثلثاً". وقد ألمح المقدسي من خلال ذلك إلى أمر معروف بين الناس، وهو اختلاف مقادير هذه المكاييل بين إقليم وآخر. كما بيّن في نهاية حديثه أن الصاع المستعمل في الحجاز في وقته يزن خمسة أرطال وثلثاً، وهذا ما كان عليه فقهاء الحجاز[١٨٤]. كما ذكر المقدسي وحدة الوزن المستخدمة في مكة، فقال[١٨٥]: "وأرطالهم بمكة هو المنّ المعروف في جميع بلاد الإسلام غير أنهم يسمونه رطلاً"[١٨٦].

٥ - العملات المتداولة

أما عن العملات المتداولة في الجزيرة العربية المستخدمة في المعاملات التجارية فيها، فقد أكّد المقدسي أنها مختلفة بين منطقة وأخرى. وأشار إلى بعض النقود المحلية المتداولة بمكة، فقال[١٨٧]: "لأهل مكة المطوَّقة وهي والعثَّرية[١٨٨] ثلثا المثقال[١٨٩] تؤخذ كدراهم اليمن عدداً، وتفصل العثرية حتى ربما كان بينهما دُريهم".

(١٨٣) أحسن التقاسيم، ص٩٣.

(١٨٤) سامح عبدالرحمن فهمي، المكاييل في صدر الإسلام، ص٢٦.

(١٨٥) المصدر السابق، ص٩٤.

(١٨٦) قال ابن المجاور عن الرطل: "والرطل مئة وثلاثون درهماً وهو ستة أواق يحسب كل أوقية أحد وعشرون درهماً وثلث، وبه يباع جميع الحوائج والعطر". (صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، المسمى "تاريخ المستبصر". تحقيق، أوسكار لوفغرين، ليدن: مطبعة بريل ١٩٣٦م، ص١٢).

(١٨٧) أحسن التقاسيم، ص٩٤.

(١٨٨) وهي نسبة لمدينة عثر. (محمد أحمد العقيلي، تاريخ المخلاف السليماني. مراجعة وإشراف، حمد الجاسر. ط٢، الرياض: دار اليمامة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص١٦٨). ولم أجد - في المصادر المتوافرة لدي - أي معلومات أخرى تفيد حول هذه العملة.

(١٨٩) يساوي المثقال (٤,٢٥) غراماً، والدرهم يساوي سبعة أعشار المثقال؛ أي: كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل. وكان يطلق على الدينار لفظ المثقال. (عبدالقديم زلوم، الأموال في دولة الخلافة. ط١، بيروت: دار العلم للملايين ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص٢٠٥).

وعن الدراهم المتداولة في مكة قال المقدسي[١٩٠]: "والدراهم المستعملة في الإقليم تسمى بمكة المحمدية[١٩١]. ولأهل مكة المزبقّة أربعة وعشرون بمطوق ضعف أختمي تبطل يوم السادس من ذي الحجة إلى آخر الموسم". وقد بيّن لنا المقدسي من خلال ذلك أن المطوقة تعادل أربعة وعشرين درهماً من المزبقّة، كما ألمح في معلومته هذه إلى موضوع مهم، وهو توقف التعامل بهذه الدراهم خلال موسم الحج. ويبدو أن رغبة المكيين في الحصول على بعض العملات الصعبة المتداولة في العالم الإسلامي آنذاك عن طريق الحجاج القادمين إليها، فضلاً عن الحيلولة دون تسرب عملتهم الخاصة إلى الخارج للحفاظ على قيمتها، كان سبباً في توقف التعامل التجاري بهذه العملة[١٩٢].

٦ - المكوس والضرائب

ألقى المقدسي الضوء على المكوس والضرائب التي تفرض على البضائع القادمة إلى مكة، فقال عن مقدار ما يؤخذ عن بعض الواردات إلى ميناء جدة[١٩٣]: "والضرائب والمكوس يؤخذ بجدة من كل حمل حنطة نصف دينار وكيل من فرد الزاملة، وعلى سفط الثياب الشطوي ثلاث دنانير، ومن سفط الديبقي ديناران، وحمل الصوف ديناران". كما كانت الضرائب والمكوس تؤخذ أيضاً في ميناء السرين

---

(١٩٠) أحسن التقاسيم، ص٩٤.

(١٩١) بحثت جاهداً في عدد من المصادر والمراجع التي عُنيت بالنقود والعملات فلم أجد لها ذكراً في ثناياها. ويقول أحمد الزيلعي عنها: "ونحن لا نعرف بالضبط كيف جاءت هذه التسمية، والظاهر أنها نسبة إلى محمد بن سليمان الذي ثار بمكة سنة ٣٠١هـ، فلعلها أن تكون قد سكت في عهده، أو أن تكون قد ضربت في عهد الأمراء الموسويين الذين جاؤوا بعده، وسميت المحمدية تيمناً باسمه". (مكة وعلاقاتها الخارجية، ص١٦١).

(١٩٢) أحمد الزيلعي، مكة وعلاقاتها الخارجية، ص١٦١؛ عدي يوسف مخلص، المقدسي البشاري، ص٢٧٥.

(١٩٣) أحسن التقاسيم، ص٩٨.

التابع لإمارة مكة[١٩٤]. هذا بالإضافة لضرائب ورسوم أخرى ذكر المقدسي أنها عن كل حمل نصف دينار، تؤخذ على التجارات الداخلية عبر مرصدين وضعا ما بين مكة وجدة؛ أحدهما في القرين، والآخر في بطن مَرّ[١٩٥].

الجدير بالذكر أن المقدسي قد أشار في حديثه عن التجارات والأموال في الجزيرة العربية أن أموالها عشرية، وليست خراجية[١٩٦]. كما نقل عن قدامة بن جعفر أن مقدار ما يؤخذ من بلاد الحرمين مئة ألف دينار سنوياً[١٩٧]. ورغم أن المقدسي لم يحدد وقت إرسال هذه الأموال لدار الخلافة، إلا أنها - فيما يبدو - كانت قبل القرن الرابع الهجري، حيث شهد هذا القرن تغيرات سياسية ومشاكل حدّت كثيراً من سلطة العباسيين على الحجاز.

الحالة الاجتماعية

أمدّنا المقدسي عبر مشاهداته التي دونها خلال رحلته بمعلومات متنوعة كشفت لنا الكثير من الجوانب المختلفة - التي لم يُسلط عليها الضوء - عن الحياة الاجتماعية في مكة خلال القرن الرابع الهجري. وكان مما أشار إليه المقدسي اللباس الموجود في مكة، فقال[١٩٨]: "والرسوم في هذا الإقليم لبس الوزر والأزر بلا قميص إلا القليل". ويبدو أن المقدسي في إشارته لهذا النوع دون غيره من الألبسة المعروفة آنذاك قد اقتصر على ما هو سائد ومشهور منها؛ وهو الإزار[١٩٩].

---

(١٩٤) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(١٩٥) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(١٩٦) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(١٩٧) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(١٩٨) المصدر نفسه، ص٩٤.

(١٩٩) وكان هذا النوع من الألبسة هو السائد والمشهور في مكة لدى كثير من الرجال والنساء في الحاضرة والبادية منذ عصور الإسلام الأولى. (إلهام أحمد البابطين، الحياة الاجتماعية بمكة منذ ظهور الإسلام حتى نهاية العصر الأموي. ط١، الرياض ١٤١٩هـ، ص٣٢١-٣٢٥). وانظر هذا المرجع لمزيد من المعلومات عن الألبسة في مكة.

من جانب آخر فقد ذكر المقدسي أن أكثر الثياب المنتشرة في مكة كانت من النوع القطني[٢٠٠]. وفي إشارته لتوريد الثياب الشطوية إلى ميناء جدة[٢٠١]، وكذلك وجود سوق لها في مكة[٢٠٢]، دليل على سعة انتشارها آنذاك في أوساط المجتمع المكي. ونظراً لعدم تباعد درجات الحرارة كثيراً في مكة خلال فصول السنة فإن نوعية لباس المكيين - حسب قول المقدسي - ثابتة لا تتغير خلال هذه الفصول[٢٠٣]. وفي جانب آخر وضح المقدسي أيضاً أن أهل مكة اعتادوا لبس النعال[٢٠٤].

أما معيشة الناس في مكة فرغم أن المقدسي لم يُشر إليها مباشرة، وإنما تحدث عن طبيعتها في الجزيرة العربية، عندما ذكر أن الناس فيها يتقوتون باليسير من الطعام، وأن معيشتهم تعتمد بشكل رئيس على التمر[٢٠٥]، إلا أننا ومن خلال ما ذكر المقدسي من الأسواق المكية وتخصصاتها - والتي تحدثنا عنها قبل ذلك - نستطيع أن نقف على الكثير من المواد المستهلكة في مكة آنذاك.

من ناحية أخرى بيّن المقدسي اعتماد أهل مكة على اللحوم المجففة من ذبائح أيام النحر نوعًا من الغذاء الذي يعتمد عليه المكيون كثيراً، ويستمر معهم بعض أيام السنة[٢٠٦]. والحال نفسها تنطبق على الفواكه التي اقتصر توافرها في الأسواق المكية على فصل الصيف، في حين خلت منها هذه الأسواق - على حدّ قول المقدسي - في

---

(٢٠٠) أحسن التقاسيم، ص٩٠.

(٢٠١) المصدر نفسه، ص٩٨.

(٢٠٢) المصدر نفسه، ص٧٦.

(٢٠٣) المصدر نفسه،ص٩٠.

(٢٠٤) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٠٥) المصدر نفسه، ص٩٩.

(٢٠٦) المصدر نفسه، ص٩٠.

فصل الشتاء(٢٠٧). أما المشروبات فقد أكّد المقدسي انتشار شرب السويق في مكة عندما ذكر أنه تناوله فيها(٢٠٨).

أما الأمراض فقد أكّد المقدسي - وهو يتحدث عن الجزيرة العربية - أنه لم ير مجذوما، وأشار إلى أن الله - سبحانه وتعالى - قد حفظ المكيين من هذا المرض حيث نقل تفسير عبدالله بن عباس لقوله تعالى: "وآمنهم من خوف"(٢٠٩)، إنه خوف الجذام(٢١٠). وذكر أن من أهم أسباب الأمراض في مكة أكل الباذنجان، حيث أشار إلى المضار بإقليم الجزيرة العربية، فقال عن الموجود منها بمكة: "بمكة باذنجان يمرض"(٢١١).

وأشار المقدسي إلى بعض العادات والتقاليد المنتشرة في مكة، فقال عن طريقتهم في الاحتفال بعيد الفطر(٢١٢): "وبمكة تنصب القباب ليلة الفطر، ويزين السوق بين الصفا والمروة، ويضربون الدبادب(٢١٣) إلى الصباح، وإذا صلوا الغداة أقبلن الولائد مزينات بيدهن المراوح يطفن بالبيت". كما أعجب المقدسي بتأنق المكيين

---

(٢٠٧) المصدر نفسه، والصفحة نفسها. قال الزهري عن المعيشة في مكة: "فأما ما يأكلون فأكثر طعامهم القطاني، والقمح عندهم قليل وكذلك الشعير، وأكثر عيشهم اللبن والتمر ولحوم الإبل والجواميس، وكذلك فواكههم الموز وقليل من العنب. وأكثر ثمارهم النخل". (كتاب الجغرافية. تحقيق، محمد حاج صادق، بور سعيد: مكتبة الثقافة الدينية، (د. ت)، ص٣٦).

(٢٠٨) أحسن التقاسيم، ص٣٨.

(٢٠٩) سورة قريش، آية ٤.

(٢١٠) أحسن التقاسيم، ص٩٠. قال النسفي في تفسير ذلك: "وآمنهم من خوف عظيم وهو خوف أصحاب الفيل، أو خوف التخطف في بلدهم ومسايرهم، وقيل: كانوا قد أصابتهم شدة حتى أكلوا الجيف والعظام المحرقة، وآمنهم من خوف الجذام؛ فلا يصيبهم ببلدهم. وقيل ذلك بدعاء إبراهيم عليه السلام". (تفسير النسفي، بيروت: دار الكتاب العربي، (د. ت)، ج٤، ص٣٧٨).

(٢١١) أحسن التقاسيم، ص٩٦.

(٢١٢) المصدر نفسه، ص٩٥.

(٢١٣) قال ابن منظور، الدبادب: الكثير الصياح والجلبة. والدبداب: الطبل. (لسان العرب، ج٣، ص١٣١٥).

وجمال زيهم، وطريقة خروجهم للحج، وشبههم في ذلك بالعراقيين، فقال[٢١٤]: "ولا يرى أحسن من زي أهل مكة في خروجهم إلى الحج في أن أحدهم ينوبه في ذلك ما ينوب العراقي".

وبيّن خلال حديثه عن مدينة الطائف أنها كانت بمثابة متنزه للطبقة الراقية من المكيين عندما يشتد الحر في فصل الصيف، فقال[٢١٥]: "إذا تأذى ملوك مكة بالحر خرجوا إليها". كما استدل في الموضوع نفسه بتفسير عبدالله بن عباس رضي الله عنهما لقوله تعالى: ﴿إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾[٢١٦]، قال: كانوا يشتون بمكة، ويصيفون بالطائف[٢١٧].

وأخيراً، ومن خلال ما أدلى به المقدسي من معلومات مختلفة ومتناثرة عن مكة وأهلها، نستطيع أن نصل إلى حقيقة ثابتة تؤكّد أن التجارة بأشكالها المختلفة ونشاطاتها المتعددة قد ظفرت بنصيب وافر، واحتلت مكانة لا تدانى في مجال النشاط السكاني في مكة.

جوانب فكرية وعلمية

تحدث المقدسي عن بعض الجوانب الفكرية والعلمية في الجزيرة العربية بوجه عام وفي مكة على وجه الخصوص، فأطلعنا - رغم قلة ما ذكر في هذا الجانب - على معلومات تميز بها عن غيره من المصادر. وكان مما أشار إليه في هذا الموضوع، ضعف الحياة العلمية

---

(٢١٤) أحسن التقاسيم، ص٩٥.

(٢١٥) المصدر نفسه، ص٨٠.

(٢١٦) سورة قريش، آية ٢.

(٢١٧) أحسن التقاسيم، ص٩٠. والمعروف عند كثير من المفسرين أن رحلة الشتاء المكية كانت لليمن، ورحلة الصيف كانت إلى بلاد الشام. انظر: (النسفي، تفسير النسفي، ج٤، ص٣٧٨؛ ابن كثير، تفسير ابن كثير، نشر. أسعد طرابزوني الحسيني، (د. ن)، (د. ت)، ج٤، ص٥٥٤؛ الشوكاني، فتح القدير، بيروت: دار الفكر ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ج٥، ص٤٩٨-٤٩٩). وقد ذكر الشوكاني رواية ابن عباس التي أشار إليها المقدسي، ولكنه رجح الرواية التي تنص على أن رحلات المكيين كانت للشام واليمن. وللمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع انظر: عبد العزيز صالح الهلابي: ما حقيقة رحلة قريش في الصيف إلى الشام؟، مجلة الدارة، ع٤، س٢٢، ١٤١٧هـ، ص٦٥-٩٤.

في إقليم الجزيرة العربية عندما وصفه بأنه " قليل الفقهاء والمذكرين والقراء"[٢١٨]. والمقدسي في كشفه هذا يؤكد التقلص الفعلي لمناشط الحياة العلمية المختلفة في مكة آنذاك عقب المشاكل السياسية التي عانت منها مكة - والتي ألمحنا إليها في حديث سابق - بعد أن شهد هذا الجانب تطوراً ملحوظا قبل القرن الرابع الهجري[٢١٩]. وبطبيعة الحال

يؤكد المقدسي التقلص الفعلي لمناشط الحياة العلمية المختلفة في مكة عقب المشاكل السياسية

فإن ذلك لا يعني انعدام المهتمين بالعلم خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، فالمقدسي نفسه أشار إلى وجود بعض القراء في مكة، وبيّن أنهم ما زالوا متمسكين بقراءة ابن كثير[٢٢٠]، ومنهم من هو على قراءة أبي عمرو بن العلاء[٢٢١]، ووضح أن على هذه القراءة السواد الأعظم من سكان إقليم الجزيرة العربية[٢٢٢].

---

(٢١٨) أحسن التقاسيم، ص٩٠.

(٢١٩) للاطلاع على واقع الحياة العلمية آنذاك، انظر: عبدالعزيز بن راشد السنيدي، الحياة العلمية في مكة خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين.

(٢٢٠) هو عبدالله بن كثير الدَّاري، إمام المكيين في القراءة، وأحد السبعة القراء المعروفين. قَرَأَ على عبدالله بن السائب المخزومي ومجاهد بن جبر وآخرين، كما دَرَسَ الحديث على بعض الصحابة والتابعين، وتتلمذ عليه عدد كبير من طلبة العلم في مكة وغيرها. توفي سنة ١٢٠هـ/ ٧٣٧م، وقيل: سنة ١٢٢هـ/ ٧٣٩م، وقيل غير ذلك. (ابن مجاهد، السبعة في القراءات، تحقيق، شوقي ضيف، ط٢، القاهرة: دار المعارف ١٤٠٠هـ، ص ٦٤-٦٦؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء. مجموعة من المحققين، إشراف شعيب الأرناؤوط، ط٧، بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ج٥، ص٣١٨-٣٢٢).

(٢٢١) التميمي البصري، شيخ القراء، وعالم باللغة العربية. اختلف في اسمه، وأشهر ما قيل في ذلك زبان. برز في الحروف، وفي النحو، وتصدر للإفادة مدة. واشتهر بالفصاحة والصدق وسعة العلم. توفي سنة ١٥٤هـ/ ٧٧٠م، وقيل ١٥٧هـ/ ٧٧٣م. (الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٦، ص٤٠٧-٤١٠).

(٢٢٢) أحسن التقاسيم، ص٩١. الجدير بالذكر أن المقدسي أشار إلى القراءات المستعملة في وقته في العالم الإسلامي، وذكر منها حروف أهل الحجاز، وهن أربع؛ قراءة نافع وابن كثير وشيبة وأبي جعفر. ولكنه لم يؤكد انتشار جميع هذه القراءات في مكة، واقتصر فقط على ما ذكرنا. (المصدر السابق، ص٤٦).

ورغم تمسك المكيين بقراءة ابن كثير واعتمادها قراءة رسمية لإمام الحرم طوال الفترة التاريخية السابقة، إلا أن المقدسي أشار - وهو يؤكد ما ذكرنا - إلى بدء تخلي أئمة الحرم عن ذلك عندما قال(٢٢٣): "وسمعت بعض صدور القراء بمكة يقول: ما رأينا ولا سمعنا أن أحداً أمَّ خلف المقام بغير قراءة ابن كثير إلا في هذا الزمان".

وبيّن المقدسي أن اللغة العربية هي - بطبيعة الحال - لغة أهل الجزيرة العربية بصفة عامة(٢٢٤)، كما وضّح أن لغة هذيل - وهي من أبرز القبائل التي تقطن مكة وما حولها - أصح اللغات في الجزيرة العربية، وذلك بقوله(٢٢٥): "وجميع لغات العرب موجودة في بوادي هذه الجزيرة إلا أن أصحها لغة هذيل ثم النجديين ثم بقية الحجاز إلا الأحقاف فإن لسانهم وحش". وكان المقدسي قد أكدّ أن الفصاحة خاصية تميز بها أهل مكة عن غيرهم من أهل الأمصار الإسلامية الأخرى(٢٢٦).

أما عن المذهب الديني السائد في مكة فقد ذكر في حديثه عن المذاهب المنتشرة في الجزيرة العربية أن أهل مكة على المذهب السني(٢٢٧)، وأشار إلى أن العمل فيها كان على مذهب الإمام مالك بن أنس(٢٢٨). هذا مع وجود طائفة على المذهب الشيعي في مكة، تتمثل في فئة الخياطين(٢٢٩). من جانب آخر فقد نقل المقدسي مقولة عمَّمها محمد بن عبدالله العباسي على دعاته بيّن من خلالها أن ميل أهل مكة والمدينة وولاءهم كان لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما(٢٣٠).

(٢٢٣) أحسن التقاسيم، ص٩١.
(٢٢٤) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
(٢٢٥) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
(٢٢٦) المصدر نفسه، ص٤١.
(٢٢٧) المصدر نفسه، ص٩٠.
(٢٢٨) المصدر نفسه، ص٩١.
(٢٢٩) المصدر نفسه، ص٩٦.
(٢٣٠) المصدر نفسه، ص٢٣٤.

وتحدث المقدسي عن نوعية المصاحف المنتشرة في بلاد الحجاز، فقال[٢٣١]: "رأيت المصاحف القديمة بالشام ومصر والحجاز المنسوبة إلى عثمان، فإذا هي لا تخالف حروف ابن عامر[٢٣٢] في شيء".

المشاعر المقدسة

أولاً: منى

عرض المقدسي صورة جغرافية وحضارية أفادت في الوصول لمعلومات متنوعة عنها إبان النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، وكان مما تطرق إليه في هذا الجانب تحديد موقعها؛ فبيّن أنها داخلة ضمن حدود الحرم، وتبعد عن مكة مسافة فرسخ[٢٣٣]، وأكّد وقوعها بين جبلين يطلان عليها[٢٣٤]، وأن طولها ميلان فقط[٢٣٥]. كما وصف الوضع الذي كانت عليه منى آنذاك، فأشار إلى أنها عبارة عن شارعين (شعبين) فيهما عدد من الأزقة، وذكر أن فيها مسجدين؛ مسجد الخيف في الشارع الأيمن من شوارع منى، والآخر مسجد الكبش بقرب العقبة[٢٣٦]. وبين مواقع الجمرات الثلاث، وقال: إن جمرة العقبة على رأس منى نحو مكة، والثالثة عند مسجد الخيف، والوسطى بينهما[٢٣٧]. إضافة إلى ذلك فقد ذكر المقدسي وجود عدد من الأسواق في منى، وبيّن لنا طبيعتها ووصف مواد بنائها،

---

(٢٣١) المصدر نفسه، ص٩٤.

(٢٣٢) هو عبدالله بن عامر اليحصبي. أحد علماء التابعين، وقاضي دمشق في خلافة الوليد بن عبدالملك. وهو من القراء السبعة المشهورين. توفي سنة ١١٨هـ/ ٧٣٦م. (الداني، التيسير في القراءات السبع. ط٣، بيروت: دار الكتاب العربي ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م، ص٥-٦).

(٢٣٣) أحسن التقاسيم، ص٧٨. والفرسخ: ثلاثة أميال. وهو لفظ فارسي معرب. (ابن منظور، لسان العرب، ج٦، ص٣٣٨١).

(٢٣٤) أحسن التقاسيم، ص٧٩.

(٢٣٥) المصدر نفسه، ص٧٨.

(٢٣٦) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٣٧) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

فقال[٢٣٨]: "بها... قياسير وحوانيت حسنة البناء بالحجر وخشب الساج". فضلاً عن ذلك فقد أكّد المقدسي - وهو يتحدث عن منى - توافر الكثير من الآبار والمصانع المعدة لحفظ المياه فيها[٢٣٩].

وكانت منى آنذاك - ووفق ما رأى المقدسي - تقسّم خلال موسم الحج بين أهل الأمصار الإسلامية، فقال مبيّناً ذلك[٢٤٠]: "وقلّ بلد مذكور في الإسلام إلا ولأهله به مضرب". وهو يشير بذلك إلى وجود منازل معمورة وقائمة في منى، يقطن فيها حجاج كل بلد مستقلين عن غيرهم خلال أيام الحج[٢٤١].

وحيث تحتاج هذه المنشآت الموجودة في منى للحفظ والصيانة، فقد أكّد المقدسي وجود فئات من الناس تُقيم بصفة دائمة فيها، بعد أن أُوكل لهم حفظها بعد انتهاء الموسم، فقال موضحاً هذا الأمر[٢٤٢]: "تعمر أيام الموسم وتخلو بقية السنة إلا ممن يحفظها". وبيّن أن عدد الذين عُهد إليهم بحفظها يتراوح ما بين العشرين إلى الثلاثين رجلاً[٢٤٣].

ثانياً: مزدلفة

رغم أن المقدسي تحدث عن مزدلفة بشكل مختصر إلا أنه أمدنا بمعلومات طيبة عنها، فحدد لنا أنها تبعد عن منى فرسخاً[٢٤٤]. كما ذكر ما فيها من منشآت لخدمة الحجاج، ومنها مصلى أشار إلى

---

(٢٣٨) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٣٩) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٤٠) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٤١) قال الاصطخري وهو يتحدث عن منى: "وبها أبنية كثيرة لأهل كل بلد من بلدان الإسلام". (مسالك الممالك، ص١٦). وأشار إلى ذلك أيضاً ابن حوقل بقوله: "وبمنى أبنية كثيرة كالقصور، لأهل كل بلد من بلدان الإسلام". (صورة الأرض، ص٣٦).

(٢٤٢) أحسن التقاسيم، ص٧٨.

(٢٤٣) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٤٤) المصدر نفسه، ص٧٩.

وجود منارة فيه فقط[٢٤٥]، دون أن يبيّن لنا نوعية عمارته ووصفها أو أطواله ومسافاته[٢٤٦]. إضافة إلى ذلك فقد أشار المقدسي إلى وجود سقاية للماء في مزدلفة[٢٤٧]، فضلاً عن عدد من البرك القريبة من جبل ثبير[٢٤٨].

ولم يفت المقدسي – وهو يتحدث عن مزدلفة – أن يذكر بعض الأسماء الأخرى التي كانت تطلق عليها، ومنها جمع والمشعر الحرام[٢٤٩].

وكان مما أشار إليه المقدسي بطن مُحَسِّر، فبيّن أنه على حدود المزدلفة فيما بينها وبين منى، دون أن يتعرض لبعض الجوانب الشرعية المتعلقة بهذا المكان، كعادته عندما يجد فرصة للحديث عن جوانب فقهية أو تشريعية، فقال[٢٥٠]: "بطن مُحَسِّر: وادٍ بين منى والمزدلفة، وهو تخم[٢٥١] المزدلفة".

ثالثاً: عرفة

توسع المقدسي قليلاً في حديثه عن عرفة مقارنة بمعلوماته عن المشاعر المقدسة الأخرى، فأتحفنا خلال ذلك بمعلومات جديدة، حيث قال في بداية حديثه عنها[٢٥٢]: "عرفة: قرية فيها مزارع وخضر ومباطخ[٢٥٣]، وبها دور حسنة لأهل مكة ينزلونها يوم عرفة"،

---

(٢٤٥) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٤٦) لمعرفة بعض المعلومات عن مسجد المزدلفة، انظر: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص١٨٧؛ الحربي، المناسك، ص٥٠٨؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٧، ص٢٨٧.

(٢٤٧) أحسن التقاسيم، ص٧٩.

(٢٤٨) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٤٩) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٥٠) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٥١) قال ابن منظور: التخم، منتهى كل قرية أو أرض. وتخومها، حدودها. والتخوم أيضاً مفصل ما بين الكورتين والقريتين. (لسان العرب، ج١، ص٤٢٢-٤٢٣).

(٢٥٢) أحسن التقاسيم، ص٧٩.

(٢٥٣) كما يتضح فإن المقدسي لا يقصد حائط بني عامر؛ لأن هذا المكان على حد عرفات من ناحية الشرق.

وبهذا فإن المقدسي قد أفادنا بوجود الاستقرار السكاني في عرفة عندما نعتها بأنها قرية، فيها بعض الدور السكنية، وتنتشر فيها أنواع من المزروعات، وهذا كله - كما هو معروف - من علامات التحضر. ويبدو أن هذا الاستقرار الذي ألمح إليه المقدسي، والدور التي ذكرها في عرفة كانت قريبة النشأة من مجيء المقدسي إلى مكة، ويؤيد ذلك ما ذكر ابن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨ هـ/ ٩٣٩م) حين أكّد عدم وجود ساكن أو حتى بناء فيها[٢٥٤].

ثم تحدث المقدسي عن الموقف وجبل الرحمة، فقال[٢٥٥]: "والموقف منها على صيحة عند جبل متلاط، وثمّ سقايات وحياض وقناة تخر وعَلَم قد بُني يقف خلفه الإمام للدعاء[٢٥٦]، والناس حوله على جبال بقربه لاطية". وقد حدد من خلال ذلك موقع الموقف، وبيّن أن الحجاج يقفون حول هذا الجبل، الذي وضع في أعلاه علم، يقف خلفه الإمام حينذاك للدعاء في يوم عرفة. كما أكّد المقدسي وجود بعض المصادر المائية في عرفة آنذاك، وهي مجموعة من السقايات والحياض المعدة لحفظ المياه للحجاج، فضلاً عن قناة تجري فيها المياه لخدمتهم، وكأنه يشير بذلك إلى استمرار عمل القناة التي وضعتها زبيدة في أواخر القرن الثاني الهجري في عرفة.

كما تناول المقدسي بالحديث مسجد عرفة، والذي أطلق عليه لفظ مصلى، فقال عن موقعه[٢٥٧]: "والمصلى على حافة وادي عُرنة

---

(٢٥٤) العقد الفريد، ج٧، ص٢٨٧.

(٢٥٥) أحسن التقاسيم، ص٧٩.

(٢٥٦) قال ناصر خسرو بعد أن ذكر صلاة الإمام في مسجد نمرة وصفتها: "ثم يركب الإمام جملاً، ويتجه إلى الجهة الشرقية من عرفات؛ حيث يرقى جبلاً صغيراً، ويسمى ذلك الجبل جبل الرحمة، ويقف الإمام على الجبل ممتطياً ناقته متجها إلى القبلة في الجهة الغربية، ويظل يدعو الله، ويسأله الرحمة والغفران إلى غروب الشمس". (سفر نامه، ص١٥٩).

(٢٥٧) أحسن التقاسيم، ص٧٩.

على تخوم عرفة". كما أشار إلى وجود منبر في مسجد عرفة بُني من مادة الآجر، وكذلك حوض لحفظ الماء بالقرب من المسجد وصفه بالكبر، فقال[٢٥٨]: "وفي المصلى منبر من الآجر، وخلفه حوض كبير". ولم يصف لنا هذا المسجد وما يحتويه من مبانٍ ومنشآت. ويبدو من خلال إهمال المقدسي لهذا الجانب أن المسجد كان آنذاك قد تعرض للخراب وتهدمت مبانيه، بعد أن كانت قائمة في أواخر القرن الثالث الهجري[٢٥٩]. وهذا ما أكده بالفعل ناصر خسرو عندما ذكر خراب هذا المسجد خلال حجته التي أداها سنة ٤٤٢هـ[٢٦٠].

وأشار المقدسي وهو يتحدث عن عرفة إلى وجود أعلام وضعت لمعرفة حدودها، صبغت باللون الأبيض[٢٦١]. كما أكد أن عرفة خارج حدود الحرم عندما قال وهو يتحدث عن المسجد[٢٦٢]: "وقبله بميلين المأزمين[٢٦٣] هي حد الحرم". وبهذا فقد وضّح لنا المقدسي أيضاً أن عرفة تبعد عن حدود الحرم بميلين تقريباً.

---

(٢٥٨) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٥٩) قال عنه الحربي موضحاً ذلك: "وذرع طول مسجد عرفات من مقدمه إلى مؤخره مئة وثلاثة وستون ذراعاً، ومن جانبه الأيمن إلى جانبه الأيسر مئتان وثلاثة عشر ذراعاً، وله من الأبواب تسعة، منها في القبلة باب عليه طاق، وفي الجانب الأيمن أربعة وفي الأيسر أربعة. ومن مؤخر المسجد مكان مربع طوله في السماء سبعة أذرع، وسعة أعلاه سبع أذرع في ست أذرع، وربما أذّن عليه". المناسك، ص٥٠٩-٥١٠. كما أسهب الأزرقي في وصف مسجد عرفة وذكر طريقة بنائه وأبوابه وكل ما يتعلق به. انظر (أخبار مكة، ج٢، ص١٨٨-١٨٩). وقد أتينا بوصف الحربي هنا؛ لأنه الأقرب إلى عصر المقدسي.

(٢٦٠) سفر نامه، ص١٥٩.

(٢٦١) أحسن التقاسيم، ص٧٩.

(٢٦٢) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٦٣) قال ياقوت: الأزم الضيق، ومنه سمي هذا الموضع، وهو موضع بمكة بين المشعر الحرام وعرفة، وهو شعب بين جبلين يفضي آخره إلى بطن عُرَنة. (معجم البلدان، ج٥، ص٤٠).

حدود الحرم المكي

ذكر المقدسي أن الحرم المكي قد أُحيط بأعلام طليت باللون الأبيض توضح حدّ الحرم من الحل، فقال[٢٦٤]: "ويحدق بالحرم أعلام بيض". كما تناول بالحديث أبعاد أرض الحرم عن الكعبة، متخذاً - كغيره ممن اهتم بهذا الجانب آنذاك - من مداخل مكة معالم واتجاهات لتحديد هذه المسافات، فقال مبيّناً ذلك[٢٦٥]: "وهو من طريق الغرب التنعيم ثلاثة أميال، ومن طريق العراق تسعة أميال، ومن طريق اليمن سبعة أميال، ومن طريق الطائف أحد عشر ميلاً، ومن طريق الجادة عشرة أميال". ولم يبيّن لنا المقدسي ما إذا كان أخذ هذه القياسات - التي تتشابه إلى حدٍّ كبير مع بعض ما جاء في عدد من المصادر[٢٦٦] - بنفسه، أم أنه - وهذا ما أميل إليه - استقى معلوماته ممن سبقوه في هذا المجال، كعادته في تحديد المسافات والأطوال، لا سيما في الكعبة والمسجد الحرام - كما رأينا - والتي اعتمد فيها على ابن خرداذبة، مثلاً.

معلومات أخرى

أثَّرت قدسية المكان وملاءمة الزمان على المقدسي؛ فتناول في حديثه عن مكة جوانب تشريعية مختلفة تتعلق بالمناسك، وأخرى ذات صبغة دينية أيضاً ترتبط ببعض العبادات السائدة في مكة. وكان مما

---

(٢٦٤) أحسن التقاسيم، ص٧٩.

(٢٦٥) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٦٦) أشارت مجموعة من المصادر إلى حدود الحرم، وتفاوتت كثيراً في هذا الجانب، انظر على سبيل المثال: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص١٣١-١٣٢؛ ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص٢١-٢٢؛ ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص١٣٢؛ الاصطخري، مسالك الممالك، ص١٧-١٨؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص٣٧؛ البكري، المسالك والممالك، ج١، ص٤٠٣. وللاطلاع على المزيد من المعلومات عن حدود الحرم المكي وأعلامه وتاريخها وما قيل حولها، انظر: عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، الحرم المكي الشريف والأعلام المحيطة به: دراسة تاريخية ميدانية، مكة المكرمة، (د. ت).

تحدث عنه المقدسي تحديد مواقيت الحج للقادمين من الآفاق الإسلامية، فأورد حديثاً رُوي عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ حول مواقيت أهل الأمصار. كما بيّن في هذا الموضع حكم من جاوز المواقيت دون إحرام[٢٦٧].

من جانب آخر ذكر المقدسي أن أهل مكة يحرمون منها[٢٦٨]. كما أشار إلى موضعين خارج حدود الحرم يخرج إليهما الناس من مكة للإحرام، وهما الجعرانة والتنعيم، فأتحفنا ببعض المعلومات عنهما، حيث يقول عن الجعرانة[٢٦٩]: "الجعرانة: على مرحلة من مكة يخرج الناس إليها في الإحرام بالعمرة". كما بيّن أن التنعيم موضع على الطريق المؤدي إلى المدينة، وذكر أن فيه مجموعة من المساجد، بالإضافة للمسجد المعروف فيه، وهو مسجد عائشة، كما أكّد وجود بعض السقايات في هذا المكان، وأشار إلى كثرة إحرام المكيين منه للعمرة[٢٧٠].

وأثبت المقدسي معرفته التامة بأحكام المناسك حينما ألقى الضوء على فرائض الحج وواجباته وسننه، فقال مختصراً هذا الموضوع، ومبيناً معرفته التامة به واطلاعه على اختلافات العلماء في هذا الجانب[٢٧١]: "فهذه مشاهد المناسك وجميع ما يؤدى فيها ثلاث فرائض، وست واجبات، وخمس سنن. أما الفرائض: فالإحرام، والوقوف بعرفة، والطواف للزيارة. والواجبات: الإحرام من الوقت، والسعي بين الصفا والمروة، والإفاضة من عرفات بعد المغرب[٢٧٢].

---

(٢٦٧) أحسن التقاسيم، ص٨٠.

(٢٦٨) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٦٩) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٧٠) المصدر نفسه، ص٧٩.

(٢٧١) المصدر نفسه، ص٨٠.

(٢٧٢) اقتصر المقدسي - كما يلاحظ - على ذكر ثلاث فقط من الواجبات رغم أنه أشار في البداية إلى أن عددها ست.

والسنن: طواف القدوم، والرمل في ثلاثة أشواط منه، والعدو في السعي بين العلمين، والإفاضة من المزدلفة قبل الطلوع، والإقامة بمنى أيام منى. وقال بعضهم: السعي فرض، وقال بعض: طواف القدوم واجب، وطواف الصدر سنّة".

وقد أشار المقدسي إلى كيفية أداء المكيين لصلاة التراويح في المسجد الحرام، فقال(٢٧٣): "ويرتبون خمسة أئمة في التراويح يصلون ترويحة، ويطوفون أسبوعاً، والمؤذنون يكبرون ويهللون ثم يضرب الفرقاعيات(٢٧٤) كما تضرب عند الصلوات، فيتقدم الإمام الآخر، يصلون العشاء إذا مضى من الليل الثلث، ويفرغون إذا بقي الثلث، ثم ينادى بالسحور على أبي قبيس". والمقدسي بقوله هذا يؤكد لنا استمرار العمل بهذه الطريقة في مكة - والتي استحدثت خلال القرن الأول الهجري وبأمر من واليها آنذاك خالد بن عبدالله القسري(٢٧٥) - خلال

---

(٢٧٣) المصدر السابق، ص٩٥.

(٢٧٤) فُرقع الشيء: سُمع له دوي. والفرقعة: الصوت بين شيئين متضاربين. (مجموعة من العلماء، المعجم الوسيط. ط٢، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت)، ج٢، ص٦٨٦). وقال ابن جبير في تعريفها: "عود مخروط قد رُبط في رأسه مرس من الأديم المفتول طويل في طرفه عذبة صغيرة ينفضها بيده في الهواء نفضاً؛ فتأتي بصوت عالٍ يسمع من داخل الحرم وخارجه للإيذان بوصول الخطيب، ولا يزال في نفضها إلى أن يقرب من المنبر، ويسمونها الفرقعة". (الرحلة، ص٧٢-٧٣). وقد أنكر عبدالرحمن بن الجوزي ذلك عندما حج ورأى ذلك سنة ٥٥٣هـ، فقال: "ومن عجائب ما رأيت أنهم كانوا يمشون بين يدي الخطيب يوم الجمعة بمقارع تضرب على غفلة تزعج المكان والناس؛ فأنكرت هذا، فقيل: هذا شعارهم. فقلت: بئس الشعار؛ هذا مكان يجب احترامه عن رفع الأصوات، والأذان يكفي". (ابن فهد، إتحاف الورى، ج٢، ص٥٢٠).

(٢٧٥) يقول الأزرقي موضحاً ذلك: "فلما ولي خالد بن عبدالله القسري مكة لعبدالملك بن مروان، وحضر شهر رمضان، أمر خالد القراء أن يتقدموا فيصلوا خلف المقام، وأدار الصفوف حول الكعبة، وذلك أن الناس ضاق عليهم أعلى المسجد فأدارهم حول الكعبة فقيل له: تقطع الطواف لغير المكتوبة قال: فأنا آمرهم يطوفون بين كل ترويحتين سبعاً، فأمرهم ففصلوا بين كل ترويحتين بطواف سبع، فقيل له: فإنه يكون في مؤخر الكعبة وجوانبها من لا يعلم بانقضاء طواف الطائف من مصل وغيره، فيتهيئ للصلاة، فأمر عبيد الكعبة أن يكبروا حول الكعبة يقولون: الحمد لله =

النصف الثاني من القرن الرابع الهجري. كما وضح المقدسي من خلال حديثه المذكور آنفا عدد الأئمة الذين يؤدون صلاة التراويح في المسجد الحرام آنذاك، وكيف يقضي الناس عبادتهم في ليالي رمضان، وطريقة التنبيه لقدوم الإمام وإقامة الصلوات، فضلاً عن النداء للسحور.

من جانب آخر أشاد المقدسي بقضاء شهر رمضان في مكة، وعدّ ذلك من الأشياء المستحسنة، فقال[٢٧٦]: "واعلم أن خمساً في خمسة مواضع من الإسلام حسن: رمضان في مكة...".

وفي حديثه عن منى أورد المقدسي الخلافات بين بعض العلماء في مسألة جواز إقامة الجمعة فيها من عدمه، وهل هي ومكة مصر واحد أم لا؟ وقد زودنا خلال تناول هذه القضية ببعض آراء العلماء في هذا الموضوع، مع ذكر شيء من أدلتهم واحتجاجاتهم[٢٧٧].

وعندما تكلم عن وادي عُرنة - الواقع على تخوم عرفة - ذكر حكماً فقهياً، بيّن من خلاله أنه لا يجوز الوقوف بهذا الوادي، ومن خرج إليه قبل غياب الشمس وجب عليه دم[٢٧٨].

وبيّن المقدسي أن ترديد الصوت في الحلق، وتكراره كانت طريقة الأذان المتبعة بمكة، فقال[٢٧٩]: "والأذان بتهامة ومكة يرجَّع"[٢٨٠].

= والله أكبر، فإذا بلغوا الركن الأسود في الطواف السادس سكتوا بين التكبيرتين سكتة حتى يتهيئ الناس ممن في الحجر ومن في جوانب المسجد من مصل وغيره؛ فيعرفون ذلك بانقطاع التكبير، ويصلي، ويخفف المصلي صلاته، ثم يعودون إلى التكبير حتى يفرغوا من السبع، ويقوم مسمع فينادي: الصلاة رحمكم الله". (أخبار مكة، ج٢، ص٦٦-٦٧).

(٢٧٦) أحسن التقاسيم، ص١٥٧.

(٢٧٧) المصدر نفسه، ص٧٨.

(٢٧٨) المصدر نفسه، ص٧٩.

(٢٧٩) المصدر نفسه، ص٩١.

(٢٨٠) قال ابن منظور: رجَّع الرجل وترجَّع: ردد صوته في قراءة، أو أذان، أو غناء، أو زمر أو غير ذلك مما يترنم به. والترجيع في الأذان: أن يكرر قوله: أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله. وترجيع الصوت: ترديده في الحلق كقراءة أصحاب الألحان. والترجيع ترديد القراءة، ومنه ترجيع الأذان. (لسان العرب، ج٣، ص١٥٩١).

الجدير بالذكر أن المقدسي أشار إلى بعض الأماكن في مكة وأسماها بالمشاهد[٢٨١]، ويبدو أنه يقصد بذلك المواطن التي ذكرت المصادر استحباب الصلاة والدعاء فيها.

وقد اكتفى المقدسي في هذا الجانب بذكر عدد محدود مما أشارت إليه المصادر، وفي الوقت نفسه أضاف مواقع أخرى لا نجدها في المصنفات المتاحة التي تحدثت عن ذلك، فقال[٢٨٢]: "المشاهد بمكة مولد النبي ﷺ في المحامليين، ودار الأربعين[٢٨٣] بالبزّازين، ودار خديجة خلف العطارين، وغار ثور على فرسخ أسفل مكة، وحِراء من نحو منى، وغار آخر خلف أبي قبيس".

كما ذكر المقدسي أماكن قبور بعض من دفن في مكة، فقال[٢٨٤]: "وبالحرم قبر ميمونة[٢٨٥] على طريق جدة، وفي الثنية[٢٨٦] قبر

---

(٢٨١) قال ابن منظور، المشهد: المجمع من الناس، والمشهد محضر الناس. ومشاهد مكة: المواطن التي يجتمعون بها. (لسان العرب، ج٤، ص٢٣٤٩-٢٣٥٠).

(٢٨٢) أحسن التقاسيم، ص٩٦. وعن الأماكن التي تستحب فيها الصلاة والدعاء في مكة، انظر: الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص١٩٩-٢٠٤؛ ابن جبير، الرحلة، ص٩١-٩٣؛ ابن الجوزي، مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن، تحقيق: مرزوق علي إبراهيم، ط١، الرياض: دار الراية ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ج٢، ص٨٣-٨٦؛ محب الدين الطبري، القرى لقاصد أم القرى. تحقيق، مصطفى السقا. ط٣، القاهرة: دار الفكر ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص٦٦٤-٦٦٥.

(٢٨٣) ويقصد بذلك - كما يتضح - دار الأرقم بن أبي الأرقم. وكان المصطفى ﷺ يجتمع فيها في بداية الدعوة بأصحابه رضوان الله عليهم، ولم يخرجوا منها لإظهار الدعوة حتى وصل عددهم إلى أربعين رجلاً. (ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة. بيروت: دار الفكر، (د.ت)، ج١، ص٧٤). ولم أجد هذا الاسم لها عند الأزرقي أو الفاكهي أو في الكتب الأخرى التي ذكرت الأماكن التي يستحب فيها الدعاء بمكة.

(٢٨٤) أحسن التقاسيم، ص٩٦.

(٢٨٥) هي ميمونة بنت الحارث الهلالية رضي الله عنها، زوج النبي ﷺ. توفيت بسرف سنة ثلاث وستين، وقيل: ست وستين للهجرة، وقيل غير ذلك. (الفاسي، العقد الثمين، ج٨، ص٣١٩-٣٢٠).

(٢٨٦) يقصد ثنية كداء، وفيها مقبرة المعلاة.

الفضيل[٢٨٧] وسفيان بن عيينة[٢٨٨] ووهيب بن الورد"[٢٨٩].

الجدير بالذكر أن المقدسي قد ختم كلامه عن إقليم الجزيرة العربية بالطرق ومسافاتها. سواء كانت الطرق الداخلية في هذا الإقليم، أو ما تربطه بالعالم الخارجي. وفي خضم ذلك تحدث عن الطرق التي تربط مكة بالمدن والقرى التابعة لها، كما تكلم أيضاً عمّا يصل إليها من طرق خارج حدودها الإدارية، ودعم ذلك بالمسافات بين كل موقع وآخر[٢٩٠].

---

(٢٨٧) هو الفضيل بن عياض، أحد الأئمة الزهاد، والعلماء المبرزين، ولد بسَمَرْقَند، ونشأ بأَبِيوَرْد ثم الكوفة، ورحل في طلب العلم، فروى عن عدد من العلماء المبرزين، ثم استقر في مكة مجاوراً حتى مات. ويُعد من المحدثين الثقات، والفقهاء المجتهدين. توفي سنة ١٨٧هـ/ ٨٠٢م. (ابن حبان: الثقات، ط١، الهند، حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانية ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م ج٧، ص٣١٥؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٨، ص٤٢١-٤٤٢).

(٢٨٨) هو سفيان بن عيينة الهلالي، أحد الأئمة الحفاظ المبرزين، وشيخ الإسلام في عصره، ولد بالكوفة سنة ١٠٧هـ/ ٧٢٥م، ثم انتقل إلى مكة، فاستقر فيها. وتتلمذ في مكة على الزهري وعمرو بن دينار وغيرهما، كما رحل في طلب العلم إلى بعض الأمصار. وقد عني بتتبع العلوم الشرعية دراسة وتصنيفاً، وهو ثقة في روايته، وشُهر أيضاً بالزهد والورع والتقوى، توفي بمكة سنة ١٩٨هـ/ ٨١٣م. (ابن سعد: الطبقات الكبرى. بيروت: دار صادر، (د. ت)، ج٥، ص٤٩٧-٤٩٨؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٨، ص٤٥٤ - ٤٧٥).

(٢٨٩) من عباد المكيين وزهادهم. أدرك جماعة من التابعين، وروى عن عطاء بن أبي رباح وأبان بن أبي عياش وغيرهما. توفي سنة ١٥٣هـ/ ٧٧٠م. (الفاسي، العقد الثمين، ج٧، ص٤١٧-٤٢٢).

(٢٩٠) أحسن التقاسيم، ص٩٩-١٠٢.

الخاتمة

إن التعايش مع المقدسي في رحلته إلى مكة قد كشف لنا الكثير من الحقائق وأفضى بنا إلى عدد من النتائج، سواء من حيث أصالة معلومات الكتاب وقيمتها العلمية والتاريخية، أو من حيث منهجه ومصادر معلوماته، ومن أبرز ما توصلنا إليه الآتي:

- الاهتداء إلى مكانة المقدسي وعلو كعبه بين الجغرافيين والرحالة، وقيمة كتاب أحسن التقاسيم العلمية وأهميته بين مصنفاتهم.
- أن كتابات المقدسي بما حفلت به من المعلومات قد يسرت الوصول للكثير من الحقائق التاريخية، والاطلاع على العديد من الجوانب الحضارية، التي أتاحت تغطية مساحات من التاريخ المكي الذي غفل عنه المؤرخون، ولا سيما في القرن الرابع الهجري.
- بيّن المقدسي من خلال كتاباته - وبطريقة غير مباشرة - المكانة السياسية التي بلغتها مكة خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، وتوسع سلطتها الإدارية، فضلاً عن التطور الحضاري الذي شهدته أوجه النشاط المختلفة فيها آنذاك.
- أوضح المقدسي مدى التصاق أهل مكة وحكامها وارتباطهم سياسياً وحضارياً في مصر وحكومتها آنذاك. وبيّن أن الجانب الاقتصادي كان الدافع الأول، والمحرك الأساس لهذا الارتباط الوشيج.
- أفاد المقدسي عبر إشارات وإيماءات مختصرة بوجود نفوذ محدود في مكة للدولة الزيادية الحاكمة في اليمن آنذاك، وكذلك ملك غرجستان المعروف بالشار.
- كما أطلعنا المقدسي أيضاً على الكثير من المعلومات التي انفرد بها عن غيره، ومنها على سبيل المثال: وجود كسوة على مقام إبراهيم، ومخالفة رسم موطئ القدمين فيه، ونقش العمال الذين عملوا في توسعة الخليفة المنصور أسماءهم في جنبات المسجد، وتأجير

المكيين الدور للحجاج والمعتمرين. إضافة لبعض المعلومات عن منى، مثل: تقسيمها أيام الحج بين أهل الأمصار، ووجود حراس يقيمون فيها أيام السنة لحفظها، ووجود شوارع وبنايات وحوانيت فيها. وكذلك وجود مساكن في عرفة، وغير ذلك من المعلومات الجديدة التي يجدها المتصفح لهذه الدراسة.

- أوقفنا المقدسي على التحرك التجاري في مكة، وأوجه هذا النشاط ومجالاته، إضافة لمدى تفاعل المكيين معه.
- أتحفنا بمعرفة عدد من العملات والنقود المتداولة في مكة، فضلاً عن المكاييل والموازين المستعملة في التعاملات التجارية فيها.
- زودنا المقدسي بالكثير من المعلومات الحضارية؛ سواء منها ما يتعلق بالنواحي العمرانية في الكعبة والمسجد الحرام، أو في مكة والمشاعر المقدسة. وكذلك ما يرتبط بالحياة الاجتماعية، مثل: معيشة السكان أو بعض العادات والتقاليد أو الأمراض وغيرها. إضافة لفوائد متنوعة عن الحياة الفكرية والعلمية.
- لم يتطرق المقدسي لأي معلومات سياسية، سواء ما يتعلق بالأشراف - الذين لم يشر لهم إطلاقاً - أو العبيديين أو غيرهم. ومع ذلك فقد استطعنا استنتاج بعض الأمور السياسية من خلال طرقه لبعض الموضوعات الحضارية.
- اتضح اعتماد المقدسي في ما ذكر من قياسات في الكعبة أو المسجد الحرام أو غيرهما كلياً على كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة، فنقل ما فيه بحذافيره دون تمحيص أو تأكد رغم أنه قدم إلى مكة أكثر من مرة، كما جاور فيها أيضاً كما أشرنا.
- لم يسهب المقدسي في وصف الكثير من المواقع في مكة، ولا سيما في الكعبة والمسجد الحرام كما فعل غيره ممن سبقه أو أتى بعده من المؤرخين والجغرافيين، والرحالة توسعوا في الحديث عن

وصف الكعبة والمسجد الحرام والمشاعر المقدسة، وربما كان سبب ذلك الالتزام بالمنهج الذي رسمه من حيث عدم تكرار ما ذكر غيره. ورغم ذلك فقد جاءت معلومات المقدسي رغم اختصارها مملوءة بالفوائد.

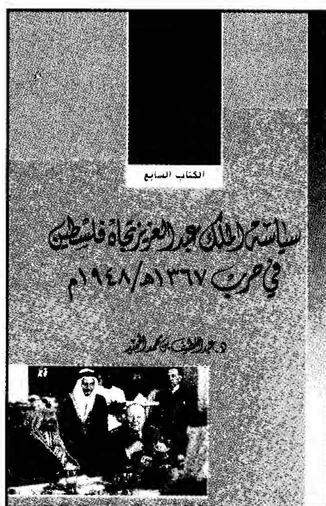
- أن المقدسي لم يستفد في بعض الجوانب التي طرقها من كتابات المؤرخين المكيين الذين سبقوه كالأزرقي والفاكهي، رغم أهميتها في بعض الجوانب.

سياسة الملك عبدالعزيز تجاه فلسطين في حرب ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م

تأليف

د. عبداللطيف بن محمد الحميد

٩٦ صفحة



يسجل هذا الكتاب دراسة وثائقية لسياسة الملك عبدالعزيز تجاه فلسطين في حرب عام ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م، استناداً إلى عدد من المصادر السعودية والبريطانية والأمريكية. ويعرض بشيء من التفصيل الوضع في فلسطين في مرحلة ما قبل الحرب، كما يتناول الموقف السعودي تجاه فلسطين منذ بداية القضية الذي تنوع بين العمل السياسي الدؤوب، والعطاء الإغاثي الواسع، إلى جانب المشاركة مع الأشقاء العرب في الحرب، حيث يقوم بتحليل الموقف العربي عشية الحرب، وقرار اشتراك المملكة العربية السعودية فيها.





ص.ب ٢٩٤٥ - الرياض ١١٤٦١ - المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٠١١٩٩٩/٢١٦٤ - فاكس ٤٠١٣٥٩٧
بريد الكتروني info@darah.org.sa

شاهد قبر من أول القرن السابع الهجري لإمام المقام الشافعي بالمسجد الحرام (٥٩٨ - ٦٠٤هـ)

دراسة تاريخية حضارية

د. محمد بن هزاع الشهري

قسم التاريخ والحضارة الإسلامية - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة أم القرى

تعد شواهد القبور إحدى مصادر التاريخ المهمة، فهي بالإضافة إلى ما تحويه من معلومات تاريخية عن حياة الأفراد ومكانتهم العلمية والاجتماعية تعد شاهداً موثوقاً بدلالاته على مستوى الحياة الاقتصادية والعلمية للفترة التي كتب فيها الشاهد، من خلال نوعية الخط وجماله وحسن تنظيم عباراته، فضلاً عن دلالتها وفصاحتها وقوة تأثيرها في القارئ الذي يتطوع بعد قراءته لمحتواها بالدعاء إلى الله - عز وجل - أن يمن بفضله وكرمه بالرحمة والغفران للمتوفى.

ومن الشواهد المكية ما كتب عليه طلب الترحم والدعاء لصاحبه[(١)]، وتكشف هذه المعلومات بعض عادات المجتمعات في دفن الموتى وتقديم العزاء، ولا سيما المجتمعات الإسلامية التي يحث فيها الدين الإسلامي على تكريم الموتى والسير في جنائزهم والدعاء لهم.

---

(١) وكالة الآثار والمتاحف، أحجار المعلاة الشاهدية بمكة المكرمة، الرياض: وكالة الآثار والمتاحف، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص ١٤٢، ٤٣٠، ٥٦٨. والشاهد رقم (١١٢، ٣٩٣، ٥٢١). الزهراني، عبدالرحمن بن علي، كتابات إسلامية من مكة المكرمة، الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص١١٢، ٣٥٥.

وكثيراً ما يعمد بعض المحترفين لنقش شواهد القبور في مكة المكرمة إلى نقش أسمائهم في آخر الشاهد[٢] كنوع من الدعاية لمهارتهم الخطية والبيانية، بالإضافة إلى نوعية المادة المدونة عليها العبارات التأبينية وكبر حجمها أو صغره، مما يغري بالإقبال على مهنتهم عند الحاجة إلى مثل هذا العمل الذي اعتاد عليه الناس في العالم الإسلامي من القرن الأول الهجري وحتى منتصف القرن الرابع عشر الهجري[٣].

وتبرز هذه الظاهرة إذا كان المدفن مشهوراً كمقبرة المعلاة التي تتوسط مكة المكرمة، التي شهدت منذ فجر الإسلام تدفق المئات بل الآلاف كل يوم في أفواج تتسابق لحمل الموتى من السكان أو الحجاج الوافدين من مختلف الأقطار، أو المشي في جنائزهم عقب كل فريضة من المسجد الحرام إلى المقبرة التي تبعد عن المسجد الحرام بأكثر من الميل الواحد؛ طلباً للمثوبة التي وُعِدَ بها المشاركون من المسلمين في المواكب الجنائزية[٤] في كل زمان ومكان.

وقد ضمت مقبرة المعلاة - التي كان هذا الشاهد محلّ الدراسة قائماً فيها في حدود سنة ٨٣٢هـ - كثيراً من الشواهد التي تعود إلى قرون مختلفة. وقد استطاع الفاسي أن يستمد منها جزءاً من المعلومات التي قدمها عن سير أعلام عاشوا في مكة المكرمة وماتوا ودفنوا فيها، في كتابه المشهور "العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين"، ومنها على سبيل المثال شاهد مؤرخ في ٥٤٧هـ، وثانٍ في سنة ٥٧١هـ،

---

(٢) الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد (ت٨٣٢هـ)، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، القاهرة، مطبعة السنة المحمدية، ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م، ج١، ص ٤٢٣، ٤٣٤، ج٣، ص٢٤٠.

(٣) الفاسي، المصدر نفسه، ج١، ص٤٢٣، ج٣، ص ٣١، ٢٤٠، ج٥، ص ٢٣١، ٤٠٠.

(٤) ابن حنبل، أبو عبدالله الإمام أحمد (ت٢٤١هـ)، مسند الإمام أحمد، الرياض، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م. مسند أبي سعيد الخدري، الحديث ١١٢٣٦، ص٧٩٤. البخاري، محمد بن إسماعيل (ت٢٥٠هـ). صحيح البخاري، الرياض، دار السلام للنشر والتوزيع ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، كتاب الجنائز، باب من انتظر حتى تدفن، الحديث رقم ١٣٢٥، ص٢٦٠.

وثالث في سنة ٦١٢هـ، ورابع في سنة ٦٢٤هـ، وخامس في سنة ٦٤٤هـ، وسادس في سنة ٧٤٩هـ[٥].

كما ذكر أسماء بعض المحترفين لنقش الشواهد من المكيين، فعد منهم عبدالرحمن بن أبي حرمي المتوفى سنة ٦٤٥هـ، وابن أخيه بركات بن أبي حرمي، وعبدالسلام المؤذن[٦]. وكنت أتمنى لو ذكر الفاسي نوع الخط في كل شاهد أو جمع نصوص الشواهد التي أدركها في مقبرة المعلاة، ولعل في الكتاب الذي نسبه إلى جمال الدين الشيبي وسماه "الشرف الأعلا في ذكر قبور مقبرة المعلا"[٧] شيئًا مما أهمله الفاسي رغم حسِّه الأثري، ودقته العلمية التي انفرد بها عن مؤرخي مكة المكرمة. بيد أن هذا لا يعدو أن يكون سجلاً لبعض الأسماء والأنساب ونصوص من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، هذا فضلاً عن تواريخ الوفاة. وتحتاج دراستها إن أمكن العثور عليها مجتمعة إلى معرفة نوع الخط الذي كتبت به، وطريقة الحفر الذي نفذ بها، فضلاً عن الإبداع الفني الذي يتميز به الخطاطون عن بعضهم وإن كانوا في زمن وبلد واحد. وسوف تعين صور الشواهد التي صدرت عن وكالة الآثار والمتاحف بوزارة التربية والتعليم في المجلد القيم الذي يحمل عنوان: "أحجار المعلاة الشاهدية بمكة المكرمة" على تدعيم ما ذكره المؤرخون أو استكمال ما أغفلوه من تراجم بعض من دفن في مقبرة المعلاة وأوصافهم.

وقد تعكس هذه الدراسة بعض أوضاع الحجاز التي شهدت - بعد انتقال الخلافة الإسلامية إلى دمشق ثم إلى بغداد ثم إلى القاهرة، ومنها إلى إسطنبول - تقلبات سياسية سريعة أثرت بطبيعة الحال

(٥) الفاسي، المصدر السابق، ج١، ص٤٢٣، ج٤، ص٨٢، ج٥، ص٢٣١، ٢٧٥، ٤٠٠، ج٦، ص١٨٢، ج٧، ص٢٨٦.

(٦) المصدر نفسه، ج١، ص٤٢٣، ج٣، ص٢٤٠، ج٥، ص ٢٣١، ٤٠٠.

(٧) نفسه، ج٨، ص٢٠٧.

في الأوضاع الأمنية والاقتصادية والثقافية. وهو ما أكدته كتب الرحلات التي وصفت بدقة الأوضاع المضطربة للبلاد المقدسة، فضلاً عما سجله المؤرخون عن الوقائع والأحداث التي عاصروها أو سمعوا بها.

وتعد الدراسة المميزة التي قام بها الدكتور عبدالرحمن بن علي الزهراني عن مئة شاهد من الشواهد المكية باكورة الدراسات التي يرجى القيام بمثلها في هذا المجال.

الحجاز بين التبعية للعباسيين والتقرب من الفاطميين في القرنين الرابع والخامس الهجريين

إذا كان فيما تحتويه شواهد القبور دلالة على مستوى الحياة الفكرية في البلد الذي نقشت فيه تلك الشواهد حتى عُدّ بعضها لجودة خطه وحسن تنظيمه وشمول عباراته التأبينية تحفاً فنية تقتنيها المتاحف الكبرى، وتعرضها دور العرض العالمية(٨).

فمما لا شك فيه أن هذا الشاهد الذي تركز عليه هذه الدراسة دليل قوي على ذلك الرأي الوجيه، فهو مؤرخ في سنة ٦٠٤هـ، ونقش في منطقة الحجاز من شبه الجزيرة العربية، وزاد من أهميته أنه من مكة المكرمة - شرفها الله تعالى - التي شهدت تذبذباً في ولائها السياسي طيلة القرنين الرابع والخامس الهجريين، إذ إن الدولة الفاطمية نازعت بقوة الخلافة العباسية السلطة على الحرمين الشريفين، خاصة بعد وصولها إلى مصر في سنة ٣٥٨هـ بوقت قصير(٩). وعد ذلك من أولويات السياسة الخارجية للدولة الفاطمية بقصد تدعيم

هذا الشاهد دليل قوي على ذلك الرأي الوجيه فهو مؤرخ في سنة ٦٠٤هـ

(٨) جمعة، إبراهيم، تطور الكتابات الكوفية على الأحجار في مصر في القرون الخمسة الأولى، دار الفكر العربي، ص٨٩. غالب، عبدالرحيم، موسوعة العمارة الإسلامية، بيروت، جروس برس، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص٢٤٤.

(٩) السباعي، أحمد، تأريخ مكة المكرمة، ط٦، مكة المكرمة، نادي مكة الثقافي، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص ١٩١، ١٩٣.

مكانتها في العالم الإسلامي[١٠]، ونجح حكامها أحياناً ببذل الأموال الطائلة[١١] في استمالة بعض حكام الحجاز المستقلين؛ فالتزموا في الشهر الواحد لشكر بن أبي الفتوح بمبلغ ثلاثة آلاف دينار، مع خِلع وخيول تصل بها السفن من مصر مرتين في السنة بدءاً من سنة ٤٢٠هـ[١٢].

وكان لذلك آثار سيئة على الحياة العلمية والاقتصادية في الحجاز التي كان الاستيلاء عليها شرطاً من شروط الخلافة لكلا المتنافسين[١٣]، وقد وصل الأمر بهذه البلاد إلى مستوى متدنٍ طيلة القرون الرابع والخامس والسادس الهجرية إثر تفرق أعلامٍ مكة المكرمة في البلدان الإسلامية نتيجة الصراع السياسي والضعف الاقتصادي، ولم يلمع في مكة طيلة هذا الوقت إلا بعض أفراد كانت بيوتهم تتخصص في طلب العلم، وتتوارثه كما تتوارث وظائف الخطابة والإمامة في المسجد الحرام[١٤].

ولا أدل على سوء الحالة الاقتصادية في هذا العصر - الذي ندرس فيه إحدى الوثائق المهمة - من لجوء أمير مكة آنذاك مكثر بن عيسى (٥٧١ - ٥٩٧هـ) إلى إعادة فرض الرسوم على الحجاج من أهل مصر والمغرب، بواقع سبعة دنانير ونصف الدينار المصري[١٥]

---

(١٠) ماجد، عبدالمنعم، ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر، ط٢، الإسكندرية، دار المعارف، ١٩٧٦، ص١٦١، ٢١٩. سرور، محمد جمال الدين، سياسة الفاطميين الخارجية، دار الفكر العربي، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ص٣.

(١١) المناوي، محمد حمدي، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٠م، ص٢١١. ماجد، المرجع السابق، ص٢٢١، ٢٢٥. سرور، المرجع السابق، ص٢٤ - ٣١.

(١٢) ماجد، المرجع السابق، ص٢٢٥.

(١٣) السباعي، المرجع السابق، ص١٩٤.

(١٤) نفسه، ص٢١٧.

(١٥) الدينار: عملة ذهبية عرفها العرب في البلاد المفتوحة، وتعاملوا بها حتى عُربت الدواوين، وضربت العملة في الدولة الأموية، وظل معمولاً بها في الدولة العباسية والدويلات المتفرعة عنها، ومنها الدولة الأيوبية التي قام صلاح الدين الأيوبي بسك النقود الذهبية والفضية والنحاسية. انظر: فهمي، عبدالرحمن، النقود العربية ماضيها وحاضرها، القاهرة، المكتبة الثقافية، ١٩٦٤م، ص٨، ٦٩.

على كل شخص[١٦]، تستوفى من الحجاج في عيذاب أو جدة، ومن عجز عن الدفع منع من الحج[١٧]، الأمر الذي ألجأ السلطان العادل صلاح الدين الأيوبي (٥٦٤ - ٥٨٩هـ) إلى تعويض شريف مكة عن تلك الرسوم التي تأصلت عند حكام مكة من الأشراف طيلة حكم الدولة الفاطمية[١٨] بثمانية آلاف أردب قمح[١٩] في سنة ٥٧٢هـ[٢٠]، وقيل: بألفي دينار وألف أردب قمح[٢١] تساق له سنوياً من مصر.

أما غيرهم من حجاج المشرق فإن الجباية لتلك المكوس كانت تتم حول مكة المكرمة، حيث ذكر الفاسي في معلومة أثرية جيدة أنه أدرك آثاراً بوادي نخلة الشامية فيما بين التنضب وبشرا[٢٢]، بناء على هيئة الدروب في مسيل الوادي، كان يمكس عنده الحجاج من أهل العراق[٢٣]، وكان ذلك في ولاية قتادة بن إدريس لمكة المكرمة ما بين سنتي ٥٩٧ - ٦١٧هـ.

(١٦) الفاسي، المصدر السابق، ج٧، ص٢٧٨. السباعي، المرجع السابق، ص٢٢٤.

(١٧) ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد (ت٦١٤هـ)، رحلة ابن جبير ٥٧٨ - ٥٨١هـ، ط٢، بيروت، دار ومكتبة الهلال، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ص٢٨. الفاسي، المصدر السابق، ج٧، ص٢٧٨.

(١٨) ابن جبير، المصدر السابق، ص٢٨.

(١٩) الأردب: مكيال ضخم يسع ٢٤ صاعاً، ويوافق ١٥٠ كجم من القمح أو ١٣٠ كجم من الشعير أو ١٤٠ كجم من الذرة، أو ١٥٥ كجم من الفول، أو ١٥٧ كجم من العدس. انظر: فهمي، سامح عبدالرحمن، المكاييل في صدر الإسلام، مكة المكرمة، المكتبة الفيصلية، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص٤١.

(٢٠) الفاسي، المصدر السابق، ج٧، ص٢٧٨. الفاسي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج٢، ص٣٦٨.

(٢١) الكردي، محمد طاهر، كتاب التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ٥ أجزاء، مكة المكرمة، مكتبة النهضة الحديثة ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م، ج٢، ص١٧٩.

(٢٢) قال عاتق بن غيث البلادي: إن نخلة الشامية من ميول جبال الهدأة بالطائف إلى وادي المحرم، ومنه إلى السيل الكبير. انظر: معالم مكة التاريخية والأثرية، ط٢، مكة المكرمة، دار مكة للنشر والتوزيع، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص٢٩٩.

(٢٣) الفاسي، العقد، ج٧، ص٦١.

وقد لمس ابن جبير في سنة ٥٨٠هـ إعجاب الحجاج ودعاءهم بالخير لصلاح الدين الذي أزاح عنهم ثقلاً مادياً كان يحول دون أداء فريضة الحج لكثير من المسلمين(٢٤)، وذلك عند الدعاء لصلاح الدين ولولي عهده من على منبر المسجد الحرام سنة ٥٨٠هـ بعد الدعاء للخليفة العباسي أحمد الناصر لدين الله بن المستضيء بالله (٥٧٥ - ٦٢٢هـ)، وشريف مكة المكرمة مكثر بن عيسى(٢٥). وقد أعيدت بعض مظاهر هذه المكوس في أواخر العصر الأيوبي(٢٦)، ثم ظهرت مرات عدة في العصر المملوكي (٦٤٨ - ٩٢٣هـ)، كما في السنوات ٧٥٧هـ، ٧٦٦هـ، ٧٦٩هـ، ٧٧٢هـ، ٨٠٤هـ، ٨٢٨هـ، ٨٣٠هـ، ٨٣٤هـ، ٨٤٠هـ، ٨٤٣هـ، وأخيراً في سنة ٨٨١هـ(٢٧).

وقيل: إن الأساس في هذا كله سماح الدولة الفاطمية لأتباعها من أشراف مكة بالتمادي في هذه المظالم(٢٨) على غرار ما كانت تفعله برعاياها في المغرب(٢٩)، وقد أجمع المسلمون على حُرمتها فضلاً عن شناعتها، وهم لا شك شركاء في وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة؛ لأنها مما يدخل في معنى الحديث الذي رواه الإمام مسلم وغيره عن النبي ﷺ الذي قال: "من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء"(٣٠).

---

(٢٤) ابن جبير، المصدر السابق، ص٦٦.

(٢٥) ابن جبير، المصدر السابق، ص٦٦.

(٢٦) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص ٣١٤، ٣٧٩.

(٢٧) الفاسي، العقد، ج٧، ص ٢٧٧، ٢٧٨. السباعي، المرجع السابق، ص١٨٠. الكردي، المرجع السابق، ج٢، ص ١٧٩ - ١٨٣.

(٢٨) ابن جبير، المصدر السابق، ص٢٨. السباعي، المرجع السابق، ص٢٠٧.

(٢٩) سالم، عبدالعزيز، المغرب الكبير في العصر الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م، ص٦٠٥.

(٣٠) النيسابوري، مسلم بن الحجاج القشيري (ت٢٦١هـ)، صحيح مسلم، الرياض، مكتبة الرشد ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، كتاب الزكاة، الحديث رقم ٦٩، ص٢٤١.

ولأهمية الوظيفة التي كان يقوم بها صاحب هذا الشاهد في المسجد الحرام في آخر العصر العباسي الثالث (٤٤٧ - ٦٥٦هـ)، وهي الصلاة بأتباع المذهب الشافعي عند مقام سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام ما بين سنتي ٥٩٨ - ٦٠٤هـ. فإن الأمر يستوجب أولاً التعرف على الشروط الواجب توافرها في الإمام من وجهة نظر الشرع الشريف، وهي: الإسلام، والعقل، والبلوغ، والذكورة، وحسن التلاوة، وخلوه من الأمراض التي تنقض الطهارة في الصلاة، وسلامته من العيوب النطقية، وقدرته على أداء حركات الصلاة بسهولة ويسر، هذا فضلاً عن سلامته من البدع والفسوق[٣١].

كما أن الأمر يستوجب منا التعرف على تاريخ حدوث هذه الوظيفة (إمام المقام) مع الإلمام بتاريخ ظهور المقامات المتعددة في الحرمين الشريفين وعلاقة ذلك بالصراع السياسي الذي عرفته بلاد الحجاز بعد انتهاء القرون المفضلة من التاريخ السياسي للدول الإسلامية.

وليس في تاريخ الأزرقي المتوفى سنة ٢٥٠هـ تقريباً، ولا أخبار مكة للفاكهي المتوفى بعد سنة ٢٧٢هـ أدنى إشارة إلى هذه المقامات، مع أنهما من أول كتب البلدانيات وأشهرها، وأخبارهما محصورة في ذكر ما يتعلق بمكة شرفها الله تعالى. وفي ذلك ما يدل على أن أرض الحرمين بقيت نقية من هذه البدع حتى منتصف القرن الرابع الهجري، حين بدأ الفاطميون وهم في المغرب يساندون كبير الأشراف الحسينيين جعفر بن محمد بن حسين الذي استقل بحكم مكة المكرمة سنة ٣٥٨هـ[٣٢]. وليس من قبيل المصادفة أن يضاف في عهده إلى سنة الأذان في المسجد الحرام عبارة "حي على خير العمل"[٣٣]، وهو

(٣١) الجزيري، عبدالرحمن، كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، ٥ أجزاء، ط٢، القاهرة، المكتبة التجارية، ج١، ص٤١٣.

(٣٢) السباعي، المرجع السابق، ص١٩١. سرور، المرجع السابق، ص٢٤.

(٣٣) السباعي، المرجع السابق، ص١٩٣.

النداء المعمول به في الأذان عند الفاطميين[٣٤]، وأغلب فرق الشيعة وخاصة الزيدية[٣٥]. فقد افتتح جوهر الصقلي عهد الفاطميين في مصر بإلزام المؤذنين في جامع عمرو بن العاص وجامع ابن طولون بإضافة هذه العبارة إلى الأذان[٣٦] فور وصوله إليها سنة ٣٥٨هـ.

وقد تجرأ هذا الثائر، فأبطل ذكر اسم الخليفة العباسي من الخطبة في مكة المكرمة، ودعا للفاطميين في تلك السنة[٣٧]. بيد أن القرامطة أعادوا الخطبة للعباسيين في سنة ٣٥٩هـ[٣٨] في عهد الخليفة المطيع (٣٣٤ - ٣٦٣هـ)، في وقت اقتصر فيه النفوذ الفاطمي على المدينة المنورة[٣٩]، بينما دامت الخطبة للعباسيين في مكة إلى سنة ٣٦٣هـ[٤٠].

وبهذا يتقوى الرأي الذي قال به حسين عبدالله باسلامة من أن المقامات أحدثت في المسجد الحرام في القرنين الرابع والخامس الهجريين، واستدل لذلك بعدم ذكر ابن عبدربه لها عند وصفه الدقيق للمسجد الحرام في حدود سنة ٣٢٨هـ، بينما ذكرها ابن جبير في رحلته التي حج فيها سنة ٥٧٨هـ[٤١]، وأيده في ذلك مؤرخ مكة في

---

(٣٤) نفسه، ص ١٩٣، ٢٠٦.

(٣٥) الشوكاني، محمد بن علي (ت١٢٥٠هـ)، السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، ٣ أجزاء، تحقيق: قاسم غالب أحمد وآخرون، ط٢، القاهرة، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م، ج١، ص٢١٦.

(٣٦) القضاعي، محمد بن سلامة بن جعفر الشافعي (ت ٤٥٤هـ)، تاريخ القضاعي، تحقيق: جميل عبدالله المصري، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، مركز البحوث وإحياء التراث الإسلامي، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ص٥٦٥.

(٣٧) السباعي، المرجع السابق، ص١٩٣.

(٣٨) نفسه، ص١٩٤.

(٣٩) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٣٥١.

(٤٠) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٥٢.

(٤١) باسلامة، حسين عبدالله، تاريخ عمارة المسجد الحرام، ط٢، القاهرة، دار مصر للطباعة والنشر، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م، ص٢٥٣.

العصر الحديث أحمد السباعي الذي قال: إنها ضمن بدع كثيرة أحدثت في هذا العصر[٤٢]. وقد أرجع الزركشي حدوث المذاهب في المسجد الحرام إلى رفض الناس الصلاة خلف الإمام المبتدع، مما دعا حكام مكة المكرمة إلى السماح للناس باتخاذ الأئمة لأنفسهم[٤٣].

ولدينا من الأدلة الموثوق بها ما يوجب القول: إنها أحدثت في نهاية النصف الأول من القرن الخامس الهجري؛ لأنني طالعت "سفر نامة" لناصر خسرو الذي زار مكة سنة ٤٤٢هـ، فلم أجد للمقامات ذكرًا في حديثه المفصل عن الحرم المكي الشريف[٤٤]، ولم يشر أبو عبيد البكري الذي توفي سنة ٤٨٧هـ في كتابه "المسالك والممالك" إلى شيء من هذا، كما أنها لم تحدث في زمن واحد[٤٥]، فقد جاء في ترجمة عبدالله بن عمر القيرواني أنه أمّ بمقام إبراهيم الخليل قبل نهاية القرن الخامس الهجري، وهو أول من يصلي من أئمة الحرم قبل المالكية والحنفية والزيدية[٤٦].

ويتقوى هذا الرأي بأن النفوذ الفاطمي في الحجاز قد تدعم بالنفوذ البويهي الذي جرد الخليفة العباسي من كل سلطانه وحقوقه طيلة الفترة البويهية (٣٣٤ - ٤٤٧هـ)[٤٧]، وقد جاء ما يفيد بأن العلاقة بلغت أوجها بين عضد الدولة البويهي والعزيز بالله الفاطمي

(٤٢) السباعي، المرجع السابق، ص٢٢٠.

(٤٣) الزركشي، محمد بن عبدالله (٧٤٥ - ٧٩٤هـ)، إعلام الساجد بأحكام المساجد، تحقيق: أبو الوفا مصطفى المراغي، ط٢، القاهرة، وزارة الأوقاف المصرية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م، ص٣٦٦.

(٤٤) خسرو، أبو معين الدين ناصر (ت٤٤٤هـ)، سفر نامة ٤٣٧ - ٤٤٤هـ، ترجمة: يحيى الخشاب، ط٢، بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، ص ١٢٩ - ١٣٣.

(٤٥) الفاسي، العقد، ج٢، ص٥٤٩. باسلامة، المرجع السابق، ص٢٥٨.

(٤٦) الفاسي، العقد، ج٥، ص٢١٨.

(٤٧) خسرو، المصدر السابق، ص ٥ - ٩. حسن، إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي، ط٨، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ج٢، ص٥٩. ماجد، المرجع السابق، ص١٥٩ - ١٦١.

في أول عهد الفاطميين بمصر[٤٨]. وقد حاول الخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢ - ٤٦٧هـ) ثني شريف مكة سنة ٤٦٢هـ عن الدعاء للفاطميين، وإلغاء النداء بحي على خير العمل في الأذان من المسجد الحرام، نظير عشرين ألف دينار نقداً، وعشرة آلاف سنوياً، ووعِدَ شريف المدينة المنورة بنصف هذا المبلغ إذا فعل ذلك[٤٩]، ومع هذا فقد عاد الأمر سنة ٤٦٧هـ إلى ما كان عليه من قبل[٥٠].

وقد سار السلطان صلاح الدين الأيوبي على النهج نفسه، فأمد شريف مكة أولاً بالمال، ثم كتب له كتاباً ينهاه فيه عن ظلم الحجاج ونشر البدع في أرض الحرمين الشريفين[٥١]، ثم عمد أخيراً بعد فشل الإغراءات التي قدمها من قبل إلى تولية أخيه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب ولاية مكة في سنة ٥٨١هـ، فمنع الأذان بحي على خير العمل، وقتل جماعة من المفسدين، وضرب فيها الدنانير والدراهم باسم السلطان صلاح الدين[٥٢]. وقد تتابعت ولاية الأيوبيين وأحياناً الرسوليين في الأوقات التي رأوا فيها ضرورة لإدارتها من قبلهم، ولا سيما أنها شهدت نزاعاً مريراً في هذا العصر[٥٣] بين الأيوبيين والرسوليين ومن يساندهم من أشراف مكة.

أما صفة المقامات التي تأكد حدوثها في أوقات مختلفة من القرن الخامس، فيصف ابن جبير الصلاة فيها سنة ٥٧٩هـ بقوله: "إن للحرم أربعة أئمة سنية وإمام خامس لفرقة تسمى الزيدية، وأشراف أهل هذه البلدة على مذهبهم ... وهم روافض سبابون".

---

(٤٨) ماجد، المرجع السابق، ص١٦١، ٢٢٢.

(٤٩) الفاسي، العقد، ج١، ص٤٤١، ج٢، ص٣٦٢.

(٥٠) الفاسي، الشفاء، ج٢، ص٤٦٢.

(٥١) انظر نص هذا الكتاب عند: الفاسي، العقد، ج٧، ص٢٧٨.

(٥٢) الفاسي، الشفاء، ج٢، ص٣١٥.

(٥٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٣١٦ - ٣١٨.

١ - فأول الأئمة السنية الشافعي، وهو المقدم من الإمام [الخليفة] العباسي، وهو أول من يصلي، وصلاته خلف مقام إبراهيم عليه السلام إلا صلاة المغرب، فإن الأربعة الأئمة يصلونها كل بإمامه في وقت واحد مجتمعين لضيق وقتها[٥٤]. ثم يصف ما يحدث من سهو وغفلة لاجتماع التكبير فيها من كل جهة حتى إن الغريب يحتار إلى أي فرقة يتبع. ثم أُمِرَ باجتماعهم في صلاة المغرب على الإمام الشافعي في سنة ٨١١هـ. ثم أُمروا في عهد السلطان المؤيد شيخ (٨١٥ - ٨٢٤هـ) بالرجوع إلى ما كانوا عليه[٥٥]، فحدث التشويش الذي أدى بالقائمين على أمر المسجد الحرام في العصر العثماني إلى إعادة النظر في ذلك سنة ٩٣١هـ[٥٦].

٢ - وثاني أئمة أهل السنة المالكي، ويصلي قبالة الركن اليماني، وله في زمن ابن جبير محراب حجر يشبه محاريب المساجد المبنية على جوانب الطرق[٥٧]، وقد جاء ما يفيد أنه مما أحدث في المسجد الحرام سنة ٤٩٧هـ[٥٨]، وقد وسع المصلى في العصر المملوكي[٥٩]، والعثماني[٦٠] حتى اقتطع ما بني عليه وعلى بقية المقامات جزءاً من المطاف. (الصورة رقم ١)، ومن الغريب أن هذا الترتيب في صلاة الأئمة قد اختلف في سنة ٧٩٠هـ عما ذكره ابن جبير سنة ٥٨٠هـ، حيث تقدم الحنفي على الإمام

---

(٥٤) ابن جبير، المصدر السابق، ص٧٠.

(٥٥) ابن ظهيرة، جمال الدين محمد بن جارالله (كان حياً سنة ١٠٢٩هـ)، الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، ط٣، مكة المكرمة، مكتبة الثقافة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، ص٢١٤. باسلامة، المرجع السابق، ص٢٥٨.

(٥٦) رفعت، إبراهيم، مرآة الحرمين، القاهرة، دار الكتب المصرية ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م، ج١، ص٢٥١.

(٥٧) ابن جبير، المصدر السابق، ص٧٠.

(٥٨) باسلامة، المرجع السابق، ص٢٥٨.

(٥٩) الفاسي، الشفاء، ج١، ص٣٩١. ابن ظهيرة، المصدر السابق، ص٢١٢.

(٦٠) رفعت، المرجع السابق، ج١، ص٢٥١.

المالكي في الفجر والظهر والعصر والعشاء[٦١]، ثم تقدم كذلك في صلاة المغرب في سنة ٩٣١هـ[٦٢]، وما بعدها.

٣ - أما المقام الحنفي فيصلي إمامه قبالة الميزاب، وكان له في زمن ابن جبير بناء متميز عن بقية المقامات لأسباب تستمد قوتها المادية والسياسية من كثرة أتباعه من خارج حدود الدولة العباسية[٦٣]، وكان حدوثه في المسجد الحرام متأخراً عن المقام المالكي، فإن أقدم ذكر له كان في سنة ٥٢٩هـ[٦٤].

وقد جاء ما يفيد بأن الدعم الذي كان يقف وراء إمام هذا المذهب في زمن ابن جبير تقوى في العصر المملوكي أيضاً، فقد بني عليه في سنة ٨٠٢هـ بناء يخالف ما كانت عليه بقية المقامات التي اقتصر كل منها على إسطوانتين من حجر عليهما عقد فيه عارضة من الخشب لتعليق قناديل الزيت، وأنكر كثير من العلماء تمييز هذا المقام بظلة كبيرة محمولة على أربعة أعمدة، بالإضافة إلى كبر المساحة التي اقتطعها من المطاف، وقد وجد لها من دافع عنها وحماها من أتباع السلطة المملوكية[٦٥]، حتى هدمت في أوائل عهد الدولة العثمانية. وأبدلت في سنة ٩٤٩هـ ببناء لا يقل عنها في الإضرار بالمطاف[٦٦]، ثم بني فوقه ظلة للمبلغين.

٤ - أما المقام الحنبلي فلم يعرف في المسجد الحرام إلا في سنة ٥٤٠هـ[٦٧]، وقد ذكره ابن جبير في سنة ٥٨٠هـ، وقال: إن موضعه ما بين الحجر الأسود والركن اليماني، ولم يكن له آنذاك

---

(٦١) ابن ظهيرة، المصدر السابق، ص٢١٣.

(٦٢) ابن ظهيرة، المصدر نفسه، ص٢١٣. رفعت، المرجع السابق، ج١، ص٢٥١.

(٦٣) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٧٠ - ٧١.

(٦٤) الفاسي، العقد، ج٤، ص٥٤٩.

(٦٥) الفاسي، الشفاء، ج١، ص٣٩٢.

(٦٦) ابن ظهيرة، المصدر السابق، ص٢١١.

(٦٧) باسلامة، المرجع السابق، ص٢٥٨.

بناءٌ يميزه[٦٨]، ثم صار له في العصر المملوكي عقد يرتكز على إسطوانتين من الحجر كبقية المقامات[٦٩]، وقد أبدل في العصر العثماني بظلة محمولة على أربعة أعمدة من الحجر المثمن، وذلك في حدود سنة ٩٣٠هـ[٧٠]، وله كبقية المقامات محراب مجوف فيما بين الإسطوانتين الأماميتين. (الصورة رقم ١).

ولأهمية هذا الموضوع وشناعة ما كان يحدث بسببه للمصلين في المسجد الحرام الذي كان منزهاً في القرون الأولى من هذا العمل، نذكر إنكار ابن جبير له، وعد الفاسي المتوفى سنة ٨٣٢هـ وهو مالكي المذهب هذا الفعل ضلالاً في الدين؛ لما فيه من المنكرات التي لا تخفى إلا على من غلب عليه الهوى، وذكر كذلك إنكار العلماء لهذه البدعة قديماً وحديثاً.

وقد بيَّن استجابة السلطان المملوكي فرج بن برقوق في سلطنته الثانية (٨٠٨ - ٨١٥هـ) لنصيحة بعض العلماء، فأمر في سنة ٨١١هـ بجمع الناس في صلاة المغرب على إمام واحد، ولكن الأمر عاد إلى حاله في سنة ٨١٦هـ[٧١].

ثم ذكر في النهاية أن أبا القاسم عبدالرحمن بن الحسين بن الحباب المالكي أفتى في سنة ٥٥٠هـ بمنع الصلاة بأئمة عدة وجماعات مترتبة بحرم الله تعالى، وعدم جوازها على مذاهب العلماء الأربعة. فيا للعجب كيف أمكن لهذه البدع أن تستمر في حرم الله بعد هذه الفتوى التي أنكرت هذا العمل المبتدع؟

(٦٨) ابن جبير، المصدر السابق، ص٧١.
(٦٩) الفاسي، الشفاء، ج١، ص٣٩١.
(٧٠) ابن ظهيرة، المصدر السابق، ص٢١٢.
(٧١) الفاسي، الشفاء، ج١، ص٣٩٤.

الأصل في الإمامة في المسجد الحرام

تبين مما سبق أن ظهور المقامات في المسجد الحرام قد جاء مع بداية تنامي النفوذ الفاطمي في الحجاز بعد سيطرتهم على مصر في سنة ٣٥٨هـ، وما تلاها من ضعف السلطة العباسية، وتذبذب سيطرتها على الحرمين الشريفين، ولا شك أن الأصل في وظيفة الإمامة ما كان يقوم به الوالي لمكة المكرمة، أو القاضي في العصر الأموي والعباسي الأول، من إمامة الناس في جميع فروض الصلاة والوقوف بهم في عرفة[٧٢]. ثم أسندت بعد ذلك إلى إمام واحد يستمد دعمه المادي والمعنوي من الخليفة في بغداد، ويختص بالصلاة في المسجد الحرام عند مقام سيدنا إبراهيم الخليل أسوةً بما فعله الرسول ﷺ في عام الفتح، ولأن في ذلك سترة ثابتة للصلاة خلفها[٧٣].

ظهور المقامات في المسجد الحرام قد جاء مع بداية تنامي النفوذ الفاطمي في الحجاز

ويبدو على ما صرح به ابن جبير أن هذا العرف ظل مرعياً في المسجد الحرام عند زيارته لمكة المكرمة في سنة ٥٨٠هـ، حيث قال: "فأول الأئمة السنية الشافعي رحمه الله، وإنما قدمنا ذكره؛ لأنه المقدم من الإمام العباسي"[٧٤]. وكان مركزاه المادي والمعنوي يتأثران سلباً وإيجاباً بوصول الركب العراقي الذي اعتاد أن يحمل معه إلى أهل الحرمين والمجاورين بهما، وإلى أرباب الوظائف في كل سنة (٣٠٥٤٢٠) ديناراً[٧٥]، ولئن كان هذا الركب قد تأثر بالأحداث التي

(٧٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٥١ وما بعدها. الجزيري، عبدالقادر بن محمد (ت٩٧٤هـ)، درر الفوائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المكرمة، القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م، ص٢٣٤ - ٢٥٩.

(٧٣) البخاري، المصدر السابق، كتاب الصلاة، باب سترة الإمام سترة من خلفه، الحديث رقم ٤٩٤، ص١٠٤.

(٧٤) ابن جبير، المصدر السابق، ص٧١.

(٧٥) الجزيري، عبدالقادر، المصدر السابق، ص٢٢٢.

شهدها الحجاز منذ أوائل القرن الرابع الهجري، فإن أهل الحجاز قد تأثروا بانقطاع رزقهم المعتاد في الأعوام الآتية: ٣١٤، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٩، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٣٢، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٧١، ٣٨٠، ٣٨٤، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٠١، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤١٥، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٨، ٤٣٠، ٤٣٢، ٤٣٧، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٨٦، ٤٨٧، ٥١٦، ٥٣٠، ٥٣٢هـ[٧٦].

وإذا قدر لهذا الركب أن يصل إلى مكة المكرمة، فكثيراً ما كان يصطدم بالحجاج المصريين المدعومين في عهد الدولة الفاطمية (٣٥٨ - ٥٦٧هـ) بالنفوذ القوي للأشراف الموالين لها من حكام مكة المكرمة والمدينة المنورة، أو ربما نهب الركب في طريقه إلى مكة أو عند عودته منها؛ إذا لم تكن المبالغ المقدمة من الدولة العباسية لشيوخ القبائل التي تحمي في العادة طريق الركب مقنعة[٧٧]؛ لما يقومون به من دور.

ولا أدل على تدني الأحوال المادية لموظفي المسجد الحرام نتيجة هذا الانقطاع من بساطة عبارات التأبين المسجلة على الشاهد الذي ندرسه، الذي كان صاحبه أحد موظفي الدولة العباسية، حيث كان يؤم بأتباع المذهب الشافعي في المسجد الحرام من ٥٩٨ - ٦٠٤هـ، خاصة إذا عرفنا أنه من أهل العراق، وأنه جاور بمكة لأكثر من خمسين سنة، لم يكتسب فيها كما يبدو من عبارات الشاهد مالاً يبرز مكانته الاجتماعية، حيث عرف من ترجمته أنه من الصوفية[٧٨] الزاهدين في الدنيا وبريقها.

---

(٧٦) الفاسي، الشفاء، ج٢، ص٣٤٦ - ٣٦٥. الجزيري، عبدالقادر، المصدر السابق، ص٢٣٤ - ٢٥٩.

(٧٧) الفاسي، الشفاء، ج٢، ص٣٥٥. الجزيري، عبدالقادر، المصدر السابق، ص٢٤٩. ماجد، المرجع السابق، ص٢٢١ - ٢٢٤.

(٧٨) الفاسي، العقد، ج٢، ص١٤٧.

ويتقوى هذا الظن بقول ابن جبير عن الإمام الحنفي المدعوم من غير الدولة العباسية: "إنه أعظم الأئمة أبهة وأفخرهم آلة من الشمع وسواها"[٧٩]، أما الإمام الذي ترعاه الدولة، وتدعم أتباعه فلا أقل من أن نقول: إنه يعكس حالها الضعيف، وحال الشاهد الذي تتأثر ألفاظه في العادة بغنى أو فقر المتوفى[٨٠]، فضلاً عن مكانته الاجتماعية والوظيفية.

الدراسة الوصفية

للوقوف على الإمكانيات المتواضعة لمتهني نقش شواهد القبور في منطقة الحجاز - قبل كتابة هذه الشاهد المؤرخ سنة ٦٠٤هـ وبعده - يجب الإلمام بوصف مفصل للشاهد الذي اختير لمجرد أن له سطحًا أملس يصلح للكتابة، فهو حجر بازلتي أسود اللون، من الأحجار المألوفة في جبال مكة المكرمة، كالتي نقشت عليها معظم الشواهد التي تضمنها المجلد الذي أصدرته وكالة الآثار والمتاحف بوزارة التربية والتعليم عن أحجار المعلاة الشاهدية، وهو أقل جودة من الرخام الذي يندر وجوده في أرض الحجاز بأكملها، وارتفاعه في أطول أجزائه ٩٠ سم، وعرضه في أوسع أجزائه ٤٦ سم، وجزؤه السفلي أعرض من العلوي، وسمكه في أعلاه ١٥ سم، وفي وسطه ٢٥ سم، وفي أسفله ٢٠ سم. وظهره محدب، وحجمه كبير بحيث يصعب نقله من موضعه إلا بتعاون رجلين قويين[٨١].

وله وجه أملس صالح للكتابة، قسم الجزء المخصص للنقش ثلاثة أقسام غير متساوية، يتميز الأعلى منها بكبر مساحته، فطوله ٢٠ سم

---

(٧٩) ابن جبير، المصدر السابق، ص٧١.

(٨٠) شافعي، فريد، العمارة العربية في مصر الإسلامية في عصر الولاة ٣١ - ٣٥٨هـ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، ص٥٥١.

(٨١) يوجد عند أحد الهواة لجمع التحف والآثار بمكة المكرمة.

وعرضه ٣٥ سم، ويعلوه زخارف نباتية مورقة، تملأ كوشة العقد[٨٢] المدبب، الذي يعلو البسملة وسطرين من العبارات التأبينية، التي تبشر المتوفى برحمة الله ورضوانه (شكل رقم ١ والصورة رقم ٥).

أما القسم الأوسط فأقل الأقسام مساحة ٢٠ سم في عرض ١٠ سم، وهو أشهر الأقسام التي يتألف منها الشاهد، وأميزها حفاوة بالنقش، فعباراته محددة جداً، وخطه مختلف عما في الجزئين العلوي والسفلي من الشاهد، فقد كتب بالخط الكوفي الغليظ، وذلك في كلمات ثلاث تشير إلى صاحب القبر، وتصفه بالشيخ، أما كلمة الصالح التي جاءت بعد الكلمة السابقة مباشرة فقد ضاق بها السطر الخامس، فكتب الألف بالخط الكوفي وبقية الكلمة بخط النسخ في وسط السطر فوق كلمة الشيخ، وذلك بخط صغير يشبه الخط المستخدم في بقية أسطر الشاهد (الصورة رقم ٥).

وتأتي مساحة القسم الثالث من الشاهد في المرتبة الثانية، فطوله ٢٠ سم، وعرضه ١٥ سم، وهو أكثر أقسام الشاهد كتابة، ففيه أربعة أسطر بخط نسخي جميل، تذكر اسم المتوفى وكنيته ونسبه وعمله في المسجد الحرام، ثم تاريخ وفاته في آخر السطر الرابع.

ويحتوي الشاهد بأقسامه الثلاثة على معظم العناصر التي يتكون منها شاهد القبر الإسلامي، وبه إحدى وأربعون كلمة نظمت في تسعة أسطر غير متساوية، فيما يحتويه كل سطر من الكلمات التي تكون الشاهد، كما أن بعض الكلمات والحروف خرجت عن موضعها الحقيقي كغيرها من الكلمات في بعض الشواهد[٨٣]، وذلك نتيجة توسع النقاش في حفر الكلمات التي ضاق بها السطر، الأمر الذي

---

(٨٢) كوشة العقد: هي المساحة الواقعة على جانبي العقد وأعلاه، وهي ما يسميه فريد شافعي واجهة البائكات. انظر: شافعي، المرجع السابق، ص٢١٧. غالب، المرجع السابق، ص٣٢٩.

(٨٣) جمعة، المرجع السابق، ص ٢٦٣ - ٢٦٤.

دعاه إلى نقشها بين السطر الذي تنتمي إليه، والسطر الذي يعلوها، كما في كلمة الصالح من السطر الخامس، وحرف النون من كلمة رضوان في السطر الثالث، وخروج جزء من حرف الواو في كلمة رضوان عن الإطار الأيسر للشاهد، واختفاء الألف الواقعة بين الواو والنون في كلمة رضوان.

وبالشاهد آثار تلف مُحدَثَة، أخفت بعض الكلمات والحروف التي عُرِف معناها من السياق الذي تأكد بالمعلومات التي نقلها الفاسي من الشاهد حين كان في موضعه من مقبرة المعلاة(٨٤)، في القرن التاسع الهجري. وفيما يأتي المحتوى التأبيني لعبارات الشاهد التي كتبت كما قلنا بنوعين من الخط، وبعبارات بسيطة جداً.

١ - بسم الله

٢ - الرحمن الرحيم

٣ - يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان

٤ - وجنات لهم فيها نعيم مقيم

٥ - هذا قبر الشيخ الصالح

٦ - الزاهد العابد أبي عبدالله محمد

٧ - بن محمد بن علوان التكريتي إمام مقام

٨ - إبراهيم توفي [يوم](٨٥) الأحد ثالث عشر شعبان

٩ - من سنة [ستـ]ـمئه(٨٦) [وأ](٨٧) ربع

---

(٨٤) الفاسي، العقد، ج٢، ص١٤٧.

(٨٥) المصدر نفسه، ج٢، ص١٤٧.

(٨٦) المصدر نفسه، ج٢، ص١٤٧.

(٨٧) المصدر نفسه، ج٢، ص١٤٧.

التحليل والمقارنة

أولاً: التحليل

تضمن النقش المدون على الشاهد البسملة، وآية تناسب المقام من سورة الفتح[٨٨]، كما هو المألوف في معظم الشواهد الإسلامية التي تُضَمّن عبارات الشاهد آيات من القرآن الكريم، كالشهادة لله عز وجل بالوحدانية ولمحمد ﷺ بالرسالة[٨٩]، أو الإقرار بما في سورة آل عمران من وقوع الموت على كل نفس[٩٠]، أو كتابة آية الكرسي من سورة البقرة على بعض الشواهد في القرن الثالث الهجري[٩١]، وكان ذلك شائعاً في مختلف الأقطار الإسلامية[٩٢]، ولعل آخر شاهد ورد في تراجم المكيين عند الفاسي وبه شيء من هذا المعنى مؤرخ في سنة ٧٥٦هـ[٩٣] .

ثم ذكر في السطر الخامس أنه "قبر الشيخ الصالح"، والشيخ لقب يقصد به في اللغة الطاعن في السن[٩٤]، وكان وما يزال يطلق عرفاً على العلماء وكبار رجال الدولة[٩٥] . وقد ظهر في شاهد قبر لأحد العلماء من المشرق في القرن الثالث الهجري، وآخر من جزيرة العرب في القرن الخامس الهجري[٩٦]. وكلمة "الصالح" من الصلاح الذي يجب أن يتحلى به كل مسلم، فضلاً عن العلماء الذين هم أكثر الناس خشية لله تعالى.

---

(٨٨) الآية رقم ٢١.

(٨٩) جمعة، المرجع السابق، ص ١٤٧، ١٥٠، ١٧٦.

(٩٠) الآية رقم ١٨٥.

(٩١) جمعة، المرجع السابق، ص ١٧٠، ١٧٣.

(٩٢) غالب، المرجع السابق، ص٢٣٣.

(٩٣) الفاسي، العقد، ج٣، ص٢٤٠.

(٩٤) ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، بيروت، دار صادر، دار بيروت، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، ج٣، ص٣١.

(٩٥) الباشا، حسن، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص ٣٨٧، ٣٩٥.

(٩٦) الباشا، المرجع نفسه، ص٣٩٥.

أما كلمة "الزاهد" التي جاءت في أول السطر السادس فتعني من أعرض عن الدنيا وزخرفها، فلم يلتفت إليها وابتعد عنها، وقد وردت في نقوش مختلفة في زمانها ومكانها، الأول منها في سنة ٢٣٠هـ من طشقند، والثاني في سنة ٢٤٥هـ من مدينة الفسطاط لذي النون المصري، والثالث في سنة ٥٠٠هـ من جزيرة العرب، والرابع من سوريا في سنة ٥٠٧هـ[٩٧].

وتختص كلمة "العابد" التي جاءت في النقش بعد كلمة "الزاهد" مباشرة بأهل التقوى والصلاح، وقد جاء في بعض كتب التراجم التي فصلت حياة صاحب الشاهد أنه قد درس في بغداد، وأقام في أحد الأربطة المشهورة فيها قبل قدومه إلى مكة مجاوراً في حدود سنة ٥٤٤هـ[٩٨]، وقد ظهرت كلمة العابد في شواهد عدة، منها قبر ذي النون المصري سنة ٢٤٥هـ، كما شملت أيضاً في العصر المملوكي من يتصف بالصلاح والتقوى[٩٩] من العسكريين ورجال الدولة المشهورين.

أما كنيته فقد سبقت اسمه في نهاية السطر السادس، حيث كني "بأبي عبدالله"، وهو عُرْفٌ عربي قديم، أقره الرسول ﷺ، وحث أمته عليه[١٠٠]، وطبقها المسلمون فور علمهم بمشروعيتها، وما زالوا حتى اليوم، في مختلف العالم الإسلامي وخاصة في الجزيرة العربية، على هذه السنة النبوية الشريفة.

أما اسمه فمركب من اسمه واسم أبيه، فهو "محمد بن محمد"، وله أمثلة كثيرة في كتب التراجم، خاصة المكيين الذين ترجم لهم

---

(٩٧) المرجع نفسه، ص٣٩٥.

(٩٨) المنذري، زكي الدين أبو محمد عبدالعظيم (ت٦٥٦هـ)، الهداية لوفيات النقلة، ط٢، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ج٢، ص١٣٩.

(٩٩) الباشا، المرجع السابق، ص٣٠٩.

(١٠٠) البخاري، المصدر السابق، كتاب الأدب، باب الكنية، الحديث رقم ٦٢٠٣، ص١٣١٤.

الفاسي من القرن الأول الهجري وحتى القرن الثامن[١٠١]. والتكريتي نسبة إلى بلدة تكريت من مدن العراق، وقال عنها ياقوت الحموي: "إنها بلدة مشهورة بين بغداد والموصل مشرفة على دجلة من الغرب، بينها وبين بغداد ثلاثون فرسخاً"[١٠٢].

ويبدو أنه نزح إليها بمفرده أو صحبة أسرته من موطنهم الأصلي قرية الحوط، من أعمال حمص أو قرى جبلة[١٠٣]، ثم انتقل منها إلى بغداد، ثم إلى مكة المكرمة التي عاش فيها مجاوراً أكثر من خمسين سنة[١٠٤]، شغل في آخرها بعض وظائف المسجد الحرام، وخلف أسرة لم نعرف من أفرادها إلا ابنه عبدالرحمن الذي دفن في مقبرة المعلاة في سنة ٦٤٤هـ[١٠٥]، وترجم له الفاسي في العقد الثمين، ووصفه بالشيخ الصالح، وقال: إنه نقل تاريخ وفاته من شاهد قبره القائم في حدود سنة ٨٣٢هـ.

وكلمة "إمام" التي جاءت قبل الكلمة الأخيرة في السطر السابع لها في القرآن الكريم أكثر من معنى[١٠٦]، تدل في مجملها على القدوة الحسنة والعمل الخير، وكان استخدامها في الدلالة على وظيفة الإمامة في الصلاة قد ظهر مع ألقاب أخرى في شاهد قبر من طشقند في سنة ٢٣٠هـ، وفي شاهد من مصر في سنة ٤٠٣هـ، وآخر من جزيرة العرب مؤرخ في سنة ٥٠٠هـ. ثم تتابعت في شواهد من بلدان مختلفة، كانت في معظمها معاصرة للشاهد الذي ندرس

---

(١٠١) الفاسي، العقد، ج٢، ص٢٦٧ وما بعدها.

(١٠٢) الحموي، شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، دار بيروت، ج٢، ص٣٨.

(١٠٣) المنذري، المصدر السابق، ج٢، ص١٣٩.

(١٠٤) الفاسي، العقد، ج٢، ص١٤٧.

(١٠٥) الفاسي، العقد، ج٥، ص٣٧٥.

(١٠٦) سورة البقرة، آية ١٢٤، سورة هود، آية ١٧، سورة الحجر، آية ٧٩، سورة الفرقان، آية ٧٤، سورة يس، آية ١٢، سورة الأحقاف، آية ١٢.

خصائصه في هذه الدراسة. فقد وجد لفظ الإمام في نقشين من مصر، أحدهما مؤرخ في سنة ٥٩١هـ، والآخر في سنة ٦٢٢هـ[١٠٧]. ثم تعددت استخدامات هذا اللفظ في العصر المملوكي، حتى خرجت عن مدلولها الأول[١٠٨] إلى معنى قوة الملك واتساع السلطان.

و"المقام" الذي نسبت الوظيفة إليه في الشاهد هو مقام سيدنا إبراهيم الخليل الموجود منذ رفع إبراهيم الخليل عليه السلام قواعد الكعبة، وسيظل إن شاء الله تعالى رمزاً لشعيرة من شعائر المسلمين حيث أُمر الرسول ﷺ في حجة الوداع بالصلاة عند موضعه، وكان القرآن موافقاً في ذلك لرأي سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه[١٠٩]، ﴿واتَّخذُوا من مَّقام إبْراهيم مُصلًّى﴾[١١٠]، فجعله الرسول ﷺ بينه وبين الكعبة[١١١].

وفي موضعه قبل الإسلام اختلاف، أما موضعه الحالي فعليه الإجماع بأن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثبته في هذا الموضع بعد استشارة كبار السن من أهل مكة آنذاك[١١٢]. ومنهم من كان يخشى الاختلاف في موضعه، فقاس بعده عن الكعبة وحفظه في بيته حتى احتيج إليه عند فقدانه في السيل الذي أصاب مكة سنة ١٧هـ[١١٣].

والمقام حجر رخو مربع من نوع حجر الماء لونه بين البياض والسواد والصفرة، تتساوى أبعاده في الطول والعرض والارتفاع،

(١٠٧) الباشا، المرجع السابق، ص ١٧٠ - ١٧٢.

(١٠٨) المرجع نفسه، ص ١٧٠ - ١٧٢.

(١٠٩) البخاري، المصدر السابق، كتاب الصلاة، باب ما جاء في القبلة، الحديث رقم ٤٠٢، ص٨٧.

(١١٠) سورة البقرة آية ١٢٥.

(١١١) باسلامة، المرجع السابق، ص ١٨٩، ٢٠٠.

(١١٢) المرجع نفسه، ص ١٨٩، ٢٠٠.

(١١٣) الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد (ت٢٢٣هـ)، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: رشدي ملحس، ط٢، مكة المكرمة، دار الثقافة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ج٢، ص٣٣.

وتقارب الخمسين سنتيمتراً[١١٤]، وفي وسطه أثر قدمي سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام، وهما حفرتان على شكل بيضاوي مستطيلتان، قد حفرهما الناس بمسح الأيدي عليهما، ووضع ماء زمزم فيهما مرات عدة، فنتج عنهما اختفاء أثر القدمين، وتحول موضعهما إلى حفرتين عميقتين، تظهر بينهما أصابع سيدنا إبراهيم وأخمص قدميه الشريفتين[١١٥] (الصورة رقم ٢).

وقد رمم مرات عدة، أولها في عهد الخليفة العباسي محمد المهدي (١٥٨ - ١٦٩هـ)، وأشهرها في عهد المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧هـ) الذي أرسل ثمانية آلاف مثقال من الذهب وسبعين ألف درهم من الفضة لشد ما تصدع منه. ثم رمم مرة أخرى سنة ٢٥٦هـ بأطواق من الذهب والفضة في خلافة المهتدي العباسي (٢٥٥ - ٢٥٦هـ)[١١٦]. وتتابعت الترميمات لما تصدع منه وللسياج الذي أحيط به، وقد جاء في بعض المصادر أن عليه في سنة ١٣٢٧هـ قبة بأربعة أعمدة أحاطت بها مقصورة من النحاس، طول كل ضلع منها ٣,٦٠م، في داخلها الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم الخليل عند بناء الكعبة[١١٧] (الصورة رقم ٣).

وقد أُبدل في العهد السعودي بغطاء مثمن من الزجاج والمعدن المطلي بالذهب على قاعدة من الرخام (الصورة رقم ٤). وموضعه اليوم كما كان في عهد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، على ما وصفه كثير من العلماء، فهو شرقي الكعبة المشرفة، على يمينه الركن العراقي، وعلى يساره الباب والحجر الأسود، وبينه وبين منتصف الجدار الشرقي من الكعبة حوالي عشرة أمتار ونصف المتر[١١٨] تقريباً.

---

(١١٤) باسلامة، المرجع السابق، ص٢٠١.

(١١٥) المرجع نفسه، ص٢١١.

(١١٦) الفاسي، الشفاء، ج١، ص٣٢٨. باسلامة، المرجع السابق، ص٢٠٢ - ٢٠٤.

(١١٧) البتنوني، محمد لبيب، الرحلة الحجازية سنة ١٣٢٨هـ، ط٢، القاهرة، المطبعة الجمالية، ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م، ص١٢٤.

(١١٨) باسلامة، المرجع السابق، ص٢٠٣، ٢٥٩، ٢٦٠.

وقد ظل المقام موضعاً لمصلى الأئمة في المسجد الحرام في فجر الإسلام وصدره، عندما كان الناس يصلون وراء إمام واحد، لوجود شاخص يتقدم الإمام، ويحول دون قطع الصلاة. فلما ظهرت المذاهب السنية الأربعة، واشتدت دعوة الخوارج، وشاعت أقوال المعتزلة والمرجئة، وذاعت مذاهب الشيعة التي وجدت لها في مكة من يناصرها(١١٩) وُجِدتْ المقامات التي استمرت رغم إنكار كثير من العلماء لوجودها في الحرمين الشريفين، وقالوا بكراهيتها؛ لإظهارها الاختلاف والفرقة بين المسلمين(١٢٠)، ولم يقدر على منعها من الحرمين وجمع الناس على إمام واحد في التراويح وجميع فروض الصلاة، إلا الملك عبدالعزيز رحمه الله تعالى(١٢١)، حيث أمر في سنة ١٣٤٣هـ بتطهير الديار المقدسة من هذه البدع.

ثانياً: المقارنة

اخترت للمقارنة بين محتوى الشاهد موضع الدراسة المنقوش سنة ٦٠٤هـ، وغيره من الشواهد المكية نماذج منتقاة من محتوى المجلد الذي صدر عن وكالة الآثار والمتاحف بعنوان: "أحجار المعلاة الشاهدية بمكة المكرمة"، وما درس من النقوش التأسيسية في منطقة مكة المكرمة.

وفضلت ما ينتمي منها إلى القرنين السادس والسابع الهجريين؛ لتكون المقارنة موحية بالتأثيرات المتأصلة محلياً، خاصة في مجال الزخرفة، ونوعية الخط، وتنظيم المفردات التأبينية، ولا سيما وقد نقش على بعضها اسم عبدالرحمن بن أبي حرمي.

وأول ما يستدعي الانتباه وجود قواسم مشتركة في جميع النماذج التي تحمل الأرقام الآتية، من محتوى المجلد المذكور: ٢٦٦، ٣١١، ٣٨٠،

(١١٩) المرجع نفسه، ص٢٠٣.

(١٢٠) المرجع نفسه، ص٢٥٩.

(١٢١) المرجع نفسه، ص٢٦٠.

٣٩٣، ٤١١ب، ٤١٩ب، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٩٧ب، ٤٩٨، ٥٠٧، ٥٢١، ٥٥٦، ٥٦٠.
وذلك على النحو الآتي:

أولاً: اشتراكها مع النقش الذي يحمل عنوان هذه الدراسة في إبراز اسم المتوفى بخط غليظ يتوسط الشاهد أو يأتي في ثلثه الأخير، ويشير إلى المتوفى بعبارة: "هذا قبر الشاب....، أو الشيخ ... أو ابنة ... أو أم ... ". وقد تذكر بعض أوصافه أو وظائفه أو شيخوخته أو شبابه.

وقليل منها اشترك مع النص الذي ندرسه في تمييز هذه العبارة بخط كوفي يخالف بقية عبارات الشاهد التي كتبت كلها بالخط النسخي. ولهذه الظاهرة أمثلة نادرة في نقوش القرنين الرابع والخامس الهجريين، وكذلك الثامن والتاسع الهجريين.

ثانياً: اشتراك الشواهد المذكورة في حفر ما يحيط بجمل الشاهد وزخارفه؛ مما يجعلها منقوشة بالخط البارز، وهي طريقة مفضلة عند ممتهني نقش الشواهد المكيين.

ثالثاً: اشتراكها جميعاً في الخط النسخي المشكول. ومع أن أقدمها يعود إلى سنة ٥٤٩هـ، وآخرها إلى سنة ٧٠٨هـ، فإن نوعية الخط متماثلة إلى حد كبير؛ مما يؤكد قوة التأثير التي أحدثها الرواد من أمثال عبدالرحمن بن أبي حرمي المكي المتوفى سنة ٦٤٥هـ. والمنقوش اسمه في الجانب الأيمن من الشاهد رقم ٢٦٦، والمنفذ في القرن السابع الهجري. وكذلك في أعلى الطرف الأيسر من الشاهد رقم ٥٠٧، والمؤرخ سنة ٦١٦هـ. وفي الثلث الأخير من الشاهد رقم ٥٢١، والمؤرخ سنة ٦٢١هـ.

وقد امتهن هذا النقاش مع ولده وابنه وأخيه مهنة نقش شواهد القبور في القرن السادس الهجري. ومرد وصول بعض آثاره المنقوشة إلى مصر، المحفوظة الآن في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة[١٢٢]

---

(١٢٢) الفعر، محمد بن فهد، تطور الكتابات والنقوش في الحجاز منذ فجر الإسلام حتى منتصف القرن السابع الهجري، مكتبة تهامة للنشر، جدة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م، ص٣٦٣.

إلى قوة العاطفة الدينية التي تربط المصريين بكل ما هو مكي، ولا سيما التبرك بما ينتمي إلى الديار المقدسة أو يُهدى منها، مما يجعل من المحتمل نقشه لهذا الشاهد عند وصوله إلى مصر في حياته الطويلة التي امتدت لأكثر من مئة سنة، زار خلالها الشام والعراق[١٢٣] - وربما مصر - أو ربما نقش في مكة ونقل إلى مصر. ولا سيما أن بعض الباحثين يذهب إلى احتمال نقش بعض الشواهد قبل وفاة صاحبها اعتماداً على ما لحظه من مخالفة خط السطر الأخير الذي يحمل في بعض الشواهد اسم المتوفى وتاريخ وفاته[١٢٤].

أما من الناحية الزخرفية فقد لحظت توحدها في التصميم الذي يتألف من إطار واحد أو أطر عدة تحدد عبارات الشاهد. وقد يكون ببعضها كتابات أفقية أو عمودية نفذت بالخط النسخي، وتتوج في معظمها بعقود متنوعة يتدلى من أغلبها مشكاوات ذات أحجام وأشكال مختلفة.

وقد جاءت الزخارف التي تحيط بالعقود أو تشكل بعض الأطر التي تحيط بالشاهد متنوعة، فمنها الزخارف النباتية البسيطة التي قصد منها سد الفراغ دون حرص من النقاش على الأصالة والواقعية.

أما الزخارف الهندسية فقد كانت أكثر دقة، ولا سيما ما كان منفذاً منها في الشاهد رقم ٤٤٦.

رابعاً: تشترك معظم الشواهد المذكورة مع شاهد إمام المقام الإبراهيمي في عدم قدرة النقاشين في أغلب الأحوال على الالتزام بنقش الجمل والحروف بمقياس واحد؛ فنجد حروفًا وكلمات خرجت عن الإطار الذي يحدد عبارات الشاهد وجمله.

---

(١٢٣) الفاسي، العقد، ج٥، ص٤٠٠.

(١٢٤) الزهراني، مرجع سابق، ص٤٣٤.

وتتميز فوق هذا بالصغر أو الكبر، وقد تكتب بغير الخط الذي التزم به النقاش كما في كلمة "الصالح" التي جاءت في وسط الشاهد بعد كلمة [هذا قبر الشيخ ...]. ولم يقتصر هذا على الشواهد المنشورة من قبل وكالة الآثار والمتاحف، بل إنها واضحة في النقوش التي قام أحد أعضاء هيئة التدريس بجامعة أم القرى بنشرها(١٢٥)، وخاصة ما ينتمي منها إلى القرنين السادس والسابع الهجريين.

وزاد من أهمية بعضها وجود اسم الخطاط المكي عبدالرحمن بن أبي حرمي في أحد جوانبها، وبمقارنة هذه النصوص مع الشواهد التي وجد في محتواها اسم النقاش ابن الحرمي فيما اخترناه من الشواهد التي نشرتها وكالة الآثار والمتاحف تبين وجود ثوابت تجعل من المقبول القول بأن النقش الذي ينتمي إلى إمام المقام في الحرم المكي من عمل الخطاط المكي عبدالرحمن بن أبي حرمي، وأبرزها:

١ - جمال الخط.

٢ - البدء بالبسملة، وآيات من القرآن الكريم.

٣ - تميز العبارة الدالة على صاحب القبر بخط غليظ.

٤ - وقوعه في خطأ تكرر كثيرًا في بعض الشواهد التي نقش عليها اسمه، ولا سيما تنظيم محتوى السطرين الأخيرين من الشواهد التي تحمل الرقم ٢٦٦، ٥٠٧.

الخصائص الفنية

من المعروف في تاريخ تطور الخط العربي أن سيادة الخط الكوفي التذكاري قد انتهت في أول العصر الأيوبي(١٢٦) مع استمرار الخط الكوفي التذكاري في الظهور حتى القرن السادس الهجري، حين بدأت الغلبة لسيادة الخط النسخي في بلاد فارس وما وراءها من

---

(١٢٥) الفعر، مرجع سابق، ص٤٣٠ - ٤٣١، ٤٣٤.

(١٢٦) جمعة، المرجع السابق، ص ٧٧، ٨٥.

البلاد الإسلامية، وكذلك مصر الأيوبية ٥٦٧ - ٦٤٨هـ، بالإضافة إلى بلاد الشام وأرض الحجاز.

ويدخل الشاهد الذي ندرس خصائصه الفنية في الإطار الزمني للعصر الأيوبي؛ لأن تاريخ نقشه يعود إلى سنة ٦٠٤هـ. وقد حوى نوعين من الخطوط الأصيلة في تاريخ الخط العربي في العصر الأيوبي، هما الخط النسخي والخط الكوفي التذكاري(١٢٧)، مما يعطي مجالاً للتعرف على خصائص الخطين الموجودين في الشاهد ومقارنتهما بمثيلاتهما في هذا العصر.

١ - وأولهما الخط النسخي الذي يعد الالتواء وعدم التركين من أبرز خصائصه(١٢٨)، وبالرغم من قدم استخدامه في الوثائق والمراسلات الخاصة والعامة فإنه لم يأخذ مكانته البارزة في كتابة الشواهد الإسلامية إلا في أوائل القرن السادس الهجري حتى صارت له الغلبة والسيادة على غيره من الخطوط في مصر الأيوبية، في حدود سنة ٦٣٥هـ(١٢٩) وما بعدها من العصر المملوكي.

وقد كتبت به معظم أسطر الشاهد الذي ندرس خصائصه الفنية، المؤرخ في سنة ٦٠٤هـ، وذلك باستخدام طريقة النقش البارز، وذلك بحفر ما حول الحروف التي تضم عبارات الشاهد، وقد عمد النقاش إلى هذه الطريقة بعد أن حدد الإطار الذي يحيط بالنقش مع رسم عقد مدبب في أعلاه، ثم حاول جاهداً ملء كوشة العقد بزخارف نباتية بارزة تتمثل في فروع ملتوية تخرج من بعض أطرافها أوراق

---

(١٢٧) فكري، أحمد، مساجد القاهرة ومدارسها في العصر الأيوبي، القاهرة، دار المعارف، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، ص١٣.

(١٢٨) غلام، يوسف محمود، الفن في الخط العربي، الرياض، وزارة المعارف، مديرية الآثار والمتاحف، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص٣٣.

(١٢٩) جمعة، المرجع السابق، ص ٢٢٩، ٢٣٩. البابا، كامل، روح الخط العربي، ط٢، بيروت، دار العلم للملايين، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، ص ٦٨ - ٦٩، ٧١.

منحنية، وفي نهاية كل منها زهرة غير متفتحة. (الصورة رقم ٥ والشكل رقم ١).

وقد حاول رسم مثل هذه الأوراق والزهور في أماكن متفرقة داخل العقد، وخاصة على يمين البسملة وعلى يسارها؛ لملء الفراغ الظاهر في هذا الجزء من الشاهد، إلا أنها جاءت ساذجة وفي درجة بسيطة من الإتقان، خاصة إذا ما قورنت بما نقش على بعض الشواهد من زهور وورود تمثل الأصالة في الزخرفة الإسلامية. (الشكل رقم ١).

أما الخط النسخي الذي حُفر في داخل الإطار الذي أحاط به فقد شُكلت معظم حروفه على خلاف ما كان في الشواهد التي كتبت بالخط الكوفي، ومما لا شك فيه أن هذا التشكيل قد أضاف إلى النقاش كثيراً من المعاناة، ولا سيما أن الطريقة التي اعتمدها في نقش الشاهد تطلبت منه استئصال طبقة خفيفة من السطح المحيط بالكتابة وشكلها وأحجامها. (الصورة رقم ٥).

٢ - وثانيهما الخط الكوفي الذي اقتصر ما خط به على الإشارة إلى صاحب القبر في سطر واحد فيه أربع كلمات فقط، نصها كالآتي: "هذا قبر الشيخ الصالح"، وقد جمع بين الخط الكوفي بزواياه القائمة، وخطوطه المستقيمة المتوازية والأفقية والعمودية، وبين أحرف الخط النسخي التي تخالف القاعدة السابقة، فتظهر مدورة أو مائلة، كما في حرف الراء والصاد واللام والحاء، وهو ما نجده في الخط الكوفي الفاطمي الذي وصل إلى قمة التجويد في القرنين الرابع والخامس الهجريين[١٣٠].

وللمرء أن يسأل: لماذا لم يُكتَب الشاهد كله بهذه الطريقة التي أبدع فيها النقاش وأجاد، حتى إن العين لا ترى في المرة الأولى غير هذا الجزء من الشاهد؟ والجواب فيما أعتقد أن النقاش الذي لم

---

(١٣٠) جمعة، المرجع السابق، ص٨٤.

يذكر اسمه في آخر الشاهد وجد نفسه مضطراً إلى حصر الخط الكوفي في أشهر عبارة يحتاجها القارئ لمعرفة اسم المتوفى، وذلك لأمور منها:

١ - صغر المساحة الصالحة للنقش في الحجر المستخدم، إذ لو كتب النص كله بهذه الطريقة لاحتاج إلى مساحة لا تقل عن ضعف المساحة الموجودة.

٢ - عدم توافر الأحجار أو الرخام الصالح لمثل هذا النوع من الكتابة الغليظة.

٣ - كثرة العبارات اللازم تدوينها على الشاهد، التي يجب أن تضم العناصر المألوفة في الشواهد الإسلامية[١٣١]، وأهمها:

- البسملة.
- التعريف بالميت.
- ذكر الله عز وجل ورسوله ﷺ، والتبشير بالجنة ونعيمها.
- تاريخ الوفاة.
- الدعاء للميت.

وقد أضافت الكتابة بهذا النوع من الخط الكوفي على النحو الذي ذكرناه مسحة جمالية يدركها كل من دقق النظر في الصورة رقم (٥)، ولا سيما وقد جاءت في وسط الشاهد، فكانت أشبه باللؤلؤة التي تتوسط العقد، أو ما يعرف بالتطعيم أو التنزيل[١٣٢] المعروفين في

---

(١٣١) المرجع نفسه، ص٨٤.

(١٣٢) التطعيم: هو تحضير قطع مسطحة ومصقولة من عاج أو عظم أو صدف، وإعطاؤها شكل رسوم معدة مسبقاً، وحفر الشكل نفسه في الأدوات والصناديق وما شابهها، وتنزيل قطع الزخرفة فيها. والتنزيل: حفر سطح القطعة أولاً، ثم ملؤها بمادة أخرى أو بلون آخر كالرخام والعاج في الخشب، وبشرائط الذهب في أوعية الفضة، وبالصدف في قطع الفسيفساء. انظر: غالب، المرجع السابق، ص ١٠٦، ١١٠.

صناعة الخشب والمعادن الثمينة. وهو تقليد رأيته في بعض الشواهد المكيـة التي تعـود إلى آخـر القـرن السـادس وأوائل القـرن التـاسع الهجري مع اختلاف بينها في استخدام الخط الكوفي أو النسخي.

أما الزخرفة النباتية التي أحاطت بهذه العبارة المميزة من الشاهد فقوامها فرعان نباتيان يشكل كل منهما دائرة تملأ الفراغ الظاهر بين كلمـات السطر الذي نقش بالخط الكوفي، ولا تتـصل بأطراف الحروف، ولا تخرج من أرضيتها، كما في الخط الكوفي المزهر(١٣٣)، وبكل من الفرعين المذكورين عدد قليل من الأوراق المائلة، وينتهي كل منهما بزهرة غير متفتحة (الشكل رقم ١)، وليس في هذا كله جمال يستهوي المشاهد، كما أنها لا تنتمي إلى الأصول الراقية للزخرفة الإسلامية في هذا المجال.

وقد نُقشت بالطريقة نفسها التي نفذت في كتابة الشاهد كله، وهي الطريقة التي يبتعد عنها النقاشون المبتدئون لصعوبة تنفيذها وطول المدة التي يحتاجها المنفذ الذي يعمد أولاً إلى تهيئة مخطط ينفذ أولاً بالمداد المخالف للون السطح المراد نقشه، وذلك بتقسيمه إلى خطوط أفقية على مسافات متساوية، ثم تبدأ مرحلة الحفر باستئصال السطح الذي يحيط بالنص المكتوب على مستوى واحد من الحفر(١٣٤)، مع العلم أن الخطأ في هذه الطريقة فادح ومؤثر جداً.

وفي النهاية يحتاج النقاش إلى تسوية الزوائد بأطراف الحروف القائمة، حتى تبدو متساوية في السمك والطول، ثم إكمال ما نقص من الحروف والكلمات التي ضاقت بها بعض السطور وخاصة في آخرها.

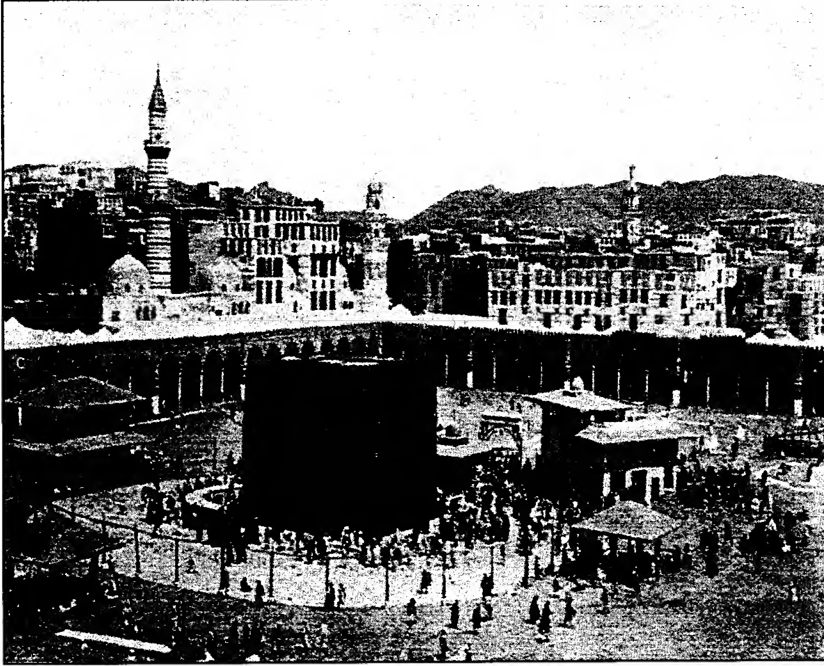
---

(١٣٣) جمعة، المرجع السابق، ص ٢٢٢. الباشا، المرجع السابق، ص ٦٩، ٧١.

(١٣٤) جمعة، المرجع السابق، ص٨٥.

ملاحق البحث

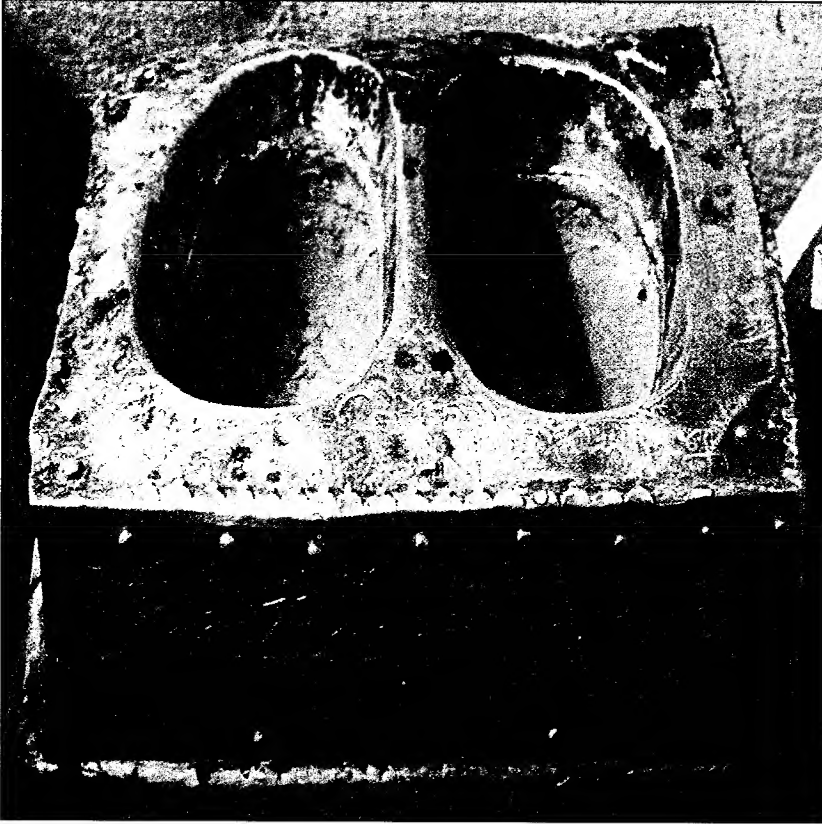
١ - الصور



صورة رقم (١)

صورة المطاف في سنة ١٣٢٥هـ، وتظهر فيها المقامات الأربعة بأحجام ومساحات مختلفة، اقتطعت جزءاً كبيراً من المطاف.

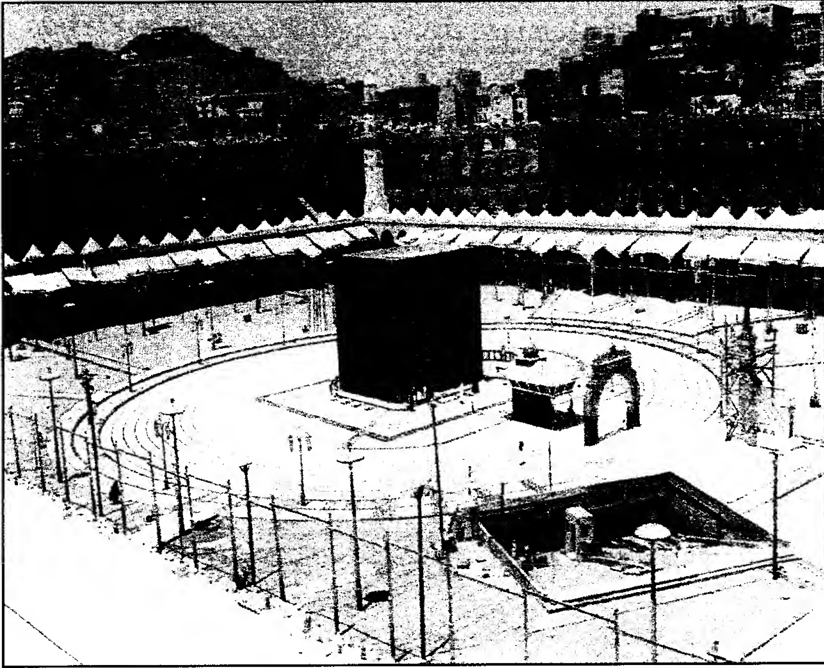
(عن إبراهيم رفعت في مرآة الحرمين الشريفين)



صورة رقم (٢)

صورة أخذت حديثاً لمقام سيدنا إبراهيم الخليل وتبدو فيها آثر القدمين على شكل حفرتين عميقتين.

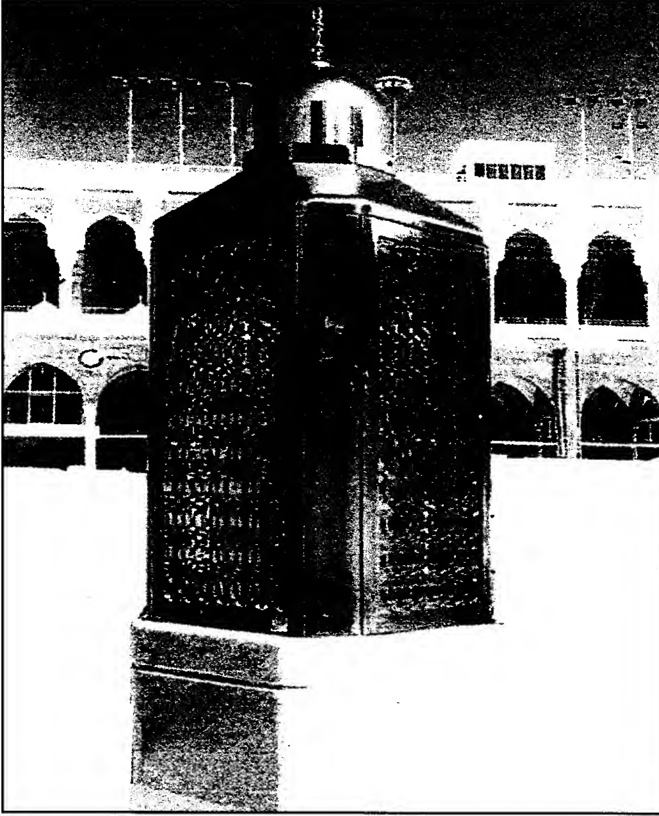
(عن قصة التوسعة الكبرى، لحامد عباس)



صورة رقم (٣)

صورة المقصورة التي بنيت حول المقام في العهد العثماني، وخلفها عقد من الحجر.

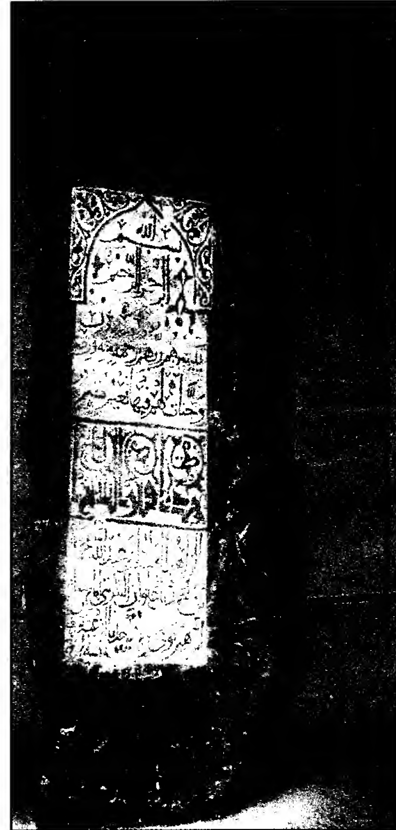
(عن قصة التوسعة الكبرى، لحامد عباس)



صورة رقم (٤)

صورة المقصورة التي أحاطت بالمقام في العهد السعودي
والتي قُصِد منها عدم شغل مساحة كبيرة من المطاف.
(عن الكعبة المشرفة والحرمان الشريفان، لعبيدالله محمد الكردي)



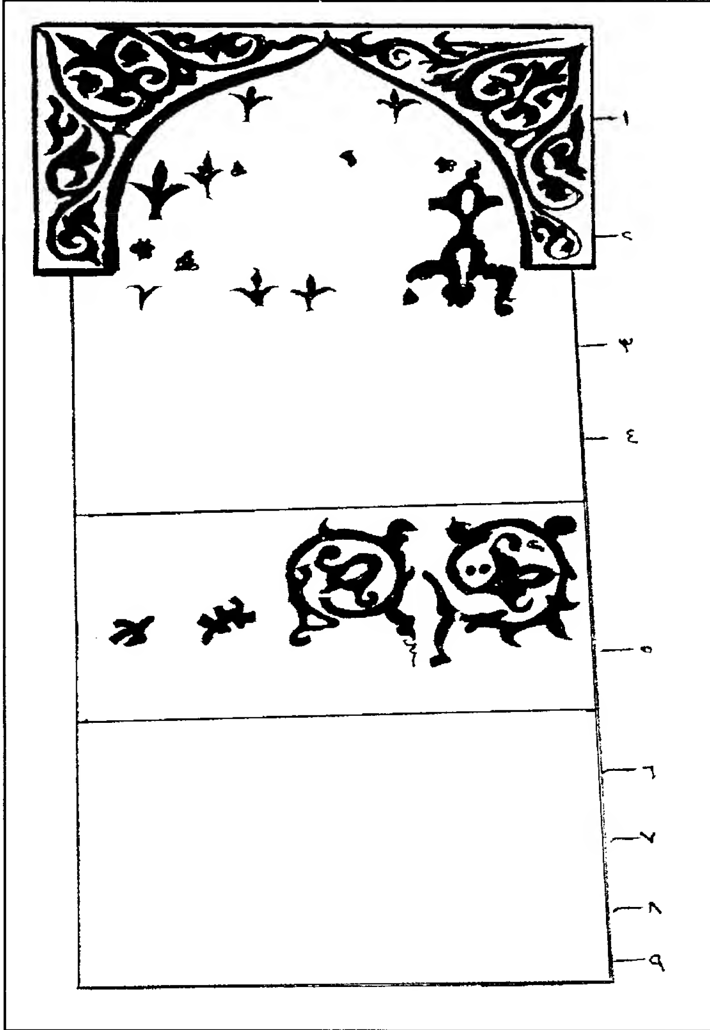


صورة رقم (٥)

صورة شاهد القبر الذي كتب سنة ٦٠٤هـ، على حجر بازلتي أسود، وتفريغ محتوى الشاهد

(من تصوير الباحث وعمله)

٢ - الأشكال



شكل رقم (١)

تفريغ الزهور والورود، التي رسمت بطريقة غير متقنة في أماكن مختلفة من الشاهد، بقصد ملء الفراغ الذي أخل بالشكل العام للشاهد.

(من عمل الباحث)

الأبجدية العربية	المفــردة	المتصــلة		
		أول الكلمة	وسط الكلمة	آخر الكلمة
آ				
ب ت ث				
ج ح خ				
د ذ				
ر ز				
س ش				
ص ض				
ع غ				
ف ق				
ك				
ل				
م				
ن				
و				
ي				
هـ				

شكل رقم (٢)

جدول لأشكال الحروف المبتدئة والمتصلة والمنتهية

(من عمل الباحث)

لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبدالوهاب

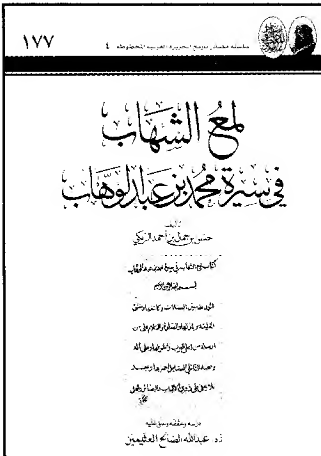
تأليف

د. حسن بن جمال بن أحمد الريكي

درسه وحققه وعلق عليه

أ. د. عبدالله الصالح العثيمين

٣٥٢ صفحة



يتناول هذا الكتاب سيرة الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله، ودعوته الإصلاحية، ويتحدث عن قيام الدولة السعودية الأولى، والجهود التي بذلها أئمتها في سبيل نشر تلك الدعوة وتوحيد البلاد وتأمين طرق الحج. كما يتعرض للحديث عن قبائل الجزيرة العربية من شرقها إلى غربها وحتى جنوبها.

وإلى جانب ما في الكتاب من معلومات قيمة فقد حوى أيضا عدداً من الأخبار والحوادث غير الصحيحة والتي لا يوجد ما يؤيدها من مصدر معلوم، أو خبر أكيد. وقد حرص محقق الكتاب على المقارنة بين ما ورد في هذا الكتاب وما ورد في الكتب التاريخية الموثوق فيها، حرصًا على نشر الحقيقة، وتوضيح ما قد يلبس مما تضمنه هذا الكتاب.





ص.ب ٢٩٤٥ - الرياض ١١٤٦١ - المملكة العربية السعودية
هاتف ٤٠١١٩٩٩/٤٠٢١٦٤ - فاكس ٤٠١٣٥٩٧
بريد الكتروني info@darah.org.sa

نقش إسلامي يؤرخ لتجديد رخام الكعبة المشرفة سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م بأمر من السلطان الرسولي الملك المظفر[١]

د. مشلح بن كميخ المريخي
قسم الآثار والمتاحف - كلية الآداب - جامعة الملك سعود

في ظل التطور المستمر الذي تشهده مناهج وأدوات البحث الآثاري والتاريخي أخذت النقوش والكتابات القديمة تحتل مكاناً بارزاً بين المصادر التي يعتمد عليها الآثاري والمؤرخ في استنباط الحقائق التاريخية. وقد اكتسبت الكتابات الإسلامية في هذا السياق أهمية كبيرة مع تواتر الأبحاث المنشورة عنها منذ قرن ونيف، ولا مراء في أن النقوش التأسيسية أو التجديدية تحتل مكانة متقدمة بين هذه الكتابات؛ نظراً لما تتمتع به من مصداقية يصعب الطعن في صحتها، حتى غدت بحق من المصادر الأصلية لكتابة التاريخ، فهذه النقوش لم تمتد إليها أيدي النساخ بالزيادة والنقصان أو التعديل والتبديل.

ونظراً لما تتمتع به النقوش التأسيسية من مصداقية في الكشف عن الحقائق التاريخية، ولا سيما في الفترات التي سجلت خلالها، فقد أصبح بالإمكان التعويل عليها في رصد وتبيان مدى صدق أقوال

(١) علق هذا اللوح الرخامي بعد الانتهاء من كتابته في جوف الكعبة المشرفة، وبقي في مكانه إلى أن جرت الترميمات التي تمت للكعبة في ثمانينيات القرن العشرين، وقد زودني بصورة النقش مشكورا زميلي الدكتور عدنان بن محمد فايز الحارثي، والشكر أيضا موصول لزميلي الدكتور علي بن سالم النصيف، والأستاذ محمد بن يحيى الفيفي لما قدماه لي من معلومات تاريخية قيمة.

المؤرخين ودقتها، وأيضا في إضافة معلومات جديدة، أو في ترجيح رواية تاريخية على أخرى[٢]. ويأتي هذا النقش الذي نتعرض له بالدراسة هنا ليثبت الحقائق التي سبقت الإشارة إليها، إذ إنه يتوافق مع ما أوردته المصادر التاريخية عن قيام السلطان الملك المظفر الرسولي يوسف بن عمر بن رسول ببعض الأعمال التجديدية في الحرم المكي، والتي شملت تجديد رخام الكعبة المشرفة والمسجد الحرام.

ومما يزيد من أهمية هذا النقش أن المصادر التاريخية تحدثت عن قيام الملك المظفر بوضع حجر تأسيسي لأعماله في جوف الكعبة؛ ليكون بذلك أول ملك عربي يوضع اسمه داخل الكعبة المشرفة في حدود ما تذكره المصادر المعروفة لعلم الباحث، حيث يذكر المؤرخ ابن فهد في حوادث سنة ٦٨٠هـ ما يأتي: "فيها عمر رخام جوف الكعبة من قبل المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول صاحب اليمن، وهو أول ملك كتب اسمه في الكعبة"[٣]. وعلى الرغم من أن إبراهيم رفعت قد أورد في كتابه "مرآة الحرمين" قراءة لهذا النقش[٤]، فإن هذه الدراسة تقدم قراءة تحليلية ووصفية لما ورد من كتابات في النقش موضوع البحث، مقرونة بصورة فوتوغرافية للنقش تنشر لأول مرة.

الأوضاع السياسية المعاصرة لتسجيل النقش:

منذ أن قضى الله - سبحانه وتعالى - بإعمار البيت الحرام على الأرض من لدن آدم عليه السلام، مروراً بالعمارة التي ورد ذكرها في

(٢) الحداد، محمد حمزة، النقوش الكتابية الإسلامية وقيمتها التاريخية (المبحث الأول): دراسات أثارية (٢)، الجمعية السعودية للدراسات الأثرية، الرياض (محرم ١٤٢١هـ/ إبريل ٢٠٠٠م)، ص ص ١٣-١٧.

(٣) باشا، إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين: الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية، ج١، د. ن، د. ت، ص٢٦٦؛ ابن فهد، عمر، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، ج٣، تحقيق فهيم محمد شلتوت، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، مكة المكرمة (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٤م)، ص١١٣.

(٤) باشا، مرآة الحرمين، ج١، ص٢٦٦.

القرآن الكريم، ورفع القواعد على أيدي النبيين الكريمين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فلقد شهد البيت العتيق أعمال إعمار وإعادة ترميم عبر العصور نتيجة لما تعرض له من أضرار مختلفة، سواء بسبب العوامل الطبيعية، أو نتيجةً للظروف السياسية التي مرت بها مكة المكرمة، ومن أشهر هذه الترميمات - من بعد زمن الخليل إبراهيم- عمارة جرهم، وعمارة قريش قبيل البعثة النبوية الشريفة، وعمارة عبدالله بن الزبير، ثم عمارة الأمويين في عهد عبدالملك بن مروان، والتي أشرف عليها الحجاج بن يوسف الثقفي(٥)، وغير هذه العمارات المتوالية، فقد كان الخلفاء والسلاطين والملوك والحكام والولاة في عدد غير قليل من الأمصار الإسلامية يحرصون على أن يكون لهم شرف عمارة الكعبة وصيانتها وكسوتها، ويقدم كل منهم ما يستطيع تقديمه في هذا الشأن، ومن هؤلاء صاحب النقش التأسيسي موضوع هذه الدراسة.

لقد حرص الحكام الذين تعاقبوا على حكم الولايات الإسلامية المختلفة على أن يكون لهم نصيب من الاهتمام بعمارة الحرم المكي الشريف، سواء عن قصد ديني خالص من أي غرض دنيوي، أو لاكتساب ولاء وتأييد رعاياهم. وخلال الربع الأخير من القرن السابع الهجري، وهي الفترة التاريخية التي يعود إليها النقش موضوع هذه الدراسة، عاشت مكة حالة من عدم الاستقرار السياسي لسببين رئيسين:

أولهما: الخلافات التي لم تنقطع بين أطراف أسرة الأشراف، الذين آلت إليهم مقاليد الحكم في مكة المكرمة.

وثانيهما: التنافس الذي نشب - حينذاك - بين كل من سلاطين المماليك في مصر والشام، وبين حكام بني رسول في اليمن، وكانت

(٥) الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج١، تحقيق رشدي ملحس، ط٧، مطابع دار الثقافة، مكة المكرمة (١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م)، ص٣٥٥؛ باشا، مرآة الحرمين، ج١، ص ص٢٦٩- ٢٧٥؛ ابن فهد، إتحاف الورى، ج١، ص ص١٤٤-١٦٠.

مكة المكرمة المحور الرئيسي لهذا التنافس، نظراً لمكانتها الدينية الكبيرة، وسلطانها الروحي في قلوب جميع المسلمين. وقد سعى كل من المماليك وحكام بني رسول للسيطرة على مكة وفرض نفوذهم عليها، إذ كان ذلك كفيلاً بتدعيم مكانة السلاطين ورفع منزلتهم ليس فقط بين رعاياهم بل ولدى الشعوب الإسلامية قاطبة[٦]. ومن جهتهم سعى أمراء مكة من الأشراف إلى الإفادة من حالة التنافس تلك لتدعيم حكمهم، وعملوا جهدهم ألاَّ تقع مكة فريسة لأي من القوتين، المملوكية أو الرسولية. واستغل الأشراف تهافت كل قوة منهما لكسب ود أهل مكة، من أجل جلب المنافع لأسرتهم من خلال الحصول على المغانم والامتيازات التي كان المماليك وبنو رسول يبذلونها نظير الدعاء لهم في الحرم المكي، والاعتراف بسلطانهم داخل مكة ولو بشكل اسمي[٧]. ولم يعدم الأمر في بعض الأحيان استعانة أطراف النزاع داخل أسرة الأشراف بأي من القطبين المتنافسين لحسم الصراع لصالحهم، وفي كل الأحوال كانت هناك فوائد محققة في مجال إعمار الحرم المكي الشريف، وصيانة مبانيه، وتزويدها بعناصر ومرافق معمارية جديدة من وقت لآخر.

سعى أمراء مكة إلى الإفادة من حالة التنافس تلك لتدعيم حكمهم

النقش التجديدي:

يتألف النص في هذا النقش التجديدي المكتوب على لوح رخامي من مساحة مربعة يحيط بها شريط مستطيل من الكتابة، وتتوسط المربع دائرة تتماس في أجزاء من محيطها مع أضلاع المربع، وقد

(٦) السباعي، أحمد، تاريخ مكة، ط٤، مطبوعات نادي مكة الثقافي، دار مكة للطباعة والنشر والتوزيع، مكة المكرمة (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، ص ص٢٥٤- ٢٥٩؛ ص ص٣١٨ - ٣٢١.

(٧) باشا، مرآة الحرمين، ج١، ص ص٢٦٨-٢٧٥.

توزعت الكتابات فيما بين داخل الدائرة والمناطق شبه المثلثة المحصورة بين محيط الدائرة، وأركان المربع الخارجي، أما قراءة النص فهي على النحو الآتي:

قراءة النقش:

أ - الإطار العلوي:

١ - بسم الله الرحمن الرحيم رب أوزعني

ب - الإطار الأيمن:

١ - أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى...

ج - الإطار الأيسر:

١.... ثمانين وستماية وصلى الله...

د - المتن:

١ - يارحمن يارحيم

٢ - أمر بتجديد رخام هذا البيت

٣ - المعظم العبد المفتقر إلى رحمة ربه

٤ - يوسف ابن (هكذا) عمر بن علي [بن] رسول اللهم أيده

٥ - بعزيز نصرك واغفر له ذنوبه برحمتك

٦ - ياكريم ياغفار

التعليق:

يستهل هذا النص بالبسملة، متبوعة بجزء من الآية الكريمة: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾[٨]، وكلتاهما نفذتا بالإطارين العلوي والأيمن، ثم أتبعتا بمضمون النص التجديدي المنفذ

(٨) سورة النمل آية رقم ١٩.

في البلاطة الرئيسة، ويشير إلى ما قام به السلطان الملك المظفر الرسولي يوسف بن عمر بن علي بن رسول من تجديد لرخام الكعبة المشرفة، ثم ختم نص البلاطة الرئيسة بالدعاء لصاحب النقش بالتأييد والنصر، وطلب المغفرة له من الذنوب، ثم ثبت في الإطار الأيسر تاريخ تنفيذ هذه العمارة التي كانت في سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م.

نفذ النقش - كما أسلفنا - على لوح رخامي مربع الشكل، على هيئة لوحة تجديدية، ومن الواضح أن لنوعية المادة المستخدمة في التجديدات أثرًا واضحًا في تنفيذ النقش على اللوح الرخامي، الذي يؤرخ لتنفيذ هذه التجديدات. وينقسم إلى إطار ومتن، بيد أن جزءاً من الإطار الأيمن، وجزءاً من الإطار الأيسر فقدا، بالإضافة الى أن الإطار السفلي بأكمله مفقود(٩). يبدأ النص الخطي في الإطار العلوي، وتتخلله حليات مستديرة (جامات) ذات زخارف هندسية، أما الإطار الأيمن فيتضمن بقية النص الوارد في الإطار العلوي، وتتخلله حليات مستديرة ذات زخارف هندسية شبيهة بتلك التي وردت في الإطار العلوي، بينما يتضمن الإطار الأيسر تاريخ تنفيذ النص، ويشتمل على العناصر الزخرفية نفسها، والمتمثلة في الحليات الدائرية (الجامات). أما المتن فهو على شكل مربع، يتوسطه شكل دائري، وقد شغلت أرضية المتن بزخارف نباتية مورقة (أرابيسك)، هي عبارة عن أفرع نباتية متموجة، تنبثق منها أنصاف مراوح نخيلية، اتسمت بدقة التنفيذ. هذا وقد نقش في المتن محتوى النص التجديدي، منفذا بخط الثلث المتقن المركب تركيبا ثنائيا وثلاثيا، وبأسلوب فني راق وجميل.

يتكون نص المتن من أربعة أسطر، شغلت فيه الزوايا الأربع المحصورة بين الشكل المربع والدائري بأربع كلمات منفردة ومصدرة بياء النداء كل كلمة منها تمثل اسمًا من أسماء الله الحسنى، بواقع اسم لكل

(٩) انظر اللوحة والشكل المرفقين.

زاوية، تبدأ من الزاوية العلوية اليمنى التي تضمنت (يا رحمن)، ثم الزاوية العلوية اليسرى المشتملة على (يا رحيم)، بينما نقش في الزاوية السفلية اليمنى (يا كريم)، وشغلت الزاوية الأخيرة بلفظ (يا غفَّار)، وجميعها نفذت على أرضية نباتية مورقة (أرابيسك)، تشابه مثيلتها المنفذة في أرضية النص الرئيس للمتن. لقد نوع النقاش في زخرفة أرضية النقش، حيث شغل أرضية المتن بالزخارف النباتية المورقة، وبنقط الإعجام في العديد من الكلمات، بينما شغل أرضية الإطارات - في غالب الأحيان - بنقط الإعجام، وعلامات الشكل، بالإضافة الى ورقة العنب الخماسية المنفذة فوق كلمة (بسم)، وكذلك نصف المروحة النخيلية المنفذة فوق كلمة (صلى).

الخصائص الفنية:

نفذ نص النقش بخط الثلث المتقن المركب تركيباً ثنائياً وثلاثياً، وهو الخط الذي شاع استخدامه في النقوش التأسيسية على الآثار الإسلامية منذ مطلع القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، وهو الخط الذي عادة ما يطلق عليه المختصون في الآثار والفنون الإسلامية مسمى"النسخ المملوكي"[١٠]. واتصف النص بأسلوب خاص في تركيب الكلمات، حيث قدمت حروف بعض الكلمات على بعضها بعضاً، وكذلك تم تقديم كلمات على أخرى، وهذه جميعها من المظاهر الخطية التي اختص بها خط الثلث. واتسم النقش- بشكل عام - بمسحة جمالية راقية، وتناغمت عناصره الخطية والزخرفية بشكل رائع ومتقن، ولا غرو في ذلك، فهو من ناحية نقش رسمي، يؤرخ لما قام به السلطان المظفر من تجديدات للكعبة المشرفة، ومن ناحية أخرى نفذ في موضع له مكانته وقدسيته لدى عموم المسلمين.

---

(١٠) الزيلعي، أحمد بن عمر، "نقش تأسيسي من حارة الأغوات بالمدينة المنورة مؤرخ في سنة ٧٠٦هـ/ ١٣٠٦- ١٣٠٧م"، دراسات في الآثار: الكتاب الأول، مركز البحوث بكلية الآداب - جامعة الملك سعود، الرياض (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)، ص٢٨٨.

الألقاب الواردة في النقش:

ورد ضمن مضمون النص لقبان سبقا اسم صاحب النقش، هما: العبد، والفقير، وهذان اللقبان من ألقاب التواضع والتذلل[١١]، ومن المؤكد أن ما قصد بهما هنا هو أن صاحب النقش ما هو إلا عبد من عباد الله، مفتقر لرحمته سبحانه وتعالى.

ويحسن بنا قبل أن نتطرق لسيرة صاحب النقش أن نعرض بإيجاز لتاريخ دولة بني رسول التي كان صاحب النقش أحد أشهر حكامها وأبعدهم صيتاً، ينتسب بنو رسول إلى جدهم الأول محمد بن هارون بن أبي الفتح بن يوحي بن رستم، الذي اشتهر وعرف بلقب (رسول)، أي: رسول الخليفة. أما سبب شهرته بهذا اللقب فيعود - كما يذكر الخزرجي - إلى قربه من أحد خلفاء بني العباس، ومنزلته الكبيرة التي كان يحظى بها لديه، واختصاصه بنقل رسائله المهمة إلى الأمراء والملوك شفوياً خوفاً من اكتشافها وافتضاح أمرها[١٢]. غير أن بعض الباحثين يشكك في مدى مصداقية هذه الرواية، ويرى أن محمد بن هارون المذكور كان مقرباً من الأيوبيين وليس من الخليفة العباسي، وأنهم هم الذين أطلقوا عليه هذا اللقب لأمانته ودقته في تنفيذ ما يوكل إليه من المهام الدبلوماسية[١٣].

---

(١١) الباشا، حسن، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، دار النهضة العربية، القاهرة (١٩٧٨م)، ص٤٢٢.

(١٢) الخزرجي، علي بن الحسن (ت ٨١٢هـ/ ١٤٠٩م): العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك، مخطوط مصور، صنعاء، نشر وزارة الإعلام والثقافة بالجمهورية اليمنية، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص١٩٠؛ العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تحقيق محمد بن علي الأكوع، ط ٢، صنعاء، مركز الدراسات والبحوث اليمني، بيروت، دار الآداب، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

(١٣) عليان، محمد عبدالفتاح، "الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في عهد دولة بني رسول في اليمن"، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٣م، ص ٣٢؛ الفقي، عصام الدين عبدالرؤوف، اليمن في ظل الإسلام، من فجره حتى قيام دولة بني رسول، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٨١م، ص ٢٣٦؛ الفيفي، محمد بن يحيى، =

أما أصل بني رسول، فقد كان مثار جدل وخلاف بين المؤرخين قديماً وحديثاً، فبينما يرى البعض أنهم من الغساسنة العرب، ومن نسل جبلة بن الأيهم على وجه التحديد[١٤]، يرى آخرون أنهم من التركمان[١٥]، أو الأكراد[١٦]. والذي يظهر أن الرأي الأخير هو الأقرب للصحة، شأنهم في ذلك شأن معظم القادة في الجيش الأيوبي، ولأنه لا توجد أدلة واضحة وصريحة يمكن الاستناد إليها والوثوق بها في إثبات انتسابهم إلى الغساسنة العرب، وأن انتسابهم ذلك لا يعدو كونه محاولة لصبغ حكمهم بالصبغة الشرعية على اعتبار أنهم ورثة ملوك اليمن القدامى[١٧].

= "الأحوال السياسية في الدولة الرسولية في عهد السلطان الناصر أحمد"، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الملك سعود ١٤٢٠هـ، ص٣؛ الونسي، حسين بن علي، اليمن الكبرى، ط٢، صنعاء، مكتبة الإرشاد، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، ١/ ٢٧٨.

(١٤) الأشرف الرسولي، عمر بن يوسف (ت ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م)، طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب، تحقيق ك. و. سترتيني، بيروت، دار صادر، ١٩٩٢م، ص ص٢٤- ٢٥؛ ابن عبدالمجيد اليماني، تاج الدين عبدالباقي، بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، محمد أحمد السنباني، صنعاء، دار الحكمة اليمانية، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص١٣٩؛ الأفضل الرسولي، العباس بن علي بن داود (ت ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م)، العطايا السنية والمواهب الهنية في المناقب اليمنية، القاهرة، دار الكتب المصرية، رقم ٣٥١ تاريخ، ق ٣٠ ب؛ الخزرجي، العسجد المسبوك، ص١٩٠؛ العقود اللؤلؤية، ١/ ٣٦- ٣٧.

(١٥) ابن الفرات، محمد بن عبدالرحمن (ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م)، تاريخ ابن الفرات، تحقيق قسطنطين زريق، نجلاء عز الدين، بيروت، المطبعة الأمريكية، ١٩٣٩م، ٨/ ٢٠٢؛ ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) تاريخ ابن خلدون، بيروت، دار الكتب العلمية، (١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)، ٥/ ٦٠٦؛ ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ط٢، بيروت، دار الكتب العلمية (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، ٤/ ٢٦٤- ٢٦٥.

(١٦) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، مكتبة الخانجي (١٩٥٥م)، ص٧٩.

(١٧) لمناقشة قضية نسب بني رسول وأصلهم، يمكن الرجوع إلى الدراسات الآتية: أحمد، محمد عبدالعال، بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدها، الإسكندرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية (١٩٨٠م)، ص ص٣٩- ٥٢؛ عسيري، محمد بن علي، "أبو الحسن الخزرجي وآثاره التاريخية"، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (١٤٠٦هـ)، ص ص ٤١٩-٤٣٠؛ عليان، الحياة السياسية، ص ص٣٢- ٣٥؛ الفيفي، الأحوال السياسية، ص ص٣- ٥.

ومهما يكن من أمر هذا النسب، فمن الثابت أن علي بن رسول وأبناءه الأربعة: بدر الدين الحسن، فخر الدين أبا بكر، شرف الدين موسى، ونور الدين عمر كانوا في خدمة الأيوبيين، وأن وصولهم إلى اليمن ضمن الحملة الأيوبية التي بعثها السلطان صلاح الدين بقيادة شقيقه طغتكين بن أيوب في سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م[١٨]، قد أحدث تحولاً جذرياً في حياة أفراد تلك الأسرة ومستقبلها، حيث أسند إليهم الأيوبيون العديد من المناصب الإدارية والعسكرية، مما مكنهم من البروز التدريجي على الساحة اليمنية، وأن يؤدوا أدواراً مهمة في تاريخ اليمن خلال الفترة الأيوبية، حتى واتتهم الفرصة للاستقلال باليمن عن أولياء نعمتهم في حوالي سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م.

لقد بدأ ظهور بني رسول على مسرح الأحداث في اليمن منذ عهد الملك العزيز طغتكين بن أيوب (٥٧٩- ٥٩٣هـ/ ١١٨٣- ١١٩٣م)، حيث تشير الروايات صراحة إلى استعماله للأمير علي بن رسول (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م) مرتين، مرة على إقليم وصاب[١٩] في سنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٣م[٢٠]، ومرة على مدينة حيس[٢١] وأعمالها[٢٢]. ثم استمر تدرجه هو

---

(١٨) الخزرجي، العقد الفاخر في طبقات أكابر اليمن، مخطوط، صنعاء، مكتبة جامع الغربية، ف رقم ٥٤، ٢/ ٣٩؛ الخزرجي، العسجد المسبوك، ص١٩١؛ ابن الديبع، عبدالرحمن بن علي الشيباني (ت ٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م)، قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد بن علي الأكوع، ط٢، بيروت، دار بساط (١٤٠٩هـ)، ص٣٠٠.

(١٩) وصاب: ناحية كبيرة في الجنوب الغربي من صنعاء. انظر: الحجري، محمد بن أحمد، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، تحقيق إسماعيل بن علي الأكوع، ط ٢، صنعاء، دار الحكمة اليمانية (١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م)، ٢/ ٧٦٧.

(٢٠) الوصابي، عبدالرحمن بن محمد الحبيشي (ت ٧٨٢هـ)، تاريخ وصاب، تحقيق عبدالله الحبشي، صنعاء، مركز الدراسات والبحوث اليمن (١٩٧٩م)، ص١١٠.

(٢١) حيس: إحدى مدن تهامة اليمن المشهورة، تقع جنوب مدينة زبيد بحوالي ٣٥ كم. انظر: الحجري، مجموع بلدان اليمن، ١/ ٣٠١.

(٢٢) الأفضل الرسولي، عباس بن المجاهد علي (ت ٧٧٨هـ)، العطايا السنية والمواهب الهنية في المناقب اليمنية، مخطوط مصور، معهد المخطوطات العربية، رقم ٣٥١ تاريخ، ق ٣٠ ب؛ الخزرجي، العقد الفاخر، ٣٩/٢؛ ابن الديبع، قرة العيون، ص٣٠٠.

وأبناؤه في مختلف المناصب الإدارية والعسكرية لدى الأيوبيين حتى بلغوا أعلى المراكز في عهد الملك المسعود (٦١٢- ٦٢٦هـ/ ١٢١٥- ١٢٢٩م)، عندما عينهم نواباً له على اليمن، حيث قرر هذا الملك فجأة في سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م مغادرة اليمن إلى مصر لأسباب يطول شرحها وليس هذا مقامها، فاستقر رأيه على استخلاف الأمير نور الدين عمر بن علي بن رسول في حكم اليمن، وشاء الله أن يتوفى الملك المسعود في مكة المكرمة في شهر جمادى الأولى من السنة ذاتها، وهو في طريقه إلى مصر[٢٣]، فكانت الفرصة مواتية للأمير نور الدين عمر بن علي بن رسول للعمل على الاستقلال باليمن.

وبالفعل، فما أن بلغته وفاة الملك المسعود حتى عقد العزم على الاستقلال بالبلاد[٢٤]، إلا أنه آثر التريث في إعلان ذلك، وعمل على إظهار الولاء للملك الكامل الأيوبي في البداية، وبعث له يعزيه في وفاة ابنه، ويظهر له الولاء وحسن النية، فوثق به الملك الكامل وأقره على عمله نائباً عنه في اليمن[٢٥]. ومما لا شك فيه أن تجديد الملك الكامل الثقة في الأمير نور الدين كان فرصة مناسبة للأخير؛ ليعمل تدريجياً على الاستقلال بالبلاد، مستفيداً من الظروف السياسية الصعبة التي كانت تمر بها الدولة الأيوبية داخلياً وخارجياً، ولا سيما

---

(٢٣) ابن حاتم، محمد بن حاتم اليامي، السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن، تحقيق ركس سميث، لندن، لوزاك، ١٩٧٤م، ص ص١٩٤- ١٩٥؛ الحمزي، إدريس بن علي (ت ٧١٤هـ)، كنز الأخيار في معرفة السير والأخبار، الجزء الخاص بتاريخ اليمن، تحقيق عبدالمحسن مدعج المدعج، الكويت، مؤسسة الشراع العربي، ١٩٩٢م، ص٩٥؛ ابن عبدالمجيد، بهجة الزمن، ص ١٣٩؛ الخزرجي، العسجد المسبوك، ص ص١٨٩، ١٩٢؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ١/ ٤٧، ٥١؛ الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد (ت ٨٣٢هـ)، العقد الثمين، تحقيق فؤاد سيد، بيروت، مؤسسة الرسالة (١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦م)، ٧/ ٤٩٤؛ المقريزي، الذهب المسبوك، ص ٧٩.

(٢٤) الجندي، محمد بن يوسف (ت ٧٣٢هـ)، السلوك في طبقات العلماء والملوك، تحقيق محمد بن علي الأكوع، ط ٢، صنعاء، مكتبة الإرشاد (١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م)، ٥٤١/٢؛ الخزرجي، العسجد المسبوك، ص١٩٣؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ١/ ٥٢.

(٢٥) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١/ ٢٣٧.

الخطر الصليبي الداهم، والمنازعات الأسرية التي كانت على أشدها في تلك الفترة. فأخذ يولي أتباعه، ومن يثق بهم على المدن والحصون اليمنية المختلفة، ويعزل ويبعد من يخشى مقاومته أو مخالفته من النواب الأيوبيين[٢٦]، ولم يكتف بذلك، بل أخذ يوجه حملاته إلى مختلف أقاليم اليمن من أجل السيطرة عليها، وإقرار الأمن فيها[٢٧].

وبعد أن تمكن من احتواء القوى المناهضة له، وآنس من نفسه القوة أعلن استقلاله بحكم اليمن، وخلعه لطاعة بني أيوب، وتلقب بالملك (المنصور)، واتخذ من مدينة تعز عاصمة لدولته، وكان ذلك في سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م[٢٨]. ثم عمل بعد ذلك على استكمال مظاهر استقلاله، فأمر في سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م بضرب السكة باسمه، وإقامة الخطبة له في مختلف أنحاء اليمن[٢٩]. ولصبغ حكمه بالصبغة الشرعية كتب في سنة ٦٣١هـ/ ١٢٣٤م إلى الخليفة العباسي المستنصر بالله (٦٢٣- ٦٤٠هـ/ ١٢٢٦- ١٢٤٢م) يخبره باستقلاله باليمن، ويعلن ولاءه له، ويلتمس منه أن يبعث له تقليداً وتشريفاً بالسلطة والنيابة عنه، وذلك جرياً على عادة الأمراء والسلاطين التابعين لدار الخلافة، فبعث له الخليفة بذلك في سنة ٦٣٢هـ/ ١٢٣٥م[٣٠].

---

(٢٦) ابن حاتم، السمط الغالي، ص٢٠١؛ الجندي، السلوك، ٢/٥٤١؛ الخزرجي، العسجد المسبوك، ص١٩٣؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ١/ ٥٢.

(٢٧) لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى: أحمد، بنو رسول، ص٩١ وما بعدها؛ عليان، الحياة السياسية، ص٤٦ وما بعدها؛ الفيفي، الأحوال السياسية، ص ص١٢- ١٤.

(٢٨) المقريزي، السلوك، ١/٢٤٢.

(٢٩) الجندي، السلوك، ٢/٥٤١؛ الخزرجي، العسجد المسبوك، ص١٩٥؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ١/٥٦.

(٣٠) ابن حاتم، السمط الغالي، ص ص٢٠٦، ٢٠٧؛ الخزرجي، العسجد المسبوك، ص١٩٥؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ١/٥٨- ٥٩؛ الفاسي، العقد الثمين، ٦/٣٤٢- ٣٤٣؛ ابن الديبع، قرة العيون، ص٣٠٣.

وهكذا بذل السلطان المنصور جهوداً كبيرة في سبيل إرساء دولته الناشئة وتثبيت دعائمها، حتى استطاع أن يوحد معظم البلاد اليمنية تحت حكمه، وظل في الحكم حتى قتل على يد بعض مماليكه في قصره بمدينة الجند[٣١] في ذي القعدة سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٥٠م[٣٢]، فخلفه ابنه الأكبر السلطان المظفر يوسف الذي سوف يكون موضوع الصفحات الآتية من هذا البحث.

ترجمة لصاحب النقش:

نسبه ومولده:

هو أبو المنصور المظفر يوسف بن السلطان المنصور عمر بن علي بن رسول، ولد بمكة المكرمة في سنة ٦١٩هـ / ١٢٢٢م، وقيل: سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م، وذلك أثناء ولاية والده لها من قبل الملك المسعود الأيوبي، ولهذا كان يعرف بالمكي نسبة إلى هذه المدينة المباركة[٣٣]، وتوفي في مدينة تعز في يوم الثلاثاء ١٣ رمضان سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٥م عن عمر يناهز الخامسة والسبعين عاماً[٣٤].

حياته العلمية:

نشأ المظفر في كنف والده الذي حرص على تنشئته نشأة علمية دينية سليمة، وتهيئة المؤدبين والمدرسين الأكفاء له، فتشرب حب العلم والعلماء منذ الصغر، ونشأ على ذلك، مما كان له بالغ الأثر في حياته

(٣١) الجند: مدينة مشهورة تقع شرق مدينة تعز بحوالي ٢٥ كم. انظر: الحجري، مجموع بلدان اليمن،١/ ١٤٥.

(٣٢) ابن حاتم، السمط الغالي، ص٢٣٤؛ الحمزي، كنز الأخيار، ص٩٨؛ الجندي، السلوك، ٢/ ٥٤٤؛ ابن عبدالمجيد، بهجة الزمن، ص١٤٣؛ الخزرجي، العسجد المسبوك، ص٢٠٦؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ١/ ٨١.

(٣٣) الخزرجي، العقد الفاخر، ٢/ ٤١٠؛ الخزرجي، العسجد المسبوك، ص ص١٩٤، ١٩٥؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ١/ ٤١.

(٣٤) ابن حاتم، السمط الغالي، ص٥٦٧؛ الحمزي، كنز الأخيار، ص ص١٢٠ - ١٢١؛ الجندي، السلوك، ٢/ ٥٥٣؛ ابن عبدالمجيد، بهجة الزمن، ص١٧١.

العلمية فيما بعد. اشتغل بطلب العلم على كبار علماء وفقهاء عصره، لا في اليمن فحسب، بل وعلى علماء الحرم المكي كذلك، واقتنى نفائس الكتب، وسعى في سماع أسانيد رواية الأحاديث النبوية، فقد ذكر الفاسي[٣٥] أنه سمع الحديث بمكة. وقد وصفه الخزرجي بقوله: "كان مشتغلاً بالعلم، أخذ من كل فن بنصيب"[٣٦].

أما شيوخه فهم كثر، وقد جمع الإمام محب الدين أحمد بن عبدالله الطبري (ت ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م) ما يزيد على خمسين شيخاً من شيوخه في كتاب سماه "المشيخة المظفرية الكبرى"[٣٧]. ولعل من أبرز أولئك الشيوخ الذين صرحت المصادر المتاحة بتتلمذه أو سماعه عليهم، ما يأتي:

١ - الفقيه محمد بن إسماعيل الحضرمي (ت ٦٤٠هـ/ ١٢٤٣م)، أخذ عنه في الفقه الشافعي[٣٨].

٢ - الفقيه إسماعيل بن محمد الحضرمي (ت ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م)، سمع عليه صحيح البخاري[٣٩].

٣ - الفقيه عبدالله بن يحيى الهمداني (ت ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م)، سمع عليه كتاب البيان في الفقه الشافعي، للفقيه يحيى بن أبي الخير العمراني المتوفى سنة ٥٥٨هـ/ ١١٦٢م[٤٠].

٤ - الفقيه يحيى بن إبراهيم بن العمك (ت ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م)، درس عليه علوم النحو واللغة[٤١].

---

(٣٥) الفاسي، العقد الثمين، ٧/٤٨٩.

(٣٦) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ١/٢٣٣.

(٣٧) الوصابي، تاريخ وصاب، ص٧٧.

(٣٨) الخزرجي، العسجد المسبوك، ص٢٧٣؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ١/٢٣٣.

(٣٩) الجندي، السلوك، ٢/٣٧؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ١/١٧٦.

(٤٠) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ١/١٥٦.

(٤١) الخزرجي، العسجد المسبوك، ص٢٧٣؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ١/٢٣٣.

٥ - الفقيه أحمد بن علي السردي (ت ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م)، درس عليه شيئاً من علم المنطق(٤٢).

٦ - الفقيه محمد بن إبراهيم الفشلي (ق ٧ هـ)، أخذ عنه بعض علوم الحديث سماعاً(٤٣).

هذا بالنسبة لشيوخه من داخل اليمن، أما شيوخه من خارج اليمن فجلهم من علماء الحرم المكي، ومن أبرزهم:

١ - القاضي إسحاق بن أبي بكر بن محمد الطبري (ت ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م)، سمع عليه شيئاً من العلم(٤٤).

٢ - الحافظ محب الدين أحمد بن عبدالله الطبري (ت ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م)، محدث الحرم المكي في عهده، وقد وفد إلى اليمن بدعوة من السلطان المظفر، فسمع عليه الأخير أمهات كتب الحديث، كما أخذ عنه معظم مصنفاته، ومنها كتاب: الأحكام الكبرى(٤٥).

ومن هنا يتضح أن السلطان المظفر إلى جانب اشتغاله بالسياسة والحكم، كان عالماً فقيهاً متقناً لكثير من العلوم الدينية وغير الدينية، يقول فيه كذلك شيخه الفقيه محمد بن إسماعيل الحضرمي: "كان المظفر يكتب في كل يوم آية من كتاب الله تعالى، وتفسيرها، فيحفظها ويحفظ تفسيرها عن ظهر قلب غيباً"(٤٦). ويقول الفقيه جمال الدين أحمد بن عبدالله الريمي فيه: "طالعت أمهات كتب الحديث من كتب مولانا الخليفة فوجدتها كلها مضبوطة بخط يده

---

(٤٢) الخزرجي، العسجد المسبوك، ص٢٧٣؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ١/ ٢٣٣.

(٤٣) الجندي، السلوك، ٢/ ٣٢؛ الخزرجي، العسجد المسبوك، ص٢٧٣؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ١/ ٢٣٣.

(٤٤) الفاسي، العقد الثمين، ٣/ ٢٩٢، ٢٩٣.

(٤٥) الجندي، السلوك، ٢/ ٧٩؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ١/ ٢٣٣.

(٤٦) الخزرجي، العسجد المسبوك، ص ٢٨٣؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ١/ ٢٣٤.

حتى أن من رآها يقول لم يكن للسلطان شغل غيرها طول عمره مع كثرة اشتغاله بالعلم في فنون شتى واشتغاله بأمور المملكة"[٤٧]. ويروي الخزرجي[٤٨] أنه طالع جزءاً من تفسير محمد بن عمر المشهور بفخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ) الموجود في مكتبة السلطان المظفر فوجد مكتوباً بخط السلطان ما يأتي: "طالعت هذا التفسير من أوله إلى آخره مطالعة محققة، ورأيت فيه نقصاناً كثيراً، وجاءني من الديار المصرية أربع نسخ من قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز فرأيت فيه النقصان على حاله فلم أقنع بذلك بل اعتقدت أنه من الناسخ، فأرسلت رسولاً قاصداً إلى خراسان إلى مدينة هراة فجاءني بنسخة المصنف، وقد قرأت عليه؛ فرأيت النقصان على حاله وتبييضاً كثيراً". كما يروي الوصابي[٤٩] أن السلطان المظفر كان يقول لابنه السلطان الأشرف عمر: "لا بارك الله في وال في رعيته من هو أعلم منه".

لم يكن السلطان المظفر متضلعاً بالعلوم الدينية فحسب، بل تعداها إلى علوم أخرى كالطب والمنطق وعلوم اللغة العربية وغيرها، يروي الخزرجي[٥٠] أنه لما استولى السلطان المظفر على ظفار الحبوضي - تقع إلى الشرق من حضرموت وتتبع سلطنة عمان حالياً - بعث برسالة إلى السلطان المملوكي الظاهر بيبرس يطلب منه طبيباً لمدينة ظفار هذه، لأنها كانت وبيئة، وكتب في رسالته تلك: "ولا يظن المقام العالي أنا نريد الطبيب لأنفسنا، فإنا نعرف بحمد الله من الطب ما لا يعرفه غيرنا، وقد اشتغلنا فيه من أيام الشبيبة اشتغالاً كثيراً...".

---

(٤٧) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ١/٢٣٤.

(٤٨) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ١/٢٣٤.

(٤٩) الوصابي، تاريخ وصاب، ص٧٧.

(٥٠) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ١/٢٣٤.

وقد صنف السلطان المظفر العديد من الكتب، من أهمها ما يأتي:

١ - الأربعين في الحديث: ويضم عشرين حديثاً في الترغيب، وعشرين حديثاً في الترهيب.

٢ - تيسير المطالب في تسيير الكواكب.

٣ - درج السياسة في علم الفراسة، وما يدل على الخيل من ملاحة وقباحة.

٤ - المعتمد في الأدوية المفردة.

٥ - اللمعة الكافية في الأدوية الشافية.

٦ - المخترع في فنون من الصنع - وقد نشر بتحقيق الدكتور محمد عيسى صالحية (مؤسسة الشراع، الكويت، ١٩٨٩م).

٧ - البيان في كشف علم الطب للعيان.

٨ - العقد النفيس في مفاكهة الجليس[٥١].

فترة حكمه:

كان الوضع في الدولة الرسولية بعد مقتل السلطان المنصور ينذر بالانقسام والتفكك، ومن ثم نهاية الدولة في مرحلة مبكرة من حياتها، وذلك بسبب بعض الإجراءات غير الموفقة التي كان قد اتخذها قبيل مقتله والخاصة بمن يخلفه في الحكم، حيث عمد إلى إبعاد ابنه الأكبر المظفر عن ولاية العهد، وعين مكانه أخاه الأصغر غير الشقيق المفضل، واستحلف له العسكر استجابة لرغبة أم المفضل - بنت جوزة - وقام بإبعاد المظفر عن مركز الدولة وعاصمتها بأن أقطعه مدينة المهجم النائية في

كان الوضع في الدولة الرسولية بعد مقتل السلطان المنصور ينذر بالانقسام والتفكك

(٥١) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ١/٢٣٣- ٢٣٤؛ الحبشي، عبدالله بن محمد، حكام اليمن المؤلفون المجتهدون، بيروت، دار القرآن الكريم، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص ص١١٠- ١١٤.

تهامة[٥٢]، مما تسبب في غضب الأخير وتفكيره - كما يقول الخزرجي - في المسير إلى بغداد؛ لبث شكواه إلى الخليفة العباسي، ولم يثنه عن ذلك إلا وصول الأخبار إليه بمقتل والده[٥٣].

في ظل هذه الظروف لم يكن مستغرباً أن ينشب الصراع بين الإخوة، وليس بينهم فحسب، بل بينهم وبين بعض أبناء عمومتهم أيضاً، وبخاصة فخر الدين أبو بكر بن الحسن بن علي بن رسول، وكان مقطعاً في مدينة فشال[٥٤]، فلما سمع بمقتل عمه زحف على مدينة زبيد، وحاول الاستيلاء عليها، هو وشقيقه أسد الدين محمد، وكان والياً على صنعاء وأعمالها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد كان هذا الوضع المضطرب بالنسبة للدولة الرسولية مشجعاً للمنافسين الآخرين للرسوليين في اليمن، وهم الأئمة الزيديون في أقصى الشمال اليمني، للعمل على مهاجمة مناطق النفوذ الرسولية[٥٥]، وهو الأمر الذي كان يتكرر كلما كانت الظروف مواتية لذلك، كما هي الحال بالنسبة لهذه الفترة.

ودون أن ندخل في تفاصيل الصراع الذي دار بين المظفر وإخوته، فإن ما يهمنا هنا أن المظفر قد استطاع حسم الأمور لصالحه في آخر الأمر، وأن يحكم قبضته على السلطة؛ فقد قام فور علمه بمقتل والده، وقيام بعض مماليكه بنقل جثمانه إلى تعز مكان إقامة ولي عهده وأسرته، حيث تم دفنه، بجمع ما استطاع من العسكر ورجال القبائل، وخرج بهم من المهجم قاصداً مدينة زبيد، أهم مدن اليمن التهامية، والعاصمة الثانية للدولة، فتمكن من الاستيلاء عليها، وإلقاء

---

(٥٢) المهجم: مدينة خربة تقع على وادي سردد في تهامة اليمن. الحجري، مجموع بلدان اليمن، ٢/٧٢٥.

(٥٣) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ١/٨٧.

(٥٤) فشال: بلدة خربة شمال مدينة زبيد. انظر: الحجري، مجموع بلدان اليمن، ٢/٦٣٤.

(٥٥) الخزرجي، العسجد المسبوك، ص٢١١؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ١/٨٨؛ ابن الديبع، قرة العيون، ص٣١٥.

القبض على ابن عمه فخر الدين أبي بكر في أواخر السنة؛ أي: سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٥٠م[٥٦]. وخلال السنة التالية أحكم المظفر قبضته على السلطة بشكل كامل، حيث استطاع خلال الأربعة أشهر الأولى منها الاستيلاء على بقية بلدان تهامة اليمن، بالإضافة إلى ميناء عدن المهم، ولحج، ويافع وغيرها من المناطق اليمنية الجنوبية؛ مما مكنه بعد ذلك من توجيه نشاطه إلى مدينة تعز، عاصمة الدولة، ومقر إقامة المفضل وإخوته ووالدتهم. ولما لم تكن الظروف وموازين القوى في صالحهم، بالإضافة إلى عدم وجود المؤيدين لهم؛ نظراً لاقتناع العسكر والناس بصفة عامة بضعفهم، وأحقية المظفر بالحكم بصفته الابن الأكبر لوالده، ولما يتمتع به من إمكانيات عسكرية وسياسية، فقد تركوا العاصمة، ولجؤوا إلى حصن الدملوة المنيع[٥٧]، فكانت الفرصة سانحة للمظفر لدخول المدينة دون مقاومة تذكر في شهر جمادى الأولى من السنة نفسها[٥٨]. وبذلك يكون المظفر قد استطاع أن يحتوي منافسيه من إخوته، وأن يعيد توحيد معظم أقاليم الدولة الرسولية من جديد، ثم فكر عندئذ في إضفاء الشرعية على سلطته أمام الناس، وذلك عن طريق اعتراف الخليفة العباسي به، فبعث إليه رسولاً يخبره بما حصل في اليمن، ويعلن تمسكه بما كان عليه والده من الولاء والطاعة للخلافة، فما كان من الخليفة - المستعصم - إلا أن اعترف به، وأقره نائباً عنه في اليمن، وبعث له بالخلع والتشريفات التي جرت العادة أن ترسل في مثل تلك المناسبات، وقرر

(٥٦) ابن حاتم، السمط الغالي، ص٢٥٠ وما بعدها؛ الحمزي، كنز الأخيار، ص ص١٠٠- ١٠١؛ ابن عبدالمجيد، بهجة الزمن، ص١٤٥؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ١/٨٨- ٩٠.

(٥٧) الدملوة: يقع جنوب غرب مدينة الجند بحوالي ٣٠ كم. الحجري، مجموع بلدان اليمن، ١/٢٣٦.

(٥٨) ابن حاتم، السمط الغالي، ص٢٦٥ وما بعدها؛ الحمزي، كنز الأخيار، ص ص١٠١- ١٠٢؛ ابن عبدالمجيد، بهجة الزمن، ص ص١٤٦- ١٤٨؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية،١/٩٢.

له عطية سنوية تقدر بأربعين ألف دينار، وهو مبلغ يوازي ما كان يتقاضاه سلاطين الدولة الأيوبية الموالين للخلافة، وحثه على استئصال الأئمة الزيديين في شمال اليمن(٥٩).

وكما استطاع السلطان المظفر أن يحتوي خطر أخوته تمكن - أيضاً - بحنكته السياسية من احتواء خطر أبناء عمه، لا سيما أسد الدين محمد، والي والده على صنعاء، الذي أصبح يشكل جبهة واحدة مع الأئمة الزيديين ضده، فوجه جيوشه صوبهما حيث استطاع الاستيلاء على صنعاء، ومعظم مناطق النفوذ الزيدية الواقعة إلى الشمال منها حتى وصل إلى مدينة صعدة معقل الزيدية الرئيس في اليمن(٦٠).

وفي عهده بسطت الدولة الرسولية نفوذها على إقليم حضرموت، وبعض المناطق الواقعة في جنوب سلطنة عمان في الوقت الحاضر، مثل: ظفار الحبوضي وغيرها، على أثر حملته المشهورة على تلك المناطق في سنة ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م(٦١).

وخلاصة القول: إن السلطان المظفر قد استطاع أن يعيد للدولة الرسولية وحدتها وأمنها واستقرارها، وأن يبسط نفوذه على بلاد اليمن كافة بشمالها وجنوبها، وهي من الحالات القليلة في التاريخ اليمني التي توحدت فيها المنطقة بشكل كامل على مدى العصور التاريخية، ولذلك فقد لقبه العديد من المؤرخين اليمنيين بتبع الأصغر(٦٢). ويعد

---

(٥٩) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ١/٩٦- ٩٧؛ ابن الديبع، قرة العيون، ص٣١٨.

(٦٠) ابن حاتم، السمط الغالي، ص٢٥٨ وما بعدها؛ الحمزي، كنز الأخيار، ص ١٠٢ وما بعدها؛ ابن عبدالمجيد، بهجة الزمن، ص١٤٦ وما بعدها؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ١/٩٧ وما بعدها.

(٦١) ابن حاتم، السمط الغالي، ص٥٠٥ وما بعدها؛ الحمزي، كنز الأخيار، ص١١٢؛ ابن عبدالمجيد، بهجة الزمن، ص١٦٠؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ١/١٨١- ١٨٥.

(٦٢) ابن عبدالمجيد، بهجة الزمن، ص ١٦٠؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ١/٢٣٢. ولمزيد من المعلومات عن عهد السلطان المظفر بشكل عام يمكن الرجوع إلى الدراسات الآتية: أحمد، بنو رسول، ص١١٧ وما بعدها؛ عليان، الحياة السياسية، ص ص٥٣- ٥٦؛ الفيفي، الأحوال السياسية، ص ص١٧- ٢١.

عـهـده أزهـى أيام الدولـة الرسـوليـة في اليـمن على الإطلاق، حـيث شـهدت البـلاد خلاله ازدهـاراً شـامـلاً في شتى مناحي الحيـاة، ومنهـا بالطبع الناحية الحضارية.

أعمال السلطان المظفر الحضارية:

يمثل عصر الدولة الرسولية العصر الذهبي للحضارة الإسلامية في اليمن، لاسيما في حقل العمارة والبنيان، وذلك لما حفل به من تشييد للمساجد، والمدارس، والقصور، والدور، والحصون، والأسوار، والخنادق في مختلف نواحي البلاد اليمنية وأقاليمها(٦٣). وتعد فترة السلطان المظفر من أخصب فترات سلاطين بني رسول وأغناها من حيث المنشآت المعمارية الحضارية، بسبب طول فترة حكمه، مقارنة بغيره، واستقرار الأوضاع في عهده، فضلاً عن القوة الاقتصادية للدولة، واتجه السلطان نفسه ورجال دولته إلى تشييد مثل هذه المنشآت، رغبة في الأجر والثواب، وتخليداً لذكرهم بعد وفاتهم، وغير ذلك. وسوف يتم الاقتصار هنا على المنشآت التي أقامها السلطان المظفر فقط، نظراً لكثرة المنشآت التي أقامها أفراد أسرته، ورجال دولته، وأعيان المجتمع والموسرين، تلك الأعمال التي لا يتسع المجال لذكرها هنا(٦٤).

---

(٦٣) لمزيد من المعلومات حول المنشآت المعمارية الرسولية يمكن الرجوع إلى الدراسات المتخصصة الآتية: الأكوع، محمد بن علي، المدارس الإسلامية في اليمن، ط ٢، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦م؛ الراشد، عبدالله بن إبراهيم، "المنشآت المعمارية الرسولية في اليمن، دراسة تاريخية حضارية"، رسالة ماجستير، قسم التاريخ ـ كلية الآداب، جامعة الملك سعود، ١٤١٢ هـ/١٩٩٢م؛ السنيدي، عبدالعزيز بن راشد، "المدارس وأثرها على الحياة العلمية في اليمن في عصر الدولة الرسولية"، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، نشرت هذه الرسالة مؤخراً في كتاب.

Sadek , noha: Patronage and Architecture in Rasulid Yemen , 626- 858 A.H. 1229-1454 A. D. , PHD ,UNIVERSITY OF TORONTO , CANADA , 1990.

(٦٤) لمزيد من المعلومات عن هذه المنشآت يمكن الرجوع إلى الدراسات الآتية: الراشد، المنشآت المعمارية، أماكن متفرقة؛ السنيدي، المدارس، أماكن متفرقة.

المنشآت الدينية: المساجد، المدارس، الخانقاوات

١ - جامع المظفر بمدينة تعز(٦٥).

٢ - الجامع المظفري بمدينة المهجم(٦٦).

٣ - الجامع الكبير بمدينة حيس(٦٧).

٤ - جامع واسط المحالب(٦٨).

٥ - المسجد الجديد بمدينة تعز، وكان لا يزال قائماً حتى أوائل القرن التاسع الهجري(٦٩).

٦ - مسجد المنسكية - من قرى وادي سهام في تهامة - وكان يضم مدرسة أيضاً(٧٠).

٧ - جامع النوري(٧١).

٨ - المدرسة المظفرية بمدينة تعز(٧٢).

٩ - المدرسة المظفرية بمدينة ظفار الحبوضي(٧٣).

١٠ - خانقاه بمدينة حيس(٧٤).

---

(٦٥) انظر وصف هذا الجامع في: الراشد، المنشآت المعمارية، ص١٣٤ وما بعدها؛ Sadek , OP. Cit. PP.176-192.

(٦٦) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ٢٣٣/١.

(٦٧) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ٢٣٣/١. وانظر وصف هذا الجامع في: الحداد، عبدالله عبدالسلام، مدينة حيس اليمنية، تاريخها وآثارها الدينية، القاهرة، دار الآفاق العربية، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص١٠٨، ص١١٨ وما بعدها.

(٦٨) الأفضل الرسولي، العطايا السنية، ق ٥٧ ب؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ٢٣٣/١.

(٦٩) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ٢٣٣/١.

(٧٠) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ٢٣٣/١.

(٧١) النوري: قرية تقع بين مدينة حيس وزبيد، وسميت بهذا الاسم نسبة إلى مؤسسها السلطان المنصور نورالدين علي بن عمر بن رسول. الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ٨٢/١- ٨٣.

(٧٢) الأفضل الرسولي، العطايا السنية، ق ٥٧ ب؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ٢٣٣/١.

(٧٣) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ٢٣٣/١.

(٧٤) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ٢٣٣/١.

كما تم في عهده تجديد كل من المساجد الآتية: الجامع الكبير بمدينة صنعاء، الجامع الكبير بمدينة ذمار، الجامع الكبير بمدينة صعدة(٧٥).

ولم تقتصر المنشآت الدينية للسلطان المظفر على اليمن فحسب، بل تسجل له المصادر بعض تلك المنشآت التي أقامها، أو صرف على إقامتها في خارج اليمن، ومن أهمها:

١ - جامع في الصين، بناه للمسلمين هناك، وأقام فيه منبراً، وكان يخطب له عليه(٧٦).

٢ - جامع في جزيرة هرمز(٧٧).

٣ - مسجد الشافعي بمدينة جدة(٧٨).

المنشآت المدنية: الدور والقصور

١ - القصر المظفري بناحية وصاب(٧٩).

٢ - قصر ثلا(٨٠).

٣ - دار الضيف بمدينة تعز(٨١).

٤ - دار الضيف بمدينة حيس(٨٢).

ومما حفظه التاريخ للسلطان المظفر - بالإضافة إلى ما سبق ذكره - عنايته بالحرمين الشريفين، وقد صادف عهده سقوط الخلافة العباسية في بغداد، وكذلك سقوط الدولة الأيوبية في مصر والشام،

---

(٧٥) الأفضل الرسولي، العطايا السنية، ق ٥٨.

(٧٦) الأفضل الرسولي، العطايا السنية، ق ٥٨.

(٧٧) الأفضل الرسولي، العطايا السنية، ق ٥٨.

(٧٨) الحداد، مدينة حيس، ص ١١٥.

(٧٩) الوصابي، تاريخ وصاب، ص١١٧.

(٨٠) ابن حاتم، السمط الغالي، ص ص٤٠٤، ٤٠٥. وثلا: مدينة أثرية تقع في شمال غرب مدينة صنعاء بحوالي ٣٤ كم.

(٨١) الأفضل الرسولي، العطايا السنية، ق ٥٨؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ١/٢٣٣.

(٨٢) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ١/٢٣٣؛ الحداد، مدينة حيس، ص١١٦.

وانشغال المماليك بالصراعات الداخلية، وبمواجهة التتار والصليبيين خلال السنوات الأولى من حكمهم، فلم تكن هناك قوة إسلامية تقوم بالعناية بالمقدسات الإسلامية، فكان أن قامت الدولة الرسولية في اليمن، ممثلة في السلطان المظفر، بذلك خير قيام. ومن أهم ما قام به السلطان المظفر في هذا المجال ما يأتي:

١ - أمره في سنة ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م بعمارة الحرم المكي، وأقام منارة وجوامك خدامه(٨٣).

٢ - قيامه بكسوة الكعبة المشرفة بعد سقوط الخلافة العباسية(٨٤).

٣ - قيامه بتحلية باب الكعبة المشرفة بالذهب والفضة في سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م(٨٥).

٤ - قيامه في سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م بإجراء العديد من الإصلاحات في داخل الكعبة المشرفة وخارجها، وكسوة جدرانها وأرضيتها بالرخام(٨٦)، ويتفق ما ذكر هنا في هذا الشأن من معلومات مستقاة من المصادر مع ما وثق في النقش، موضوع هذه الدراسة.

٥ - قيامه بإرسال صناع وآلة ومنبر رمانتاه من الصندل إلى المدينة المنورة عقب الحريق الذي شب في الحرم النبوي الشريف في سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، وقد نصب هذا المنبر موضع منبر النبي ﷺ، وبقي سنين عدة يخطب له عليه(٨٧).

٦ - قيامه بتجديد مسجد عبدالله بن عباس في الطائف(٨٨).

---

(٨٣) ورد في كتاب العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية للخزرجي،ج١، دار صادر - بيروت (نسخة مصورة عن مطبعة دار الهلال)، ص١٢٨ الآتي: "وفي هذه السنة تولى السلطان أمر الحرم الشريف وعمارته. وأقام منارة وخدمة وجوامك خدامه".

(٨٤) الفاسي، شفاء الغرام، ١/٢٤٤.

(٨٥) ابن حاتم، السمط الغالي، ص ص٣٧٧، ٣٧٨؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ١/١٥٢؛ الفاسي، شفاء الغرام، ١/٢٣١.

(٨٦) الفاسي، شفاء الغرام، ١/٢٠٨ - ٢٠٩.

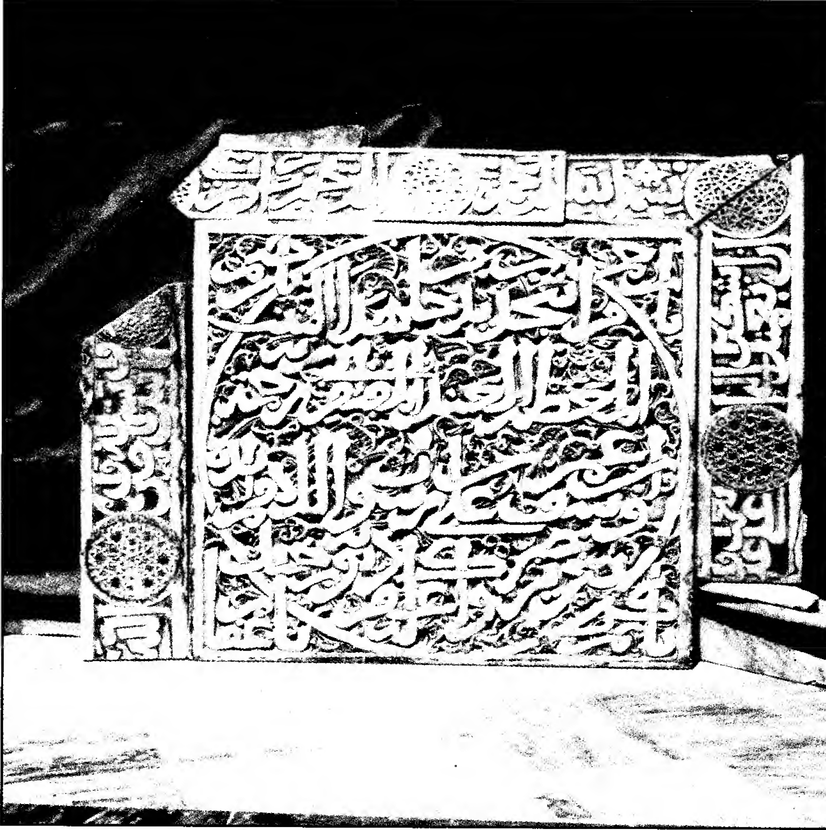
(٨٧) الأفضل الرسولي، العطايا السنية، ق ٥٨.

(٨٨) الأفضل الرسولي، العطايا السنية، ق ٥٨.

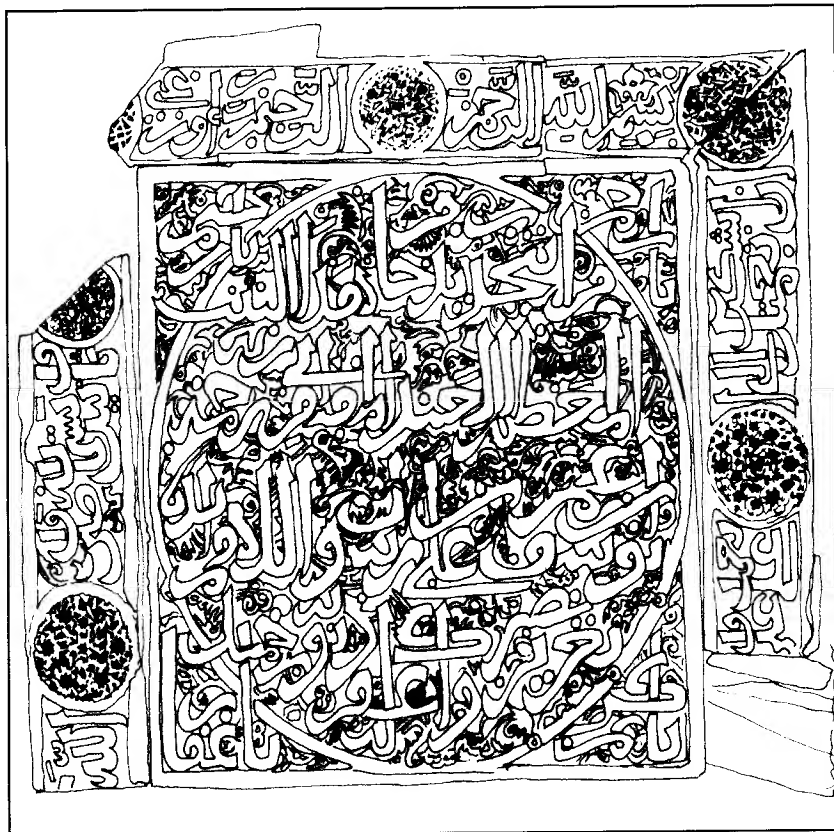
نخلص مما سبق إلى أهمية الكتابات الإسلامية على وجه العموم، والتأسيسية أو التجديدية منها على وجه الخصوص، ودورها البارز في الكشف عن معلومات تاريخية جديدة، أو تصحيح، أو ترجيح رواية تاريخية على أخرى، وذلك لما تتمتع به من صدقية ومعاصرة للفترات التاريخية التي سجلت خلالها.

كما يتضح مما سبق أهمية هذا اللوح التجديدي، حيث يعد وثيقة تاريخية وأثرية ذات أهمية خاصة، فهو يوثق ويؤرخ لما قام به السلطان المظفر يوسف بن عمر بن رسول من تجديدات لرخام الكعبة المشرفة في سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م. كما نخلص مما سبق إلى أن هذه اللوحة التجديدية يمكن أن يضاف إلى قيمتها التاريخية والأثرية أهمية أخرى، تتمثل في قيمتها الخطية، ونقلها لصورة ورسم الحرف بخط الثلث إبان تلك الحقبة المهمة من تاريخ مكة المكرمة.

الملاحق



صورة النقش



تفريغ النقش

الحرف	البداية		الوسط		النهاية	
	مفرد	مركب	مفرد	مركب	مفرد	مركب
أ						
ب						
ت						
ث						
ج						
ح						
خ						
د						
ذ						
ر						

جدول أشكال الحروف

الحروف	البداية		الوسط		النهاية	
	مفرد	مركب	مفرد	مركب	مفرد	مركب
ز						
س						
ش						
ص						
ض						
ط						
ظ						
ع						
غ						
ف						
ق						
ك						
ل						

تابع - جدول أشكال الحروف

الحروف	البداية		الوسط		النهاية	
	مفرد	مركب	مفرد	مركب	مفرد	مركب
م						
ن						
هـ						
و						
ي						
لا						
لفظ الجلالة	الله	الله				

تابع - جدول أشكال الحروف

نفوذ القُواد العُمَّرة والحُمَيضَات لدى أشراف مكة المكرمة (٧٣٧- ٨٧٣هـ/ ١٣٣٦- ١٤٦٨م)

د. عبدالرحمن بن مديرس المديرس
قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الملك سعود

تختص هذه الدراسة بالبحث في فئة كان لها دور كبير في الحياة العامة في مكة المكرمة خلال فترة الدراسة، وهي فئة القواد، وعلى وجه الخصوص العُمَّرة والحُميضَات.

يتطلب الحديث في هذا الموضوع إعطاء تعريف لمدلول قواد؛ فالقواد لغةً مفردها قائد، ويراد به اصطلاحاً المتقدم[١]. أما اصطلاحًا فهم "أكابر أتباع أشراف مكة"، "وهم بمثابة الأمراء للملوك"[٢].

ويمثل هؤلاء القواد طبقة مهمة من طبقات المجتمع المكي، فهم يأتون في الأهمية بعد طبقة الأشراف[٣]. غير أنهم في الواقع لا يملكون

---

(١) ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م): لسان العرب، إعداد وتصنيف يوسف خياط، د. ط، دار لسان العرب، بيروت، د. ت، ج٣، ص١٨٤؛ الزبيدي، محمد مرتضى (ت ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م): تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق عبدالستار أحمد فراج، د. ط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م، ج٩، ص٨٠- ٨١.

(٢) القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، د. ط، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ج٤، ص٢٧٦.

(٣) العبيكان، طرفة: الحياة العلمية والاجتماعية في مكة المكرمة في القرنين السابع والثامن للهجرة، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤١٦هـ، ص٢٣٩-٢٤٢.

جيشاً خاصاً بهم، بل هم جزء من التركيبة السياسية العسكرية للسلطة في مكة المكرمة.

وقد كان لهم قوة ونفوذ كبيران بحيث يستطيعون التأثير على الأوضاع السياسية في مكة المكرمة، وكان الأشراف بأمس الحاجة لدعم هؤلاء القواد ومساندتهم سياسياً وعسكرياً.

وفي هذه الدراسة سأركز على فئتين من هؤلاء القواد، وهم من عرفوا بالقواد العُمَّرة، والقواد الحُمَيضات، ومدى نفوذهم وتأثيرهم على الأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية في مكة المكرمة خلال الفترة الممتدة ما بين ٧٣٧- ٨٧٣هـ/ ١٣٣٦- ١٤٦٨م. غير أنه لابد أولاً من إعطاء فكرة عن أصل تسمية كلتا هاتين الفئتين.

ينتسب القواد العمرة إلى جدهم عمر بن مسعود المكي، وكان مسعود مولى لأبي سعد الحسن بن علي بن قتادة أمير مكة المكرمة (٦٤٧- ٦٥١هـ/ ١٢٥٠-١٢٥٤م)[٤].

أما القواد الحميضات فهم نسبة بالولاء إلى شريف مكة المكرمة حميضة بن أبي نمي محمد بن أبي سعد الحسن بن علي بن قتادة (٧٠١-٧٢٠هـ/ ١٣٠١-١٣٢٠م)[٥].

وقبل أن ندخل في سياق الحديث عن موضوع الدراسة يحسن بنا أن نعطي عرضاً سريعاً عن الأحوال العامة في مكة المكرمة خلال فترة الدراسة.

الأحوال السياسية:

في أواخر القرن السادس الهجري، وبالتحديد في سنة (٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) سيطر الشريف قتادة بن إدريس الحسني القادم من ينبع

---

(٤) الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد (ت ٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م): العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق فؤاد سيد، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ج٢، ص٧٢؛ وانظر في ترجمة حسن بن علي بن قتادة. الفاسي: العقد الثمين، ج٤، ص١٦٠-١٦٣.

(٥) عن سيرة الشريف حميضة انظر الفاسي: العقد الثمين، ج٤، ص٢٣٢- ٢٤٩.

على مكة المكرمة، وأسس بذلك حكم أسرة بني قتادة[٦]. وتعد فترة حكم الشريف أبي نمي محمد بن أبي سعد الحسن بن علي بن قتادة أطول فترة في حكم هذه الأسرة حيث امتدت خمسين عامًا تقريبًا (٦٥٢-٧٠١هـ/١٢٥٤-١٣٠١م) واستطاع بفضل قوة شخصيته وحنكته السياسية أن يحافظ على استقلال مكة المكرمة في وجه مطامع الدولتين المملوكية والرسولية[٧].

ومن أبرز أمراء مكة المكرمة من أشرافها بعد وفاة أبي نمي، الشريف عجلان بن رميثة بن أبي نمي (٧٤٤- ٧٧٤هـ/ ١٣٤٣- ١٣٧٣م)، وابناه أحمد (٧٧٤-٧٨٨هـ/ ١٣٧٣-١٣٨٦م)، وحسن (٧٩٨- ٨٢٩هـ/ ١٣٩٥ - ١٤٢٦م). والأخير تولى إمارة مكة المكرمة أكثر من مرة، وابنه بركات (٨٢٩- ٨٥٩هـ/ ١٤٢٦- ١٤٥٥م)[٨]. ثم حفيده محمد بن بركات الذي تولى إمارة مكة المكرمة بين عامي (٨٥٩- ٩٠٣هـ/ ١٤٥٥ - ١٤٩٧م).

وقد اتصفت العلاقات بين أمراء مكة المكرمة من الأشراف، والدولة المملوكية بالتذبذب وعدم الاستقرار؛ فتارة تكون العلاقات جيدة، وتارة تصبح سيئة، كما استغل سلاطين المماليك الصراع بين الأشراف؛ للتدخل في شؤونهم، وتوطيد نفوذهم في مكة المكرمة.

الأوضاع الاقتصادية:

تقع مكة المكرمة "بوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ" كما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وتحف بها جبال الحجاز، واشتهرت منذ القدم

---

(٦) الفاسي: العقد الثمين، ج٧، ص٣٩-٤٠.

(٧) الفاسي: العقد الثمين، ج٧، ص٤٥٦-٤٧١.

(٨) عن فترة حكم الأشراف في مكة المكرمة في تلك الفترة انظر مورتيل، ريتشارد: الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص٥٠ - ١٧٢.

بقلة الزراعة عدا الوديان القريبة منها التي تعد مورداً أساسياً لتموينها بحاجاتها من المحاصيل الزراعية، ومنها وادي مر(٩)، ووادي نخلة(١٠)، كما أن للطائف أثراً كبيراً في تزويد مكة المكرمة بحاجتها من الفواكه(١١)، غير أنه نتيجة للقحط الذي واجه الحجاز في فترات مختلفة من تاريخه اعتمدت مكة المكرمة على المساعدات الاقتصادية التي تأتيها من داخل الجزيرة العربية، وفي مقدمة ذلك إقليم اليمامة، ومن خارجها مثل: الشام ومصر. كما كان بين الحجاز وتلك الأقاليم مبادلات تجارية(١٢).

وتعد الحرف والصناعات من أبرز مناشط الحياة الاقتصادية في مكة المكرمة، ومن تلك الحرف العطارة، والخياطة، والنجارة، والدهان، والمعمار، والبناء، وغيرها. كما أن للتجارة أهمية كبيرة في حياة مكة المكرمة الاقتصادية، حيث اعتمدت على ميناء جدة في تجارتها، وعلى ما يحمله حجاج الجزيرة العربية والأقطار الأخرى من السلع، وتتصف مكة بوجود عدد من الأسواق قريبة من المسجد الحرام، مثل: سوق البزازين، وسوق العطارين، وسوق الحبوب، وسوق الفواكه، وغيرها(١٣).

---

(٩) وادي مَرّ: يقع على طريق حجاج مصر والشام، وهو (مَرّ الظهران) يسمى حالياً وادي فاطمة. أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن محمد (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م): تقويم البلدان، دار الطباعة السلطانية، باريس، ١٨٤٠م، ص٩٥؛ ابن بطوطة، أبو عبدالله محمد بن إبراهيم اللواتي (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م): تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروفة برحلة ابن بطوطة، دار صادر، بيروت، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م، ص١٣٠؛ البلادي، عاتق بن غيث: معجم معالم الحجاز، دار مكة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ١٣٩٨- ١٤٠٢هـ، ج٨، ص١٠٠- ١٠٥.

(١٠) يعتقد أن المقصود به نخلة الشامية واد من أودية الحجاز، أحد رافدي مَرّ الظهران. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٩٥؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٢٥٩؛ عاتق البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٩، ص٤٠ - ٤٣.

(١١) ابن الأصبغ، عرام السلمي (ت ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م): أسماء جبال تهامة وسكانها، تحقيق عبدالسلام هارون، نوادر المخطوطات، المجموعة الثامنة، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ج٢، ص٤٥٠؛ عاتق البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٥، ص٢١٩-٢٢٤.

(١٢) ريتشاد مورتيل: مصادر التموين الغذائي لإمارة مكة، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، المجلد الثاني عشر، العدد الأول، ١٩٨٥م، ص ١٩٥- ١٩٧.

(١٣) ريتشارد مورتيل: مصادر التموين الغذائي، ص٢٠٠ - ٢٠٦.

الأحوال الاجتماعية:

كان المجتمع المكي يتألف من فئات عدة، يأتي على رأسها:

- الأشراف: الذين يمثلون الطبقة الحاكمة، وينتهي نسبهم إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ويستقر قسم منهم في داخل مكة المكرمة وخارجها، وخاصة في أوديتها، ويقطن قسم ثانٍ في وادي ينبع(١٤)، وقسم ثالث يستقر في الواديين(١٥).
- القواد: وهم طبقة متميزة في المجتمع المكي وهم مجال دراستنا.
- سكان مكة المكرمة الأصليون: وهم عرب ينتمون إلى قبائل الحجاز، وعلى رأسها قبيلة قريش.
- المجاورون: وهم أجناس مختلفة قدمت إلى مكة المكرمة بقصد الحج أو طلب العلم، واستقروا بها، واندمجوا في مجتمعها، وينتمي هؤلاء إلى أقطار عدة منها: اليمن، ومصر، والشام، والهند، وفارس، والمغرب وغيرها(١٦).

---

(١٤) ينبع: موضع بين المدينة والبحر الأحمر، وهي المعروفة الآن بينبع النخل، وفيها حصن لبني الحسن بن علي، فيه نخيل وماء وزرع. ياقوت، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت الحموي البغدادي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ج٥، ص٤٤٩- ٤٥٠.

(١٥) الواديان: هما الشاقتان الشامية واليمانية، جنوب الليث على بعد أكثر من ٢٠٠ كم إلى الجنوب من مكة المكرمة. عاتق البلادي: معجم معالم الحجاز، ج١٠، ص١٠٥؛ الزيلعي، أحمد بن عمر: نقوش إسلامية من حمدانة بوادي عليب، الرياض، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص٢٠- ٣٧.

(١٦) السباعي، أحمد: تاريخ مكة المكرمة، دار مكة، مكة المكرمة، ١٤٠٩هـ/١٩٧٩م، ج١، ص٣٢١- ٣٢٦؛ عنقاوي، عبدالله عقيل: مكة في عهد الشريف قتادة (٥٩٧-٦١٧هـ)، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، المجلد الثاني عشر، العدد الأول، ١٩٨٥م، ص ٩٦ - ٩٧؛ طرفة العبيكان: الحياة العلمية والاجتماعية في مكة، ص٢٣٥- ٢٤٥؛ منى المشاري: المجاورون في مكة والمدينة في العصر المملوكي (رسالة ماجستير) غير منشورة، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٠٩هـ، ص٣٣.

وكان الرجل في المجتمع المكي يلبس الثياب الفضفاضة، ويتحزم عليها، كما تلبس المرأة القنوع والبرقع، أما أكلاتهم المفضلة فتشمل اللحم والسمن والخبز(١٧)، ولهم عاداتهم الخاصة في الزواج(١٨). وبعض المناسبات العربية مثل: الاحتفال باستهلال الأشهر العربية، والخروج إلى العمرة ليلة هلال رجب، والاحتفال في الحرم الشريف بختم بعض أبناء أعيان مكة المكرمة القرآن الكريم، وكسوة الكعبة المشرفة(١٩).

بعد هذا التمهيد فإن هذه الدراسة تتركز حول نفوذ القواد العمرة والحميضات في مكة المكرمة، وقد قسمتها إلى عدد من المحاور على النحو الآتي:

- النفوذ السياسي.
- النفوذ العسكري.
- النفوذ الاقتصادي.
- النفوذ الاجتماعي.

أولاً: النفوذ السياسي

بداية لابد من القول: إن النفوذ السياسي لأي جماعة أو فئة أو فرد يتمثل في أوجه عدة، يأتي على رأسها ممارسة الضغوط السياسية أو الانحياز إلى طرف من أطراف الصراع السياسي أو التأثير في القرار السياسي لتلك الفئات.

---

(١٧) ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م): تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار المعروفة برحلة ابن جبير، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص٩٧- ٩٩؛ ابن المجاور، جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م): تاريخ المستبصر، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٥١م، ج١، ص٦.

(١٨) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١٢٩- ١٢٣، ١٤٩؛ ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ج١، ص٦- ٨.

(١٩) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١٥٧؛ ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ص ١٤٨- ١٤٩.

منذ أواخر القرن السادس الهجري برز القواد بصفتهم عنصراً أساساً في موازين القوى السياسية المختلفة في مكة المكرمة، في ظل الصراع على السلطة بين الأشراف الحسنيين، وبخاصة الهواشم أمراء مكة المكرمة والشريف قتادة[٢٠] المسيطر على ينبع، وتمثل ذلك بصورة واضحة في الدعمين السياسي والعسكري اللذين قدمهما القواد للشريف قتادة الذي قدم من ينبع، ودخل في صراع مع أسرة الهواشم ممثلة في أميرها مكثر بن عيسى[٢١]، مستغلاً الظروف التي تمر بها تلك الأسرة من انهماك باللهو، وتبسط في الظلم؛ مما أثار عليها جماعة من قوادها؛ فاستمالهم قتادة لصفه؛ مما أدى إلى تحقيقه النصر على مكثر[٢٢]، وسيطرته على مكة المكرمة سنة (٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م) على أرجح الأقوال[٢٣].

ولم يحدد الفاسي أو غيره فئات هؤلاء القواد أو أسماءهم، كما لم تشر المصادر إلى دور لهم طوال القرن السابع الهجري، وربما يرجع ذلك إلى أمور عدة، منها قوة شخصية الشريف قتادة، وسيطرته

---

(٢٠) قتادة بن إدريس الحسني، ولي أمر مكة المكرمة عشرين سنة بين عامي ٥٩٧-٦١٧هـ. ابن فهد، عز الدين عبدالعزيز بن عمر (ت ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م): غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، ط١، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ج١، ص٥٥٠- ٥٧٧.

(٢١) مكثر بن عيسى، أمير مكة المكرمة بين عامي ٥٧١- ٥٩٧هـ، "وبمكثر انقضت ولاية الهواشم بمكة". عزالدين بن فهد: غاية المرام، ج١، ص٥٣٨- ٥٤٤.

(٢٢) الفاسي: العقد الثمين، ج٧، ص٤٠؛ ابن فهد، نجم الدين عمر بن محمد، (ت ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م): إتحاف الورى بأخبار أم القرى، ج٣، تحقيق فهيم محمد شلتوت جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٤هـ، ج٤، تحقيق عبدالكريم علي باز، ج١، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ج٢، ص٥٦٧؛ عزالدين بن فهد: غاية المرام، ج١، ص٥٥٢؛ المديرس، عبدالرحمن بن مديرس، علاقات مكة الخارجية في عهد الشريف قتادة، مداولات اللقاء العلمي السنوي الثالث لجمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية: مسقط، جامعة السلطان قابوس، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص ٢٦٦.

(٢٣) ابن عنبة، أحمد بن علي الحسني (ت ٨٢٨هـ/ ١٤٢٤م): عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، مجموعة الرسائل الكمالية (٨)، في الأنساب، مكتبة المعارف، الطائف، ١٤٠٠هـ، ص ٢٣٩؛ الفاسي: العقد الثمين، ج٧، ص٣٩-٤٠.

التامة على السلطة خلال فترة حكمه التي امتدت بين عامي (٥٩٧ - ٦١٧هـ/ ١٢٠٠-١٢٢٠م)، ثم محاولة الأيوبيين الهيمنة على السلطة في مكة المكرمة، وما تلاه من صراع أيوبي رسولي للسيطرة على مكة المكرمة، وهيمنة أبي نمي على مقاليد الأمور في مكة المكرمة، والذي امتاز بشخصية قوية لم تمكن القواد من إبراز دورهم في الحياة السياسية خلال تلك الفترة[٢٤].

وبعد وفاة الشريف أبي نمي (٧٠١هـ/ ١٣٠١م) انقسم أبناؤه إلى جناحين هما: جناح حُميضة ورميثة، وجناح عطيفة وأبي الغيث، وقد تولى الجناح الأول الممثل في حميضة ورميثة السلطة في مكة المكرمة وحكماها مشاركة بينهما، بحيث تمكنا من السيطرة على الأوضاع بدعم من بعض الأشراف والقواد، فيما مالت طائفة منهم إلى أخويهما عطيفة وأبي الغيث، ونلحظ أن دور القواد بدأ في البروز في ظل الصراع على السلطة، وهو سمة من سمات الضعف في الأوضاع السياسية في مكة المكرمة. وقد خسر عطيفة وأبو الغيث ذلك الصراع: فقبض عليهما، "وأقاما في الحبس مدة، ثم احتالا؛ فخرجا، وركبا إلى بعض الأشراف والقواد، فمنعوا منهما؛ ثم توجها إلى ينبع"[٢٥]. إلاّ أن عطيفة ما لبث أن عاد إلى مكة المكرمة سنة (٧١٩هـ/ ١٣١٩م) متولياً للسلطة بأمر من السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون، وبعد أن استقر له الأمر كتب للسلطان المملوكي يخبره "أن القواد في طاعته، وأن حميضة نزح إلى اليمن، وفارقه بنو شعبة[٢٦] وغيرهم،

---

(٢٤) الفاسي: العقد الثمين، ج١، ص٤٥٦-٤٧١؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص١٣٤.

(٢٥) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص١٦٣؛ عز الدين بن فهد: غاية المرام، ج٢، ص٥٤- ٥٥؛ الخزرجي، علي بن الحسن (ت ٨١٢هـ/ ١٤٠٩م): العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ج١، ص٣٣٥ - ٣٣٦.

(٢٦) بنو شعبة: بطن من كنانة، كانت منازلهم قرب مكة المكرمة مما يلي اليمن. كحالة، عمر رضا: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ج٢، ص٥٩٦؛ عاتق البلادي: معجم قبائل الحجاز، ص ٢٤٧.

وكثر الأمن والعدل، ورخصت الأسعار"[٢٧] وفي سنة (٧٣٠هـ/ ١٣٣٠م) انضم بعض القواد إلى مبارك بن عطيفة أمير مكة المكرمة ضد أمير الركب العراقي، فقتله[٢٨]. ومن هنا يتضح مدى تعاظم نفوذ القواد بعد وفاة أبي نمي.

غير أن المصادر لم تحدد نسبة هؤلاء القواد وأصولهم، ولعل أول إشارة إلى القواد العُمَّرة كانت على وجه التحديد في سنة (٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م) حينما أشار الفاسي إلى أحد أعيان القواد العمرة، ويدعى منصور بن عمر بن مسعود المكي[٢٩]، الذي لم يتضح دوره في الصراع السياسي في تلك الفترة. وفي أثناء الصراع الدائر بين الشريفين عطيفة ورميثة للسيطرة على مكة المكرمة برز قائد آخر من القواد العمرة هو محمد بن عبدالله بن عمر بن مسعود المكي، وبعد مقتله على يد الشريف مبارك بن عطيفة انضم القواد العمرة إلى الشريف رميثة[٣٠].

ونلحظ أن القائد المذكور هو ابن أخ منصور بن عمر سابق الذكر وحفيد عمر بن مسعود الذي ينسب القواد إليه، ويعرفون بذوي عمر. وقد انتقم الشريف مبارك بن عطيفة من القواد العمرة على انضمامهم لعمه الشريف رميثة بأن أرسل أخاه مسعوداً إلى واديساية[٣١] لقطع نخيل القواد ذوي عمر[٣٢].

---

(٢٧) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص١٦٣.

(٢٨) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج١، ص١٩٠.

(٢٩) الفاسي: العقد الثمين، ج٧، ص٢٨٥.

(٣٠) الفاسي: العقد الثمين، ج٢، ص٧٣؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٢٠٧ - ٢٠٨. وقد قتل القائد محمد بن عبدالله بن عمر حينما ذهب لاستخلاص محمد بن الزين القسطلاني من الشريف مبارك بن عطيفة.

(٣١) وادي سايه: هو واد من أودية الحجاز، كثير العيون والقرى. عاتق البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٤، ص١٦٠-١٦٣.

(٣٢) الفاسي: العقد الثمين، ج٣، ص٢٠٩.

ونرى صورة أخرى للنفوذ السياسي للقواد من وجودهم إلى جانب أمير مكة المكرمة وزعماء الأشراف في استقبال القيادات الإسلامية القادمة إلى مكة المكرمة بقصد أداء فريضة الحج، ومن هؤلاء على سبيل المثال السلطان الرسولي الملك المجاهد علي[٣٣] صاحب اليمن الذي قام بزيارة مكة المكرمة سنة (٧٤٢هـ/ ١٣٤٢م)، وكان في خدمته الشريف ثقبة ابن صاحب مكة المكرمة الشريف رميثة بن أبي نمي، فخرج الجميع إلى يلملم[٣٤] لاستقباله، وبعد أدائه فريضة الحج غادر إلى اليمن، وكان الأشراف والقواد في خدمته طوال إقامته بمكة المكرمة إلى أن عاد إلى بلاده[٣٥]. كما تمثل النفوذ السياسي للقواد في تدخلهم لوقف الصراع بين زعماء الأشراف، ومن ذلك ما حدث في سنة (٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م) حينما "حصل بين الشريفين عجلان وثقبة وحشة، وكان عجلان بمكة المكرمة، وثقبة بالجديد[٣٦]، ثم خرج عجلان إلى الوادي لقتال ثقبة، فلما أن بلغ الدكناء[٣٧] وأرض خالد[٣٨] رام المسير إلى ثقبة؛ فمنعه القواد من ذلك"[٣٩].

---

(٣٣) المجاهد علي الرسولي سلطان الدولة الرسولية باليمن (٧٢١- ٧٦٤هـ/ ١٣٢١- ١٣٦٣م). يحيى بن الحسين (ت ١١٠٠هـ/ ١٦٨٨م): غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨م، ج١، ص٤٩٤- ٥١٩.

(٣٤) يلملم: موضع على ليلتين من مكة المكرمة، وهو ميقات أهل اليمن وفيه مسجد معاذ بن جبل رضي الله عنه، ويقع حاليًا على بعد ١٠٠ كم جنوب مكة المكرمة. ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص٤٤١.

(٣٥) الخزرجي: العقود اللؤلؤية، ج٢، ص٧٠؛ الفاسي: العقد الثمين، ج٦، ص١٦٩ - ١٧٠، نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٢٢٠ - ٢٢٣.

(٣٦) الجديد: قرية في إضم بمنطقة الليث. الجاسر، حمد: المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، الطبعة الأولى، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ج١، ص٢٣٥.

(٣٧) الدكناء: من وادي مَرّ. نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٥، ص٤٦٠.

(٣٨) أرض خالد: لعلها من وادي مَرّ. نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٢٤١.

(٣٩) الفاسي: العقد الثمين، ج٣، ص٣٩٦، ج٦، ص٦٢؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٢٤١.

وحينما اصطلح الشريفان عجلان وثقبة سنة (٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م) على اقتسام الإمرة بينهما اقتسما أيضاً المماليك الذين كانوا بحوزة الشريف عجلان، وعددهم خمسون، كما انقسم الأشراف والقواد في ولائهم ودعمهم للشريفين(٤٠)، بحيث اتخذ فريق منهم جانب الشريف عجلان، وفريق آخر انضم إلى أخيه ومنافسه على السلطة ثقبة.

عاد الصراع من جديد بين عجلان وثقبة، واستطاع الشريف عجلان استمالة القواد إلى جانبه؛ مما حدا بثقبة للخروج من مكة المكرمة سنة (٧٥٨هـ/ ١٣٥٧م)؛ لإحساسه بفقد الدعم السياسي من جانب الأشراف والقواد، غير أن الشريفين ما لبثا أن اصطلحا في أواخر ذي القعدة (٧٥٨هـ/ ١٣٥٧م)(٤١).

ثم انفرد عجلان بالإمرة بمكة المكرمة بعد وفاة أخيه ثقبة سنة (٧٦٢هـ/ ١٣٦١م)(٤٢)، ودعم مركزه السياسي بأن جعل لابنه أحمد "ربع المتحصل لأمير مكة يصرفه في خاصة نفسه"(٤٣)، وكان يقصد من وراء ذلك إشراك ابنه في الإمرة بعد وفاة أخيه ثقبة، وأمر ابنه سنة (٧٦٢هـ/ ١٣٦١م) أن يقصد أخواله القواد ذوي عمر ليدعموه"(٤٤). فنجح الابن في مسعاه؛ وبذلك قوّى الشريف عجلان من مركزه السياسي في مواجهة إخوته، وبخاصة الشريف سند الذي انتقل بعد

(٤٠) الفاسي: العقد الثمين، ج ٣، ص٣٩٧؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٢٦٩.

(٤١) الفاسي: العقد الثمين، ج٣، ص٣٩٨؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٢٧٢.

(٤٢) الفاسي: العقد الثمين، ج٣، ص٣٩٨؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٢٩١؛ الزيلعي، أحمد بن عمر، نظام المشاركة في الحكم لدى أشراف مكة (٦٤٧- ٩٢٣هـ/ ١٢٤٩- ١٥١٧م): مجلة الدارة، ع٣ س١٤ (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م)، ص ٦٨.

(٤٣) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٢٩١.

(٤٤) الفاسي: العقد الثمين، ج٦، ص٦٨؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٢٩٢.

هذا التطور في موازين القوى السياسية إلى وادي نخلة، ثم إلى الطائف، ثم إلى المدينة، ثم إلى ينبع(٤٥).

ولم يكن الوضع السياسي في مكة المكرمة يسير على وتيرة واحدة، بل إن القواد كانوا في بعض مراحل الصراع ينضمون لأحد الأطراف على حساب طرف آخر، فحينما تدخلت السلطة المملوكية بين الشريف عنان بن مغامس بن رميثة والشريف علي بن عجلان بن رميثة، وتمكنت من التوصل إلى اتفاق بينهما للمشاركة في السلطة بمكة المكرمة سنة (٧٩٢هـ/ ١٣٩٠م) اتفق الطرفان على أن يكون القواد مع عنان والأشراف مع علي، كما جُعِلَ لكل منهما نواب، واقتسما الإيرادات(٤٦)؛ وذلك لإيجاد نوع من التوازن السياسي والعسكري والاقتصادي بينهما.

غير أن الأوضاع السياسية ما لبثت أن تغيرت حينما استطاع آل عجلان سنة (٧٩٤هـ/ ١٣٩٢م) إفساد العلاقة بين الشريف عنان والقواد الذين كانوا إلى جانبه، ولذلك تخلوا عن نصرته حين طلب منهم ذلك(٤٧). وقد انعكست تلك الخلافات على أعيان الأشراف والقواد الذين لم يتمكنوا من الحج في سنة (٧٩٤هـ/١٣٩٢م) نتيجة مواقف الشريف علي بن عجلان الذي اعتقل كثيراً من أعيان الأشراف والقواد العمرة والحميضات، وطالبهم بما وهبهم من الخيل والدروع، ثم أطلق سراح أكثرهم بعد أن استجابوا لذلك(٤٨). لكنه

---

(٤٥) الفاسي: العقد الثمين، ج٦، ص٦٨؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص ٢٩١ - ٢٩٢.

(٤٦) الفاسي: العقد الثمين، ج٦، ص٤٣٨؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٣٧٧.

(٤٧) الفاسي: العقد الثمين، ج٦، ص٤٣٩؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٣٨٣.

(٤٨) الفاسي: العقد الثمين، ج٦، ص٢١٠- ٢١١؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٣٨٥ - ٣٨٦.

أبقى بعضهم وخاصة من الأشراف، ومنهم محمد بن سيف بن أبي نمي، وقد تمكن أحد القادة العمرة ويدعى كبيش بن سنان بن عبدالله العمري من التوسط لإطلاق سراح محمد بن سيف ومن معه؛ وهذا يدل على مدى نفوذ القواد في الحياة السياسية في مكة المكرمة خلال تلك الفترة[٤٩].

هذا يدل على مدى نفوذ القواد في الحياة السياسية في مكة المكرمة خلال تلك الفترة

كما يؤكد الدور الفاعل للقواد العمرة والحميضات ومدى نفوذهم السياسي ما حدث في سنة (٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م) حينما استولى بعض الأشراف آل أبي نمي، ويحتمل أن بينهم محمد بن سيف بن أبي نمي على جدة، وحاولوا الاستيلاء على مركب وصل إليها من مصر محملاً بالقمح والشعير والفول؛ فتدخل القواد العمرة والحميضات، وأقنعوا الشريف علي بن عجلان لإعطائهم أربعمئة غرارة[٥٠]، فلم يرضوا بذلك، فزادها مئة؛ فرحل الأشراف عن جدة[٥١]، وكان رحيل الأشراف عن جدة أمرًا طبيعيًا لكونهم دخلوا بهدف السلب والنهب. ومن هنا نلحظ الدور الحاسم للقواد العمرة والحميضات في إقناع الأشراف على الرحيل من جدة.

ولتدعيم سلطته كان شريف مكة المكرمة يقوم بزيارات لبعض المناطق القريبة من مكة المكرمة والخاضعة لنفوذه، وكان يصطحب معه في زياراته أعيان الأشراف والقواد تأكيدًا لقوته واستقرار الأوضاع السياسية لإمارته، ومن ذلك ما حدث في سنة (٨٠٤هـ/ ١٤٠١م)

---

(٤٩) الفاسي: العقد الثمين، ج٦، ص٢١١؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٣٨٦.

(٥٠) تعادل الغرارة المكية سبع ويبات مصرية. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م): السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ط٢، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م.

(٥١) الفاسي: العقد الثمين، ج٦، ص٢١٢؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٣٨٨ - ٣٨٩.

حينما توجه الشريف حسن بن عجلان[٥٢] أمير مكة المكرمة إلى حلي بن يعقوب[٥٣] نتيجة صراع بين قبيلة كنانة وصاحب حلي دريب بن أحمد بن عيسى. وقد صحب أمير مكة المكرمة في زيارته القواد العمرة والحميضات إضافة إلى الأشراف آل أبي نمي، ومن انضم إليهم من زُبيد[٥٤]، وكلما مر على منطقة أخذ كل من له نفوذ معه إلى حلي[٥٥].

ويبدو أن الشريف حسن بن عجلان كان يرغب من وراء اصطحابه هؤلاء تحقيق هدفين أساسيين:

١ - تأكيد قوته ومدى نفوذه وسيطرته على المنطقة.

٢ - خشيته من استغلال بعض هؤلاء القادة والزعامات انشغاله وغيابه عن مكة المكرمة للثورة ضده أو دعم أجنحة مضادة له.

وفي خضم الصراع السياسي والعسكري بين الأشراف ممثلة في أمير مكة المكرمة والمناوئين له توصل الشريف حسن بن عجلان سنة (٨٠٤هـ/١٤٠١م) إلى صلح بينه وبين الأشـــراف آل أبي نمي، وهم شميلة بن حازم وعلي بن أبي سويد وابن أخيه. فوجد القواد العمرة أن هذا الصلح لا يخدم مصالحهم إن لم يدخلهم فيه؛ فذكروا ذلك للشريف، فأخبرهم "أنه إنما صالحهم عن نفسه وجماعته"[٥٦].

---

(٥٢) حسن بن عجلان تولى إمارة مكة المكرمة فترتين: الأولى بين (٧٩٨ - ٨١٨هـ)، والثانية بين (٨١٩- ٨٢٩هـ). الفاسي: العقد الثمين، ج٦، ص٨٦-١٥٦.

(٥٣) حلي بن يعقوب: مدينة على ساحل البحر جنوب مكة المكرمة بينها وبين السرين يوم واحد، وبينها وبين مكة المكرمة ثمانية أيام. ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص٢٩٧، ويقع موقع حلي حاليًا على بعد ٥٠ كم تقريبًا جنوبي مدينة القنفذة على ساحل البحر الأحمر.

(٥٤) زُبيد: بطن من مسروح من حرب، تسكن الساحل من جنوب جدة إلى ينبع. البلادي، عاتق بن غيث: معجم قبائل الحجاز، ط٢، دار مكة المكرمة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة ١٤٠٣هـ، ص ١٩٢.

(٥٥) الفاسي: العقد الثمين، ج٤، ص٩٩؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٤٢٦؛ الزيلعي، أحمد بن عمر: بنو حرام حكام حلي وعلاقتهم الخارجية (ق ٤- ٩هـ/١٠-١٥م)، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، م ١٥، ع١ (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ص١١٦.

(٥٦) الفاسي: العقد الثمين، ج٤، ص٩٨؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٤٢٩.

ومن مظاهر النفوذ السياسي للقواد العمرة ما حدث سنة (٨١٥هـ/١٤١٢م) حينما رغب الشريف حسن بن عجلان، أمير مكة المكرمة، في إخراج جابر الحراشي[٥٧] من ينبع حينما حاول إقناع صاحب اليمن تحويل السلع والبضائع إلى اليمن؛ فخرج الحراشي إلى مصر، وأخذ في شن الحملات على أمير مكة المكرمة، فقبض عليه، وصودرت أمواله، وبعث به معتقلاً إلى صاحب مكة المكرمة، وبقي بمنزله بمكة المكرمة حتى توسط له أحد القادة العمرة، ويدعى مكي بن راجح العمري لصداقة بينهما، فأجاره، وجمعه بالشريف حسن بن عجلان، فعفا عنه، وفوض إليه أمر جدة[٥٨].

غير أنه رغم النفوذ السياسي الواضح للقواد، وبخاصة العمرة والحميضات إلا أن بعض أمراء مكة المكرمة كانوا يعرضون عن وساطتهم في بعض حالات الصراع بين أمير مكة المكرمة ومعارضيه من الأشراف، ففي سنة (٨١٥هـ/١٤١٣م) ضرب الشريف أحمد بن محمد بن عجلان، مسعود الصبحي، نائب عمه أمير مكة المكرمة الشريف حسن بن عجلان على جدة، لخلاف مالي بينهما، يتعلق بمماطلة مسعود ببقية حوالة عليه، مما أدى إلى غضب الشريف حسن، وأمر بإخراج ابن أخيه أحمد من البلاد، فغضب لذلك إخوته، وخاصة الشريف رميثة، فخرجوا، واتجهوا نحو القواد العمرة الذين

---

(٥٧) جابر بن عبدالله الحراشي: قدم من اليمن إلى مكة المكرمة للتجارة، ودخل في خدمة الشريف حسن بن عجلان صاحب مكة المكرمة؛ ففوض إليه أمر جدة، وبنى بها فرضة، ثم غضب عليه الشريف حسن، وقتله سنة (٨١٦هـ/ ١٤١٤م). الفاسي: العقد الثمين، ج٣، ص٤٠٢؛ السخاوي، محمد عبدالرحمن، (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت، ج٣، ص٥١.

(٥٨) الفاسي: العقد الثمين، ج٣، ص٤٠١- ٤٠٢، ج٤، ص١١٤؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٤٩٨؛ وفيه باسم شكر بن راجح، ابن فهد، نجم الدين عمر بن محمد (ت ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠هـ): الدر الكمين بذيل العقد الثمين، تحقيق عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، ط١، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ج٢، ص١٢٠٩- ١٢١٠؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج١٠، ص١٦٩.

تدخلوا للصلح بين الشريف حسن وأبناء إخوته غير أن أمير مكة المكرمة لم يستجب لتلك الوساطة، فمضوا إلى ينبع، ثم إلى مصر(٥٩).

وفي خضم التنافس السياسي والصراع العسكري بين أعيان الأشراف والقواد للاستئثار بالنفوذ في مكة المكرمة نرى أن بعض الظروف السياسية قد دعت الطرفين إلى الاتحاد في مواجهة أمير مكة المكرمة، ففي سنة (٨٢٠هـ/١٤١٧م)؛ ونتيجة لانضمام القواد العمرة والحميضات في العام السابق للشريف رميثة ابن أخ الشريف حسن بن عجلان أمير مكة المكرمة الذي قرر حفظ القواد العمرة والحميضات، فأخذ ما معهم من الخيل والدروع(٦٠)، ويبدو أن الهدف من ذلك الرغبة في إضعاف شأنهم والحد من نفوذهم، وكرد فعل لذلك اتصل القواد بأعيان الأشراف ذوي أبي نمي وذوي عبدالكريم، وكما يشير الفاسي إلى ذلك بقوله: "فتلطف القواد بالشرفاء، وخضعوا لهم، وخوفوهم من غائلة هذا الأمر لما فيه من إضعاف الفريقين، فإن الشرفاء كانوا وافقوه على تسليم خيلهم ودروعهم إذا فعل ذلك القواد، وقصد الشرفاء بذلك إضعاف القواد، فمال الشرفاء لقول القواد -إلى أن يقول- وتحالف الفريقان على كف الأذى"(٦١). من النص السابق يتضح مدى التوافق بين الفريقين؛ نتيجة تضررهما من الإجراءات التي اتخذها ضدهم الشريف حسن، وبهذا بات موقف أمير مكة المكرمة صعباً.

ومن جانب آخر تدخل أمير مكة المكرمة للصلح بين الأشراف والقواد غير أن هذا التدخل كان في بعض الأحيان يميل لصالح

---

(٥٩) الفاسي: العقد الثمين، ج٤، ص١١٢ - ١١٣؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٤٩٣ - ٤٩٤.

(٦٠) الفاسي: العقد الثمين، ج٤، ص ١٢٥؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٥٤٢.

(٦١) الفاسي: العقد الثمين، ج٤، ص١٢٦؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٥٤٢-٥٤٣.

طرف على آخر، ففي سنة (٨٢٢هـ/١٤١٩م) تدخل أمير مكة المكرمة الشريف حسن بن عجلان في الصراع بين بعض القواد العمرة والأشراف حينما قتل القائد مقبل بن هبة بن أحمد بن سنان بن عبدالله بن عمر العمري الشريف جلبان بن أبي سويد بن أبي دعيج بن أبي نمي الحسني، فضربه بالسيف ليلاً وهو متوجه إلى مكة المكرمة، فاستنفر قوم جلبان، وخشي القواد أن يحدث احتكاك بينهم وبين الأشراف، وما أن وصل الشريف حسن بن عجلان من الشرق حتى توسط بين الطرفين، ومال نحو القواد العمرة، فأمر الأشراف وحلفاءهم من القواد أن لا ينزلوا بحَدًّا(٦٢) بطريق جدة، فرحلوا بعد أن صرف لهم نحو ألف وخمسمئة إفرنتى(٦٣)، ورغم توسط أمير مكة المكرمة للصلح بين الطرفين إلا أن ميله نحو القواد العُمرة عمّق الخلاف بين الطرفين المتخاصمين.

ومن مظاهر النفوذ السياسي للقواد أن الشريف حسن بن عجلان أمير مكة المكرمة فشل سنة (٨٢٤هـ/١٤٢١م) في تعيين ابنه إبراهيم مشاركاً لأخيه بركات في حكم مكة المكرمة نتيجة اعتراض القواد على ذلك لأسباب اقتصادية، وذلك حينما اقترح لكل منهما ثلث الحاصل يصرفه في جماعته على ما يراه، وجعل الثلث الباقي من الحاصل

(٦٢) حدَّاء: واد فيه حصن ونخل بين مكة المكرمة وجدة، يسمونه اليوم حدّة، وهي الآن من قرى الطّريق بين مكة المكرمة وجدة. ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص٢٢٦؛ عاتق البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٢، ص٢٤١- ٢٤٢، حمد الجاسر: المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، ج١، ص٢٩٦.

(٦٣) الفاسي: العقد الثمين، ج٤، ص١٣٦؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٥٦٥. والإفرنتي: نوع من الدنانير سكت في فلورنسا بإيطاليا ظهرت في مكة المكرمة لأول مرة أوائل القرن التاسع الهجري: الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد، (ت ٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م): شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق نخبة من كبار العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، ج٢، ص٢٧٥- ٢٧٦؛ ريتشارد مورتيل: الأحوال السياسية والاقتصادية في مكة، ص ١٩٥؛ النجيدي، حمود بن محمد بن علي: النظام النقدي المملوكي، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤١٤هـ، ص٥٠٠- ٥٠١، ٥٠٣- ٥٠٥، ٦٢١.

لأمير مكة المكرمة يصرفه في مصالحه وخاصته، ويظهر أن هذا التوزيع قد جاء على حساب القواد الذين اعترضوا على إبطال ما كان قرره لهم من الرسوم في كل سنة[٦٤]. وقد دفع هذا الاعتراض الشريف حسن إلى مغادرة مكة المكرمة مع ابنه إبراهيم تجاه اليمن[٦٥].

وقد مارس القواد العمرة نفوذاً سياسياً بين الأشراف أنفسهم فحينما قتل الشريف علي بن حسن بن عجلان خمسة من كبار قبيلة حرب سنة (٨٤١هـ/١٤٣٧م) فر خوفاً من أخيه أمير مكة المكرمة الشريف بركات بن حسن بن عجلان إلى القواد العمرة بالعُد[٦٦]، ثم توجه إلى بني شعبة، وعندما علم الشريف بركات بما عمله أخوه لحق به غير أن القواد العمرة أخرجوه من بني شعبة، فتوجه هارباً إلى جهة اليمن، ثم اصطلح بعد ذلك مع أخيه بركات[٦٧]. ويظهر أن سبب إيواء القواد العُمَّرة للشريف حسن بن عجلان يعود لخلافهم مع أمير مكة المكرمة الشريف بركات الذي هدم الدكة التي يجلسون عليها بالقرب من فرضة جدة سنة (٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م)[٦٨].

كما أسهم القواد العمرة في السلطة بصورة مباشرة في مراحل من تاريخ حكم الأشراف لمكة المكرمة، فحينما زار الشريف بركات بن حسن بن عجلان سنة (٨٤١هـ/١٤٣٧م) المدينة المنورة استخلف على مكة المكرمة نائبه بوادي الآبار[٦٩] الشريف أبا القاسم بن حسن بن عجلان وجعل معه القواد ذوي عمر كما جعل بجدة أخاه علياً، وجعل

---

(٦٤) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٥٧٩.

(٦٥) الفاسي: العقد الثمين، ج٤، ص١٤١-١٤٢؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٥٧٩.

(٦٦) العُد: ماء جنوب شرق جدة. عاتق البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٦، ص٤٩-٥٠.

(٦٧) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٤، ص١١٢- ١١٣؛ عز الدين بن فهد: غاية المرام، ج٢، ص٤١٣.

(٦٨) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٤، ص١٠٢- ١٠٣؛ عزالدين بن فهد: غاية المرام، ج٢، ص٤١٢.

(٦٩) وادي الآبار أو الأبيار يقع جنوب مكة المكرمة. عاتق البلادي: معجم معالم الحجاز، ج١، ص٢٦٧- ٢٦٨.

معه الأشراف وبعض القواد(٧٠)، وخلال غياب الشريف بركات مارس أخوه الشريف إبراهيم بن حسن بن عجلان تعسفاً على الرعية، وحينما قدم الشريف بركات هرب الشريف إبراهيم ناحية اليمن، وكان معه الشريف إبراهيم، وبعض جماعة من ذوي حميضة، فتبعه الشريف بركات، وتمكن من استمالة القواد الحميضات، فاصطلح معهم، فيما بقي أخوه إبراهيم منفرداً ناحية اليمن، ثم اصطلح مع أخيه، وعاد إلى مكة المكرمة بعد موسم الحج سنة (٨٤٢هـ/١٤٣٨م)(٧١).

وقد انقسم ولاء القواد العمرة للأشراف في بعض فترات تاريخ حكمهم لمكة المكرمة تبعاً لمصالحهم السياسية والاقتصادية، فنجد بعضهم مع أمير مكة المكرمة، وبعضهم الآخر مع منافسيه من الأشراف، ففي سنة (٨٤٧هـ/١٤٤٣م) حدث خلاف بين أمير مكة المكرمة الشريف أبي القاسم بن حسن بن عجلان وابنه زاهر، فأراد الشريف زاهر الانتقام، فأخذ إبلاً لوالده، ولبعض رعاياه في الركاني(٧٢)، وتوجه بها مع جماعة من القواد ذوي عمر وصبيانهم نحو بني شعبة، جنوب مكة المكرمة، وكان يهدف من ذلك إغاظة والده، فلحقهم جناح آخر من القواد العمرة، واستخلصوها منهم بثمانمئة دينار أشرفي(٧٣).

---

(٧٠) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٤، ص١٢٦ - ١٢٧؛ عز الدين بن فهد: غاية المرام، ج٢، ص٤١٤.

(٧١) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٤، ص١٢٧؛ عز الدين بن فهد: غاية المرام، ج٢، ص٤١٤.

(٧٢) الركاني: عين بأسفل مرّ الظهران، يمين الطريق من مكة المكرمة إلى جدة، وهي حاليًا من قرى حدّا بمنطقة مكة المكرمة. عاتق البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٤، ص٦٧؛ حمد الجاسر: المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، ج١، ص٥١٠.

(٧٣) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٤، ص٢٠٧. والدينار الأشرفي ضرب في عهد السلطان المملوكي برسباي سنة (٨٢٩هـ/١٤٢٥م)، وبدأ التعامل به في مكة المكرمة منذ موسم حج سنة ٨٣٤هـ. المقريزي: السلوك، ج٤، ص٧١٠؛ ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م، ج٤، ص٢٨٣- ٢٨٤؛ رتشارد مورتيل: الأحوال السياسية والاقتصادية في مكة، ص ١٩٥.

وقــد تنوعت الوظائف والمناصب التي تولاها القــواد العـمــرة والحـميـضـات وغيـرهم بـين نواب ووزراء ومبعوثين. ومن هؤلاء قائد يدعى قنيد بن مثقال الحسني أشير إليه بنائب البلد ووالي مكة المكرمة في سنة (٨٥١هـ/١٤٤٧م)[٧٤]، وخلفه في منصبه ابنه مسعود بن قنيد الحسني[٧٥].

ومن الوظائف السياسية منصب الوزارة وقد تولاه في عهد أمير مكة المكرمة، الشريف أحمد بن عجلان، القائد علي بن سنان بن عبدالله بن عمر بن مسعود العمري المتوفى سنة (٨٠٥هـ/ ١٤٠٣م)[٧٦].

ومن المبعوثين القائد محمد بن عبدالكريم العمري الذي أرسله الشريف بركات إلى أمير الركب بمكة المكرمة سنة (٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م)[٧٧].

وقد حدث خلاف شديد بن الشريف بركات بن حسن بن عجلان والقواد العمرة لأسباب لم تحددها المصادر، مما حدا بشريف مكة المكرمة أن يطلب من القواد العمرة أن يرحلوا عن مكة المكرمة صوب اليمن، وكانوا قد طلبوا أولاً الرحيل صوب الشام غير أن أمير مكة المكرمة رفض ذلك وقال: "إن عزمتم على الشام فأنتم مني في القنا"[٧٨]، فما كان منهم إلا أن ارتحلوا صوب اليمن سنة (٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م)[٧٩]. وقد بقيت من ذوي عمر بقية في مكة المكرمة حتى سنة

---

(٧٤) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٤، ص٢٦٦. وهو مولى حسن بن عجلان توفي سنة (٨٦٥هـ/١٤٦٠م)؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٤، ص٤٢٤.

(٧٥) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٤، ص٥٤٨.

(٧٦) الفاسي: العقد الثمين، ج٦، ص١٧٥.

(٧٧) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٤، ص٢٥٤؛ عز الدين بن فهد: غاية المرام، ج٢، ص٤٣٦.

(٧٨) "فأنتم مني في القنا" عبارة تعني: أنكم ستكونون مني في حرب بالقنا، وهي الرماح. فهي عبارة تحذير وتهديد. نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٤، حاشية ص٣٣٠.

(٧٩) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٤، ص٣٣٠-٣٣١؛ عز الدين بن فهد: غاية المرام، ج٢، ص٤٤٩.

(٨٧٣هـ/١٤٦٨م) حينما أمر الشريف محمد بن بركات أمير مكة المكرمة بالقائد محمد بن بديد بن شكر الحسني، وخاله أحمد بن منيف فقتلا بحضرته بين وادي عروة والجموم[٨٠] ونفى الشريف جماعة بديد، وذوي عمر؛ فباع ذوي عمر جميع أموالهم، وخرجوا كلهم إلى ناحية اليمن[٨١].

غير أن القواد العمرة قد استخدموا فيما بعد كورقة ضغط عسكري وسياسي من قبل القوى السياسية المناوئة لأمير مكة المكرمة وعلى رأسهم صاحب جازان؛ مما أدى إلى وقوع أحداث سنوردها في القسم الخاص بالنفوذ العسكري[٨٢].

وبعد نهاية حديثنا عن هذه الجزئية يتضح أن أمراء مكة المكرمة من الأشراف قد استعانوا بالقواد، وبخاصة العمرة والحميضات للحد من نفوذ أعيان الأشراف المنافسين لهم على السلطة، كما استعانوا بهم للتوسط في النزاع القائم بينهم وبين منافسيهم، غير أن هؤلاء القواد قاموا بأدوار أخرى أضرت بشريف مكة المكرمة نفسه.

ثانياً: النفوذ العسكري

يمثل الدعم العسكري الذي يتلقاه أشراف مكة المكرمة أهمية أساسية في موازين القوى السياسية بين أطراف الصراع على السلطة في مكة المكرمة، ومن أبرز العناصر التي ظهرت على مسرح الأحداث في مكة المكرمة، وشكلت ثقلاً عسكرياً القواد، وعلى رأسهم القواد العمرة والحميضات. ولم يكن القواد بشكل عام والعمرة والحميضات بشكل خاص يمثلون كتلة واحدة، وإنما كانوا أجنحة عدة انضم كل منها إلى أحد أطراف الصراع السياسي من

(٨٠) الجموم: كانت عيناً متدفقة غزيرة المياه في مر الظهران، وفيها الأشراف ذوو حسين من ذوي بركات. عاتق البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٢، ص١٧٦- ١٧٧.

(٨١) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٤، ص٤٩١.

(٨٢) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٤، ص٦١٣-٦١٤.

الأشـراف والأمـراء، ويمكن القـول: إن هناك أسـبـابًا عـدة وراء ذلك الانقسام:

- اختـلاف المصالح بين القـواد أنفسهم، ورغبـة كل جناح الحصـول على مكاسب سـيـاسـيـة واقـتـصـادية من وراء انضمامه إلى أحـد الأطراف.
- إيجاد نوع من التوازن بين الأمراء والأشراف في ظل صراعهم على السلطة، وهو بذلك نوع من توزيع الأدوار بين هؤلاء القواد.

وقد حفلت تلك الفترة بمعارك وصراعات بين أمراء مكة المكرمة من الأشـراف من جهـة، وبينهم وبين القوى السـيـاسـيـة والقبليـة في المنطقة من جهة أخرى، ويمكن القول: إن تلك الصراعات كان لها أثر كبير في إضعاف النفوذ السياسي لأشراف مكة المكرمة، وتعاقب كثير من الأشـراف على حكمها، كما شـجع السلطنة المملوكية على التدخل في شؤون الحكم في مكة المكرمة(٨٣).

وفي هذه الدراسة سأعرض بعض جوانب الصراع العسكري، ودور القـواد العـمـرة والحـمـيـضـات في ذلك الصـراع، وأبـرز القـواد الذين قاموا بأدوار مهمة في تلك الفترة.

إن أول إشارة إلى النفوذ العسكري للقواد كان مع مجيء الشـريف قتـادة بن إدريس الحسني من ينبع، وسيطرته على مكة المكرمـة سنة (٥٩٧هـ/١٢٠٠م)(٨٤). وتشير المصادر إلى أن كفة الشريف قتادة قد رجحت عندما تخلت جماعة من القواد عن أمير مكة المكرمة مكثر بن عيسى نتيجة ما ذكر من "انهماك أمرائها الهواشم بني فليته على اللهو وتبسطهم في الظلم"، وقد لحظ الشريف قتادة هذا الموقف من القواد؛ فتمكن من استمالتهم، ومن هنا يتضح أن هؤلاء القواد قد

---

(٨٣) الفاسي: العقد الثمين، ج٧، ص٤٠.

(٨٤) الفاسي: العقد الثمين، ج٧، ص٤٠.

قدموا الدعم العسكري اللازم للشريف قتادة الذي مكنه من انتزاع مكة المكرمة من الهواشم[٨٥].

وبعد وفاة الشريف أبي نمي محمد بن أبي سعد الحسن بن علي سنة (٧٠١هـ/ ١٣٠١م)[٨٦] انقسم أبناؤه فيمن يتولى الإمارة، ودخلوا في صراع فيما بينهم، وساندت أجنحة من القواد أبناء أبي نمي، وكان للضغط العسكري أثره في انسحاب بعضهم من مكة المكرمة ومن السلطة لصالح آخرين من الإخوة، كما كان لدعم السلطان المملوكي والقواد أثر كبير في ترجيح كفة أحدهما على الآخر، ففي سنة (٧١٩هـ/ ١٣١٩م) ولى السلطان المملوكي الناصر محمد الشريف عطيفة بن أبي نمي مكان أخيه حميضة، وتلقى عطيفة دعماً عسكرياً وسياسياً من القواد الذين لم تحدد المصادر أسماءهم أو انتماءاتهم، واضطر الشريف حميضة نتيجة لذلك للنزوح ناحية اليمن[٨٧]. ثم قتل الشريف حميضة في العام التالي (٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م) حينما حاول استعادة السلطة[٨٨]. ورغم أن الشريفين رميثة وعطيفة قد اصطلحا واتفقا على المشاركة في الإمرة سنة (٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م) إلا أن الصراع ما لبث أن وقع بين الأخوين ممثلاً في ابنيهما مبارك بن عطيفة، ومغامس بن رميثة اللذين تركاهما في مكة المكرمة، وغادرا إلى الواديين، فحصل بين الشريفين خلاف، فاستعد مبارك لقتال مغامس فزحف نحو الجديد في سنة (٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م)، وسانده أصهاره من قبيلة بني عمير[٨٩] وبعض القواد العمرة، فيما ساند قواد آخرون

---

(٨٥) الفاسي: العقد الثمين، ج٧، ص٤٠؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٢، ص٥٦٦ - ٥٦٧.

(٨٦) الفاسي: العقد الثمين، ج١، ص٤٧٠.

(٨٧) الفاسي: العقد الثمين، ج٤، ص٩٦؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص١٦٣.

(٨٨) الفاسي: العقد الثمين، ج٤، ص٢٤٣- ٢٤٥؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص١٦٩.

(٨٩) هم أصحاب الخيف المعروف بخيف بني عمير بوادي نخلة. نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٢٠٨. وقيل: بطن من بني هذيل يسكنون وادي الزبارة، ولهم فيها قرى. عاتق البلادي: معجم قبائل الحجاز، ص ٣٥٦.

مغامس، ودخل الطرفان في صراع عسكري انتهى بانتصار الشريف مبارك، وبلغ الصراع ذروته حينما منع الشريف مبارك عمه الشريف رميثة من دخول مكة المكرمة بعد عودته من ناحية اليمن، ثم سمح له بعد ذلك بالدخول، وغادر الشريفان رميثة وعطيفة بعد ذلك مكة المكرمة إلى مصر(٩٠).

وقد حدث تحول أثناء الصراع بين الطرفين تمثل في ترك القواد - وبخاصة العمرة - الشريف عطيفة، ومالوا إلى الشريف رميثة نتيجة مقتل أحد أبرز زعماتهم، وهو القائد محمد بن عبدالله بن عمر بن مسعود العمري على يد الشريف مبارك بن عطيفة في سنة (٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م)، لخلاف وقع بينهما، كما انتقم من القواد العمرة نتيجة خروجهم على والده؛ فأرسل أخاه مسعوداً إلى وادي نخلة لقطع نخيلهم(٩١).

إن ما قام به الشريف مبارك يرمي لإضعاف النفوذ الاقتصادي للقواد العمرة، وبالتالي تقليص نفوذهم السياسي والعسكري، غير أن القواد العمرة لم يسكتوا على ما وقع لهم، بل انتقموا بأن هاجموا، ومعهم الشريف ثقبة بن رميثة، أخاه مسعودًا في جهة اليمن؛ فقُتِل مسعود بن عطيفة واثنا عشر رجلاً من أصحاب مبارك، ولم يكن الشريف مبارك حاضراً في تلك المعركة، وحينما سمع بمقتل أخيه ولى منهزماً مع صاحب له فلحقهما القواد العمرة فلم يتمكنا منهما(٩٢).

---

(٩٠) الفاسي: العقد الثمين، ج٦، ص١٠١؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٢٠٧ - ٢٠٨.

(٩١) الفاسي: العقد الثمين، ج٢، ص٧٣، ج٧، ص١٢١؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٢٠٩.

(٩٢) الفاسي: العقد الثمين، ج٧، ص١٢٣؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٢١٠.

ومن دلائل نفوذ القواد العسكري تدخلهم لمنع القتال بين الأشراف من الأمراء، فقد اشترك الشريفان عجلان وثقبة بن رميثة في حكم مكة المكرمة غير أن خلافاً وقع بينهما سنة (٧٥٠هـ/١٣٤٩م)، وكاد يقع قتال بين الطرفين حينما خرج الشريف عجلان لقتال أخيه الشريف ثقبة بالجديد، وحينما بلغ الدكناء وأرض خالد منعه القواد من قتال أخيه وتدخلوا، وأصلحوا بين الأخوين[٩٣].

من دلائل نفوذ القواد العسكري تدخلهم لمنع القتال بين الأشراف من الأمراء

وفي خضم الصراع على السلطة في مكة المكرمة أصدر السلطان المملوكي الملك الظاهر برقوق[٩٤] في سنة (٧٨٩هـ/١٣٨٧م) أمرًا بعزل الشريف عنان بن مغامس، وتولية الشريف علي بن عجلان إمرة مكة المكرمة، ووصل إلى السيد علي تقليد وخلعة؛ فامتنع الشريف عنان وأصحابه عن تسليم السلطة لعلي بن عجلان، فجمع أخوه الشريف كبيش بن عجلان جيشاً ضم عدداً كبيرًا من القواد العمرة والحميضات لمحاربة عنان وإخراجه من مكة المكرمة، وحاول الشريف كبيش دخول مكة المكرمة ومعه القواد العمرة من جهة ثنية الأذاخر، على مقربة من الأبطح[٩٥]، غير أن الشريف عنان تمكن من إلحاق الهزيمة بذلك الجيش بعد مقتل كبيش بن عجلان، وفرار آل عجلان إلى وادي مر[٩٦]، ويظهر أن هزيمة جيش كبيش نتيجة عوامل عدة:

---

(٩٣) الفاسي: العقد الثمين، ج٣، ص٣٩٥، ج٦، ص٦١- ٦٢؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٢٤١.

(٩٤) ولي الملك الظاهر برقوق السلطنة المملوكية للمرة الأولى من سنة (٧٨٤ هـ/ ١٣٨٢م) إلى أن عزل منها في سنة (٧٩١هـ/ ١٣٨٩م). المقريزي، السلوك، ج٣، ص٤٧٧، ٦٢٠.

(٩٥) مفرد أباطح، وهو وادي بمكة المكرمة (وادي إبراهيم). عاتق البلادي: معجم معالم الحجاز، ج١، ص٢٧.

(٩٦) الفاسي: العقد الثمين، ج٦، ص٢٠٧؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٣٦٤- ٣٦٥.

- إصرار الشريف كبيش على مبارزة الشريف عنان؛ مما أدى إلى خروج أحد أصحاب عنان ومبارزته ومقتل كبيش مما أثر في معنويات الجيش فتقهقروا.
- انحياز فئة من القواد العمرة لعنان؛ مما أضعف الموقف العسكري لكبيش.
- مقتل عدد كبير من القواد العمرة؛ مما أثر على التوازن العسكري بين الطرفين.
- مبادرة الشريف عنان بمقاتلة جيش الشريف كبيش قبل وصول بقية الجيش إلى الأبطح. وممن قتل في تلك المعركة من القواد العمرة لقاح بن منصور ونحو عشرين من عبيد الأشراف آل عجلان.

وبعد فترة من النزاع بين الشريفين عنان بن مغامس وعلي بن عجلان وصل الشريف عنان إلى مكة المكرمة قادماً من مصر عن طريق ينبع سنة (٧٩٢هـ/١٣٩٠م)، وتوصل الطرفان إلى اتفاق بينهما على اقتسام إمرة مكة المكرمة وكذلك مواردها، وأن يكون القواد مع الشريف عنان، والأشراف مع الشريف علي[٩٧].

ويظهر أن النفوذ السياسي والعسكري للقواد قد وصل إلى درجة الخروج عن طاعة أمير مكة المكرمة، ومحاولة التعدي على الحجاج، واتخذ البعض من الخلافات مع أمراء ركب الحج ذريعة لذلك، ففي سنة (٧٩٧هـ/ ١٣٩٤م) وفي يوم التروية وقع خلاف بين بعض القواد العمرة وأمير الركب الحلبي ابن الزين، فاضطربت الأوضاع، فهاجم القواد الركب الحلبي، كما نهبوا أموالاً كثيرة للحجاج، وقتل بعضهم[٩٨].

---

(٩٧) الفاسي: العقد الثمين، ج٦، ص٢٠٩؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٣٧٧.

(٩٨) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٣٩٥.

ومن هنا يتضح اختلال الأمن في تلك السنة، وعدم قدرة أمراء مكة المكرمة من الأشراف على ضبط الأوضاع فيها وفي المشاعر.

ونتيجة لسوء العلاقة بين أمير مكة المكرمة الشريف حسن بن عجلان والأشراف فقد صمم على كسر شوكتهم متخذاً من تحالفه مع القواد العمرة والحميضات ركيزة أساسية في مواجهته لهم.

كان الأشراف قد اجتمعوا إلى دريب بن أحمد بن عيسى صاحب حلي، وهم في طريقهم إلى وادي مر، فحذَّرهم من صاحب مكة المكرمة، غير أنهم استهانوا به، وخرج الشريف حسن بن عجلان من مكة المكرمة للقائهم بوادي مر، والتقى الفريقان بمكان يقال له: الزبارة[٩٩] سنة (٧٩٨هـ/١٣٩٥م)، وتعد هذه المعركة من أبرز المعارك التي جرت بين الشريف عجلان ومنافسيه من الأشراف آل أبي نمي، ويظهر أن الأشراف قد استهانوا بقوة أمير مكة المكرمة وحلفائه من القواد العمرة والحميضات، ولكي يحقق الأشراف الانتصار عمدوا إلى الانفراد بالقواد العمرة والحميضات فهاجموهم، وأجبروهم على الانسحاب من مواقعهم، وكادوا أن يهزموهم، غير أن الشريف حسن وبعض قيادات العمرة والحميضات الذين كانوا في قلب الجيش هاجموا الأشراف، وتمكنوا من إلحاق الهزيمة بهم، وقتلوا سبعة من أبرز زعمائهم، كما قُتِل ثلاثون من أتباع الأشراف[١٠٠]. وفي محاولة للانتقام لما حل بهم في معركة الزبارة أغار الأشراف على إبل للقواد العمرة بمكان يقال له الشعيبة[١٠١]، وقتلوا القائد ودي بن أحمد بن سنان بن عمر بن مسعود العمري[١٠٢] مع غيره؛ فلحقهم القواد،

---

(٩٩) موقع في وادي مرّ الظهران. عاتق البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٤، ص١٢٨، ج١٠، ص٩٦.

(١٠٠) الفاسي: العقد الثمين، ج٨، ص٤٧؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٣٩٩ - ٤٠١.

(١٠١) الشعيبة: وادٍ وميناء، وهو مرفأ مكة المكرمة، ومرسى سفنها قبل جدة، وما زالت تعرف بهذا الاسم حتى الآن. عاتق البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٥، ص٧٢-٧٤.

(١٠٢) الفاسي: العقد الثمين، ج٧، ص٣٨٦؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٤٠١.

وتمكنوا من قتل بعض الأشراف، ومنهم فياض بن سويد بن أبي دعيج بن أبي نمي[(١٠٣)] والشريف واصل بن شميلة بن[(١٠٤)] أبي نمي وغيرهما[(١٠٥)].

وقد أدى سوء العلاقات بين أمير مكة المكرمة وبعض القواد إلى انضمام هؤلاء القواد إلى بعض المناوئين له من الأشراف؛ مما دعم مركزهم السياسي والعسكري، ففي سنة (٧٩٩هـ/١٣٩٦م)، ونتيجة لغضب القواد الحميضات على الشريف حسن بن عجلان، أمير مكة المكرمة، انضموا إلى الأشراف الطامعين في أموال التجار في جدة حيث استولوا عليها وتمكن الشريف حسن من إخراجهم منها، فهربوا إلى خليص[(١٠٦)]، فأجارهم بعض القواد، ثم اصطلح معهم أمير مكة المكرمة بإعطائهم خمسين ألف درهم على ألا يتعرضوا للتجار[(١٠٧)].

من خلال ما سبق يتضح أن العلاقات بين الشريف حسن بن عجلان والقواد العمرة والحميضات من جهة والأشراف من جهة أخرى كانت متذبذبة، وتعكس تضارب المصالح السياسية والاقتصادية بين مختلف الأطراف، فلم تكن التحالفات ثابتة، بل تتغير حسب مصالح كل طرف، فتارة ينضم القواد إلى أمير مكة المكرمة ضد الأشراف، وأحياناً أخرى ينضمون للأشراف ضد شريف مكة المكرمة. ورغم ذلك فقد شكل القواد العمرة والحميضات ركيزة أساسية في مجال النفوذ العسكري في مكة المكرمة، بل امتد

---

(١٠٣) الفاسي: العقد الثمين، ج٧، ص٢١.

(١٠٤) الفاسي: العقد الثمين، ج٧، ص٣٨٣.

(١٠٥) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٤٠١ - ٤٠٢.

(١٠٦) خليص: واد بين مكة المكرمة والمدينة المنورة كثير الماء والزرع. فيه قرى كثيرة. وما زالت تعرفُ بهذا الاسم حتى الآن. عاتق البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٣، ص١٤٩؛ حمد الجاسر: المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، ج١، ص٤١٤.

(١٠٧) الفاسي: العقد الثمين، ج٤، ص٩٠؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٤٠٥.

الاحتكاك العسكري إلى قوى سياسية وعسكرية أخرى كان لها نفوذ في مكة المكرمة ومنها أمير ركب الحج المصري الذي كان يمارس نفوذاً سياسياً وعسكرياً في مكة المكرمة والمشاعر أثناء موسم الحج استمده من سلطة السلطة المملوكية ونفوذها. ففي سنة (٨١٧هـ/ ١٤١٤م) وقع قتال بين أمير الركب المصري جقمق[١٠٨] المؤيدي والقواد العمرة في المسجد الحرام؛ نتيجة منعه أحد غلمان القواد العمرة، ويدعى جراد من حمل السلاح بمكة المكرمة، وحينما رفض بادر إلى اعتقاله وسجنه مما أثار عليه القواد العمرة الذين وسطوا الشريف حسن بن عجلان أمير مكة المكرمة لإطلاق سراحه غير أن وساطته لم تنجح؛ مما حدا بالقواد العمرة لاستخدام القوة العسكرية لتخليصه، فدخلوا في معركة مع أمير الركب المصري بسوق العلاّفة[١٠٩] أسفل مكة المكرمة، ورجحت كفة الركب المصري على القواد، وبعد أن قتل وجرح عدد من الفريقين توقف القتال بعد وساطة أمير مكة المكرمة الشريف حسن بن عجلان الذي أقنع القواد العمرة بالذهاب لأمير الركب المصري والاعتذار لما وقع، كما أرسل ابنه أحمد لهذا الغرض، وانتهى الأمر بإطلاق سراح الغلام[١١٠].

وكان للمصالح الاقتصادية دور مهم في الصراع السياسي على النفوذ وفي الدعم العسكري، ففي سنة (٨١٨هـ/١٤١٥م) صدر أمر السلطان المملوكي الملك المؤيد شيخ[١١١] بعزل الشريف حسن بن

(١٠٨) سيف الدين جقمق بن عبدالله الأرغونشاوي الدوادار، ولي نيابة الشام في عهد الملك المؤيد شيخ، ومات مقتولاً في دمشق سنة (٨٢٤هـ/ ١٤٢١م). ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤، ص٢٤٠؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص٧٤ - ٧٥.

(١٠٩) العلاّفة: ربما يكون سوق علف الماشية. نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٥١٧.

(١١٠) الفاسي: العقد الثمين، ٤/١١٩-١٢٠. نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٥١٦ - ٥١٨.

(١١١) السلطان المملوكي الملك المؤيد شيخ حكم بين (٨١٥-٨٢٤هـ/ ١٤١٢-١٤٢١م). المقريزي: السلوك، ج٤، ص٢٤٣- ٢٤٤، ٥٤٩.

عجلان من نيابة السلطنة بالأقطار الحجازية[١١٢]، وعزل ابنيه بركات وأحمد من إمرة مكة المكرمة، وأصدر مرسوماً بتولية ابن أخيه الشريف رميثة بن محمد بن عجلان هذين المنصبين، ويعود قرار السلطان المملوكي لأسباب عدة، منها:

- عدم وصول عشرة آلاف مثقال المقررة للسلطان المملوكي في كل سنة من مال القاضي كمال الدين موسى بن جميع.
- الخلاف الذي وقع بين شريف مكة المكرمة وأمير الحاج المصري في موسم حج سنة (٨١٧هـ/ ١٤١٤م).
- العلاقة الوطيدة التي تربط الشريف رميثة بن محمد بن عجلان بالسلطنة المملوكية[١١٣].

غير أن الشريف حسن لم يقبل بقرار العزل، وصمم على استعادة سلطته؛ فطلب الدعم من الأشراف، فلم يتم له ذلك، واستغل القواد العمرة المأزق الذي وقع فيه الشريف حسن، فوعدوه بالدعم العسكري، واستدعوه إلى مكة المكرمة، وقرر الذهاب إلى الوادي[١١٤] لمحاربة ابن أخيه بدعم من القواد العمرة، غير أن القواد لم يستجيبوا لطلبه الذهاب معه إلى الوادي إلا بعد الحصول على منافع اقتصادية لم تحدد، فلم يوافق، وخرج من مكة المكرمة متجهاً نحو الشرق، ثم ذهب إلى المدينة المنورة، وعاد إلى مكة المكرمة، ومنها إلى جدة حيث استولى عليها، فهرب الشريف رميثة شمالاً[١١٥]، وفي فترة لاحقة من

---

(١١٢) تحولت الأقطار الحجازية إلى نيابة مملوكية سنة (٨١١هـ/ ١٤٠٨م)، وأول من أطلق علَيه لقب "نائب السلطنة في الحجاز" هو الشريف حسن بن عجلان. الفاسي: العقد الثمين، ج٤، ص١٠٥؛ المقريزي: السلوك، ج٤، ص٧٦؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٤٦٢.

(١١٣) الفاسي: العقد الثمين، ج٤، ص١١٧، ١١٩.

(١١٤) ربما هو وادي مر.

(١١٥) الفاسي: العقد الثمين، ج٤، ص١٢١؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٥٢٥-٥٢٦.

سنة (٨١٨هـ/ ١٤١٥م) تمكن الشريف حسن من إقناع السلطان المملوكي المؤيد شيخ بالعودة لإمارة مكة المكرمة بعد ما التزم له بثلاثين ألف دينار، كما انتقم من ابن أخيه رميثة والقواد العمرة والحميضات الذين تخلوا عنه بإخراجهم من مكة المكرمة في سنة (٨١٩هـ/ ١٤١٦م) بالقوة العسكرية بعد أن رفضوا الخروج بصفة سلمية. غير أنه صالح بعض القواد العمرة، واستمالهم بشرط تخليهم عن ابن أخيه رميثة. ومن هنا يتضح مدى ما تمتع به الشريف حسن من دهاء سياسي مكنه من كسب قلوب بعض القواد العمرة رغم تخليهم عنه في السابق، كما تمكن من إجبار ابن أخيه الشريف رميثة على مغادرة مكة المكرمة إلى ناحية اليمن[(١١٦)]، ومما سبق يتضح أهمية جدة لإمارة مكة المكرمة التي تمثل:

- بوابة مكة المكرمة الاقتصادية، حيث يتم من خلالها جلب البضائع الواردة من خارج الحجاز، عبر البحر بوصفها إحدى أهم منافذ التموين الغذائي لمكة المكرمة.
- وسيلة للضغط السياسي والعسكري والاقتصادي من قبل المعارضين لأمير مكة المكرمة، وبخاصة الأشراف والقواد.

ونتيجة للقتال السابق توفي سنان بن راجح بن محمد بن عبدالله بن عمر بن مسعود العمري سنة (٨١٩هـ/ ١٤١٦م)، وهو أحد القادة البارزين من القواد العُمَّرة، وكان قد انضم للشريف رميثة ضد عمه الشريف حسن[(١١٧)].

---

(١١٦) الفاسي: العقد الثمين، ج٤، ص١٢٢؛ المقريزي: السلوك، ج٤، ص٦٦- ٦٧؛ ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م): إنباء الغمر بأبناء العُمر، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ج٣، ص٩٨؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٥٣١-٥٣٤.

(١١٧) الفاسي: العقد الثمين، ج٤، ص٦١٧؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٥٠٤؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص٢٧٢.

وفي العام التالي التقت مصالح القواد والأشراف على التحالف ضد شريف مكة المكرمة حسن بن عجلان بعد أن تصالح الطرفان، وأعطى القواد الأشراف دية قتيل شريف قتله بعض القواد في أعوام سابقة، وتمكن هذا التحالف السياسي والعسكري من الاستيلاء على جدة، كما استولوا على بعض الغلال ومنها الذرة، غير أن الشريف حسن استطاع السيطرة على جدة بعد أن أرسل ابن أخيه الشريف رميثة الذي صالحه في وقت سابق على رأس قوة عسكرية، فاستولى عليها، ورحل الأشراف والقواد إلى الدكناء، ثم استجمعوا قواهم، وزحفوا نحو مكة المكرمة، فخرج إليهم مفتاح الزفتاوي(١١٨) نائب الشريف حسن، واستطاع الأشراف والقواد الانتصار على جيش الشريف حسن في موقع يعرف بعين أبي سليمان(١١٩)، وقتل نائبه، وعدد من جنود شريف مكة المكرمة، وكان لهذا الهجوم وقعه السيئ على الشريف حسن(١٢٠). ويبدو أن التحولات في التحالفات السياسية والعسكرية لم تتوقف طوال فترة حكم الشريف حسن بن عجلان. وقد تمثلت في مرحلة لاحقة بانضمام الأشراف والقواد للشريف رميثة، واستطاع هذا التحالف الاستيلاء على جدة سنة (٨٢٤هـ/ ١٤٢١م)(١٢١).

ووصلت التحالفات السياسية والعسكرية ذروتها في عهد شريف مكة المكرمة حسن بن عجلان في سنة (٨٢٥هـ/١٤٢٢م) حينما وصل الشريف مقبل بن مخبار، أمير ينبع، إلى مكة المكرمة لدعم الموقف

---

(١١٨) مفتاح الزفتاوي: نائب أمير مكة المكرمة، يلقب أمين الدين، كان من موالي الشريف أحمد بن عجلان. الفاسي: العقد الثمين، ج٧، ص٢٦٤-٢٦٦.

(١١٩) لم أجد لها تحديدًا فيما رجعت إليه من مصادر.

(١٢٠) الفاسي: العقد الثمين، ج٧، ص٢٦٥-٢٦٦؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٥٤٣-٥٤٥.

(١٢١) الفاسي: العقد الثمين، ج٤، ص١٤٢؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٥٧٨.

العسكري لأميرها ضد ابن أخيه الشريف رميثة والقواد العمرة الذين انضموا للشريف رميثة فيما انضم الأشراف آل أبي نمي للشريف حسن، غير أن أمير مكة المكرمة لم يكن فيما يظهر واثقاً من صدق أمير ينبع في دعمه، وبالتالي ظهرت منافرة بين الطرفين.

وتمكن الشريف رميثة وحلفاؤه من القواد العمرة من الاستيلاء على جدة انطلاقاً من وادي مر. غير أن جناحاً من القواد العُمَّرَة حاولوا إقناع الشريف حسن بدعمه عسكرياً لاستعادة جدة، إلا أن أمير مكة المكرمة لم يكن واثقاً من إخلاصهم خشية أن تكون تلك مكيدة منهم، فرفض اقتراحهم(١٢٢).

يتضح مما سبق كيف تغيرت التحالفات السياسية والعسكرية تبعاً للمصالح المتضاربة للأطراف المتصارعة، وشكلت إمارة مكة المكرمة ممثلة في أميرها الركيزة الأساسية لتلك التحالفات.

ونظراً لأهمية مكة المكرمة للدولة المملوكية فإن أي تذمر من جانب الحجاج تجاه معاملتهم من قبل شريف مكة المكرمة يؤدي إلى تحول في سياسة السلطان المملوكي الأشرف برسباي(١٢٣) تجاه أميرها، وهذا ما حدث في سنة (٨٢٧هـ/١٤٢٤م) حينما اشتكى الحجاج المصريون وبعض الأتراك من الشريف حسن؛ فتغير خاطر السلطان المملوكي على الشريف حسن بن عجلان؛ فعزله، وعين مكانه الشريف علي بن عنان بن مغامس سنة (٨٢٧هـ/١٤٢٤م)، وأرسله من مصر مع قوة عسكرية لضمان سيطرته على السلطة، وحينما علم الشريف حسن بذلك غادر مكة المكرمة مع أنصاره، وتوجهوا صوب اليمن. وعندها بادر الأشراف والقواد العمرة والحميضات والمولدون المنسوبون

---

(١٢٢) الفاسي: العقد الثمين، ج٤، ص١٤٣؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٥٨٥-٥٨٦.

(١٢٣) ولي السلطنة (٨٢٥هـ/ ١٤٢٢م) إلى أن توفي سنة (٨٤١هـ/ ١٤٣٨م). المقريزي: السلوك، ج٤، ص٦٠٧، ١٠٥١.

لعجلان، وابنه لتغيير تحالفاتهم السياسية، وانضموا مع القوة العسكرية التي دخلت مكة المكرمة، وقرئ التوقيع بإمرة الشريف علي بن عنان، والأمان لمن دخل في طاعته، ومن لم يدخل فلا أمان له بعد شهر(١٢٤).

ورغم محاولة الشريف حسن وابنه بركات استعادة السلطة إلا أن محاولتهما تلك باءت بالفشل وحلت بهما الهزيمة العسكرية على يد الشريف علي بن عنان، وقتل في تلك المحاولة ولد للقائد البارز ودي العمري المتحالف مع الشريف حسن(١٢٥). غير أن السلطان المملوكي برسباي اتضح له أن مكة المكرمة لن تستقر لعلي بن عنان بن مغامس؛ فأصدر أمراً في سنة (٨٢٩هـ/ ١٤٢٦م) بعزله، وتولية الشريف حسن بن عجلان، وجهزه من مصر إلى مكة المكرمة، لكنه توفي في الطريق، وطلب السلطان من ابنيه بركات وإبراهيم الحضور للقاهرة، فخرجا من مكة المكرمة، وجعلا عليها أخاهما الشريف أبو القاسم بن حسن، وحاول أنصار الشريف علي بن عنان استعادة السلطة في مكة المكرمة؛ فخرج لهم الشريف أبو القاسم ومعه القواد العمرة والحميضات وذوو عجلان وذوو حسن، ودخل معهم في قتال في خيف بني شديد(١٢٦)، وتمكن من الانتصار عليهم، وقُتِل من جيش الشريف عنان عدد كبير، بينهم عدد من الأشراف ومحمد بن رشيد نائب الشريف علي بن عنان في مكة المكرمة، وهرب من بقي منهم إلى ينبع، والتجؤوا عند الشريف عقيل بن مخبار صاحب ينبع(١٢٧).

---

(١٢٤) الفاسي: العقد الثمين، ج٤، ص١٤٨؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٦٠٥.

(١٢٥) الفاسي: العقد الثمين، ج٤، ص١٥٠؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٣٠٨.

(١٢٦) يقع خيف بني شديد خارج مكة المكرمة. نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٦٣١.

(١٢٧) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٦٣٠ - ٦٣١.

وفي ظل الصراع على السلطة بعد وفاة الشريف حسن نرى أن بعض أبنائه يسعى للحصول على مغانم اقتصادية دعماً لنفوذه السياسي والعسكري، فقد أصدر السلطان المملوكي برسباي سنة (٨٢٩هـ/ ١٤٢٦م) أمراً بتعيين الشريف بركات بن حسن بن عجلان أميراً على مكة المكرمة بعد أن استدعاه وأخاه إبراهيم إلى القاهرة، وأن يدفع للسلطنة المبلغ المتفق عليه سنوياً[١٢٨]، وأن يكون أخوه السيد إبراهيم في طاعته[١٢٩]. غير أن الشريفين إبراهيم وأبا القاسم بن حسن بن عجلان قد خرجا عن طاعة أخيهما؛ مما اضطره لإرسال رسول إلى السلطان المملوكي سنة (٨٣١هـ/١٤٢٨م) يطلب دعماً عسكرياً ضد أخويه[١٣٠]. وحينما علما بذلك لم يدخلا مكة المكرمة خوفاً من جيش السلطان[١٣١]، وبدأ الشريف أبو القاسم بشن الغارات طمعاً في الحصول على مغانم اقتصادية، فهاجم جدة، وأخذ بعض التجار[١٣٢]، كما هاجم بعض القواد خارج مكة المكرمة[١٣٣]، واستولى على بعض أموالهم.

وفي سبيل تدعيم سلطته السياسية أرسل الشريف بركات بن حسن بن عجلان أمير مكة المكرمة سنة (٨٣٧هـ/١٤٣٣م) جيشاً نحو بلاد شهران[١٣٤] بقيادة ابن عمه الشريف رميثة، ومعه بعض القواد

---

(١٢٨) طلب السلطان المملوكي الأشرف برسباي من الشريف بركات أن يدفع ما تأخر على والده، وهو مبلغ خمسة وعشرين ألف دينار وعشرة آلاف دينار في كل سنة وما جرت به العادة من الضرائب على التجار في جدة. عز الدين بن فهد: غاية المرام، ج٢، ص٤٠٠.

(١٢٩) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٦٣٠.

(١٣٠) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٤، ص١٥؛ عز الدين بن فهد: غاية المرام، ج٢، ص٤٠٢ - ٤٠٤.

(١٣١) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٤، ص١٦. عز الدين بن فهد: غاية المرام، ج٢، ص٤٩٩.

(١٣٢) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٤، ص٢٧.

(١٣٣) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٤، ص٣٦ - ٣٧.

(١٣٤) شهران: من أكثر قبائل عسير عدداً، وأوسعها دياراً، تمتد من بيشة حتى صبيا. عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب، ج٢، ص٦١٦ - ٦١٧.

العمرة والحميضات، غير أن هزيمة مريرة لحقت بذلك الجيش، وقتل قائده الشريف رميثة وبعض القواد العمرة والحميضات، من بينهم القائد جماز بن مقبل العمري، والقائد محمد بن جسار الحميضي، وعدد من العبيد والمولدين(١٣٥).

وقد مارس بعض القواد العمرة نفوذاً خارج مكة المكرمة تمثل في حماية من يلتجئ إليهم، والدفاع عنهم دون العودة لأمير مكة المكرمة، وقد أدى ذلك إلى اصطدام مع بعض القوى السياسية والعسكرية، ففي عهد الشريف بركات وقع في سنة (٨٤٠هـ/١٤٣٦م) بين القواد العمرة والترك -وهم جنود السلطنة المملوكية- نزاع بسبب جلوسهم على دكة في جدة، "فإذا استجار بهم أحد من الناس لا يمكنون منه أحداً"(١٣٦)، وهذا أدى إلى الاصطدام بالجنود الأتراك، وحينما علم الشريف بركات بما حدث قدم إلى جدة، وهدم الدكة التي يجلس عليها القواد(١٣٧).

ونتيجة للصراع على السلطة في مكة المكرمة واضطراب العلاقات بين السلطان المملوكي الظاهر جقمق(١٣٨)، والشريف بركات أصدر السلطان المملوكي سنة (٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) أمراً بتعيين أخيه الشريف علي بن حسن بن عجلان بدلاً منه أميراً على مكة المكرمة، وتلقى الشريف علي الذي عاد إلى مكة المكرمة من مصر دعماً من الأمير يشبك الصوفي(١٣٩). غير أن الشريف بركات لم يقبل بقرار عزله، وصمم على انتزاع السلطة من أخيه بالقوة العسكرية، فقام باستمالة

---

(١٣٥) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٤، ص٧٠ - ٧١.

(١٣٦) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٤، ص١٠٣.

(١٣٧) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٤، ص١٠٢ - ١٠٣.

(١٣٨) ولي السلطنة (٨٤٢ - ٨٥٧هـ/ ١٤٢٨- ١٤٥٣م). المقريزي: السلوك، ج٤، ص١٠٨٦ - ١٠٨٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٤٥٢ - ٤٥٣.

(١٣٩) هو يشبك المؤيدي شيخ يعرف بالصوفي جعله الظاهر جقمق أحد رؤوس النواب، ثم ولي نيابة حلب ونيابة طرابلس وأتابك دمشق، توفي سنة (٨٦٣هـ/ ١٤٥٩م). السخاوي: الضوء اللامع، ج١٠، ص٢٧٠.

القواد العمرة، وزحف أولاً نحو جدة سنة (٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م)، وسيطر عليها، وأخذ العشور من أموال التجار إلاّ أن الشريف علي بادر بالزحف مع الجنود الأتراك نحو جدة حتى يحول بين الشريف بركات والهجوم على مكة المكرمة، والتحم الفريقان في معركة كبيرة وقعت خارج جدة عرفت بمعركة الحدبة، شارك فيها الأشراف ذوو أبي نمي الذين انضموا للشريف بركات، كما شارك فيها أيضاً إلى جانب الشريف بركات بعض القواد العمرة والحميضات، وأسفرت المعركة عن انتصار جيش الشريف علي، ومقتل عدد كبير من قادة جيش الشريف بركات، وعلى رأسهم بعض القواد العمرة الذين قطعت رؤوسهم وطيف بهم في جدة تنكيلاً بهم، وتحذيراً للشريف بركات، ومن بينهم أحمد بن علي بن سنان العمري(١٤٠)، وجسار بن أحمد بن عبدالكريم العمري(١٤١)، ودبيس بن جسار بن سنان بن راجح العمري(١٤٢)، وعويد بن منصور بن راجح بن محمد بن عبدالله العمري(١٤٣)، ومقدم بن عبدالله العمري(١٤٤)، ووبير بن جويعد العمري وغيرهم من مولديهم، وجماعة من عبيد الشريف حسن وولده الشريف بركات(١٤٥). وفي أعقاب هزيمة الشريف بركات انسحب نحو العد(١٤٦) جهة اليمن(١٤٧).

---

(١٤٠) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٤، ص١٨١؛ الدر الكمين، ج١، ص٤٧٩؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٢، ص٢٠.

(١٤١) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٤، ص١٨١؛ الدر الكمين، ج١، ص٦٦٦؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص٦٧.

(١٤٢) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٤، ص١٨١؛ الدر الكمين، ج٢، ص٧٢٧؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص٢١٧.

(١٤٣) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٤، ص١٨١؛ الدر الكمين، ج٢، ص١١٥٩.

(١٤٤) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٤، ص١٨١؛ الدر الكمين، ج٢، ص١٢٠٩.

(١٤٥) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٤، ص١٨١؛ الدر الكمين، ج٢، ص١٢٣٦؛ عزالدين بن فهد: غاية المرام، ج٢، ص٤٢٤.

(١٤٦) العد: ماء في الساحل جنوب شرق جدة. عاتق البلادي: معجم معالم الحجاز، ج٦، ص٤٩-٥٠.

(١٤٧) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٤، ص١٧٩.

ونتيجة لفشل الشريف بركات في استعادة السلطة، ولحاجته للمال عمد إلى شن الغارات على القبائل، وإلى السلب والنهب مستعيناً في ذلك بجماعة من ذوي حميضة، ففي سنة (٨٤٨هـ/١٤٤٤م) هاجم عدداً من القبائل، ومنهم: عرب مطير، وعرب من بني سعد يقال لهم: يمن، وغنم منهم إبلاً وأغناماً، وتصدى له الشريف أبو القاسم بن حسن بن عجلان[١٤٨] بأن أرسل له القائدين مطيرق بن منصور بن راجح[١٤٩]، وسنان بن علي بن سنان[١٥٠] العمريين يحذرانه من مغبة مواصلة الغارات على القبائل، ويأمرانه برد الأموال التي سلبها منهم، ثم توصل الطرفان إلى الصلح بأن يتنازل الشريف بركات عن جزء مما سلبه فيما يدفع أبو القاسم جزءاً آخر للقبائل[١٥١].

ومن هنا يتضح أن الشريف بركات في تلك الغارات على القبائل حقق هدفين أساسيين:

- وسيلة للحصول على مكاسب اقتصادية.
- ممارسة ضغط سياسي وعسكري على أمير مكة المكرمة بإشاعة نوع من الفوضى الأمنية في البلاد تتيح له الفرصة لاستعادة سلطته في مكة المكرمة.

ولعل النفوذ العسكري للقواد العمرة والحميضات كان واضحاً في الحياة السياسية في مكة المكرمة خلال العصر المملوكي، وانعكس أثره على موازين القوى السياسية في المنطقة بين الأمراء والأشراف.

---

(١٤٨) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٤، ص٢٢٧- ٢٢٩.

(١٤٩) مطيرق بن منصور بن راجح: كان من أعيان القواد العمرة، مات بمكة المكرمة سنة (٨٥٦هـ/١٤٥٢م). نجم الدين بن فهد: الدر الكمين، ج٢، ص١١٩٩-١٢٠٠.

(١٥٠) سنان بن علي بن سنان: من القواد العمرة، مات سنة (٨٥٣هـ/١٤٤٩م) بالعد، ودفن بمكة المكرمة. نجم الدين بن فهد: الدر الكمين، ج٢، ص٧٦١- ٧٦٢.

(١٥١) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٤، ص٢٢٧- ٢٣٢.

ثالثاً: النفوذ الاقتصادي

يمثل الاقتصاد أهمية كبرى لأي مجتمع من المجتمعات، كما يعد ركيزة أساسية لأي سلطة سياسية، وفيما يتعلق بالأوضاع في مكة المكرمة في العصر المملوكي فقد شكل النشاط الاقتصادي سمة مهمة في تاريخها سواء ما يتصل بالمناشط الاقتصادية المختلفة في مكة المكرمة، أو ما يتم أثناء موسم الحج مما يرد إليها من صدقات وهبات وسلع مختلفة وغيرها.

وسأعرض في هذه الجزئية مدى النفوذ الاقتصادي للقواد العمرة والحميضات عبر محاولاتهم الحصول على مكاسب اقتصادية؛ لتدعيم نفوذهم السياسي والعسكري في مكة المكرمة أو عبر محاولة الأشراف، وبخاصة أمراء مكة المكرمة، تقليص ذلك النفوذ من خلال تقليل الدعم الاقتصادي للقواد أو مصادرة أموالهم.

فيما يتعلق بمحاولة الأشراف إضعاف النفوذ الاقتصادي للقواد العمرة قام الشريف مبارك الذي ناب عن والده الشريف عطيفة في إمارة مكة المكرمة سنة (٧٣٧هـ/١٣٣٧م) بإرسال أخيه مسعود إلى الوادي لقطع نخيل القواد ذوي عمر(١٥٢)، ويظهر أن ما قام به الشريف مبارك كان عقاباً للقواد العمرة على انضمامهم إلى عمه رميثة بعد قتل مبارك للقائد محمد بن عبدالله بن عمر بن مسعود العمري(١٥٣).

وفي مجال التأثير السياسي على الجانب الاقتصادي نرى أن أمير مكة المكرمة يستعين بالقواد من أجل كبح جماح الأشراف، وإضعاف نفوذهم السياسي والعسكري خاصة إذا كان لهؤلاء الأشراف مطامع

---

(١٥٢) الفاسي: العقد الثمين، ج٧، ص١٢١؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٢٠٩.

(١٥٣) الفاسي: العقد الثمين، ج٢، ص٧٣. نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٢٠٨- ٢٠٩.

اقتصادية، ففي سنة (٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م) حصل خلاف بين أمير مكة المكرمة الشريف علي بن عجلان والأشراف سجن على أثره بعض قادتهم، ثم أطلق سراحهم، فاتجهوا نحو بحرة بين مكة المكرمة وجدة، ثم نحو جدة واستولوا عليها، وحاولوا الاستيلاء على مركب وصل من مصر محمل بالقمح والشعير والفول مرسل من السلطان المملوكي، ويبدو أنه كان سيوزع على أهل مكة المكرمة والحجاج؛ فرغب الأشراف في الاستيلاء عليه وحاول الشريف التوجه لقتالهم فمنعه القواد الحميضات، وأقنعوه بأن يدفع لهم أربعمئة غرارة قمح من المركب على أن يرحلوا من جدة، فوافق على ذلك الاقتراح غير أنهم بعد أن تسلموا تلك الحبوب امتنعوا عن الرحيل[١٥٤]؛ طمعاً على ما يبدو في المزيد.

ونتيجة للتحالفات السياسية والعسكرية بين أمير مكة المكرمة والقواد حصل هؤلاء القواد وعلى رأسهم العمرة والحميضات على مقررات سنوية نقدية وعينية نظير ولائهم وطاعتهم له، غير أن تلك الأموال كانت تحجب في بعض الفترات نتيجة للظروف السياسية، ومنها الصراع على السلطة بين أشراف مكة المكرمة، كما حدث سنة (٨٢٤هـ/ ١٤٢١م) حينما "خرج كثير من القواد والأشراف عن طاعة الشريف حسن، وانضموا إلى ابن أخيه الشريف رميثة، واستولوا على جدة"[١٥٥]، وقد أدى ذلك إلى غضب أمير مكة المكرمة، فانتهز فرصة وفاة السلطان المملوكي المؤيد شيخ، فقرر أن ينزل عن الإمرة لابنيه الشريفين بركات وإبراهيم، ويخصص لكل منهما ثلث الحاصل، والثلث الباقي للشريف حسن مع إبطال الرسوم المقررة للأشراف والقواد في كل سنة؛ مما أثار القواد؛ فاعترضوا على ذلك القرار، فلم ينفذ[١٥٦].

(١٥٤) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٣٨٨ - ٣٨٩.

(١٥٥) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٥٧٨.

(١٥٦) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٥٧٨ - ٥٧٩.

وقد أسهم بعض القواد الذين تمتعوا بمكانة اقتصادية في النشاط المالي والاجتماعي الخيري من خلال بعض الوقفيات، ومن هؤلاء أحمد بن سنان بن راجح بن محمد بن عبدالله بن عمر بن مسعود العمري كان من أعيان القواد العمرة وصف بأنه صاحب مروءة وثروة من نقد وعقار ومسالفة، أنشأ سبيلاً بدار له في المعلاة، فأوقف الدار عليه رغبة في استمرار السبيل بعد وفاته، وقتل في وقعة الحدبة خارج جدة سنة (٨٤٦هـ /١٤٤٢م)(١٥٧)، ومن هؤلاء أيضاً القائد بطيح بن أحمد بن عبدالكريم النصيح العمري الذي وصف بأنه ذو ثروة، ويقرض الناس، توفي بجدة سنة (٨٥٥هـ/ ١٤٥١م) ودفن بمكة المكرمة(١٥٨).

أسهم بعض القواد في النشاط المالي والاجتماعي الخيري من خلال بعض الوقفيات

وظهر من القواد العمرة من تمتع بمكانة اقتصادية أهلته لمكانة اجتماعية رفيعة، ومن هؤلاء تبل بن منصور بن راجح بن محمد بن عبدالله بن عمر بن مسعود العمري المكي القائد(١٥٩).

ومن هنا يظهر مدى دور العامل الاقتصادي في التأثير على العاملين السياسي والعسكري في ظل الصراع على السلطة بين أشراف مكة المكرمة، ومحاولة القواد التدخل من خلال نفوذهم الاقتصادي أو الضغط للحصول على الميزات الاقتصادية لترجيح كفة على أخرى.

---

(١٥٧) نجم الدين بن فهد: الدر الكمين، ج١، ص٤٧٩؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٢، ص٢٠.

(١٥٨) نجم الدين بن فهد: الدر الثمين، ج١، ص٦٥٧؛ إتحاف الورى، ج٤، ص٣٠٩؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص١٧؛ السخاوي، محمد عبدالرحمن (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م): التبر المسبوك في ذيل السلوك، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، (د. ت)، ص ٣٥٧.

(١٥٩) الفاسي: العقد الثمين، ج٣، ص٣٩٣؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص٢٧.

رابعاً: النفوذ الاجتماعي

رغم أن القواد في معظمهم هم موالٍ للأشراف، وعلى رأس هؤلاء القواد العمرة والحميضات إلا أنهم تمتعوا بمكانة اجتماعية رفيعة في المجتمع المكي وخارجه، ويمكن القول: إن مكانتهم الاجتماعية قد استمدوها من عاملين أساسيين:

- قربهم من أمراء مكة المكرمة والأشراف.
- نفوذهم السياسي والعسكري.

ومن أبرز جوانب النفوذ الاجتماعي المصاهرات، ويلحظ أن القواد العمرة رغم كونهم موالي للأشراف قد ارتبطوا بصلة مصاهرة مع أمراء مكة المكرمة وغيرهم من الأشراف، وهذا أدى لتقوية مركزهم السياسي، فقد صاهر أمير مكة المكرمة الشريف عجلان بن رميثة القواد العمرة، وأنجب من تلك المصاهرة ابنه الشريف أحمد، وأصبح لأخواله دور سياسي مهم. نرى ذلك واضحاً حينما توفي الشريف عقبة بن رميثة سنة (٧٦٢هـ/١٣٦١م)، وخلفه في منصب الإمارة أخوه الشريف عجلان منفرداً، ثم سعى لإشراك ابنه أحمد في الإمرة، فطلب منه أن يقصد أخواله القواد ذوي عمر لنصرته[١٦٠]، وكان من بينهم خاله جماز بن صبيحة المتوفى سنة (٧٨٣هـ/١٣٨١م)[١٦١].

وعمد القواد العمرة إلى مصاهرة بعض أعيان مكة المكرمة، فقد أشار نجم الدين بن فهد إلى مقتل المقرئ المؤدب سلمان بن حامد بن غازي بين يحيى بن منصور العامري الغزي سنة (٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، واتهم في ذلك بعض أصحاب حسب الله بن راشد أحد أعيان مكة المكرمة، وكان السيد سلمان قد شكا إلى الشريف حسن، حسب الله بن راشد الذي اختفى بعد مقتل المؤدب لمدة سنتين مع كونه صهراً

---

(١٦٠) الفاسي: العقد الثمين، ج٦، ص٦٨؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص٢٩١.

(١٦١) الفاسي: العقد الثمين، ج٣، ص٤٤١.

لبعض أعيان القواد العمرة[١٦٢]، وأمر الشريف حسن بن عجلان بهدم بيته عقاباً له[١٦٣].

وفي مرحلة لاحقة صاهر أمير مكة المكرمة الشريف بركات بن حسن بن عجلان أحد القواد العمرة، ويدعى أحمد بن وبير العمري بزواجه من ابنته حجلة (ت ٨٩٩هـ/١٤٩٣م) التي أنجبت له ابنه رميثة[١٦٤]. ووصلت المصاهرات بين الأشراف والقواد العمرة ذروتها بأن أصبح بعض القواد العمرة أخوة للأشراف من جهة الأم، ومن هؤلاء علي بن جسار بن عمر بن مسعود العمري المكي (ت ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م) أخٌ لأمير مكة المكرمة الشريف أحمد بن عجلان من جهة الأم، وقد كان من أعيان القواد العمرة ومن أغنيائهم، اشتهر بالعقل والوفاء[١٦٥].

وشملت تلك المكانة الاجتماعية القواد الحميضات، ومن هؤلاء محمد بن كحل العزي المكي الملقب بالجمال، كان أبوه من موالي السيد عز الدين حميضة بن أبي نمي، وكان يتمتع بمكانة اجتماعية رفيعة، "وله علاقات واسعة بأعيان الأشراف، وكان مقبول الشهادة عند الحكام وغيرهم"[١٦٦].

كما أسهم بعض القواد العمرة في أوجه النشاط الاجتماعي؛ فأنشؤوا بعض المنشآت الاجتماعية، ومن هؤلاء القائد أحمد بن علي بن سنان العمري (ت ٨٤٦هـ/١٤٤٢م) الذي سبقت الإشارة إليه حيث أنشأ سبيلاً بدار له بالمعلاة، بالقرب من مسجد الراية بمكة المكرمة، وأوقف الدار عليه[١٦٧].

---

(١٦٢) نجم الدين بن فهد: إتحاف الورى، ج٣، ص ٤٤٩.

(١٦٣) الفاسي: العقد الثمين، ج٤، ص١٠٢- ١٠٣.

(١٦٤) ابن فهد، عز الدين عبدالعزيز بن عمر (ت ٩٢٢هـ/ ١٣٣١م): بلوغ القرى في ذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى، حقق في ٣ رسائل جامعية (ماجستير) كلية الشريعة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٢١- ١٤٢٢هـ، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٤٦٠.

(١٦٥) الفاسي: العقد الثمين، ج٦، ص١٤٨- ١٤٩.

(١٦٦) الفاسي: العقد الثمين، ج٢، ص٢٦٦.

(١٦٧) نجم الدين بن فهد: الدر الكمين، ج١، ص٤٧٩؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٢، ص٢٠.

الخاتمة:

من خلال الدراسة السابقة يتضح مدى النفوذ الذي تمتع به القواد عامة والقواد العمرة والحميضات خاصة في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ودورهم العسكري، ويمكن إجمال النتائج التي توصلت إليها من خلال هذه الدراسة فيما يأتي:

١ - مثل النفوذ السياسي للقواد العمرة والحميضات العنصر الأساسي في نفوذ هؤلاء القواد بما تمتعوا به من قدرة على التدخل في الصراع السياسي بين أشراف مكة المكرمة للسيطرة على السلطة، ونلحظ أن هؤلاء القواد لم يكونوا كتلة سياسية وعسكرية واحدة، بل انقسموا في ولائهم بين الأمراء من الأشراف؛ مما يدل على غلبة المصالح السياسية والاقتصادية في ولاء كل فئة منهم في دعم الأجنحة المتصارعة من الأشراف، وربما يكون ذلك نوعاً من توزيع الأدوار فيما بينهم؛ حتى يتمكنوا من كسب رضا الجميع والاحتفاظ بنفوذهم داخل البنية السياسية للسلطة.

٢ - شكل النفوذ العسكري الوجه الآخر للصراع بين الأشراف، وتمثل النفوذ العسكري بالدعم الذي قدمه القواد العمرة والحميضات لأطراف الصراع، وقد استمدوا هذا النفوذ من قربهم من السلطة، وما حازوه من أموال وأتباع وموالٍ وعبيد وأسلحة؛ مما أهلهم للتدخل في الصراع العسكري، وشاركوا في كثير من المعارك التي خاضها الأشراف فيما بينهم مثل معركتي الزبارة، والحدبة، وقد قتل في تلك المعارك عدد كبير من القواد.

وقد انعكس هذا النفوذ العسكري للقواد على النفوذ السياسي، فمن خلال انتصار الجناح الذي يدعمه طرف من القواد يتعزز الدور السياسي لذلك الطرف.

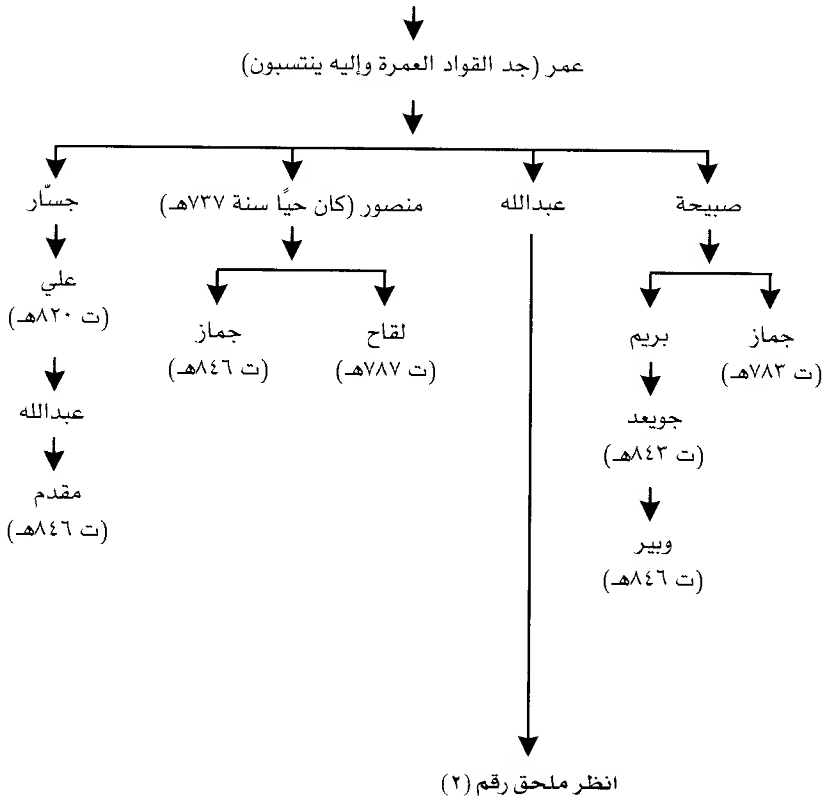
٣ - في مجال النشاط الاقتصادي انعكس تعاظم نفوذ القواد السياسي وقوتهم العسكرية على نفوذهم الاقتصادي، فأسهموا في بعض مناشط الحياة الاقتصادية خاصة في المجالين الزراعي والتجاري؛ فامتلكوا المزارع في الأودية المحيطة بمكة المكرمة، كما حازوا الثروات والعقارات.

٤ - يشكل الجانب الاجتماعي أهمية أساسية في علاقات القواد مع شرائح المجتمع المكي؛ مما انعكس بصورة واضحة على دورهم في الحياة الاجتماعية. ونلحظ ارتباط القواد وبخاصة العمرة بعلاقات مصاهرة مع أشراف مكة المكرمة؛ مما أكسبهم نفوذاً سياسياً واقتصادياً متزايداً. كما أدى ذلك إلى تدخلهم بصورة مباشرة في دعم تعيين بعض الأشراف على إمارة مكة المكرمة أو عزلهم عنها، كما أسهم بعضهم في دعم المشاريع الخيرية فأنشؤوا الأسبلة، وأوقفوا أوقافاً عدة للصرف عليها؛ مما انعكس بصورة إيجابية على النشاط الاقتصادي في مكة المكرمة.

الملاحق

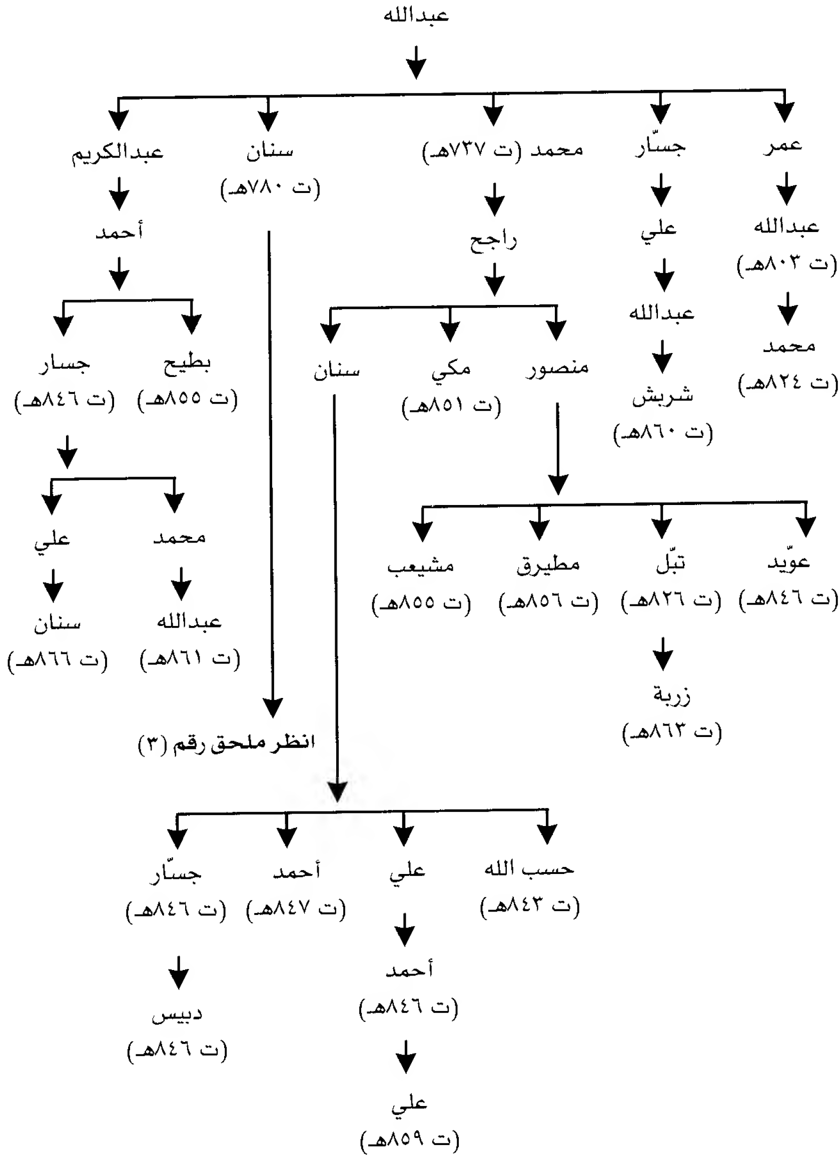
ملحق رقم (١)

مشجر نسب أسرة القواد العمرة (ذوي عمر)



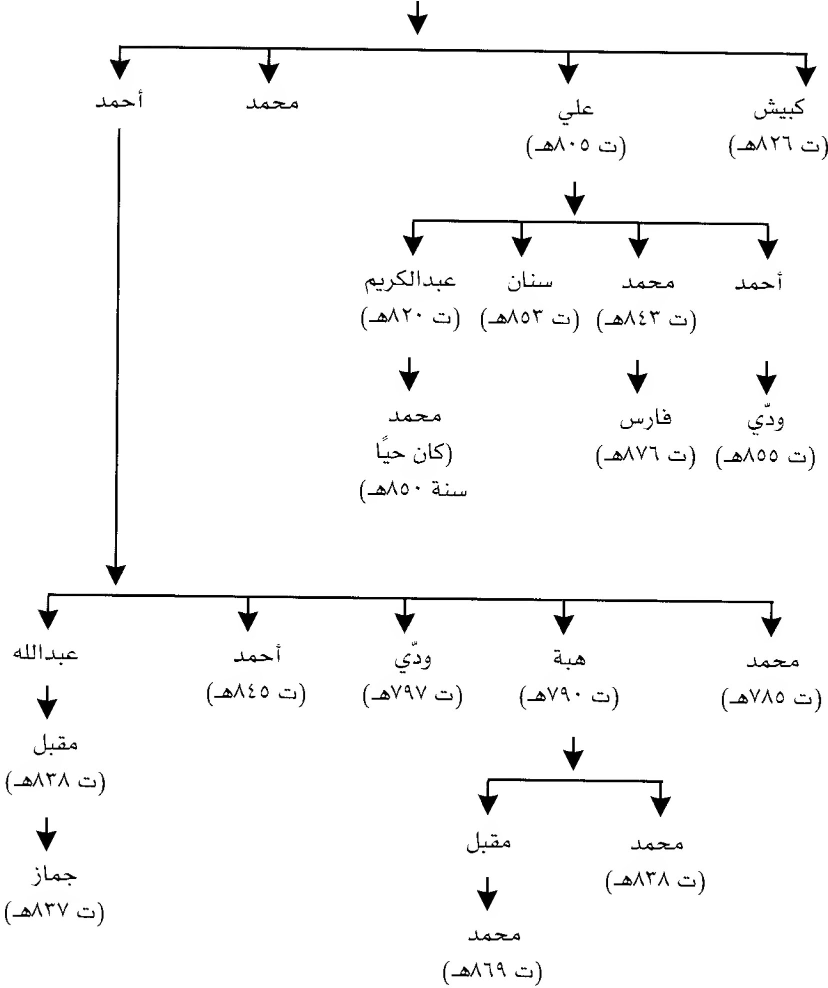
ملحق رقم (٢)

مشجر نسب أبناء عبدالله بن عمر بن مسعود



ملحق رقم (٣)

مشجر نسب أبناء سنان بن عبدالله بن عمر بن مسعود



دور المرأة المكية في الحركة الفكرية في القرن التاسع الهجري

د. عائض بن محمد الزهراني
مركز التدريب وخدمة المجتمع والتعليم المستمر
كلية المعلمين بمحافظة الطائف

ازدهرت مكة المكرمة فكرياً، وأصبحت مقصد العلماء في كل فن، حتى عدّت من أكبر المراكز التي يفد إليها مئات الآلاف من المسلمين في كل عام لأداء الركن الخامس من أركان الإسلام "الحج"، ومعهم المئات من العلماء وطلاب العلم الذي يجاورون بعد انتهاء الموسم، وبهم تعقد الحلقات العلمية، وتلقى المحاضرات الدينية، وأصبحت بذلك مكة المكرمة من أهم مراكز الإشعاع الثقافي والديني، وبرز التنافس العلمي الشريف بين العلماء، وأدى إلى ازدهار ونمو الحركة العلمية بمكة المكرمة.

كما احتوت العديد من الثقافات التي لا تتوافر في أي مدينة أخرى، وشهدت بذلك تطوراً ثقافياً بارزاً، وسادها جو من الثقافة والحضارة الإسلامية خاصة في مجال الدراسات الدينية، وانفردت عن غيرها حتى صارت مركزاً للهداية والإرشاد ومنبعاً للإشعاع الروحي.

وتذكر لنا المصادر التاريخية المكية توهج بعض أمراء الحجاز ممن كان لديهم توجه علمي ملحوظ، ورغبة في العلم، فقد كانت مجالسهم ندوات تحفل بكبار العلماء، كما تتجلى في كثير من الأمراء روح

البحث العلمي؛ مما دفعهم إلى تسجيل آثارهم العلمية من عمارة ومكتبات وإنشاء مدارس وأوقاف لطلبة العلم[١].

واتسعت دائرة الاهتمام حتى شملت السلاطين والأمراء في الدول الإسلامية والبيوت العلمية ذات الثراء بالحركة العلمية، وإغداق الأموال على العلماء والمجاورين والإسهام في استحداث مدارس وأربطة[٢]، فتمدنا المصادر التاريخية أن عدد المدارس أصبح في القرن العاشر الهجري أكثر من ثلاثين مدرسة[٣]، كما انتشرت حلقات الدرس في الأربطة التي أغلب سكانها من طلاب العلم، فقاموا بتغذية الأربطة بالكتب مستمرة من قبل الساكنين خاصة في أربطة النساء؛ مما جعلها تسهم بشكل إيجابي ملموس مؤثر في تنشيط الحياة العلمية، وتصبح مناراً للعلم والإقراء والتثقيف، وأدى ذلك إلى ازدهار التأليف في شتى العلوم والمعارف.

ولم يقتصر العلم والتصنيف على الرجال بل لقد اشتهر بمكة المكرمة الكثيرات من العالمات اللاتي تحدثت عنهن كتب الطبقات[٤].

---

(١) ابن فهد، عبدالعزيز بن عمر (العز)، بلوغ القرى في ذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى، نسخة مكتبة الحرم المكي، رقم ١، تاريخ دهلوي، ورقة ١١١ ب، ابن فهد (العز)، غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تحقيق: فهيم شلتوت، مكة، جامعة أم القرى، ١٤٠٩هـ، ج٢، ص٥٩٨، ابن فهد، جار الله محمد، نيل المنى بذيل بلوغ القرى لتكملة إتحاف الورى، ص ١١٣، ١٩٨.

(٢) ابن فهد، عمر بن محمد (النجم)، إتحاف الورى بأخبار أم القرى تحقيق: فهيم شلتوت، مكة، جامعة أم القرى، ١٤٠٤هـ، ج ٣، ص ٦٣٤، العيدروسي، عبدالقادر محيي الدين، النور السافر عن أخبار القرن العاشر، تصحيح محمد رشيد، بغداد مطبعة التراث، ١٩٣٤م، ص ١٠٤.

(٣) جار الله بن فهد، نيل المنى، ص ٧٥، ١٦٨، ٢٤٧، النهروالي، محمد بن علاء الدين، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، بيروت، دار خياط، ١٩٦٤م، ص٣٥١، القطبي، عبدالكريم محيي الدين، إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام، علق عليه أحمد محمد محيي، وعبدالعزيز الرفاعي، ط١، الرياض، دار الرفاعي، ١٩٨٧م، ص٢٩٢.

(٤) ابن فهد، عمر بن محمد (نجم الدين)، الدر الكمين بذيل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، نسخة مكتبة رضا رامبور، الهند، تاريخ، رقم ٣٦١٢، ورقة ١١٩ أ، إتحاف الورى، ج٢، ص ٥٦٤، جار الله بن فهد، نيل المنى، ص ٩٧، ١٨٣.

فالمرأة المكية المسلمة بحكم تكاليفها كالرجل، فهي صاحبة رسالة في الحياة، ولذا وجب أن تكون اجتماعية فعالة مؤثرة، ما أسعفتها ظروف حياتها وأسرتها وإمكاناتها بذلك، تخالط النساء على قدر استطاعتها، وتعاملهن بخلق الإسلام الرفيع الذي يميزها عن غيرها من النساء(٥).

وحيثما وجدت المرأة المتعلمة الواعية كانت منار إشعاع، ومشكاة هداية، ومصدر توجيه، وعامل بناء وتسديد وتوعية بأقوالها وأفعالها على السواء، ذلك أن المرأة في المجتمع المكي التي استنارت بهدي القرآن الكريم، وارتوت من منهل السنة النبوية المطهرة، شخصية اجتماعية راقية من الطراز الأول، مؤهلة لتقوم بواجبها الدعوي في المجتمعات النسائية، مفتحة العيون والأذهان والبصائر على هدي هذا الدين العظيم الذي سما بالمرأة في وقت مبكر جداً من تاريخ المرأة في العالم، وزودها بمجموعة كبيرة جداً من مكارم الأخلاق، نطقت بها نصوص هذا الدين الحنيف من قرآن كريم وحديث شريف، وجعل التخلق بها ديناً، يثاب المرء عليه، ويحاسب على تركه، فاستطاعت هذه النصوص أن تجعل من شخصية المرأة الصادقة مع ربها نموذجاً فذاً للمرأة الاجتماعية الراقية المهذبة التقية العفيفة الخيرة(٦).

إن المرأة في مكة المكرمة الواعية بأحكام دينها الحق مجسدة قيم دينها وشمائله الحسان، بتطبيقها العملي لهذه القيم وتحليها بتلك الشمائل، فقوام شخصيتها الاجتماعية المتميزة رصيد ضخم من تلك القيم الإسلامية في سلوكها الاجتماعي ومعاملتها للناس، فمن هذا النبع الثر الكبير تمتاح المرأة المكية أعرافها وعاداتها وسلوكياتها

(٥) معروف الدواليبي، المرأة في الإسلام، دار النفائس، بيروت، ١٤٠٩هـ، ص ٥٦.

(٦) عائشة عبدالرحمن، تراجم سيدات بيت النبوة، دار الكتاب العربي، بيروت، دون تاريخ، ص ٨٦.

ومعاملاتها، ومن هذا المعين الصافي والمورد العذب تنهل لتزكية نفسها، وتكوين شخصيتها الاجتماعية المسلمة[٧].

وبدا جلياً لا غبش فيه أن المرأة المكية التي استنارت بهدي دينها امرأة راقية مهذبة واعية نابهة منتجة بناءة طاهرة سامية، تعرف عن وعي وبصيرة وإدراك واجباتها نحو ربها، ونحو نفسها، ونحو مجتمعها كله، بكل ما يضطرب فيه من أناس وأحداث ومعاملات.

لم تلتزم المرأة في مكة المكرمة أثناء تعليمها بما يفرضه عليها دينها فقط، وليس المراد بالتعليم تعليم المرأة العلوم الشرعية فقط، حيث لا مانع أن تتعلم الطب لتعالج الإناث، وتتعلم المفيد من العلوم لتعلم النساء، إلى غير ذلك من العلوم التي تفيد بها بني جنسها، ولقد بلغت شأواً في تفعيل فكرها، علماً بأنها كانت رهينة إلى حد بعيد بثقافة عصرها التي نشأت فيها وتأثرت بها[٨]. ولم يختلف وضع المرأة ومكانتها العلمية على مدى العصور، بل استمر على ما هو عليه، حتى إن كثيراً من مؤرخي مكة كانوا يفردون فصولاً[٩] في مؤلفاتهم للحديث عنهن وعن دورهن العلمي.

ولذلك فإننا نجد تعليم المرأة في مكة المكرمة كان يتم من خلال ثلاثة طرق:

١ - أن تتعلم على يد امرأة مثلها من المعلمات[١٠].

٢ - أن تأخذ المرأة العلم عن رجل أو رجال من ذوي محارمها، وهذه الطريقة هي أشهر الطرائق وأوسعها انتشاراً، إذ إن تلك الأعداد

---

(٧) مصطفى السباعي، المرأة بين الفقه والقانون، المكتب الإسلامي، القاهرة، ١٤٠٤هـ، ص ٣٧.

(٨) جار الله بن فهد، نيل المنى، ص ٢٢، ٩٧، ١١١، ١٤٥.

(٩) الفاسي، محمد بن أحمد (تقي الدين)، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: محمد فؤاد السيد، ج ٨، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ، النجم بن فهد، معجم الشيوخ، تحقيق: محمد الزاهي، الرياض، دار اليمامة، ١٤٠٢هـ، الدر الكمين، ورقة ١٩٨.

(١٠) النجم بن فهد، الدر الكمين، ورقة ١٩٨، عز الدين بن فهد، بلوغ القرى، ورقة ٩٨ أ.

الكبيرة من العلماء الذين حفلت بهم كتب التراجم سوف يعلمون أضعاف عددهم من النساء(١١).

٣ - عند الضرورة قد تأخذ عن الرجال من غير ذوي المحارم إما خلف ستر، أو يكون الرجل ضريراً معروفاً بالعفة(١٢).

لقد تعودت المرأة المكية أن تسلك سبل العلم المختلفة، وأن تطرق أبوابه، وتحملت الصعاب في سبيل ذلك غير مكترثة بما يصادفها من مصاعب؛ بذلك يتضح أن كثيراً من العلماء منحوا الإجازة لبعض النساء، وكذلك كثيراً من العلماء أخذوا العلم من أفواه النساء.

وقد ذكرت لنا كتب التراجم أسماء كثيرة من عالمات العصر ونشاطهن العلمي، ويلحظ أن معظمهن كان لهن اهتمام بعلم الحديث، كما أن معظم النساء في الحجاز نشأن في منازل الأسر العلمية، حيث تنافسوا في أن تكون دورهم مجالس علمية قامت بدور مميز في تطور الحركة العلمية في مكة المكرمة، واستطاعت أن تقوم بدورها في التعليم والمناقشة والجدل والمناظرة، وتتداول في هذه الدور العلوم كافة من حديث وفقه وتفسير ونحو وأدب وغير ذلك(١٣).

أجازت بعض العالمات في الحرمين الشريفين لكثير من الرجال والنساء

وكانت النساء في الحرمين الشريفين يأتين إلى المساجد للعبادة أو لسماع الخطب والمواعظ، كما كن يلقين المواعظ والدروس من خلال منازلهن والأربطة، وكن يحضرن المواعيد بها، وقد أجازت بعض العالمات في الحرمين الشريفين لكثير

(١١) جار الله بن فهد، نيل المنى، ص ٧٨.

(١٢) جار الله بن فهد، نيل المنى، ص ٧٨، ١١٨، ٤١٣.

(١٣) السخاوي، محمد بن عبدالرحمن (شمس الدين)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، القاهرة، مكتبة حسام المقدسي، ١٣٥٣هـ، ج١٢، ابن تغري بردي يوسف (جمال الدين)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق: فهيم شلتوت، القاهرة، مطابع وست توماس، ١٩٧١م، ابن فهد، الدر الكمين، الفاسي، العقد الثمين.

من الرجال والنساء، وحرصت المرأة في الحرمين الشريفين على تحصيل الإجازات[١٤] من العلماء والشيوخ[١٥].

ويلحظ أن إجازتهن وأخذهن للعلم كان على أيدي آبائهن أو أجدادهن، أو أزواجهن، أو أبنائهن، أو غيرهم من المحارم كأسرة بني فهد، وأسرة الطبري، وأسرة العسقلاني، وأسرة الفاسي، وأسرة بني ظهيرة، وأسرة النويري، وأسرة المرشدي[١٦].

وإذا كان هناك بعض النساء أجاز لهن بعض العلماء من غير هؤلاء المحارم فإن هذه الإجازات طلبها لهن آباؤهن في صغرهن[١٧]، وكان لهن دور في الحركة العلمية من خلال الأسر الحجازية، ومنهن زينب بنت الرضي محمد بن المحب محمد (ت٨٦٢هـ/ ١٤٥٧م)[١٨]، اقتصر نشاطها أيضاً على الإجازة، فقد أجازت للسخاوي، والنجم بن فهد وغيرهما[١٩]، وأم كلثوم ابنة محمد بن أبي الفتح محمد بن أحمد الفاسي (ت ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م)[٢٠] روى عنها النجم بن فهد الحديث.

ومن أبرز النساء أيضاً في الإجازة: أم الحسن بنت محمد (ت ٨٢٧هـ/ ١٤٢٣م)[٢١]، عمة التقي، فقد أجيزت وحدثت وسمع منها النجم بن

---

(١٤) الإجازات: مصدر أجاز، واستجاز طلب الإجازة: أي: الإذن، وهي عبارة عن إذن الشيخ لتلميذه؛ يروي عنه مروياته أو مؤلفاته وأركانها أربعة: المجيز، والمجاز له، ومادة الإجازة، ولفظ الإجازة، وهذا الركن الأخير إما أن يكون مشافهة أو كتابة. (الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ط٢، القاهرة ١٣٧١هـ، ج٢، مادة أجاز، ص ١٧٦، الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية، ط١، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ص ٤٦٦).

(١٥) النجم بن فهد، معجم الشيوخ.

(١٦) عز الدين بن فهد، غاية المرام، ج١، ص ١٧.

(١٧) جار الله بن فهد، نيل المنى، ص ٤٣.

(١٨) النجم بن فهد، الدر الكمين، ورقة ٢٠٦ أ، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص٤٣.

(١٩) النجم بن فهد، معجم الشيوخ، ص ٣١٧، السخاوي، المصدر السابق، ج١٢، ص٤٨.

(٢٠) النجم بن فهد، الدر الكمين، ورقة ٢٢٩ أ.

(٢١) الفاسي، العقد الثمين، ج٨، ص٢٣٠، السخاوي، الضوء اللامع، ج ١٢، ص ١٣٧.

فهد[٢٢]، ووالدة التقي بن فهد المدعوة حليمة بنت أحمد بن محمد الأصفوني (ت ٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م) التي سمع منها ولدها التقي وبنوه[٢٣]، وست قريش فاطمة بنت التقي (ت ٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م)[٢٤]، أجاز لها علماء من الحرمين، وبيت المقدس، والخليل، ومصر، ودمشق، وحلب، وحماة، وحمص، وبعلبك، وطرابلس، وغزة، والرملة، والإسكندرية، وسمعت بنفسها، وأجازت لأخيها النجم[٢٥]، وكذلك أم هانئ زينب ابنة التقي (ت ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م)[٢٦]، عالمة ورحالة، أجازت لأخيها النجم بن فهد والسخاوي[٢٧]، وكمالية ابنة نجم الدين محمد بن أبي الخير (ت ٨٦٦هـ/ ١٤٦١م)[٢٨].

وست الأهل ابنة تقي الدين بن فهد (ت ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م)، حضر بها النجم بن فهد على عدد من العلماء، وسمعت الكثير عليهم، ورحلت إلى عدد من المدن الإسلامية، أجاز لها ابن حجر، والبرهان الحلبي وغيرهما[٢٩].

ومن أبرز النساء، كذلك زينب بنت أحمد بن محمد بن موسى الشوبكي المكي (٧٩٩ - ٨٨٦هـ/ ١٣٩٧ - ١٤٨١م)[٣٠]، التي أخذت الكثير من العلوم الإسلامية على يد علماء مكة المكرمة والقادمين إليها، فقد

---

(٢٢) السخاوي، المصدر السابق، ج١٢، ص ١٣٧.

(٢٣) المصدر السابق، ص ٨٨.

(٢٤) النجم بن فهد، معجم الشيوخ، ص٤٠٤، الدر الكمين، ورقة ١٠٨، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص١٠٤.

(٢٥) المصدر السابق، ص٤٠٤، النجم، الدر الكمين، ورقة ٢٠٨ أ.

(٢٦) النجم بن فهد، معجم الشيوخ، ص ٣٩٧، الدر الكمين، ورقة ٢٣١أ، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص١٥٩.

(٢٧) النجم بن فهد، معجم الشيوخ، ص ٣٩٧، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص١٥٩.

(٢٨) النجم بن فهد، الدر الكمين، ورقة ٢١٨ أ، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص١٢١ - ١٢٢.

(٢٩) السخاوي، المصدر السابق، ج ١٢، ص ١٤٦ - ١٤٧.

(٣٠) النجم بن فهد، الدر الكمين، ورقة ٢٠٤ أ، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ٣٩.

حضرت في الخامسة من عمرها على البرهان بن صديق، وسمعت منه "سنن ابن ماجه"، وكتاب "أخلاق النبي ﷺ"[٣١]، وجزءاً من حديث أبي يعلى الخليل، ومجلساً من "الملل" وجزءاً من "حديث الإفك"، وحدثت بها مع جميع "سنن ابن ماجه" سمع منها عمر بن فهد وغيره، كما حدثت ببعض الكتب، وأجاز لها في سنة (٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م) كثير من العلماء.

ومن أبرزهم العراقي، والهيثمي، والمراغي، والشهاب الجوهري، وأبو الطيب السمولي، والمجد اللغوي، وعائشة بنت محمد بن عبدالهادي، وكانت كثيرة العبادة مباركة صالحة[٣٢].

وحصل العديد من نساء الحرمين الشريفين على إجازات بالمراسلة من علماء الأقطار الإسلامية، وهناك من نساء الحرمين الشريفين من أجزن بالاستدعاءات؛ أي: أن المستجيزين كتبوا إليهن استدعاءات يطلبون فيها إجازاتهن، ويتضح ذلك من خلال إجازات العلماء لهن في السنوات الأولى من عمرهن، ومثال ذلك: صفية ابنة ياقوت بن عبدالله الحبشي المولودة سنة (٨٠٤هـ/ ١٤٠١م)[٣٣]، خالة النجم بن فهد، فقد سمعت من الشيخ نور الدين بن سلامة، وأجاز لها في سنة (٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م) وما بعدها، المرجاني، وابن صديق، وأبو بكر المراغي، والعراقي، وعائشة بنت عبدالهادي، وعبدالكريم بن محمد بن عبدالكريم الحلبي وجماعة كثيرون، أخذ عنها ابن فهد، وقرأ عليها وروى عنها بعض الأحاديث وأجازت للسخاوي[٣٤]، وكذلك أم هانئ

---

(٣١) هو كتاب "أخلاق النبي" لمحمد بن عبدالله الوراق المتوفى سنة ٢٤٩هـ/ ٨٦٣ م (المنجد، صلاح الدين، معجم ما ألف عن رسول الله ﷺ، الطبعة الأولى. بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص ١٨٤).

(٣٢) النجم بن فهد، الدر الكمين، ورقة ٢٠٤ أ، الضوء اللامع، ج١٢، ص٣٩، ابن فهد، معجم الشيوخ، ص ٣٠٥.

(٣٣) النجم بن فهد: الدر الكمين، ورقة ٢١٠ أ، ورقة ٢١٠ ب، السخاوي، الضوء اللامع، ج ١٢، ص٧١، ٧٢.

(٣٤) النجم بن فهد، الدر الكمين، ورقة ٢١٠ أ، ورقة ٢١٠ب، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ٧١ - ٧٢، ابن فهد، معجم الشيوخ، ص ٣٢١.

فاطمة بنت محمد بن حسن القرشي الزبيري الفاقوسي (المولودة سنة ٧٨٨هـ/ ١٤٨٦م)(٣٥)، التي أسمعها أبوها في صغرها من التنوخي، وقد أخذ عنها النجم بن فهد(٣٦)، وكمالية ابنة العلامة نجم الدين محمد بن أبي بكر بن علي بن يوسف الأنصاري المكي الشهير بالمرجاني (٧٩٤ - ٨٨٠ هـ)(٣٧)، التي سمعت في صغرها على كثير من العلماء، وأجازها، البرهان الشامي، وأحمد بن خليل العلائي، والسويداوي، والحرستاني، وابن الشيخة، والعراقي، والهيثمي وغيرهم، وحدثت وسمع منها الفضلاء في مكة المكرمة، وكانت إلى جانب التحديث تجيد القراءة والكتابة، وقد أخذ عنها النجم بن فهد الكثير من الأحاديث الشريفة(٣٨)، ورقية ابنة الشيخ عبدالقوي بن محمد بن عبدالقوي المكي (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م)(٣٩)، التي أجازها في سنة (٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م) البرهان بن صديق، والحافظ الهيثمي، والحافظ العراقي، وقد أخذ عنها النجم بن فهد(٤٠).

كما عرفت من نساء الحرمين الشريفين، أم الحسن بنت أبي العباس أحمد بن محمد بن عبدالمعطي بن مكي بن طراد الأنصاري (ت ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م)(٤١)، والتي سمعت من زينب ابنة أحمد ابن ميمون التونسي "البلدانيات" للسلفي(٤٢)، وأجاز لها العالم المحدث

(٣٥) السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص١٠٢.

(٣٦) المصدر السابق، ج١٢، ص١٠٢.

(٣٧) النجم بن فهد، معجم الشيوخ، ص ٣٢٨، الدر الكمين، ورقة ٢١٧ ب، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص١٢١.

(٣٨) النجم بن فهد، معجم الشيوخ، ص ٣٢٨، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص١٢١، عمر رضا كحالة، أعلام النساء، دمشق، مطبعة الترقي، ١٩٦١م، ج٤، ص ٢٦٤.

(٣٩) النجم بن فهد، الدر الكمين، ورقة ٢٠٢ ب.

(٤٠) المصدر السابق، ورقة ٢٠٢ ب.

(٤١) النجم بن فهد، معجم ابن فهد، ورقة ٦٤ ب.

(٤٢) البلدانيات للسلفي، وهو أن يروي عن أربعين شيخاً في أربعين بلدة، والسلفي هو أبو طاهر بن محمد السلفي الأصبهاني نزيل الإسكندرية، زار معظم البلاد العربية والإسلامية، اشتهر بالتأليف، توفي سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م. (الكتاني، فهرس الفهارس، ج٢، ص ٩٩٤).

صلاح الدين العلائي، وسالم المؤذن، والعز بن جماعة، ومحمد بن عمر بن قاضي شهبة، وكذلك أجاز لها إخوتها الشهاب الحنفي، والجمال بن عبدالمعطي، غير أنها لم تحدث[٤٣]، وكذلك حُسن ابنة الشيخ محمد الحافي بن حسن السعدي المكي (ت ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م)[٤٤]، التي سمعت من التقي البغدادي في سنة (٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م)، والكمال بن حبيب، والعز بن جماعة، وحدثت بذلك، وسمع منها كثير من العلماء، ومن أبرزهم النجم بن فهد[٤٥]، وكذلك صفية ابنة محمد بن محمد بن عمر البسكري المدنية نزيلة مكة كانت واعظة مشهورة (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)[٤٦]، سمعت على جدها وعلى البرهان بن صديق "الأربعين المخرجة"[٤٧]، وزينب بنت يوسف بن إبراهيم بن أحمد البنا المدنية (ت٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م)[٤٨]، سمعت من أبيها سنة (٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م)، نسخة "ابن مسهر"[٤٩]، وقد أنابها الشهاب أحمد بن علي الجزري بسنده، وسمعت من البرهان بن صديق "الأربعين المخرجة" للحجار بحضوره عليه، وأجاز بها ابن الذهبي، وابن قوام، وغيرهما، وأخذ عنها النجم بن فهد وغيره من العلماء[٥٠]. وكمالية ابنة محمد بن أحمد بن قاسم

---

(٤٣) النجم بن فهد، معجم ابن فهد، ورقة ٦٤ ب.

(٤٤) النجم بن فهد، الدر الكمين، ورقة ١٩٩ب.

(٤٥) المصدر السابق، ورقة ١٩٩ب، عمر كحالة، أعلام النساء، ص ٢٦١.

(٤٦) النجم بن فهد، معجم ابن فهد، ص ٣٠٦.

(٤٧) المصدر السابق، ص ٣٠٦.

(٤٨) النجم بن فهد، الدر الكمين، ورقة ٢٠٦ ب، ورقة ٢٠٧ أ، السخاوي، محمد عبدالرحمن (شمس الدين)، التبر المسبوك في ذيل السلوك، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، ص ١٢٩.

(٤٩) نسبة إلى أبي مسهر عبدالأعلى بن مسهر بن عبدالأعلى الغساني الدمشقي شيخها ومحدثها روى عن مالك، وغيره، وكان إمام أهل الشام ومرجعهم في الجرح والتعديل، توفي سنة ٢١٨هـ/ ٨٣٣م. الذهبي، محمد أحمد عثمان، تذكرة الحفاظ، بيروت، دار إحياء التراث، ١٤٠١هـ، ج١، ص٣٨١، السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر، طبقات الحفاظ، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ، ص ١٦٦ - ١٦٧.

(٥٠) النجم بن فهد، الدر الكمين، ورقة ٢٠٦ب، ورقة ٢٠٧ أ، السخاوي، التبر المسبوك، ص١٢٩.

العمري الحرازي (٧٥٧ - ٨٤٩ هـ/ ١٣٥٧ - ١٤٤٤م)[٥١] والدة قاضي مكة وفقيهها أبي السعادات بن ظهيرة، فقد سمعت من عمتها فاطمة بعض "المصابيح" للبغوي[٥٢]، وأجيزت وأجازت لكثير من العلماء، ومن أبرزهم الشهاب أحمد علي الحنفي، وعلي بن عيسى المصري، وإبراهيم بن عبدالرحمن بن جماعة، وفاطمة ابنة أحمد بن ظهيرة، وعبدالوهاب القروي، وكانت مميزة لها فاعلية في المجتمع المكي، مشهورة بالتزامها، ذات عفة ودين[٥٣]، وكذلك مؤنسة خاتون المدعوة فاطمة ابنة محمد بن علي بن محمد بن هبيرة بن الحسن بن يوسف (ت ٨٥١هـ/ ١٤٤٧م)[٥٤]، ابنة المحدث المسند شمس الدين أبي عبدالله القرشي البكري المكي المعروف بابن سكر من نسل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فقد سمعت الكثير من والدها والنشاوري، وابن صديق، وأجاز لها البرهان القيراطي، والحافظ الزين بن رجب، وأبو هريرة الذهبي، وآخرون[٥٥]، ونستشهد بنص تاريخي من ابن فهد يؤكد عمق معرفتها، واتساع محيط علمها يقول: "سمعت مجلساً من أمالي أبي الحسن، وجزء أيوب السختياني، وفوائد ابن ماسي، والمسلسل بالأولية، والأربعين المخرجة، وثلاثيات البخاري، وحدثت وكانت خيرة مباركة"[٥٦].

وكمالية ابنة العفيف عبدالله بن محمد بن علي العجمي المكي (ت٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م)[٥٧]، خالة العز بن فهد وإخوته، أجاز لها الكثير

---

(٥١) السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص١٢٠، التبر المسبوك، ص ١٣٠.

(٥٢) هو أبو القاسم عبدالله بن محمد بن عبدالعزيز بن المرزبان البغوي الأصل البغدادي، صنف "معجم الصحابة"، و"الجعديات"، توفي سنة (٣١٧هـ/ ٩٢٩م)، الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج٢، ص٧٣٧، السيوطي، طبقات الحفاظ، ص ٣١٥.

(٥٣) السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص١٢٠، التبر المسبوك، ص ١٣٠، ابن فهد، معجم الشيوخ، ص٣٢٧.

(٥٤) السخاوي، التبر المسبوك، ص١٩٨.

(٥٥) المصدر السابق، ص ١٩٨.

(٥٦) ابن فهد، معجم الشيوخ، ص ٣٢٤.

(٥٧) السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص١٢٠.

من العلماء، وكانت مشهورة بمعرفتها في الكتابة، كما كانت معروفة ببرها وصدقاتها على الفقراء[٥٨].

وهكذا فإن الإجازات العلمية قد ساعدت على تطور ونمو الحركة المعرفية والعلمية في مكة، فانتشرت المؤلفات، وتبودلت الرسائل والمكاتبات، وكانت من أهم الأسباب في انتشار الكتب والمؤلفات على ساحة العالم الإسلامي عامة، وساحة مكة المكرمة خاصة، وعلى الرغم من شمولية بعض الإجازات وكثافتها فإن الإجازة كانت من أهم عوامل التبادل الثقافي بين مدن الحجاز، وكانت طريقة من طرائق رواية وتدريس مؤلف في غياب المعرفة المكتوبة.

كما كانت هناك مراسلات علمية بين نساء بلدان الحجاز وغيرها من البلدان، مثل: بديعة ابنة السيد نور الدين أحمد الإيجي (المولودة سنة ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)[٥٩]، والتي كانت بينها وبين السخاوي مراسلات علمية عدة[٦٠].

وأسهمت المرأة في التأليف مثل: خاتون بنت محمد بن علي بن عبدالله الحطيني الأصبهاني[٦١]، التي ألفت كتباً عدة منها: كتابها "الموسوم المرموز من الكنوز"، في خمسة مجلدات، وقد ذكرها المحب الطبري في المشيخة التي خرجها للسلطان الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول صاحب اليمن، كما ذكرها ابن مسدي في معجمه[٦٢]، كما ألفت أم الهدى عائشة ابنة الخطيب الطبرية كتاباً في التاريخ يختص بأسرة الطبري[٦٣].

---

(٥٨) المصدر السابق، ج١٢، ص١٢٠.

(٥٩) السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص١٣.

(٦٠) المصدر السابق، ج١٢، ص١٣.

(٦١) الفاسي، العقد الثمين، ج٨، ص ٢٠٢.

(٦٢) المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٠٢.

(٦٣) السخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، عني بنشره حسام الدين القدسي، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص ١٠٨ – ١٠٩.

وبلغ من علمهن في الحديث أن يتبحرن فيه، وبلغن منزلة عالية، ولقد أخرج لهن النجم بن فهد كتاباً جمع فيه مشايخهن في الحديث، مثل: أم المساكين زينب ابنة عفيف الدين أبي محمد عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان بن فلاح اليافعي المكي (ت ٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م)[٦٤]، التي أجاز لها كثير من العلماء، من أبرزهم ابن أميلة والصلاح بن عمر وحسن الهبل، وأجاز لها جمع من علماء القاهرة ودمشق، وحدثت وسمع منها الكثير من العلماء[٦٥].

وسارة ابنة عمر بن عبدالعزيز بن جماعة الكناني (ت٨٥٥هـ/ ١٤٥١م)[٦٦]، التي أخرج لها النجم بن فهد كذلك كتاباً[٦٧]، جمع فيه شيوخاً بالسماع والإجازة[٦٨].

ولم يقتصر دور المرأة على انخراطها في العلوم الشرعية فقط إضافة إلى معرفتها بالعلم، فقد شاركن في التطبيب، مثل: الشيخة فائدة (ت ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م)[٦٩]، التي كانت تعمل قابلة للنساء[٧٠]، وأم الخير ابنة أحمد بن محمد المطري المكية الشهيرة بالمطرية، وتسمى سعيدة (ت٨٦١هـ/ ١٤٥٦م)[٧١]، التي عملت مولدة للطبقة الراقية من المجتمع المكي، وهي التي أجيزت من كثير من علماء مكة، ومن أبرزهم العراقي، والهيثمي، وابن صديق، والزين المراغي، كما أجازت للسخاوي وغيره[٧٢].

---

(٦٤) النجم بن فهد، معجم الشيوخ، ص ٣١٥ – ٣١٦، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص٤٣، التبر المسبوك، ص ٥١.

(٦٥) النجم بن فهد، معجم الشيوخ، ص ٣١٥ – ٣١٦، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص٤٣، كحالة، أعلام النساء، ج٢، ص ٧٣.

(٦٦) النجم بن فهد، معجم الشيوخ، ص ٣١٨ – ٣١٩، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ٥٢.

(٦٧) هو "تراجم لمشايخ شيختنا سارة بنت العز بن جماعة".

(٦٨) النجم بن فهد، معجم الشيوخ، ص ٣١٩، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص٥٢.

(٦٩) السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص١١٤.

(٧٠) السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص١١٤.

(٧١) النجم بن فهد، معجم ابن فهد، ص ٣٠٤.

(٧٢) المصدر السابق، ص ٣٠٤، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ١٤٤.

ولعل دور المرأة العلمي يظهر لنا من خلال العلماء المحدثين الكبار في الحرمين الشريفين، حيث إن كثيراً منهم أخذ عن نساء الحرمين؛ مما يدل على علو شأنهن خاصة أسرة ابن فهد[٧٣].

كانت الرحلة في طلب العلم تقليدًا درج عليه المكيون، وأصبحت لازمة من لوازم التحصيل العلمي، وقد كان السلف لا يعدون طالب العلم رشيداً إذا هو اقتصر على طلبه في بلده فقط[٧٤]، وأصبحت الرحلات العلمية والمعرفية سمة من السمات وركناً أساسياً من أركان الحياة العلمية في ذلك العصر، وطلبة العلم ينتقلون من الحجاز إلى مصر والشام والعراق وشيراز وبلاد المغرب واليمن؛ لأخذ العلم، ولقاء العلماء، وحيثما حلوا واستفادوا وأقبلوا على التدريس والتأليف والإفتاء، وإمعان النظر والفكر في كتب التراجم والمعاجم[٧٥].

فعرف عن المرأة المكية الرحلة في طلب العلم، فقد كانت هناك مساحة واسعة في تمتعها بالحرية، فإذا أكملت تعليمها في بلدها ووجدت أن الظروف مهيأة لها لتلقي العلم خارج بلدها سارعت إلى شد الرحال بصحبة ذي محرم من أب أو أخ أو غيرهما، محاولة التتلمذ على أكبر عدد من العلماء ناشدة الكمال العلمي فتتكبد المشاق في هذا السبيل؛ فقد رحلت أم هانئ زينب بنت فهد إلى بلاد الشام، وأجازت عددًا من العلماء[٧٦]، وكذلك أم ريم تقية ابنة تقي الدين بن محمد بن فهد التي رحلت لطلب العلم إلى عدد من المدن الإسلامية صحبة شقيقها العز بن فهد في بداية القرن العاشر الهجري[٧٧]، وإذا كانت المرأة المكية قد حرصت على أخذ العلم فقد

---

(٧٣) جار الله بن فهد، المصدر السابق، ص ١٨.

(٧٤) ابن الصلاح، أبو عمرو عثمان بن عبدالرحمن الشهرزوري، علوم الحديث، مقدمة ابن الصلاح، تحقيق نور الدين عنتر، المدنية المنورة، المكتبة العلمية، ١٩٧٢م، ص ٢٢٣.

(٧٥) جار الله بن فهد، نيل المنى، ص ١٧، ٣٨، ٤٦، ٩٨، ١٢٦.

(٧٦) النجم بن فهد، الدر الكمين، ورقة ٢٣١ أ، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ١٥٩.

(٧٧) العز بن فهد، بلوغ القرى، ورقة ١٨٨ب، جار الله بن فهد، نيل المنى، ص٢٦٧.

جندت نفسها على نشر ما تعلمته، وكان الأقربون لها رجالاً ونساءً هم أول من يستفيد من علمها، ثم هي لا تبخل بعلمها على طلبة العلم، فتمارس التعليم بمختلف الوسائل التي لا تتعارض والتزامها بأوامر دينها؛ فتدرس خلف الستر، وتجيز من أخذ عنها، وقد تجيب كتابة عما تسأل عنه، وهكذا فقد شاركت المرأة المكية في الحياة العلمية، فتعلمت ما تحتاج إليه في حياتها، بل واستزادت من العلم، ونشرت ما تعلمته بين بنات جنسها، كما نالت المرأة حظها في مجال الإبداع الأدبي.

وخير مثال على مكانتهن العلمية وإجازتهن العلماء ما رواه لنا جار الله بن فهد أنه درس الحديث وبرع فيه على يدي راويات، وامتدح شيخاته في الحديث، وأبرزهن أم سلمة بنت محمد الطبرية المكية (ت ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م)[٧٨]، وفاطمة بنت الكمال بن سيرين (ت٩٤١هـ/ ١٥٣٤م)[٧٩].

أسرة بني فهد:

تنتمي هذه الأسرة إلى محمد ابن الحنفية نجل الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهي أسرة ثابتة الأركان قوية الدعائم، واشتهرت أسرة بني فهد بالاهتمام بعلم الحديث الشريف، وعلم التاريخ والتراجم، وخلفوا لنا تراثاً إسلامياً ضخماً في شتى النواحي، وكانت أسرة تتمتع بمكانة علمية رفيعة المستوى، فيذكر عبدالحي الكتاني في كتابه فهرس الفهارس "... وإذا تأملت في بطون الكتب قل أن تجد بيتاً من بيوت المسلمين فيه خمسة من الحفاظ في سلسلة واحدة من بيت واحد يتوارثون الحفظ والإسناد غير هذا البيت العظيم"[٨٠].

---

(٧٨) جار الله بن فهد، نيل المنى، ص٢٢.

(٧٩) المصدر السابق، ص ٤١٩.

(٨٠) عبدالحي الكتاني، فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المفاهم والمشيخات والمسلسلات، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٦هـ، ج ٢، ص ٩١٠، ابن العماد، عبدالحي الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٢، ط١، بيروت، دار الفكر، ١٣٩٥هـ، ص٢٥٣، الزركلي، خير الدين، الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٩٠م، ج٧، ص٣٣٥، ابن تغرى بردي، جمال الدين أبو المحاسن، الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق: فهيم شلتوت، مكة، جامعة أم القرى، ١٤٠٣هـ، ج٦، ص٦٣٦.

ومن أبرز البيوتات المكية بيت بني فهد، وكان لنسائهم نصيب في تنشيط الحركة العلمية، وبروز بعض نساء هذه الأسرة، واللاتي تتمتع الكثيرات منهن بقدر كبير من العلم، ومن هؤلاء النساء: خديجة ابنة عبدالرحمن بن محمد بن فهد الهاشمي زوج التقي محمد بن فهد، ولدت عام (٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م)، أجاز لها ابن التقي حاتم والعفيف النشاوري، سمعت الكثير من الأحاديث عن الشيخ شمس الدين بن الجزري وابن سلامة، وحدثت بمكة المكرمة، وأخذ عنها شمس الدين السخاوي، والمجد اللغوي، ورحلت لطلب العلم إلى القدس والخليل وغزة والرملة ودمشق والقاهرة، ثم استطاعت في فترة وجيزة أن تنهل من العلم والمعرفة من شيوخ عصرها؛ مما جعلهم يعترفون ويشيدون لها بذلك[٨١]. كما أخذ عنها ابنها النجم عمر بن فهد المكي، وروى عنها أحاديث عدة، وسمع بها كثير من العلماء، وقرأت عليهم البلدانيات للسلفي، ويصفها لنا في معجمه "وكانت من سروات النساء في زمانها صلاحاً وخيراً وديناً وعفة وصيانة وكرماً وعقلاً وخبرة دمثة الأخلاق كثيرة الصدقة"[٨٢]، توفيت عام (٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م) بمكة المكرمة[٨٣].

ومن نساء بني فهد اللائي حرصن على طلب العلم كمالية ابنة النجم محمد بن فهد الهاشمية المكية أخت تقي الدين بن فهد ولدت عام (٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) بمكة المكرمة، سمعت من الزينين المراغي والطبري وابن سلامة وابن الجزري وأبي اليمن الطبري، وعبدالقادر الأرموي، وأقامت في دمشق من عام (٨٤١هـ/ ١٤٣٨م حتى ٨٥٧هـ/ ١٤٥٢م)، ثم اتجهت إلى القاهرة، وأخذ عنها العلماء بمنطقة الحجاز أو من

---

(٨١) النجم بن فهد، الدر الكمين، ورقة ١٩٣ أ، معجم الشيوخ، ص ٣١٥.

(٨٢) عمر بن فهد، معجم الشيوخ، ص ٣١٢، السخاوي، الضوء اللامع، ج١، ص٣٣٥.

(٨٣) النجم بن فهد، الدر الكمين، ورقة ١٩٨، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ١٢١، كحالة، أعلام النساء، ج١، ص ٣٣٥.

خلال رحلاتها إلى بلاد الشام وفلسطين، ومن أبرز من أجازت لهم شمس الدين السخاوي، توفيت عام (٨٦٦هـ/ ١٤٦١م) بمكة المكرمة[٨٤].

وقد أصبح يشار بالبنان للعالمة الفاضلة التي برزت في شتى العلوم الشرعية، ونافست الرجال على طلب العلم، والترحال إلى البلاد الإسلامية لتلقي العلوم والمعارف من ينابيع المعرفة، وهي ست قريش فاطمة بنت العلامة تقي الدين محمد بن محمد بن فهد الهاشمي ولدت عام ٨١٤هـ/ ١٤١١م بمكة المكرمة[٨٥]، كانت عالمة جليلة أجاز لها جمع غفير من العلماء والشيوخ، أخذت عن علماء مكة المكرمة في سنواتها الأولى المبكرة حيث سمعت من القاضي أبي بكر بن الحسين المراغي، والقاضي جمال الدين بن ظهيرة "سنن الدار قطني"[٨٦]، وقد أجاز لها بعض العلماء من الحرمين وبيت المقدس والخليل ودمشق وحماة وحلب وحمص وبعلبك وطرابلس وغزة والرملة والإسكندرية، ومنهم العالمة عائشة بنت عبدالهادي وعبدالقادر الأرموي، وشرف الدين الكويك وشمس الدين الزراتيتي وابن الهبستي، وتوفيت في مكة المكرمة عام (٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م)[٨٧].

وأثبتت أم كلثوم عائشة بنت عطية محمد بن أبي الخير محمد بن فهد الهاشمي (٨٣٣ – ٨٩٩هـ/ ١٤٣٠ – ١٤٩٤م) أنها قادرة كالرجال في قوة العزيمة وقوة العلم والمعرفة، فقد حضرت مجالس العلماء، وهي في الرابعة من عمرها في حلقة محمد علي الزمزمي، ونبغت في العلوم الدينية، ويرصد لنا المؤرخ شمس الدين السخاوي من أجاز لها بقوله: "وأجاز لها القبابي، والتدمري، والواسطي، والزركشي،

(٨٤) النجم بن فهد، الدر الكمين، ورقة ٢١٩، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ١٢١- ١٢٢.

(٨٥) النجم بن فهد، الدر الكمين، ورقة ١٩٩.

(٨٦) المصدر السابق، ورقة ٢٠، كحالة، أعلام النساء، ج ٢، ص ٧٨.

(٨٧) النجم بن فهد، معجم الشيوخ، ص ٤٠٤ – ٤٠٥، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ١٣٧.

والبدر البوصيري، وابن الطحان، وابن ناظر الصاحبة، والعلاء بن بردس، والبرهان الحلبي، وعائشة الكنانية، والشراعية"[٨٨].

ولابد لنا من أن نرصد سيرة امرأة مضيئة في تاريخ المجتمع المكي، وتعد أحد المقاييس المهمة عن تطور ذلك المجتمع وانفتاحه ونموه، وهي أم هانئ زينب ابنة التقي محمد بن محمد بن محمد بن فهد الهاشمي المكي شقيقة النجم، ولدت بمكة المكرمة عام (٨١٧هـ/ ١٤١٥م)، وحضرت وعمرها عامان مجلس الشريف أحمد الفاسي، وابن سلامة مشيخة الفخر وغيرهما، وسمعت من الشمسين ابن الجزري والكتاني متفرقين جميع مسند الإمام أحمد ومن عبدالرحمن بن طولوبغا المسلسل والمئة الفراوية، وأجاز لها جمع كثير من العلماء من شتى أقطار العالم الإسلامي، وبلغت الإجازات التي حصلت عليها أكثر من خمسين إجازة[٨٩]، وكانت أم هانئ تحدث، وقد أجازت لعدد من العلماء كشمس الدين السخاوي، والعز بن فهد، واستمرت في بث علمها حتى حانت وفاتها بمكة المكرمة عام (٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م)[٩٠].

ومن أبرز نساء بني فهد المميزات أم ريم تقية، ويقال لها: ست الأهل ابنة تقي الدين محمد بن محمد بن محمد بن فهد الهاشمية المكية، ولدت عام (٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م) بمكة المكرمة، ثم رحلت لطلب العلم إلى عدد من المدن الإسلامية صحبة شقيقها ابن فهد، وسمعت من أبيها والشهاب أحمد بن إبراهيم المرشدي جزءاً من الطلابية والبردة، وأجاز لها الزين والزركشي والبدر حسين البوصيري، وابن ناظر الصاحبة وابن الطحان والعلاء بن بردس والبرهان الحلبي والقبابي والتدمري، وحانت منيتها عام (٨٩١هـ/ ١٤٨٦م)[٩١].

---

(٨٨) السخاوي، الضوء اللامع، ج٢، ص ١٥٠.

(٨٩) ابن فهد، معجم الشيوخ، ص ٣٩٩ - ٤٠٠.

(٩٠) ابن فهد، الدر الكمين، ورقة ٢٢٠، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص١٥٩.

(٩١) ابن فهد، المصدر السابق، ورقة ٢٠٧، السخاوي، المصدر السابق، الجزء نفسه، ص ١٤٦ - ١٤٧.

كما امتازت هدية بنت محمد أبي الخير محمد بن فهد المولودة بمكة عام (٨٠١ هـ) بالنبوغ؛ حيث التحقت مع والدها في حلقات العلم وهي في سن الرابعة، فلقد حضرت على ابن صديق، وسمعت من الشريف عبدالرحمن الفاسي والجمال بن ظهيرة وابن سلامة(٩٢).

وتعد ابنتا عطية بن محمد بن أبي الخير محمد الكبرى ست الجميع رحمة (٨٣١ - ٨٧١هـ/ ١٤٢٨ - ١٤٦٦م)، والصغرى مريم (٨٣٨ - ٨٧٥هـ/ ١٤٣٤ - ١٤٧٠م)، من المثابرات على تحصيل العلم والسعي الحثيث، فلقد التحقتا بحلقات العلم في سن مبكرة، وأجاز لهما كثير من العلماء والبرهان والواسطي والحلبي والتدمري(٩٣).

كما أننا لا ننسى شعثاء ابنة التقي محمد بن محمد بن أبي الخير محمد بن محمد (٨٦٣ - ٨٩٣هـ/ ١٤٥٨ - ١٤٨٨م) التي سمعت في مرحلة مبكرة من أبيها، وأجاز لها كما أجاز لها جماعة من العلماء، واشتهرت بعفتها وصدقاتها ومروءتها؛ مما جعلها أن تكون الأثيرة لدى المجتمع المكي، ويتضح ذلك عندما حانت وفاتها، فاجتمع عدد كبير لجنازتها(٩٤).

ونختتم نساء أسرة آل فهد بعالمة ترجم لها مؤرخ مكة التقي الفاسي في ثنايا معجمه العقد الثمين مسطراً عنها أنها عائشة ابنة الوجيه عبدالرحمن بن أبي الخير محمد بن محمد بن فهد (٧٩٣ - ٨٢٢هـ/ ١٣٩١ - ١٤١٩م) قائلاً: "وسمعت بها من ابن سلامة، وأجاز لها زين الدين العرقي، ونور الدين الهيثمي، والبرهان بن صديق، والشهاب بن أحمد بن عمر الجوهري، ومحمد بن حسن الفرسيسي والقطب"(٩٥).

---

(٩٢) السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ١٣٢.

(٩٣) المصدر السابق، ج١٢، ص ٥٤، ١٢١ - ١٢٢.

(٩٤) المصدر السابق، ج١٢، ص ٦٧.

(٩٥) الفاسي، العقد الثمين، ج٨، ص ٢٦٩، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص٧٦.

أسرة الطبري[٩٦]:

ولم يقتصر البحث عن العلم والمعرفة على نساء أسرة آل فهد فحسب، بل نافسهم بيت من أعظم البيوت في المجتمع المكي، فأغلب أفراده علماء ومشايخ تولوا مناصب علمية في الأمور الشرعية خاصة في مجال القضاء والتدريس، وتعد من أكبر الأسر العريقة المشهورة بالعلم والمعرفة، جاورت في مكة المكرمة منذ القرن الخامس الهجري، واختلف المؤرخون في نسبهم، وأكد الفاسي أنهم ينتسبون إلى عمرو بن العلاء، فهم شيبانيون[٩٧]. وسأتعرض في ثنايا البحث لعدد من النساء السامقات في مجال العلوم الشرعية، وتعد أم سلمة ابنة المحب محمد بن الرضي محمد الحسينية المكية من ألمع النساء المتبحرات في شتى العلوم المعرفية ويعدها جار الله بن فهد من أميز شيوخه، مما رصد لها أكثر من مكان في ثنايا كتابه، كما أسهمت في إثراء الحركة العلمية لدى النساء في المجتمع المكي، واستمرت بكثافة بعطائها المعرفي حتى لاقت ربها في عام (٩١٣هـ/ ١٥٠٧م)[٩٨]، كما تميزت إحدى نساء البيت الطبري بإجازتها لعدد من أبرز علماء العالم الإسلامي في تلك الفترة، وهي آسية ابنة جار الله بن صالح بن أبي منصور أحمد الطبري المولودة بمكة عام (٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م)، واشتهرت بعلم الحديث بعد حصولها على كثير من الإجازات من علماء وشيوخ الحرمين، فأجازها بدر الدين بن أبي البقاء السبكي، والكمال الدميري، والعراقي، والهيثمي، وأحمد بن أبي البدر الجوهري، والبرهان بن صديق، وأبو بكر بن الحسين المراغي، وأبو اليمن الطبري، وعائشة بنت محمد بن عبدالهادي، وأبو الطيب السمولي،

---

(٩٦) نسبة إلى طبرستان من بلاد خراسان، وهي منطقة مترامية وواسعة، تمتاز بتضاريسها القاسية، فهي عظيمة الجبال والحصون، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص١٣، الحميري، الروض المعطار، ص ٣٨٣.

(٩٧) الفاسي، العقد، ج٤، ص ٢٠٠.

(٩٨) جار الله بن فهد، نيل المنى، ص ٣٨.

ومحمد بن حسن الفرسيسي، وعلاء الدين الجزري، وقد توفيت في مسقط رأسها مكة عام (٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م)[٩٩].

وزينب ابنة الرضي أبي السعادات محمد المحب (٧٩٤ - ٨٦٢هـ/ ١٣٩٢ - ١٤٥٧م) سمعت من أبيها "خماسيات ابن المنقور"[١٠٠]، وحدثت عنه، وأجاز لها زين الدين العراقي، والبرهان الشامي، والتنوخي، والبلقيني، والسويداوي، والحلاوي، وعبدالله الحرستاني، والبلقيني، وابن الملقن، والهيثمي، وأجازت كذلك لشمس الدين السخاوي[١٠١]، وكان للأختين أم الحسن (ت ٨١٥هـ/ ١٤١٢م) وأم الحسين سعدية (٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م) ابنتي المحب محمد بن الشهاب أحمد الطبري جهود لا بأس بها في الحديث[١٠٢]، فقد حدثتا بالحديث المسلسل بالأولية[١٠٣]، وتساعيات[١٠٤] الرضي، سمع ذلك منهما محمد بن علي بن محمد الصالحي المكي[١٠٥]، وأجاز لها

(٩٩) ابن فهد، معجم الشيوخ، ص ٣٠٣، الدر الكمين، ورقة ٢٠٦، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص٢.

(١٠٠) خماسيات ابن المنقور، وهو أحمد بن محمد بن منقور البغدادي المتوفى سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م، أفرد خماسياته من الدار قطني. الكتاني، محمد بن جعفر، الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة، بيروت، دار الكتاب العلمية، ١٤٠٠م، ص٧٤.

(١٠١) الفاسي، العقد الثمين، ج٨، ص٢٤٣.

(١٠٢) السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ١٣٧، ١٥٠، النجم بن فهد، معجم الشيوخ، ص ٣١٧.

(١٠٣) المسلسل بالأولية هو حديث: "الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء"، وسمي بالأولية؛ لأن كل راوٍ يقول فيه: "حدثني فلان وهو أول حديث سمعته منه". انظر ابن حجر: المجمع المؤسس، تحقيق، يوسف المرعشلي، بيروت، دار المعرفة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ج١، ص٨٦ -٨٧/ الأيوبي، المناهل السلسلة في الأحاديث المسلسلة بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٣م، ص٦.

(١٠٤) حينما نقرأ: حدّث بالسباعيات والثمانيات والتساعيات، يعني في سندها سبعة رواة، وثمانية رواة، وتسعة رواة. حاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، نشر محمد شرف الدين، إسطنبول، ١٩٤٣م، ج١، ص ٥٢٢ - ٥٢٣.

(١٠٥) الفاسي، العقد الثمين، ج٨، ص ٢٤٠.

النشاوري، والجمالي الأسيوطي، والكمال بن حبيب، والبلقيني، وابن الملقن، والعراقي، والهيثمي، وكانتا خيّرتين(١٠٦). وعلماء بنت أبي اليمن محمد بن أحمد الطبري (٧٧٤ - ٨٢٦هـ/ ١٣٧٤ - ١٤٢٣م)(١٠٧)، التي سمعت على عمتيها الفاطميتين أم الحسن وأم الحسين، وأجيزت من النشاوري، وابن حاتم، وآخرين، واشتهرت بحبها لفعل الخير، وروى عنها النجم بن فهد(١٠٨)، وأختها فاطمة المدعوة مباركة (ت ٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م)(١٠٩)، التي سمعت وأجيزت كأختها، وحدثت ببعض مروياتها، وسمع منها التقي بن فهد وبنوه(١١٠)، وأم كلثوم ابنة المحب محمد بن أحمد الرضي، وتسمى سعيدة (ت ٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م)(١١١)، وسمعت من الكمال بن حبيب وأجازها في سنة (٧٧١هـ/ ١٣٦٩م)، جماعة من العلماء، منهم البلقيني، وابن الملقن، والعراقي، والهيثمي، وآخرون، وكانت دينة خيرة كاتبة قارئة حفظت الأربعين النووية(١١٢)، وعرضتها بكاملها على جماعة كأبيها، وعم والدتها علي بن أحمد النويري، وخالها المحب النويري(١١٣).

---

(١٠٦) النجم بن فهد، معجم الشيوخ، ص ٢٤٨.

(١٠٧) الفاسي، العقد الثمين، ج٨، ص ٢٨٠ - ٢٨١، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص٨٤، أبو الخير، المختصر من كتاب نشر النور والزهر، ص ٣٤٢.

(١٠٨) السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص٨٤.

(١٠٩) النجم بن فهد، الدر الكمين، ورقة ٢١٤ أ، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص٩٩.

(١١٠) السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ٩٩.

(١١١) المصدر السابق، ج١٢، ص١٥١.

(١١٢) هو الإمام الفقيه الحافظ محيي الدين أبو زكريا بن شرف بن مري الحزامي الحوراني، ولد سنة ٦٣١هـ/ ١٢٣٣م، وصنف مؤلفات عدة في الحديث والفقه منها: "الروضة"، "شرح المهذب"، "المنهاج"، "التحقيق"، "رياض الصالحين"، "تهذيب الأسماء واللغات" وغير ذلك، توفي سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م. الذهبي "تذكرة الحفاظ" ج٤، ص ١٤٧٠، ابن كثير، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، تحقيق: أحمد أبو ملحم، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ، ج١٣، ص ٢٩٤، السيوطي، طبقات الحفاظ، ص ٥١٣.

(١١٣) السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ١٥١.

وزينب بنت عبدالله بن الزين أحمد (ت ٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م)[١١٤]، سمعت من الكمال بن حبيب، وأجاز لها الهيل والصلاح والسويداوي وابن أميلة وآخرون، وأجازت النجم بن فهد وغيره[١١٥].

كما عرفت خديجة ابنة الشهاب أحمد بن النجم محمد الطبري (٧٤٠ - ٨١٤هـ/ ١٣٤٠ - ١٤١١م) التي جاورت بالمدنية بعد ترحالها في طلب العلم، وأجاز لها مجموعة من العلماء، كانت خيرة مرئية ذات مروءة[١١٦].

كما انتهجت طريقتها نفسها خديجة المسماة علا ابنة المحب محمد بن الرضي محمد الطبري (٨٤٩ - ٩٣٨هـ/ ١٤٤٤ - ١٥٣١م) أجاز لها الشرف المراغي والزين والأميوطي وأبو جعفر بن العجمي[١١٧].

ولا ننسى خديجة المدعوة توفيق ابنة الزين محمد بن الزين أحمد الطبري التي نهلت العلم منذ صغرها في بيت أسرتها، وعلى يد والدها العالم الجليل، وسمعت أيضاً من الكمال بن حبيب، وأجاز لها كثير من العلماء في الحرمين الشريفين، وكانت حريصة على بث ما تعلمته من علوم ومعرفة حتى وافتها المنية (٨٢٠هـ/ ١٤١٧م) بمكة المكرمة[١١٨].

ومن أسرة الطبري كذلك ست الكل: زينب بنت الرضي محمد بن المحب محمد (ت ٨٦٢هـ/ ١٤٥٧م)[١١٩]، أجاز لها ابن الصديق والمراغي والعراقي والهيثمي وعائشة ابنة عبدالهادي اقتصر نشاطها

---

(١١٤) النجم بن فهد، الدر الكمين، ورقة ٢٠٥ أ، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ٤٣.

(١١٥) النجم بن فهد، الدر الكمين، ورقة ٢٠٥ أ.

(١١٦) عمر بن فهد، معجم الشيوخ ص ٣١٧.

(١١٧) الفاسي، العقد الثمين، ج٨، ص ٢٠٤، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ٢٥.

(١١٨) السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص٢٦.

(١١٩) الفاسي، العقد الثمين، ج ١٢، ص ٢٠٥، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢.

أيضاً على الإجازة، فقد أجازت للسخاوي، والنجم بن فهد وغيرهما[١٢٠].

واشتهرت أم كمال وتدعى عائشة ابنة المحب محمد بن شهاب أحمد الطبري (٨٤٧ - ٨٨٧هـ/ ١٤٤٢ - ١٤٨٢م) بعطفها على الفقراء والمساكين، والتصدق عليهم، وتعليمهم، فقد صقلتها العلوم المعرفية لحب الخير، وأجاز لها أبو الفتح المراغي، والزين الأميوطي، وأبو جعفر العجمي[١٢١]، وأشاد المؤرخ السخاوي بعالمة من نساء الطبري، وهي رئيسة ابنة المحب محمد بن الرضي الطبري (٨٤٢هـ/ ١٤٣٩م) في اشتغالها بعلم الحديث، وبراعتها فيه تعلماً وتعليماً، وسعة علمها، ولقد أجاز لها أبو الفتح المراغي، والزين، والأميوطي، وأبو جعفر، وكثير من علماء ومشايخ الحرمين[١٢٢].

أسرة القسطلاني[١٢٣]:

كما شهد المجتمع المكي في الفترة المضيئة معرفياً أسرة القسطلاني، وتنسب إلى الحسن بن عبدالله بن أحمد بن ميمون بن راشد القبسي القسطلاني وذريته توالت إلى ما بعد العصر المملوكي، وقد بلغت هذه الأسرة شأواً عظيماً[١٢٤]، وبنت لبنة في العمارة المعرفية من قبل النساء فقد أسهمت أسرة القسطلاني في هذا البناء العلمي، ومن أشهرهن:

---

(١٢٠) النجم بن فهد، معجم الشيوخ، ص ٣١٧، الدر الكمين، الضوء اللامع، ج١٢، ص ٥٨، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ٧٠.

(١٢١) النجم بن فهد، معجم الشيوخ، ص ٣١٧، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ٥٨.

(١٢٢) السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ١٥٢.

(١٢٣) القسطلاني، نسبة إلى قسطيلية - بفتح القاف وسكون السين - وهي مدينة بالأندلس كثيرة الأشجار تتخللها الأنهار. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص ٣٤٨، الحميري، الروض المعطار، ص ٤٨٠.

(١٢٤) الفاسي، العقد الثمين، ج٨، ص ٢٣٠، الصفدي، صلاح الدين، الوافي بالوفيات، ط٢، ١٩٧٤م، ج٤، ص ٢٦١.

ست الكل بنت أحمد بن محمد بن الزين بن محمد القطب، وتعرف ببنت رحمة (ت ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م)[١٢٥]، سمع منها التقي الفاسي[١٢٦] وأجاز لها جماعة من علماء الشام ومصر كيحيى بن يوسف المصري، ومحمد الرمياطي، وأحمد المشتولي، وزينت ابنة الكمال، وأبو نعيم الأسفرديري، والقاضي شمس الدين بن العجاج، وعائشة بنت عمر الصنهاجي، ومن دمشق أبو بكر المرضي، وزينب بنت الكمال، وسمع منها المقريزي[١٢٧]، وحدثت بسداسيات الرازي[١٢٨].

ومما يلفت الانتباه، ويثير الإعجاب حول هذه الأسرة المتوهجة علمياً وثقافياً أن أنجبت عائلة من أسرة القسطلاني كوكبة من الأخوات تنافسن على طلب العلم، والحرص الدقيق، والاهتمام المكثف بالتواجد في حلقات العلماء، وطلب الإجازات العلمية من علماء ومشايخ العالم الإسلامي؛ مما جعل مؤرخي مكة في القرنين التاسع والعاشر الهجريين أن يترجموا لهن، ويشيدوا بعلمهن، وحرصهن على العلوم الشرعية لإنارة المجتمع النسائي المكي، وسأختصر تراجمهن بشكل موجز غير مخل.

أنجبت عائلة من أسرة القسطلاني كوكبة من الأخـوات تنافسن على طلب العلم

هدية، وتسمى أيضاً أم الهدى ابنة العفيف عبدالله بن أحمد بن حسن الزين المكي (ت ٨٤٦هـ/ ١٤٢٢م) بلغت درجة عالية في مجال

---

(١٢٥) الفاسي، العقد الثمين، ج٨، ص ٢٤٤، ابن حجر، الدرر الكامنة، ج ٣، ص ٢٢٧، السخاوي، الضوء اللامع، ج ١٢، ص ٥٧.

(١٢٦) الفاسي، العقد الثمين، ج ٨، ص ٢٤٤.

(١٢٧) الفاسي، العقد الثمين، ج٨، ص ٢٤٤، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ٥٨، ابن حجر، أحمد شهاب الدين، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، بيروت، دار الجيل، ج٣، ص ٢٢٧.

(١٢٨) سداسيات الرازي: لمسند الديار المصرية أبي عبدالله محمد بن أحمد بن إبراهيم الرازي المتوفى سنة ٥٢٥هـ/ ١١٣٠م، الكتاني، الرسالة المستطرفة، ص ٧٤.

العلوم الدينية خاصة في مجال الحديث، أجاز لها كثير من علماء الحرمين والشام ومصر، ومن أبرزهم: إبراهيم بن محمد، وعمر البالسي، وفاطمة ابنة المنجا، كما أجاز لها المؤرخ شمس الدين السخاوي، وقد اشتهرت بتواضعها ونقاها حتى وصفت بأنها امرأة مباركة[١٢٩].

كما برزت أختها كمالية محدثة وعالمة من النساء المكيات، ففي عام (٨١٤هـ/ ١٤١١م) أجاز لها المراغي والسويفي والجمال الحنبلي والعز بن جماعة وابن الكويك[١٣٠].

كما عرف من هذه الأسرة أم كمال الأخت الثالثة المولودة بمكة عام (٨١٢هـ/ ١٤٠٩م)، وسمعت العلم من صغرها من العالم زين الدين العراقي، وحصلت على إجازة من الشيخ المحدث جماعة[١٣١]، وواصلت تعليمها، وبث علمها للمجتمع المكي حتى فارقت الروح جسدها عام (٨٦٧هـ/ ١٥٦٠م)[١٣٢].

كما برزت من بنات العفيف عبدالله ابنتاه ست الأهل المولودة بمكة عام (٨١٤هـ/ ١٤١١م)، وأم الحسين الأخت الكبرى التي أرخ لوفاتها بمكة عام (٨٢٩هـ/ ١٤٢٥م)، وقد أجاز العلماء والمشايخ في مكة المكرمة للأختين، ومن أبرزهم الزين المراغي، وابن الكويك، وعائشة بنت عبدالهادي، وجماعة من العلماء[١٣٣].

ولم يقتصر العلم على هذه العائلة من أسرة القسطلاني، فمن هذه الأسرة اعتلت منصة العلم والحديث خديجة ابنة أبي عبدالله بن

---

(١٢٩) النجم بن فهد، معجم الشيوخ، ص ٣٣٠، الدر الكمين، ورقة ٢٣٢، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص٣٠.

(١٣٠) السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص١١٩.

(١٣١) جماعة: عبدالعزيز بن محمد بن إبراهيم الكناني قاضي القضاة بمصر، كان حسن المحاضرة كثير الأدب محباً لأهل العلم. للمزيد انظر: الفاسي، العقد، ج٥، ص ٢٣١.

(١٣٢) النجم بن فهد، معجم الشيوخ، ص ٣١٢، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص١٥٣.

(١٣٣) السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ٥٣، ١٤٠.

محمد بن حسن، أجاز لها كثير من العلماء كالنشاوري، وعزيز الدين المليجي، وعبدالواحد الصروي، والتقي ابن حاتم، وابن الشيخة، والأميوطي، وابن عرفة، وأحمد الماكسيني، كما أنها أجازت لمؤرخ مكة النجم بن فهد، واستمرت في العطاء العلمي حتى حانت منيتها عام (٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م)[١٣٤].

ونختم نساء الأسرة القسطلانية بالفاطمتين: الأولى فاطمة ابنة محمد أحمد حسن تكنى أمّ الأمان (٧٩٩ - ٨٣٢هـ/ ١٣٩٧ - ١٤٢٩م) التي أجاز لها جمع من العلماء والمشايخ، فأجاز لها عمر البالسني، وابن قوام وعبدالله خليل الحرستاني، وفاطمة ابنة ابن المنجا، وفاطمة بنت عبدالهادي، والزين المراغي[١٣٥]، وأما الأخرى فهي فاطمة ابنة أبي الخير محمد بن حسين، وأجاز لها سلان الذهبي، وابن حاتم، وبرعت في علم الحديث[١٣٦].

أسرة الفاسي:

كما نافست بروح عالية وثابة أسرة من أعرق الأسر المكية في إنشاء النسيج المعرفي والعلمي لمجتمع مكة المقدسة، وهي أسرة الفاسي، وينتهي نسبها إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، وأول من نزل منها مكة محمد بن محمد بن عبدالرحمن (ت ٧١٩هـ/ ١٣١٩م)، ومن أبرز علمائها مؤرخ مكة التقي محمد الفاسي، والواقع أن لهذه الأسرة دورًا كبيرًا في إبراز الحياة العلمية خاصة في علوم الحديث والفقه والتاريخ، وهي أسرة أسهمت في تنوير وتعليم الفتيات المكيات[١٣٧]،

---

(١٣٤) النجم بن فهد، معجم الشيوخ، ص ٣١٣، الدر الكمين، ورقة ٢٠١، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص٣٠، ج٤، ص٤٥٧.

(١٣٥) السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ١٠٠.

(١٣٦) المصدر السابق، ج ١٢، ص١٠٢.

(١٣٧) السخاوي، التحفة اللطيفة، ج٣، ص٥٩٥، الفاسي، تقي الدين محمد، ذيل التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد، تحقيق: محمد صالح، مكة، مركز البحث العلمي، ١٤٠٠هـ، ج١، ص١٠٠.

ومن أشهرهن وأميزهن أم الهدى زينب ابنة أبي الفتح محمد بن أحمد بن أبي عبدالله محمد الحسني الفاسي، ولدت بمكة، وترعرعت في بيت علم ودين[١٣٨]، واستقت العلوم من أسرتها، ثم نهلت العلوم الشرعية من علماء ومشايخ زمانها حتى فاقت أقرانها، وأجاز لها كثير من علماء ومشايخ القرن التاسع من شتى أقطار العالم الإسلامي، فأجازها والدها، والنشاوري، والصردي، وابن حاتم، والتنوخي، وابن أبي المجد، وابن الذهبي، وابن العلائي، وفاطمة ابنة أبي المنجا، وفاطمة ابنة عبدالهادي، والبلقيني، والعراقي، والهيثمي، وابن الملقن، والعاقولي، وابن عرفة، كما اشتهرت بالتحديث، وأجازت لمؤرخ مكة ومحدثها النجم بن فهد، وكذلك أجازت لمؤرخ مصر شمس الدين السخاوي[١٣٩]، واستمرت في بث العلوم والمعرفة، وهي مصابة بالعمى في أواخر عمرها حتى حانت منيتها، وفارقت الحياة عام (٨٥٥هـ/ ١٤٥٠م)[١٤٠].

كما اشتهرت بنشاطها الملموس في الحركة العلمية أم الحسين الكبرى رابعة ابنة القاضي عبدالقادر بن أبي الفتح محمد بن أحمد الفاسي التي لازمت والدها العلامة، وتزودت من محيط علمه ومعرفته، وحصلت على إجازات من العلماء، وهي في سن مبكرة، فأجاز لها في عام (٨٢٤هـ/ ١٤٢١م) الولي العراقي، وعلي الفوي، وابن الزراتيتي، واستمرت في العطاء إلى أن توفيت في عام (٨٨٣هـ/ ١٤٧٨م)[١٤١].

وعرفت من نساء الفاسي أم كلثوم سعيدة ابنة التقي محمد بن أحمد بن علي الفاسي بالعلم منذ نعومة أظفارها، فقد أحضرها

---

(١٣٨) السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص١٦٠، التبر المسبوك، ص ٣٨١، وذكر وفاتها سنة ٨٥٦هـ.

(١٣٩) النجم بن فهد، معجم الشيوخ، ص ٣٠٧، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ١٦٠.

(١٤٠) السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ١٦٠.

(١٤١) المصدر السابق، ج١٢، ١٤٠.

والداها وهي في سن الرابعة إلى حلقات العلم والتدريس لدى جدها وابن سلامة، وبذلك كانت خطوتها ثابتة على أرضية العلم؛ مما جعل كثيرًا من العلماء يجيزون لها، ومن أبرزهم العز بن جماعة، والشرف بن الكويك، وكانت وفاتها عام (٨٨٣هـ/ ١٤٧٨م)(١٤٢).

وأضافت شريفة ابنة السراج عبداللطيف بن أبي الفتح محمد بن أحمد الحسني الفاسي صورةً جميلة للمرأة المكية في التعلم والتعليم للمجتمع المكي منذ ولادتها بمكة عام (٨١٠هـ/ ١٤٠٧م)، وحضورها للاستماع في حلقات العلم بالمسجد الحرام، وهي صغيرة السن، حيث سمعت من الزين أبي بكر المراغي "المسلسل"، وغيره من الكتب في مجال الحديث، وحصلت على إجازة من ابن الكويك وعائشة بنت عبدالهادي، وعلماء آخرين، واستمرت في التألق العلمي حتى فارقت الروح الجسد عام (٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م)(١٤٣).

ورصد الفاسي في كتابه العقد الثمين ترجمة لعالمة من البيت الفاسي، وهي عائشة ابنة أبي الخير محمد التي رأت النور للحياة في مكة المكرمة عام (٧٩١هـ/ ١٣٨٩م)، وسلكت طريق علم سلكه آل الفاسي في مشوار حياتهم، فأجاز لها جمع من العلماء المكيين، من أشهرهم ابن منيع وعبدالله خليل الحرستاني، وأبو الخير العلائي، والتنوخي، واستمرت بالعطاء، ولكن المنية عاجلتها، ولم تبلغ الأربعين من عمرها، وذلك عام (٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م)(١٤٤).

وتفوقت في علم الحديث، وفن إجادة الكتابة أم الحسين الصغرى فاطمة ابنة المحب المولودة بمكة عام (٨٢٢هـ/ ١٤١٩م)، وأضاءت في سماء المعرفة والعلوم بمكة حتى منحها كثير من العلماء إجازات، مثل: الجزري، وابن سلامة الشامي، والقباني، وابن ناظر الصاحبة، وابن

---

(١٤٢)، النجم بن فهد، الدر الكمين، ورقة ٢٢٩، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ١٥١.

(١٤٣) السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ٦٧.

(١٤٤) الفاسي، العقد الثمين، ج٨، ص ٢٥٠، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ٨١.

بردس، وعائشة ابنة الشرائحي، وما زالت تمنح نساء مكة علمها ومعرفتها حتى توفيت عام (٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م)[١٤٥]، وتعد أم عرفة ابنة القاضي عبدالقادر بن أبي الفتح محمد بن أحمد من أكثر النساء حفظاً ورواية في علم الحديث؛ عائداً ذلك لارتيادها حلقات العلم لعدد كبير من مشايخ وعلماء المسلمين الوافدين إلى مكة واستحصالها على كثير من الإجازات في العلوم الشرعية كافة من أساطين العلم والتدريس، وكانت وفاتها بمكة عام (٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م)[١٤٦].

أسرة بني ظهيرة:

كما سنستعرض في مجال بحثنا أسرة من أشهر الأسر المكية وأبرزها في شتى نواحي الحياة سواء في المناخ العلمي والمعرفي أو الاقتصادي أو الاجتماعي. وهي أسرة بني ظهيرة القرشية الأصل المخزومية، يرجع نسبها إلى الوليد بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم القرشي، واشتهرت بصيتها الشاسع حتى ألف لهم النجم بن فهد كتابه "المشارق المنيرة في ذكر بني ظهيرة".

وامتازت هذه الأسرة بأن كان لها دور أكبر وأكثر تأثيراً في الحياة المكية على مدى قرون عدة فنرى كثيراً من أبناء هذه الأسرة يتولون مناصب الإفتاء والقضاء والتدريس وإمامة الحرمين، بل زاد الأمر عن ذلك، وأصبح لهم تأثير في صناعة القرارات السياسية في التاريخ المكي، ولم يعرف التاريخ الإسلامي أسرة علمية قامت بمثل هذه لمدة ستة قرون[١٤٧].

---

(١٤٥) السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ١٣٩.

(١٤٦) المصدر السابق، ج١٢، ص ١٤٨.

(١٤٧) المرداد، عبدالله بن حمد المكي (ت ١٣٤٣هـ/ ١٥٩٤م) المختصر من كتاب النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر، جدة، عالم المعرفة، ١٤٠٦هـ. النجم بن فهد، معجم الشيوخ، ص ١٤٤، الدر الكمين، ورقة ١٣٦ أ. السخاوي، التحفة اللطيفة، ج٢، ص ٥١. ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص ٣٦١.

وقد رصدت كتب التاريخ والمعاجم لمؤرخي مكة أو العالم العربي بتراجم مكثفة لنساء مكة، ولو دققنا في معجم المؤرخ السخاوي "الضوء اللامع" لوجدنا أكثر من عشرين ترجمة لهذه الأسرة فقط في القرن التاسع الهجري فقط، وسوف أستعرض باختصار أبرز نساء هذه الأسرة التي كان لها دور كبير في تطور الحركة العلمية بمنطقة الحجاز، فقد تألقت كمالية ابنة علي بن عبدالكريم بن أحمد بن عطية التي تنشقت هواء العلم منذ ولادتها بمكة، وارتقت سلم العلم والمعرفة حتى أصبح يشار إليها بالبنان، وذلك لكثرة ما حصلت عليه من إجازات من علماء ومشايخ الحرمين، فأجاز لها النشاوري، والتقي بن حاتم، وزين الدين العراقي، والهيثمي، وعبدالواحد الصردي، وإبراهيم بن عدنان الحسيني، والكمال الدميري، وابن عرفة، وابن خلدون، كما منحت إجازات لكثير من العلماء، وأبرزهم النجم بن فهد، وشمس الدين السخاوي، وكانت وفاتها عام (٨٥٧هـ/ ١٤٥٣هـ)[١٤٨]. كما نافستها في التألق أختها ست الأهل التي أجاز لها أيضاً العفيف النشاوري، وأحمد علي الحسيني، وعبدالواحد ذو النون الصوري، والشيخ زين الدين العراقي، ونور الدين الهيثمي، والتقي الدميري، وابن عرفة، والدميري، وابن خلدون، والشيرازي، وآخرون، وحانت منيتها عام (٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م)[١٤٩].

كما شهد المجتمع المكي في هذه الفترة نبوغ علم ابنة الشهاب أبي العباس أحمد بن ظهيرة التي برعت في العلوم الشرعية خاصة علم الحديث، وأجاز لها جمع كبير من العلماء والمشايخ، ومنهم العلائي، والعز بن جماعة، والقلانسي، وناصر الدين الفارقي، والخلاطي، ومعين الدين بن الرصاص، ومحمد بن علي القطرواني، وناصر الدين

---

(١٤٨) النجم بن فهد، الدر الكمين، ورقة ٢١٦، معجم الشيوخ، ص ٣٢٦ - ٣٢٧، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ١٢٠.

(١٤٩) النجم بن فهد، الدر الكمين، ورقة ٢١٥، معجم الشيوخ، ص٣١٩، السخاوي، التبر المسبوك، ص ١٢٩، الضوء اللامع، ص٥٣، كحالة، أعلام النساء، ج٢، ص ٥١.

التونسي، وأبو الحزم القلانسي، كما أنها حدثت وسمع منها العلماء والمشايخ، وكان من أبرزهم التقي بن فهد، وأخوه، وابنه أبو بكر، وكانت ذات شخصية متميزة تحب عمل البر والخير، واشتهرت به، حتى وفاتها عام (٨١٨هـ/ ١٤١٥م)[١٥٠].

وعلى الاسم نفسه كانت هناك عالمة، وهي ابنة المحب أحمد بن محمد بن عبدالله المولودة بمكة عام (٨١٨هـ/ ١٤١٥م)، وجمعت الفضل والعلم من الطرفين، فوالدتها كمالية بنت عبدالرحمن الفاسي، فالبيتين أهل علم ودين، وقد أجيزت من علماء عصرها، ومنهم التاج بن بردس، والشمس العسقلاني، وابن طولوبغا، وغيرهم، وكانت وفاتها في عام (٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م)[١٥١].

كما اشتهرت من سلالة هذه الأسرة العلمية امرأة اتصفت بالمثابرة على طلب العلم، والقيام بالرحلات العلمية للاستزادة والتبحر في شتى العلوم الشرعية بذلك تميزت أم راجح ستيت ابنة علي بن أبي البركات بن أبي السعود المولودة في مكة عام (٨٣٤هـ/ ١٤٣١م) بالرحلات العلمية، فقد تكررت رحلاتها إلى المدينة المنورة مرات عدة بصحبة شقيقها البرهان ألمع رجال عصره في العلم والتذكار، ووصفها السخاوي بأنها فاضلة عالمة تكثر الطواف، وتساعد على عمل الخير والبر، وأجيزت منذ صغرها من والدها وعميها النجم وأبو السعادات، وكانت وفاتها عام (٨٨٦هـ/ ١٤٨١م)[١٥٢].

كما اشتهر عدد كبير من نساء بني ظهيرة - وسأختصر سيرهن - وأبرزهن زينب ابنة القاضي المحب أحمد بن الجمال بن ظهيرة (٨١٢ - ٨٦٣هـ/ ١٤٠٩ - ١٤٥٨م)[١٥٣]، وزينب ابنة أبي السعود محمد بن

---

(١٥٠) الفاسي، العقد الثمين، ج٨، ص٢٨، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ٨٣.

(١٥١) السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ٨٤.

(١٥٢) المصدر السابق، ج١٢، ص ١٤٦.

(١٥٣) المصدر السابق، ج١٢، ص ٣٩.

حسين التي أجاز لها جماعة من العلماء عام (٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م)[١٥٤]، وست الجميع ابنة علي بن أبي بركات محمد بن أبي سعود بن ظهيرة (ولدت عام ٨٣٥هـ/ ١٤٣١م)، وتزوجها قاضي الحنابلة عبدالقادر الفاسي[١٥٥]، وستيت ابنة أبي حامد محمد بن أبي الخير محمد بن ظهيرة (٨٤٣ - ٨٦٨هـ/ ١٤٤٠ - ١٤٦٣م)، وأجازها أبو الفتح المراغي، والزين الزركشي، وابن الفرات، وابن ناظر الصاحبة، وابن بردس، وأبو جعفر العجمي، وماتت وهي في مقتبل العمر، ولم تتجاوز العقد الثالث[١٥٦]. وسمراء ابنة عبدالرحمن بن أبي بكر بن عبدالله بن ظهيرة المولودة بمكة عام (٨٣٢هـ/ ١٤٢٩م)، وأجاز لها جماعة من العلماء[١٥٧].

وفاطمة ابنة أبي حامد محمد أبي الخير محمد أبي السعود (ولدت عام ٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م)، وأجاز لها جماعة من العلماء[١٥٨]، وفاطمة ابنة أبي الخير محمد بن أبي السعود (٧٩٤ - ٨٢٣هـ/ ١٣٩٢ - ١٤٢٠م) أجاز لها التنوخي، وابن الملقن، وغيرهم[١٥٩]، وفاطمة ابنة أحمد بن أبي بكر بن عبدالله أجاز لها الزين المراغي، وغيرهم، وتوفيت عام (٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م)[١٦٠]، وأم الحسن ابنة أبي الخير محمد بن أبي السعود محمد (٨١٦ - ٨٣٣هـ/ ١٤١٣ - ١٤٣٠م)، أجاز لها ابن المراغي وابن الكويك وغيرهم[١٦١]، وأم كمال عائشة ابنة الكمال أبي البركات محمد (٨١٤ - ٨٥٧هـ/ ١٤١١ - ١٤٥٢م) أجاز لها التقي الفاسي، والنور المحلي وغيرهم[١٦٢].

---

(١٥٤) المصدر السابق، ج١٢، ص ٤٧.
(١٥٥) المصدر السابق، ج١٢، ص٥٤.
(١٥٦) المصدر السابق، ج١٢، ص ٦٢.
(١٥٧) المصدر السابق، ج١٢، ص ٦٦.
(١٥٨) المصدر السابق، ج١٢، ص ٨٧.
(١٥٩) المصدر السابق، ج١٢، ص ١٠٤.
(١٦٠) المصدر السابق، ج١٢، ص ١٠٥.
(١٦١) المصدر السابق، ج١٢، ص ١٣٧.
(١٦٢) المصدر السابق، ج١٢، ص ١٥٤.

أسرة النويري[١٦٣]:

وتستتبت الأرض الحجازية الخصبة البيوت المكية المتنافسة لمد الأغصان والأوراق المعرفية في بستان العلم والمعرفة، ليمتد خارج منطقة الحجاز، وتضيء الأسر المكية كحزم من الضوء، ويسطع شعاع أسرة النويري في سماء مكة، وينتهي نسب هذه الأسرة إلى عقيل بن أبي طالب التي كانت لها جهود مثمرة في نطاق العلوم الشرعية، وغيرها من العلوم الأخرى، وظلت هذه الأسرة تؤدي دورها العلمي إلى بداية القرن الثالث عشر الهجري، وبذلك تكون هذه الأسرة قد أدت خدمات علمية جليلة نشرت خلالها علم الحديث والفقه والتفسير وغير ذلك من العلوم[١٦٤].

وقد تخصصت أسرة النويري المشهورة في مكة في طلب العلم، والتأليف، وحظيت بنصيب وافر من المعرفة، وعدد أكبر من العلماء والعالمات عرفوا بحبهم للعلم، وعنوا به كثيراً، ولم يشغلوا أنفسهم في صغائر الأمور وحقيرها، وكانوا لا يُرون إلا في علم وعبادة، ومن أشهر نسائهم العالمات أم الخير سعيدة ابنة قاضي القضاة أبي العز محمد بن أحمد النويري المولودة في مكة (٨٠١ - ٨٥٠هـ/ ١٣٩٨ - ١٤٤٥م) التي نهلت العلم في مرحلة مبكرة من والدها، ونبغت واستزادت علماً وخلقاً، حتى أجاز لها سراج الدين البلقيني، وزين الدين العراقي، ونور الدين الهيثمي، والحلاوي، والسويداوي، وعبدالله خليل الحرستاني، ومريم بنت الأذرعي[١٦٥]، كما برزت إلى ساحة العلم والمعرفة عالمة جليلة بلغت درجة عالية من العلوم الشرعية، ودرست

---

(١٦٣) نسبة إلى نويرة: بضم النون وفتح الواو، تصغير نورة، ناحية بمصر، وهي بلدة مشهورة من صعيد مصر الأدنى. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص ٣١٢.

(١٦٤) الفاسي، العقد الثمين، ج١، ص٣٠٠، السخاوي، التحفة اللطيفة، ج٣، ص٤٧٤، ابن العماد، شذرات الذهب، ج٦، ص ١٣٦.

(١٦٥) النجم بن فهد، معجم الشيوخ، ص ٣٠٥، الدر الكمين، ورقة ٢٢٦، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص١٤٥.

والتحقت في حلقات العلم لدى كل عالم، واستطاعت بحرصها أن تحصل على إجازات من علماء العالم الإسلامي من أكثر من خمسين عالماً، وهي كمالية ابنة علي بن أحمد بن عبدالعزيز الهاشمي العقيلي النويري (٧٨٢ - ٨٦٧هـ/ ١٣٨١ - ١٤٦١م) التي أبرز من أجاز لها العفيف النشاوري، وعبدالواحد الصردي، وابن خلدون، والتقي بن حاتم، وابن عرفة، وأبو هريرة الذهبي(١٦٦).

كما تنافست ابنتا عبدالرحمن بن علي بن أحمد بن عبدالعزيز النويري أم كمال عائشة (٧٩٢ - ٨٤٣هـ/ ١٣٩٠ - ١٤٤٠م)، وأم هانئ (المولودة سنة ٧٩٨هـ/ ١٣٩٦م) في تحصيل العلم والمعرفة والمثابرة على الارتقاء إلى مصاف العالمات؛ لتمارسا دوريهما في عملية التنوير والتعليم والتثقيف، وقد أجاز كثير من العلماء للأختين، ومن هؤلاء زين الدين العراقي، ونور الدين الهيثمي، وابن صديق، وابن الملقن، والبلقيني، وغيرهم كثير، كما اشتهرت عائشة بكثرة التعبد والطواف حول البيت الحرام(١٦٧).

كما تميزت من أسرة النويري خديجة المسماة بعيدة ابنة عبدالرحمن النويري (٧٩٨ - ٨٧٦هـ/ ١٣٩٦ - ١٤٧١م)، وكرست جل حياتها واهتمامها على نهل العلم، فأجاز لها عائشة ابنة عبدالهادي، والبدر البهنسي، والكمال الدميري، وأبو هريرة النقاش، ومحمد البكري، ومحمد الأبرقوهي، وسعد النووي، كما أنها أجازت لبعض العلماء، ومنهم شمس الدين السخاوي(١٦٨).

كما عرف من نساء بني نويرة أم الوفاء الصغرى ابنة القاضي علي بن أحمد (٧٩٦ - ٨٥٥هـ/ ١٣٩٤ - ١٤٥٠م) التي اشتهرت بورعها،

---

(١٦٦) النجم بن فهد، الدر الكمين، ورقة ٢١٦، معجم الشيوخ، ص ٣٢٥ - ٣٢٦، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص١٢٠.

(١٦٧) السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ١٥٣ - ١٥٥.

(١٦٨) النجم بن فهد، معجم الشيوخ، ص٣١١، الدر الكمين، ورقة٢٠٠، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص٢٨.

وأدبها حتى وصفها المجتمع المكي بالمباركة، وأجاز لها زين الدين العراقي، ونور الدين الهيثمي، والبلقيني، وابن الملقن، والتنوخي(١٦٩).

واستشرفت المجد ببلوغها قمة العلم في الحديث والتفسير أم كلثوم ابنة القاضي أبي عبدالله محمد بن أحمد التي تلقت العلم على يد والدها، وعلماء مكة، واهتمت بدراسة الحديث، وأجاز لها زين الدين العراقي، والفوي، والدنديلي وغيرهم، وترجم لها السخاوي، وذكر أنها توفيت بمكة في منتصف القرن التاسع الهجري(١٧٠).

وتميزت بنشاطها العلمي والديني أم الحسن سعيدة ابنة أحمد بن الكمال أبي الفضل محمد، ففي عام (٨٣٦هـ/ ١٤٣٥م) أجاز لها زين الدين العراقي، ونور الدين الهيثمي، وابن الملقن، وابن الذهبي، والتنوخي، وابن الشيخة(١٧١).

ومن كبار العالمات في البيت النويري زينب ابنة محمد بن أحمد بن عبدالعزيز (ت٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م)(١٧٢)، التي نهلت من بحر العلم المكي منذ صغرها، وسمعت من الكمال بن حبيب، وأجاز لها نخبة من علماء عصرها، وعشقت الترحال، فزارت المدينة المنورة مرارًا، وحدثت ببدر(١٧٣) شيئا من مروياتها، واشتهرت بذاكرة قوية حيث حفظت القرآن، وكانت راوية تروي أخبار العرب، وتنشد الأشعار وتستشهد بها(١٧٤).

---

(١٦٩) النجم بن فهد، معجم الشيوخ، ص ٣٠٧، الدر الكمين، ورقة ٢١٦، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص١٦١.

(١٧٠) السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ١٥٢.

(١٧١) المصدر السابق، ج١٢، ص١٣٥.

(١٧٢) الفاسي، العقد الثمين، ج٨، ص٢٣٢، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص٤٦.

(١٧٣) بدر: بالفتح ثم السكون، ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء، وبهذا الماء كانت الوقعة المشهورة. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت، دار بيروت، ١٤٠٠، ج١، ص ٣٥٧ - ٣٥٨.

(١٧٤) الفاسي، العقد الثمين، ج٨، ص٢٣٢.

وتفتخر أسرة بني نويرية بغصون ابنة النور أبي الحسن علي بن أحمد (المولودة بمكة عام ٧٩٤هـ/ ١٤٥٠م)، التي عرفت بأصالتها ومروءتها وعفتها حتى أصبح يشار لها بالبنان؛ لما تحمله من علم واسع، وقيم نبيلة، فأجاز لها التنوخي، وابن الشيخة، والبلقيني، والهيثمي، وابن الملقن، ومريم الأذرعية، ولشهرتها الواسعة أصبح العلماء يستمعون إليها، ويطلبون إجازتها خاصة السخاوي[١٧٥].

كما أثنى مؤرخو مكة في القرن التاسع الهجري على سعيدة ابنة القاضي عز الدين محمد بن نويرة (ت٨٥٠هـ/ ١٤٤٥م) التي التحقت بحلقات العلم، وتعلمت على يد أساطين المشايخ، والعلماء في عصرها، وفاقت أقرانها في دراسة الحديث، وأجاز لها علماء الحرمين كالبلقيني، وزين الدين العراقي، ونور الدين الهيثمي، وأحمد بن عمر الجوهري، ومريم ابنة الأذرعي، وفاطمة ابنة عبدالهادي، ومن أبرز تلاميذها الذين تلقوا العلم على يدها، ومنحوا إجازة منها النجم بن فهد[١٧٦].

وحصل العديد من نساء بني نويرة على إجازات من علماء الحرمين كخاتون عائشة ابنة عبدالرحمن بن علي النويري التي أجاز لها عام (٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م) ابن صديق، والعراقي، والهيثمي[١٧٧]، وكذلك ستيت ابنة أبي عبدالله بن محمد بن علي النويري، التي أجاز لها جماعة من العلماء عام (٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م)[١٧٨].

وأم الحسين المحب أحمد بن الكمال بن أبي الفضل محمد بن أحمد سمعت من أبي اليمن الطبري، وأجاز لها البلقيني، وابن الملقن، وابن الذهبي، وابن شيخة، والتنوخي[١٧٩].

---

(١٧٥) السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص٨٥.

(١٧٦) النجم بن فهد، معجم الشيوخ، ص٣٠٥، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص١٤٥.

(١٧٧) السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ٢٣.

(١٧٨) المصدر السابق، ج١٢، ص ٦٢.

(١٧٩) المصدر السابق، ج١٢، ص ١٣٩.

أسرة المرشدي:

وتعد أسرة المرشدي من الأسر التي استوطنت مكة المكرمة من أوائل القرن الثامن الهجري، وعميد هذه الأسرة هو العالم برهان الدين إبراهيم بن أحمد بن أبي بكر بن عبدالوهاب الفوي[١٨٠] المرشدي (ت٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م)[١٨١].

واشتهرت هذه الأسرة في هذا القرن بريادتها في علوم اللغة العربية خاصة علم النحو، ويغلب على هذه الأسرة الانتساب إلى المذهب الحنفي، وأسهمت في إثراء الحركة العلمية بمنطقة الحجاز، وكانت لها جهود مكثفة واضحة في خدمة العلم، وكان في أسرة المرشدي نساء يعدون من مفاخر المجتمع النسوي المكي، أثنى عليهن القريب والبعيد، ومن أبرزهن وأكثرهن شهرة خديجة، والمسماة سعادة بنت إبراهيم بن أحمد بن أبي بكر المرشدي التي نبغت في علم القرآن، واللغة العربية، ودراسة علم الحديث، وحصلت على إجازات من علماء الحرمين الشريفين كالعفيف النشاوري، والتقي بن حاتم، وعزيز الدين المليجي، وأبي هريرة بن الذهبي، وابن المطرز، والبرهان الأحدي، والصردي والتنوخي، ولقد ذكرها التقي بن فهد في معجمه أنها توفيت عام (٨٢٧هـ/ ١٤٢٣م)[١٨٢].

ونافستها في الحضور للاستماع إلى حلقات العلماء منذ نعومة أظفارها أختها زينب التي سمعت من البرهان بن صديق والشمس بن سكر والمراغي والنشاوري[١٨٣].

---

(١٨٠) نسبة إلى فُوّه من مصر، وهي بليدة على شاطئ النيل من نواحي مصر قرب رشيد، تمتاز بكثرة أشجار النخيل، والسور المحيط بها. ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص ٢٨٠.

(١٨١) الفاسي، العقد الثمين، ج٣، ص ٢٠٢، ابن حجر، أحمد شهاب الدين، أنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق: عبدالله الحضري، ط٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٦، ج١، ص ٢٢٠، ابن العماد، شذرات الذهب، ج٧، ص ١٩٨.

(١٨٢) ابن فهد، معجم الشيوخ، ص٣١٢، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص٢٤.

(١٨٣) ابن فهد، الدر الكمين، ورقة ٢١٠ أ، كحالة، أعلام النساء، ج٢، ص ٤٥.

وأسهمت أم هانئ ابنة عبدالواحد بن إبراهيم بن أحمد بن أبي بكر المرشدي المكي (٨٠٦ - ٨٦٦هـ/ ١٤٠١ - ١٤٦٠م)[١٨٤] بدورها في خدمة العلوم الشرعية، ونبغت في علم الحديث، وأجازها كثير من العلماء[١٨٥].

وتعد جهود عائشة بنت محمد بن إبراهيم بن أحمد المرشدي (٧٩٨ - ٨٤٦هـ/ ١٣٩٦ - ١٤٤١م) سجلاً في تاريخها المعرفي، فلقد حرصت في سن مبكرة على طلب العلم، فحضرت على ابن صديق، والشمس بن سكر، والمجد اللغوي، والزين المراغي، والنور علي بن حسن الخزرجي، وطلبت الإجازة منهم، وأسهمت في الرقي بمستوى المرأة في المجتمع المكي[١٨٦].

ولم يقتصر تعليم المرأة المكية على الأسر الغنية، أو الأسرة العلمية، بل اتسعت الدائرة؛ لتشمل المرأة في المجتمع المكي، وبلغ الأمر أن بعض هؤلاء النسوة فقن واشتهرن بعلمهن على بعض نساء الأسر العلمية، ويؤكد ذلك ما سجله ابن فهد في ترجمته لإحدى شيخاته، وهي فاطمة بنت علي المشهور بابن سكر (٧٧٩ - ٨٥١هـ/ ١٣٧٧ - ١٤٥١م)، اشتهرت بالحديث والرواية، وذلك لسماعها المبكر على أيدي كثير من علماء ومشايخ وفقهاء عصرها بمكة المكرمة، أجاز لها الجمال الأميوطي، والبرهان القيراطي، والبرهان الشامي، وأبو هريرة الذهبي، وابن أبي المجد، وعبدالله بن خليل الحرستاني، وأحمد بن خليل العلائي، وزين الدين بن رجب، وكانت من النساء المباركات[١٨٧].

---

(١٨٤) ابن فهد، معجم الشيوخ، ص ٣١٤.

(١٨٥) ابن فهد، الدر الكمين، ورقة ٢١٨، معجم الشيوخ، ص٣٠٦، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ١٥٦.

(١٨٦) السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ٧٩.

(١٨٧) ابن فهد، الدر الكمين، ص ٣٤٣، معجم الشيوخ، ص ٣٢٣، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص١٢٨، التبر المسبوك، ص ١٩٨.

ولقد تحقق لسارة ابنة عمر بن عبدالعزيز بن محمد بن جماعة الكناني (ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م) شهرة واسعة، وتتلمذ على يديها كثير من علماء وعالمات مكة، وذلك بعد أن حصلت على كثير من الإجازات من علماء عصرها، وأجاز لها محمد السوقي، وحسن الهبل، وأحمد النجم وعمر بن أميلة، والكمال الأذرعي[١٨٨].

ومنصورة ابنة عبدالله محمد أحمد قاسم القرشي الحرازي برعت وفاقت في العلوم الشرعية، وخاصة علم الحديث، أجاز لها علماء عصرها كالبرهان الشامي، وأبي هريرة الذهبي، وزين الدين العراقي، ونور الدين الهيثمي توفيت عام (٨٥٧هـ/ ١٤٥٢م) بمكة[١٨٩].

وعائشة بنت عبدالوهاب عبدالله اليافعي (٧٨٩ - ٨٦٦هـ/ ١٣٨٧ - ١٤٦١م) أجاز لها من أجاز لسابقتها منصورة[١٩٠].

وباي خاتون ابنة نور الدين أبي الحسن علي الخزرجي السبكي (٧٧٥ - ٨٦٤هـ/ ١٣٧٣ - ١٤٥٩م)، سمعت العلم من صغرها من التقي أبي بكر عبدالرحمن المزي، وأجاز لها أحمد بن بكر عبدالهادي، وسلامة الذهبي ومحمد المقدسي، ومحمد المزة[١٩١].

وبركة ابنة أبي هريرة أحمد علي الطحان، سمعت من زوجها الحافظ صدر الدين الياسوفي، وأجاز لها علماء عصرها، وتوفيت سنة (٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م)[١٩٢].

---

(١٨٨) ابن فهد، معجم الشيوخ، ص ٣١٨ - ٣١٩، السخاوي، الضوء اللامع، ج ١٢، ص٥٢، كحالة، أعلام النساء، ج٢، ص١٢٤.

(١٨٩) ابن فهد، الدر الكمين، ص٢١٥، معجم الشيوخ، ص٣٢٩، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص١٢٧.

(١٩٠) ابن فهد، معجم الشيوخ، ص٣٢٢، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص٣٢٢.

(١٩١) ابن فهد، معجم الشيوخ، ص٣٠٨، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ٣٠٨.

(١٩٢) ابن فهد، الدر الكمين، ص٢١١، معجم الشيوخ، ص ٣٠٩، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص١٢، كحالة، أعلام النساء، ج١، ص ١٢٢.

وبدور ابنة عبدالله أحمد المريسية (ت٨٥٠هـ/ ١٤٤٥م) أجاز لها عائشة ابنة عبدالهادي والمجد اللغوي، والزين العراقي، والجمال بن ظهيرة، وأجازت السخاوي(١٩٣).

وخديجة ابنة عمر محمد عمر العجمي (٧٩٥ - ٨٦٥هـ/ ١٣٩٣ - ١٤٦٠م) سمعت العلم في سن مبكرة من البرهان بن صديق "صحيح البخاري" و"ثلاثيات الدارمي"، واشتهرت بعلم الحديث وتدريسه(١٩٤).

أبرز العلماء والمؤلفات:

كان للقداسة المكية بوجود الحرم الشريف والكعبة المقدسة دورٌ في تمتعها بمركز ثقافي كبير بين بلدان العالم الإسلامي، وقامت بدور مميز في إثراء الحركة الثقافية في العالم الإسلامي، وتعددت أنظمة التعليم ومؤسساته بداية بالمنزل، ثم بالكتاب، والمكاتب، والمساجد خاصة المسجد الحرام، والأربطة، والمجالس العلمية، ثم المدارس المتنوعة التي بلغت في هذه الفترة أكثر من ثلاثين مدرسة؛ مما نتجت عنه حياة علمية مزدهرة التقت فيها جهود المكيين والمدنيين والمجاورين بجهود القادمين للحج والزيارة؛ فتكونت نهضة علمية ضاهت المراكز العلمية الأخرى بل أسهمت فيها.

ولا شك أن أغلب المؤلفات والكتب كانت تمثل مظهراً من مظاهر النشاط العلمي بمكة، وربما قام مؤلفوها بتدريسها، فكان الاهتمام منصباً أولاً على علوم القرآن، حيث يعد المصدر المعرفي الأول لدى المسلمين، فكان الاهتمام بقراءته وتلاوته، وتجويده، وتفسيره، والعلوم المتعلقة به متمثلين في ذلك بقول الرسول ﷺ: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه"(١٩٥).

---

(١٩٣) ابن فهد، معجم الشيوخ، ص ٣٠٩، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ١٢، كحالة، أعلام النساء، ج١، ص ٣٣٩.

(١٩٤) ابن فهد، معجم الشيوخ، ص٣١٣، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص ٢٩.

(١٩٥) ابن حجر، أحمد شهاب الدين، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، إشراف عبدالعزيز بن باز ومحمد عبدالباقي ومحب الدين الخطيب، بيروت، دار الفكر، ج٩، ص ٧٤.

كما عني المكيون بالحديث النبوي عناية خاصة، فهو المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي، الذي وضع له علماء السنة قواعد الرواية التي هي أدق وأصح طريق علمي في نقل الروايات واختبارها، كما كرسوا اهتمامهم بدراسة الفقه، وذلك لارتباطه بالدين، وعمق اتصاله بالقرآن والسنة؛ فيسروا قواعده، ووضحوا تعاليمه، كما حظيت اللغة العربية وعلومها المختلفة بعناية كبيرة جداً، ونلحظ أن الاهتمام بها أول ما يبدأ بحلقات القراء والمحدثين والفقهاء، كما أن الاهتمام بتعليم الأطفال بعض أمور النحو يبدأ من المراحل الأولى، وبذلك اتسعت آفاق ومباحث اللغة والدراسات الأدبية، كما حظي التاريخ بمكانة بارزة، وقام بدور بارز في تكوين الثقافة الدينية للمجتمع المكي فضلاً عن دوره في الحياة الاجتماعية وفنون الأدب والنشاطات السياسية والإدارية، وقل الاهتمام بعلم الكلام؛ لأنه علم لم يكن مرغوباً به في مكة المكرمة؛ ذلك لأن آراء الفقهاء ترى أن المشتغلين بهذا العلم إنما هم أهل أهواء وبدع[١٩٦]

قل الاهتمام بعلم الكلام؛ لأنه علم لم يكن مرغوباً به في مكة المكرمة

والزهد والتصوف والعلوم البحتة والتطبيقية[١٩٧]، وسأورد بعض النصوص التي تبين أبرز العلماء في القرن التاسع الهجري بمكة مع أهم المؤلفات في شتى المجالات التي كانت تدرس في مناخات مكة المعرفية، وأفتتح بنص في معجم الشيوخ يترجم لأم هانئ زينب ابنة تقي الدين، وقد سبقت ترجمتها.

و"حضرت على الشريف أحمد بن علي الفاسي، ونور الدين علي بن أحمد بن سلامة المجلس الأخير من الربع الأول من "السنن الكبرى" للبيهقي، و"مشيخة ابن البخاري" تخريج ابن الظاهري، ومن

---

(١٩٦) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج٢، القاهرة، دار الفكر للطباعة، ١٤٠٠هـ، ص ١١١.

(١٩٧) ابن فهد، معجم الشيوخ، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، كحالة، أعلام النساء ج١.

الجمال محمد بن أبي بكر الرشيدي بعض "مشيخة ابن البخاري"، مع المذكورين، وسمعت من نور الدين أرسلان "سنن أبي داود" و"الشفا"، والمجلس الأخير من "صحيح البخاري"، ومن "السنن الصغرى" للنسائي، ومن "سنن ابن ماجه" وبعض "مسند الإمام أحمد" وجزء سفيان بن عيينة، وجزء البانياسي، وجزء "البيتونة"، وجزء القزاز، وسبعة مجالس من أمالي المخلص، و"مشيخة الجمال الأميوطي" و"السفينة الجرائدية الكبرى" و"مسلسلات ابن شاذان" رواية محمد بن عبدالواحد الدارمي، و"الأربعين الصغرى" للبيهقي، وخمسين حديثاً منتقاة من المجلد الثاني من "السنن الكبرى" للبيهقي انتقاء البرزالي، وسمعت من الجمال محمد بن أبي بكر الرشيدي "صحيح ابن حبان" والمجلس الأخير من "سنن ابن ماجه" وقطعة من أول كتاب "النسب" للزبيري، وجزء ابن الطلاية وقصيدتي البوصيري "الهمزية" و"البردة"، وغير ذلك، ومن أخيه نجم الدين المرجاني جملة من "مسند أحمد" والمجلس الأخير من "الرياض النضرة" للمحب الطبري، وقطعة من أول "الموطأ" رواية يحيى بن بكير، ومن الشمس الجزري وشمس الدين الكناني الشامي مفترقين جميع "مسند الإمام أحمد"، ومن عبدالرحمن بن طولوبغا الحديث المسلسل بالأولية، و"المئة الفراوية"، و"مشيخة ابن عبدالدائم"، و"الأربعين الموافقات" للذهبي، ومن الشهاب أحمد بن إبراهيم الرشيدي، "السيرة النبوية الصغرى" للعز ابن جماعة، وجزء ابن الطلاية، و"صحيح ابن حبان"، وقطعة من أول "الأنساب" للزبير بن بكار ومن أخيه الجمال محمد بن إبراهيم المرشدي، المجلس الأخير من "سنن ابن ماجه"، و"المئة المنتقاة من مشيخة ابن البخاري" انتقاء العلائي، ومن الجمال محمد بن علي الزمزمي "المسلسل بالأولية"، وجزء ابن الطلاية، ومجلسا من "أمالي نظام الملك".

و"الأربعين الموافقات" و"الإبدال" تخريج الحافظ جمال الدين موسى المراكشي له ولغيره و"الأربعين العشاريات" تخريج الإمام نسيم

الدين عبدالغني الرشيدي له ولغيره، ومن الجمال محمد بن علي النويري المجلس الأخير من "الرياض النضرة"، ومن المجد إسماعيل بن علي الزمزمي بعض "مسند أحمد"، ومن محمد بن محمد بن جهيل جزءاً مخرجاً من حديثه تخريج والدي، ومن إبراهيم "المسلسل بالأولية"، و"الأربعين" المخرجة له تخريج والدي، ومن والديها وغيرهما. وسمعت بالمدينة من الشيخ نور الدين المحلي والشريف أبي عبدالله الفاسي بعض"الاكتفاء" للكلاعي، ومن المحلي فقط بعض "أسباب النزول" للواحدي والقصيدة "البردة". وأجاز لها خلائق من الحرمين، وبيت المقدس، والخليل، والقاهرة، ودمشق، وحلب، وبعلبك، وحمص، وحماة، وغزة، والرملة، وعدة من البلاد، فمن مكة: الخطيب أبو الفضل محمد بن أحمد بن ظهيرة، ومحمد أخوه قاضي مكة أبو البركات بن ظهيرة، والقاضي شهاب الدين، والقاضي تقي الدين الفاسي، وشمس الدين الكفيري، وشمس الدين البرماوي، والشمس الهروي وخلق، ومن المدينة القاضي عبدالرحمن بن صالح وابن عمه محمد بن علي، وأبو البركات ابن صرصري، وأخوه عبدالله وعبدالرحمن بن الحسين وعلي الزرندي، وجمال الدين الكازروني، وأسماء وعائشة ابنتي أبي بكر بن الحسين المراغي، ومن بيت المقدس عبدالرحمن القبابي، وشمس الدين بن الغزي، وعبدالمؤمن بن علي بن عبدالمؤمن وغيرهم، ومن الخليل شمس الدين التدمري، وإبراهيم بن حمزة الحسيني، ومن تعز النفيس العلوي، والجمال ابن الخياط، ومن زبيد الموفق علي بن أبي بكر الناشري، والجمال المقري، ومن القاهرة الحافظان ولي الدين العراقي وشهاب الدين ابن حجر، وشهاب الدين الكلوتاني وعثمان بن أحمد الريديمي، ومحمد بن محمد بن عبدالكبير الفوي، وشمس الدين بن الزراتيتي، ورقية ابنة محمد بن علي التغلبي، وعبدالله بن محمد بن سراج الدين بن قارئ الهداية، ومحمد بن حسن البيجوري، ومحمد بن بهادر السقطي، ومجد الدين

البرماوي، وزين الدين الشمني، وأحمد بن محمد بن أبي بكر الباسطي، وتقي الدين المقريزي، وحسين البوصيري، وعبدالرحمن الزركشي، وخلق، ومن دمشق نجم الدين بن حجي، وشمس الدين بن ناصر الدين، وتقي الدين بن زريق، ومحمد بن عبدالله بن يوسف الحجازي، وعبدالله، ومحمد بن مفلح، وعبدالرحمن بن المحب، وعائشة ابنة إبراهيم بن الشرائحي، وغيرهم، ومن بعلبك تاج الدين بن بردس، وأخوه علاء الدين، ومحمد بن محمد بن يعقوب البعلي، وعائشة بنت محمد بن عيسى البعلي، ومن حلب الحافظ برهان الدين العجمي، والقاضي أبو جعفر بن العجمي، وشهاب الدين بن العديم وجماعة"(١٩٨).

ويوثق هذا النص ترجمة أوردها أيضاً ابن فهد لزينب ابنة إبراهيم المرشدي: "وسمعت بها من البرهان بن صديق "ثلاثيات البخاري" و"ثلاثيات الدارمي" وجزء البانياسي و"الرخصة في تقبيل اليد والرجل" لابن المقرئ، وجزء "من عاش من الصحابة مئة وعشرين" لابن مندة، ومن أبي حفص عمر بن أبي بكر البالسي جزء الأنصاري "وفوائد ابن ماسي"، ومن المحدث شمس الدين بن شكر "الحديث المسلسل بالأولية" و"مختصر عجالة المنتظر" لابن الجوزي، ومن أحمد بن حسن بن الزين أحاديث منصور بن عمار جمع أبي بكر الهمذاني والثاني من "مسلسلات ابن مسدي" والأول والثاني من الأول من "أمالي محمد بن يحيى الصولي"، ومن شيخنا أبي بكر بن الحسين "الحديث المسلسل بالأولية" و"ثلاثيات البخاري"، و"جزء البطاقة" وغير ذلك، وأجاز لها النشاوري والتقي بن حاتم، وعزيز الدين المليجي، وأبو هريرة بن الذهبي، وابن المطرز والبرهان الأموي، وعبدالواحد ذو النور الصردي، والزفتاوي، والبرهان الشامي والسويداوي، والقاضي إسماعيل الحنفية"(١٩٩).

---

(١٩٨) ابن فهد، معجم الشيوخ، ص ٣٩٨ - ٤٠٠.

(١٩٩) المصدر السابق، ص ٣١٤ - ٣١٥.

من خلال هذين النصين تتضح الصورة المعرفية السائدة في المجتمع المكي، والدور المميز، والمكثف الذي بثه علماء مكة في القرن التاسع الهجري، والمؤلفات التي كانت تدرس في حلقات العلماء، والكتاتيب، والأربطة، والمدارس، وأسهمت هذه المؤسسات والمنابر الثقافية في صنع قاعدة معرفية ثقافية تفاعلية نسائية للمجتمع المكي.

بذلك يكون الهدف من تعليم المرأة هو رغبة ولي أمرها في إنارة عقلها، وترقية تفكيرها، وتهيئتها؛ لتمارس دورها في حياتها المستقبلية، ولم يكن ينظر لتعليم المرأة على أنه إعداد لها لتعمل، أو أن يكون وسيلتها؛ لتحصل لقمة العيش، فإذا كان الرجل المكي يتعلم من أجل العلم لا لكي يحصل على عائد مادي، فإن المرأة وقد كفاها الرجل النفقة، من باب أولى تتعلم؛ لكي تنفع نفسها ومجتمعها.

ولا ريب أن الوصول بالمرأة إلى هذا المستوى الراقي من التكوين الخلقي، والروحي، والنفسي، والفكري نعمة إنسانية كبرى لا تعدلها نعمة من النعم الكثيرة التي يتقلب في أعطافها البشر، وإنجاز حضاري أكبر من كل إنجاز توصلت إليه الإنسانية في عمرها الطويل، ذلك أن بلوغ المرأة هذا المستوى العالي من التكوين يعني نمو إنسانيتها، ونضج شخصيتها، وأهليتها الكاملة؛ لأداء رسالتها الكبرى في الحياة مع توأمها الرجل في إعمار الكون.

ملامح من الحياة الاجتماعية في مكة المكرمة خلال القرن العاشر الهجري

في ضوء كتابي بلوغ القرى للعز بن فهد ونيل المنى لجار الله بن فهد

د. عواطف بنت محمد نواب
قسم اللغة العربية والعلوم الاجتماعية - كلية إعداد المعلمات - مكة المكرمة

انفرد أهل مكة المكرمة بعادات[١] وتقاليد[٢] ممتزجة من الشعوب الإسلامية المختلفة، لما لها من مكانة؛ إذ يقصدها سنوياً آلاف المسلمين لأداء فريضة الحج. وهؤلاء يحملون عادات وتقاليد موطنهم. ومنهم من يبقى للمجاورة التي قد تطول أو تقصر، ومنهم من يستوطنها. فهذا أدى إلى امتزاج ما حملوه معهم مع ما وجد لدى أهل مكة من عادات وتقاليد، فأفرز هذا نوعاً خاصاً من العادات اختص به أهل مكة المكرمة.

ويعود سبب اختياري للقرن العاشر الهجري إلى أنه الفاصل بين العصر الوسيط والحديث، كما تم الاعتماد بشكل أساسي على كتابين أُلِّفا في هذا القرن هما:

---

(١) العادات: أنماط السلوك الجمعي التي تنتقل من جيل إلى جيل، وتستمر فترة طويلة حتى تثبت وتستقر، وتصل إلى درجة اعتراف الأجيال المتعاقبة بها. انظر: بدوي، أحمد زكي: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية إنجليزي - فرنسي - عربي، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٨م، ص٩٤.

(٢) التقاليد: عناصر الثقافة التي تنتقل من جيل إلى آخر؛ أي: أنها عبارة عن قواعد السلوك الخاصة بجماعة أو طائفة معينة، والتي يتناقلها الخلف عن السلف جيلاً بعد جيل. وتتميز التقاليد عن العادات في أن الناس يشعرون نحو التقاليد بقدر كبير من التقديس، ولا يرون أنه من الممكن العدول عنها، المرجع السابق، ص٤٢٨.

أولاً: كتاب بلوغ القرى في ذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى، للعز عبدالعزيز بن فهد المتوفى عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م. وهو محقق من قبل عبدالرحمن بن حسين أبو الخيور، لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي من جامعة أم القرى، عام ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م (لم ينشر، وهي النسخة التي تم الاعتماد عليها في هذا البحث، أما الآن فالكتاب مطبوع من قبل دار القاهرة، عام ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م).

ثانياً: كتاب نيل المُنى بذيل بلوغ القرى لتكملة إتحاف الورى، لجار الله بن العز بن النجم بن فهد المكي المتوفى عام ٩٥٤هـ/١٥٤٧م. وهو محقق من قبل الأستاذ الدكتور محمد الحبيب الهيلة، عام ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، نشر مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي.

ولا يخفى على المتصفح للكتابين أهميتهما، خاصة في الجانب الاجتماعي، فالمؤلفان رصدا حياة أهل مكة يوماً بيوم، لذا وجد بهما جُل المظاهر الحضارية من سلوكيات وعادات اجتماعية ودينية وعلمية واقتصادية وسياسية، بل وحتى أنواع الأطعمة وغيرها.

وسيقتصر على بعض الصفحات عند الإحالة للمصدر للتدليل على إحدى العادات لكثرتها في المؤلفين.

تميز أهل مكة المكرمة بأشكال عدة من العادات: اجتماعية ودينية وعلمية واقتصادية وسياسية، منها ما هو حسن ومنها ما هو سيء، منها ما يأخذ الطابع الموسمي، ومنها ما يفرضه وقت حصول الحدث.

والجدير بالذكر أن هذه العادات والتقاليد مثلت لديهم جزءاً من حياتهم اليومية، ونشأت تلقائياً، ومارسوها دون تكلف، وكأنها إحدى واجباتهم اللازمة، إذ تعد جزءاً من تراثهم الاجتماعي غير المكتوب، وثمة علماء اجتماع يفرقون بين العادات والتقاليد على أساس أن العادة تتعلق بالسلوك الخاص بينما التقليد يتعلق بسلوك المجتمع في كليته، فحيث يشترك المجتمع أو الدولة نجد تقاليد، وحيث لا تشترك

نجد عادات، فالاحتفال بالزواج عادة والاحتفال بالأعياد تقليد[٣]. وعليه استخدم مصطلح العادات والتقاليد على الممارسات الاجتماعية التي رصدت في هذا البحث.

ولا شك أن هناك عوامل مؤثرة في عادات وتقاليد أهل الأمصار، سواء كانت بيئية أو مناخية أو اقتصادية أو جغرافية، ولم تخرج مكة عن هذه القاعدة.

العوامل المؤثرة في العادات المكية:

أولاً: المسجد الحرام

يؤم مكة المكرمة كل عام آلاف المسلمين من جميع أصقاع المعمورة لأداء فريضة الحج، وهو الركن الخامس من أركان الإسلام، قال تعالى على لسان خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[٤]. ولا ريب أن كل قادم منهم يحمل معه لغة وزياً وعادات وتقاليد وأفكار موطنه، لتصب جميعها بمكة المكرمة. وبهذا تكون كأنما سيق لها أهل الدنيا، فعرف أهلها نظائرهم من البلدان، بل وجد بها من يتكلم لغاتهم[٥].

وقد وصف المستشرق سنوك مكة - عندما كان بها - ببلد الجاليات المختلفة، التي اندمجت مع المجتمع المكي[٦].

---

(٣) سعفان، حسن شحاته: أسس علم الاجتماع، دار النهضة العربية، القاهرة، ط٩، ص٢٧٦-٢٧٧.

(٤) سورة الحج، آية ٢٧.

(٥) المصري، الحاج يونس: رحلات فارتيما (Vartema)، ترجمة عبدالرحمن عبدالله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م، ص٥٩؛ ابن فهد، جار الله محمد بن عبدالعزيز بن النجم عمر: كتاب نيل المنى بذيل بلوغ القرى لتكملة إتحاف الورى، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مكة والمدينة، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ج٢، ص٦٧٩؛ العياشي، أبو سالم عبدالله: ماء الموائد، مخطوط بالخزانة الحمزاوية، رقم١٨٢، المغرب، ص٣٧٠.

(٦) هورخرونيه، سنوك (Snouk- Horgronje): صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ترجمة علي عودة الشيوخ، صياغة وتعليق محمد محمود السرياني، ومعراج نواب مرزا، مراجعة محمد إبراهيم علي، دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ج٢، ص٣١٦.

ثانياً: وجود الأماكن المأثورة

لأن مكة المكرمة مهد الإسلام، ومهبط القرآن الكريم، ظهرت بها عادات ارتبطت بهذه الأماكن[٧].

ثالثاً: التنوع السكاني

بلغ عدد سكان مكة في النصف الأول من القرن العاشر الهجري (أربعة عشر ألف شخص). من واقع السجلات التي تدون فيها أسماء أهلها، والتي بموجبها توزع الصدقات عليهم، وهذه السجلات تضم أسماء المجاورين والغرباء من الجنسيات المختلفة؛ مثل: الهندي، والمصري، والشامي، والمغربي، والجاوي، والحضرمي، واليمني، والتركي، والفارسي، والحبشي.

وأصدق مثال على ذلك ما ذكره البتنوني في رحلته عن اختلاط الأجناس بها، إما بالمصاهرة أو المعاشرة[٨]. والذي انعكس على دخول ألفاظ أجنبية من اللغات المختلفة، وكذلك اللباس، بل وحتى الطبائع الأخلاقية والمأكل[٩].

رابعاً: المجاورون

تعددت أسباب المجاورة بمكة، ولعل الجانب الديني يحتل الصدارة، ومن ثم طلب العلم، والتماس الرزق، وكلاهما يقتضي من صاحبه

---

(٧) ابن فهد، العز عبدالعزيز: بلوغ القرى في ذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق عبدالرحمن بن حسين أبو الخيور، رسالة ماجستير لم تنشر، مقدمة لجامعة أم القرى - كلية الشريعة - عام ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ج١، القسم٣، ص١٦٤-١٦٥، ١٨٣، ٣٣٩. جار الله: نيل المنى، ج١، ص١٢١، ٣١٥، ج٢، ص٥٢٥-٥٢٦، ٧٦٥؛ المكي، أحمد بن محمد: إخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام، تحقيق الحافظ غلام مصطفى، دار الصحوة، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص٢٢٠-٢٢٧.

(٨) جار الله: نيل المنى، ج١، ص٢٧٧؛ البتنوني، محمد لبيب: الرحلة الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلمي باشا الثاني، خديو مصر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د. ت، ص١٢١.

(٩) سنوك: صفحات من تاريخ مكة، ج٢، ص٣١٦-٣١٧.

التريث والمكوث اللذين قد يتحولان إلى الاستيطان والإقامة؛ فنشأت ظاهرة المجاورة، وتمثلت في بروز شريحة اجتماعية بها عُرف أفرادها باسم المجاورين، ومثلوا جزءاً من مناخها الاجتماعي بما حملوه معهم من عادات بلدانهم ومارسوها دون أن تجد معارضة من أهل مكة[١٠]. وكأن ما يقومون به تأكيد لقواعد اجتماعية لأمة واحدة انمحت بينها الفوارق ومكان تطبيقها مكة. وإن كانت تحدث أحياناً عادات لا تلقى القبول، بل تواجه بالاستنكار أيضاً ولكن تتم ممارستها[١١].

فمكة كانت تقوم بها سبل التعايش الحضاري في مجالاته المختلفة، وانصهر الجميع في سلوك اجتماعي نتج عنه مخالطة نفسية، وتبادل شعوري، وتعايش فكري، واندماج حضاري، وتناصح في أمور الدين والدنيا[١٢].

مقتطفات اجتماعية لأهل مكة المكرمة

عاش أهل مكة مظاهر حياتيه مفعمة بسلوكيات وعادات، منها ما له ارتباط بالجانب الديني والعلمي، وأخرى لها ارتباط بالجانب الاقتصادي، ومنها ما يتعلق بالجانب السياسي.

١ - العادات الاجتماعية:

أ - الزواج:

يعد الزواج من المناسبات التي يحرص فيها الجميع على إظهار الفرح والاحتفال بها كل حسب طاقته، وهي عادة ما تستمر سبعة

(١٠) جار الله: نيل المنى، ج١، ص٢٥٧-٢٥٨، ٤٩٨؛ ج٢، ٦٢٧، ٦٥٥، ٧١٩؛ الوراكلي، حسن: المجاورون الأندلسيون (مساهمتهم في تشكيل صورة مكة العالمة)، بحث مقدم لمؤتمر الندوة الإسلامية السنوية الكبرى لموسم حج عام ١٤٢٣هـ. بعنوان (مكة المكرمة العاصمة الثقافية للعالم الإسلامي) خلال الفترة من ٣-٥ ذي الحجة ١٤٢٣هـ/الموافق ٤-٦ فبراير ٢٠٠٣م، ص٢.

(١١) جار الله: نيل المنى، ج١، ص٣٨٠؛ ج٢، ص٦٢٧، ٦٥٥.

(١٢) الريسوني، قطب: مكة والحج، درس في التسامح والانفتاح والوحدة، بحث مقدم إلى مؤتمر الندوة الإسلامية السنوية الكبرى لموسم حج عام ١٤٢٣هـ، ص١٠.

أيام، إذ يخصص اليوم الأول لإرسال المؤذنة والمؤذن أو أكثر للدعوة لهذه المناسبة، والبدء بتهيئة المكان المراد إقامة العُرس فيه من نصب أخشاب، وتغطيتها بالأقمشة المزركشة المسماة (التيازير)[١٣]، وإشعال الشموع والثريات والقناديل للإنارة، وتفرش الأرض بالسجاجيد.

ويخصص اليوم الثاني لعقد القِران، ويكون إما في منزل والد العروس بإحدى قاعاته الكبيرة أو سطحه، أو في الأحواش والباحات القريبة منه، بعد وضع الزينة لها، ولكن في أغلب الأحيان يعقد القِران في أحد أروقة المسجد الحرام أو فوق سطحه، وتسرج لذلك فوانيس وشموع وثريات الحرم، ويشارك الجميع بالحضور من القضاة والمشايخ والفقهاء والتجار وباش مكة[١٤] والعامة بحسب المركز الاجتماعي لأهل العروس. وبعد الانتهاء من العقد يسقى الجميع السُّكَّر المذاب، وشراب الشعير (السوبيا)[١٥]، ويقدم البخور، ويُرَش الحاضرون بالعنبر وماء الورد، ويختم بقراءة المقرئين. أما إذا كان العقد لشخصية مهمة فتحضر النساء أيضاً، ويخصص لهن رواق يضاء بشموع الحرم[١٦].

(١٣) ما تزال تعرف بهذا الاسم إلى اليوم، وهي التي تستخدم إزاراً للخيام على شكل حائط يحيط بالخيمة، (أَزَرَ) به الشيء: أحاط. انظر ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر، بيروت، د. ت، ج٤، ص١٦، وبهذا تكون (كلمة التيازير) الإحاطة بالمكان لتحديده وستره.

(١٤) الباش: بمعنى الرأس وهو اسم لوظيفة في العصر المملوكي. وأصبحت في أواخر العصر المملوكي لقب لمتولي الوظائف العسكرية العالية المكانة. انظر الباشا، حسن: الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، دار النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٥م، ج١، ص٢٩٣؛ عطية الله، أحمد: القاموس الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، د. ت، ج١، ص٢٥٦؛ الخطيب، مصطفى عبدالكريم: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، د. ت، ص٦٥.

(١٥) شراب شعبي يصنع من الشعير بعد جرشه وغمره بالماء لمدة يوم في أواني مغلقة، ثم يصفى ويحلى بالسكر ويشرب بارداً، وهو من المشروبات المكية التي ما تزال معروفة إلى اليوم.

(١٦) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص٨١-٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ٢٨١-٢٨٢، ٣٥٠، ٣٥٣، ٤٣٧؛ جار الله: نيل المنى، ج١، ص١٢٠، ١٧١، ٣٠٠، ٣٩٠.

أما اليوم الثالث فتنصب (الفازة)[١٧]، وهي مكان مرتفع يخصص لجلوس أهل العريس، تغطى أرضيتها بالسجاد، وهو يشبه خشبة المسرح. ويتم في هذا اليوم لعب الرجال في المكان المخصص لهم، وكذلك النساء في المكان المخصص لهن. وعادة ما يصاحب ذلك كله سواء عند الرجال أو النساء، وجود المغنين والمغنيات ومعهم آلاتهم الموسيقية التي منها الطبل والربابة، كما تنشد القصائد الشعرية في مدح خصال العروسين ومناقبهم[١٨].

وتسمى الليلة الرابعة ليلة (الغمرة)[١٩]، ويعمل للعريس زفة من منزله إلى منزل عروسه، يحضرها المدعوون علاوة على أهله وأقاربه وأصدقائه، تتقدمهم الشموع الكبار ذوات الأشكال المختلفة والقناديل، والتي تتم استعارتها من مخصصات إنارة الحرم. وعند وصوله إلى منزل عروسه يعطيها مالاً لشراء ما تحتاجه من الحلي الذهبية[٢٠].

وفي الليلة الخامسة التي يطلق عليها ليلة (الشراع)[٢١]، ويحضرها القضاة والفقهاء، والتجار والعامة من الناس، ويتم فيها دخول الزوج على زوجته في بيت أهلها، ويبقى لديها إن كانت ثيباً ثلاثة أيام، وإن كانت بكراً سبعة أيام. ثم بعدها يحملها في زفة إلى

---

(١٧) الفازة: مكان بين موضعين يبنى بالخرق، ويظلل بالأعمدة. ابن منظور: لسان العرب، ج٥، ص٣٩٣. ونرى الأسماء التي أطلقها المكيون كلمات عربية صحيحة تدل على الغرض الذي من أجله استخدمت، وهي ما تزال إلى اليوم، ولكن باسم الكوشة.

(١٨) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص١٩٥، ٢٨١-٢٨٢، ٣٥٩-٣٦٠، ٣٨٥؛ جار الله: نيل المنى، ج١، ص٦٤-٦٥، ٧٠-٧١.

(١٩) الغُمرة: تمر ولبن يطلى به وجه المرأة ويداها حتى ترق بشرتها. والغُمار: الزحمة والكثرة. وغُمَّر: لم يجرب الأمور. ابن منظور: لسان العرب، ج٥، ص٣٠-٣٢. وما زالت معروفة حتى الآن عند أهل مكة.

(٢٠) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص٣٥٩-٣٨٦.

(٢١) شَرَعَ وشُرُوعاً: أي: دخلت وشَرَعْتُ في الأمر خضت، والشِّرعة ما سن الله من الدين، وشرّعه ابتداء الطريق، ويَشرع أخذ، والشارعة التي دنت وقربت من الناس، والشِّرَاع العنق، وأشرع الشيء رفعه جداً. ابن منظور: لسان العرب، ج٨، ص١٧٧-١٧٨، وتسمى هذه الليلة الآن بليلة الدخلة.

منزله بالمغاني والمطربين، ويعمل لها وليمة تحوي العديد من الأطعمة التي كانت سائدة في تلك الفترة، مثل: الحموية، والهريسة بالفستق، والمعمول، والشواء، ولبن الخردل، والدباء، وغيرها.

أما صبيحة اليوم السادس فيقسم العريس أموالاً على أهل عروسه، ويتقاطر المهنئون في هذا اليوم واليوم التالي للتهنئة[٢٢].

وفي كل ليلة وكل صبيحة من هذه الأيام السبعة تمد الأسمطة[٢٣] بأنواع الأطعمة للرجال والنساء على السواء، وإن اعتادوا أن يأكل الرجال أولاً، ثم تمد للنساء أسمطة بعدهم[٢٤].

كما اعتادوا إرسال داعين وداعيات للعُرس يسمون (المؤذنة - المؤذن) من قبل أهل الزوج والزوجة. ويتم اللصق[٢٥] عليهم (الرفد)، وهي عبارة عن منح بعض النقود، وفي حقيقتها إعانة على تكاليف الزواج، وتكون على قدر معطيها وطاقته. وهي عادة دأبوا عليها، ولا يتخلف عنها أحد، وتدل على تكافلهم وإحساسهم بضرورة الإسهام في هذه المصاريف التي لا يستطيع أهل العُرس القيام بها وحدهم.

كما ينشر منديل أثناء العُرس في الليالي الرئيسة توضع فيه هدايا مالية لكل من حضر، وتسمى اللصق أيضاً[٢٦]. وعادة ما يصاحب

---

(٢٢) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص٢٨٥، ٣٦٠، ٣٨٦؛ جار الله: نيل المنى، ج١، ص٤٨-٤٩، ٥٨-٥٩، ٦٤-٦٥، ٧٠-٧١.

(٢٣) الأسمطة: الموائد التي تحوي ما لا يقل عن ألف صحن من أنواع الطعام والحلوى، وتمتاز بتزيين أطراف المائدة بأبراج من الحلوى للزينة. انظر: رفيع، محمد عمر: مكة في القرن الرابع عشر الهجري، نادي مكة الثقافي، ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص٦٠-٦١. عندما ذكر العز وجار الله كلمة الأسمطة ليس قصدهما تحديد عدد الأطباق بالألف أو أكثر، ولكن كناية عن كثرة الأطباق التي تقدم، فليس أهل مكة المكرمة كلهم أثرياء يستطيعون القيام بذلك. لذا وجب التنويه.

(٢٤) جارالله: نيل المنى، ج١، ص٦٢، ٣٩٤، ج٢، ص ٨٠٤.

(٢٥) اللصق: تغيرت هذه الكلمة الآن إلى كلمة (الرفد)، وهي من العادات الحسنة التي ما تزال إلى الآن وإن تغيرت أيضاً طريقة إعطائها لأهل العُرس، إذ تعطى مباشرة مع التهنئة.

(٢٦) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص١٨٤، ٣٥٩، ٣٨٦؛ جار الله: نيل المنى، ج١، ص٥٨، ٦٠، ٦٢، ٣٩٤؛ ج٢، ٨٠٤.

انتهاء ليالي العُرس عمل مولد تيمناً بصاحبه، وبحضور الجميع أيضاً[٢٧].

وبالرغم من الترف والبذخ المصاحب لحفلات الزواج هذه وجد من أهل مكة من يقتصر على العقد والدخول في يومه ويحمد له ذلك[٢٨]، إذ ليس كل أهل مكة أثرياء.

ومن العادات المحمودة في مثل هذه الأعراس، إعارة الحلي الذهبية لأهل العروس من قبل نساء امتلكن هذه الحلي وهن معروفات لجميع أهل مكة[٢٩].

أما الأعاجم القاطنون بمكة فلا يختلف احتفالهم بالعُرس كثيراً عن أهل مكة إلا في وضع جهاز العروس أمام المدعوين لمشاهدته، ودخول الزوج على زوجته في بيته، وليس بيت أهل زوجته في نهاية الاحتفال. كما يتم المزج والجمع بين أطعمة أهل مكة والأطعمة العجمية في ولائم الأعراس.

ووجدت لدى أهل مكة عادة تزويج أولادهم وبناتهم صغاراً، وأحياناً يكون الزوج أصغر من زوجته والعكس في مثل زواج الصغار هذا[٣٠].

---

(٢٧) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص١٨٤، إقامة الموالد من البدع التي لا يجوز فعلها؛ لما يصاحبها من أمور مخالفة للشرع.

(٢٨) المصدر السابق، ج١، ق٣، ص٢٨٣.

(٢٩) جار الله: نيل المنى، ج١، ص٢٣٠، كما تعار أواني الأطعمة من صحون وأكواب وغيرها، مغربي، محمد علي: ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة، الكتاب العربي السعودي، جدة، ط١، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، تهامة، ص٢٢٥.

(٣٠) جار الله: نيل المنى، ج١، ص٤٢-٤٤؛ ج٢، ص٦٥٥-٦٥٦، ٧١٩، ٧٤٤. ولمزيد من المعلومات والمقارنة حول عادة الأعراس قديماً وحديثاً. انظر: رفيع: مكة في القرن الرابع عشر الهجري، ص٨١-٩٣؛ مغربي: ملامح الحياة الاجتماعية، ص٢٢-٤٧. وفي عادة زواج الأعاجم القاطنين بمكة دليل على الانصهار والاندماج مع سكانها الآخرين، وممارستهم لعاداتهم بحرية.

ب - الولادة:

يحتفي والد المولود به منذ اليوم الأول لولادته فتصنع حلوى الزلابية[٣١] والعسل، وتفرق على الجيران والأهل، وفي اليوم السابع تعمل العقيقة بلحم وثريد، وتقسم على الأقرباء والفقراء، ويجتمع في هذا اليوم النساء والأولاد مظهرين السرور بمقدمه[٣٢].

ج - الختان[٣٣]:

غالباً ما تحدث المبالغة في احتفالات ختان الأولاد، التي تتفاوت في مستواها وما يقدم فيها حسب المستوى الاجتماعي لأهل الطفل المختون، وهذه المناسبة يستمر الاحتفال بها سبعة أيام، وفي ختامها يختن الصبي على يد المزين (الحلاق). ويبدأ الاحتفال بخروج المؤذن والمؤذنة للدعوة لهذه المناسبة، وفيها يلصق بالأموال أيضاً.

وفي اليوم التالي يغتسل الصبي بماء زمزم، ويزف من باب السويقة[٣٤] أو المروة أو الصفا إلى منزله بالحناء، مصحوباً بالشموع ذوات الأشكال المختلفة، والتي غالباً ما يستعمل فيها شمع الحرم، ويكون الصبي

---

(٣١) الزلابية: نوع من العجائن المقلية الخفيفة والهشة جداً، وطريقة عملها: يفرد العجين بحيث يصبح قرصاً كبيراً مستدير الشكل، يقلى بعدها في إناء كبير مملوء بالزيت، وتخرج بعد ذلك، وتقدم مع السكر المذاب المسمى (الشيرة) أو الجبن المالح وأحياناً السكر الناعم. انظر رفيع: مكة في القرن الرابع عشر، ص٥٧. مغربي: ملامح الحياة الاجتماعية، ص ٢٢٦.

(٣٢) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص٢٤٥-٢٥٣؛ جار الله: نيل المنى، ج١، ص٣٤٨، ج٢، ص٦٤٧، ٦٧١، ٧٥١. ولمزيد من المعلومات والمقارنة انظر: رفيع: مكة في القرن الرابع عشر، ص٩٢-٩٣.

(٣٣) انظر رفيع: مكة في القرن الرابع عشر، ص٩٤-٩٥ (للمقارنة).

(٣٤) باب سويقة: يذكر ابن ظهيرة أن بشق الجانب الشمالي من المسجد الحرام خمسة أبواب بستة منافذ. الأول: باب الدريبة بمنفذ واحد على يمين الداخل إلى المسجد من باب السلام، والثاني: باب سويقة في صدر زيادة دار الندوة بمنفذين. وسمي بدريبة: لأن به درباً صغيراً ينفذ إلى سويقة. بينما المكي يشير إلى أنه بثلاثة منافذ بصدر زيادة دار الندوة. (المنفذ هو الطريق أو الممر). أما الطبري فلا يزيد على أنه يعرف بباب دريبة أحد أبواب المسجد الحرام بمنفذ واحد. انظر: ابن ظهيرة، جمال الدين محمد جار الله: الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، المكتبة الشعبية، بيروت - لبنان، ط٤، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ص١٣٥. المكي، إخبار الكرام، ص١٩٨؛ الطبري، علي بن عبدالقادر: الأرج المسكي في التاريخ =

معتلياً فرساً مزركشاً، ولابساً حلة حسنة وعمامة، ومعه عدد من الصبيان راكبين الخيول، ويمشي معهم القضاة والفقهاء، وباش مكة التركي والأتراك والتجار، وحكام مكة وجدة، وجمع من الناس في مشهد يفيض بالفرح والسرور، وعند وصول الصبي إلى منزله يمد النساء سماطاً مملوءًا بالحلوى والفتوت، وهو مشبك مضروب ولوزية، وفي الصباح التالي تفرق الحلوى. وفي اليوم الثالث تعمل زفة أخرى من باب إبراهيم(٣٥)، يشترك فيها المغنون والمطربون، وتنصب ستارة أمام بيت الصبي يمد فيها السماط.

وفي الليلة الأخيرة من الاحتفال بعد زف الصبي كالعادة، يختن ومعه بعض الصبية الذين لا يستطيع أهلهم إقامة مثل هذه الاحتفالات لهم، ويلصق الحاضرون أيضاً لأهل الصبي، ويمد سماط في الصباح يحتوي على العديد من الأطعمة الفاخرة، مثل: هريسة الفستق، المامونية، السكب، الحموية، الرغيف الأسيوطي، الجرجانية، الخرفان، الرز الحلو (ربما يكون الرز باللبن)، الضلوع المشوية، المبشورات. ولا يتخلف أحد في ختام الحفل، ثم تفرق الأطعمة الباقية على الحاضرين(٣٦)، ولا تفوتنا هنا الإشارة إلى أن هذه الاحتفالات بهذا الشكل كانت قاصرة على أبناء الطبقة الغنية.

= المكي وتراجم الملوك والخلفاء: إشراف سعيد عبدالفتاح، تحقيق وتقديم أحمد الجمال، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص١٩٨؛ الكردي، محمد طاهر: التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، دار خضر، بيروت - لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ج٤، ص٤٢٣.

(٣٥) باب إبراهيم: أحد أبواب المسجد الحرام، وسمي بذلك برجل خياط كان عنده. ويقع في الجانب الغربي من المسجد. ابن ظهير: الجامع اللطيف، ص١٣٥-١٣٦؛ المكي: إخبار الكرام، ص١٩٩؛ الكردي: التاريخ القويم، ج٤، ص ٤٢٣.

(٣٦) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص٣١٤، ٣٥١-٣٥٣، ٣٥٧، ٣٦٣-٣٦٤، ٣٨٦، ٤١١، ٤٤٤ وغيرها، جار الله: نيل المنى، ج١، ص٢٩٩، ٤٩١. بعض أسماء الأطعمة لا تعرف اليوم، وربما تنسب إلى البلدان التي أخذت منها، مثل: الحموية من حماة، والجرجانية من جرجان وهكذا، وإن كنا لا نعرف للأسف مكوناتها ولا طريقة عملها، إذ لا نعلم إلا أسماءها فقط، وإن كان ذكرها من ضمن المأكولات في هذه الاحتفالات دليلاً على أنها ربما تكون من الأطعمة الفاخرة التي تعلم أهل مكة صنعها من سكان الأقطار المستقرين بها.

د - المأتم[٣٧]:

درج بنو ظهيرة على الصلاة على موتاهم عند الحجر الأسود، والطبريون عند المقام. أما عامة أهل مكة والوافدون فيصلون على موتاهم عند باب الكعبة المشرفة[٣٨].

وعند موت عالم أو قاض أو شريف أو شخص ذي شأن ينادي رئيس المؤذنين للصلاة عليه من فوق قبة زمزم مع ذكر محمود خصاله وجميل صفاته[٣٩]، ويكون بذلك إعلاناً عن وفاته. فيخرج الجميع لتشييع جنازته إلى مقابر المعلاة.

وأحياناً تنشد المراثي الشعرية فوق قبره، ويعمل له ختم بالمعلاة والمسجد الحرام، حيث تقسم الأرباع على المقرئين للختم، وغالباً ما يختم القرآن عليه بعد خمسة أو سبعة أيام، وأحياناً ثلاثة[٤٠].

---

(٣٧) إن ما ذكره العز وجار الله استمر العمل به فترة طويلة من الزمن، وقد انقطع بعضه، وبقي بعضه الآخر يعمل به إلى الآن. انظر المغربي: ملامح الحياة الاجتماعية، ص٤٨-٥٢.

(٣٨) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص٤٦، ١٣٧؛ جار الله: نيل المنى، ج٢، ص٦٩٩، ٧١٤.

(٣٩) يبدو أنهم أخذوا هذه العادة من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "مروا بجنازة فأثنوا عليها خيراً، فقال النبي ﷺ: وجبت، ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شراً، فقال: وجبت. فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما وجبت؟ قال: هذا أثنيتم عليه خيراً، فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شراً فوجبت له النار. أنتم شهداء الله في الأرض". ابن حجر، أحمد بن علي: فتح الباري شرح صحيح البخاري، رتب كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبدالباقي، أخرجه محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت - لبنان، د. ت، ج٣، ص٢٨٨- ٢٨٩، كتاب الجنائز، حديث رقم١٣٦٧. أما الآن فيتم الإعلان عن وفاة الشخصيات المهمة في الصحف التي تفرد بعض صفحاتها لذكر جميل صفاتهم. وهكذا نرى أن التغيير في العادات المكية يتم وفق مقتضيات العصر، فما كان يناسب القرن العاشر أصبح الآن لا يناسب القرن الخامس عشر الهجري بما استجد من وسائل إعلان حديثة.

(٤٠) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص٢٢١، ٢٢٩، ٢٨٥، ٣٠٩، ٣٢٩، ٣٩٧، ٣٩٨، ٤١٦، جار الله: نيل المنى، ج١، ص٣٠٧، وما تزال عادة قراءة القرآن الكريم بعد وفاة الميت إلى الآن مع تغير في المكان حيث يتم ذلك في بيت المتوفى في الليالي الثلاثة الأولى التالية لوفاته فقط.

واعتادوا عمل مدفن خاص لكل أسرة، لدفن أفرادها فيه، بل ووجد من يشيد القباب[٤١] على قبره. كما حرصوا على حمل من يتوفى خارج مكة من أهلها ليدفن فيها، ومنهم من يقوم باستئجار البواكي للبكاء على قبر ميتهم![٤٢].

ودرجوا على عادة ختم بيت المتوفى، إن لم يكن له وارث أو كان أهله غائبين، أو لديه أولاد صغار، حرصاً منهم على ضمان حقوقهم وإعطاء كل ذي حق حقه. وإذا شعر الشخص بدنو أجله أقام وصياً، وإن وافاه أجله قبل ذلك يقيم القاضي وصياً من طرفه. وربما تقوم المرأة وصية على أولادها وتركة زوجها. وتباع تركة الميت، وتقسم بين الورثة إن لم يكن لديه صغار. أما إذا توفي شخص ذو شأن من موظفي الدولة؛ فتحصر تركته، ويبلغ أمرها سلطان مصر للبت فيها[٤٣].

نرى مغالاة أهل مكة في إظهار أفراحهم وأحزانهم مولعين بتكريس جهدهم لحياتهم الاجتماعية

ومما سبق نرى مغالاة أهل مكة في إظهار أفراحهم وأحزانهم مولعين بتكريس جهدهم لحياتهم الاجتماعية، فهم كرماء لدرجة الإسراف، وقد وصفهم (سنوك) بقوله: "يعيشون من أجل الدنيا والدين معاً"[٤٤]. فمناسباتهم الاجتماعية ذات الطابع الاحتفالي تمتد من بعد سفر الحجاج، وإلى

---

(٤١) بناء القباب من الأمور التي نهى النبي ﷺ عنها، فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: "نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبور، أو يبنى عليها، أو يجلس عليها أحد". النسائي، أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب بن علي: سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشيته الإمام السندي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٣٤٨هـ/١٩٣٠م، ج٢، جزء٤، ص٨٧، كتاب الجنائز، باب البناء على القبر.

(٤٢) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص٣٥٤؛ جار الله: نيل المنى، ج١، ص٢٣٠.

(٤٣) العز: بلوغ القرى، ج١، ص٥٣، ٥٥، ٦٨، ١٩٥، ٣١٢، ٣٩١، ٣٩٨، ٤٣٨. ويبدو أنها من العادات التي استندت على قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

(٤٤) هورخرونيه: صفحات من تاريخ مكة، ج١، ص٣٧٧.

قرب حلول شهر ذي الحجة التالي خاصة وأن أغلبهم يتعيشون على موسم الحج، إذ بمجرد انتهائه يتوقف نشاطهم العملي إلا من امتهن منهم التجارة. لذا ينصرفون كلياً إلى حياتهم الاجتماعية التي يجدون الوقت رحباً يمتد لأشهر عدة فبرزوا كثيراً في هذا الجانب.

هـ - عاداتهم في مواجهة الحر:

النوم فوق الأسطح في أشهر الحر:

لشدة الحر في أشهر الصيف الطويلة ينام أهلها على أسطح منازلهم، ويغطون أجسامهم بملاءات بللت بالماء، التماساً لنسمات باردة، كما اعتادوا على وضع دكاك بجوار أبواب دورهم للجلوس عليها، بعد رش الطريق بالماء لتهدئة الأتربة وطلباً لبرودة الهواء(٤٥).

التصييف بالطائف وما حولها من الأودية:

نعمت الطائف بموقع مرتفع ساعد على اعتدال مناخها، إضافة إلى خصوبة أرضها، ووفرة مياهها، ولقربها من مكة ارتبطت معها ارتباطاً اجتماعياً واقتصادياً منذ القدم(٤٦). فكانت المكان الأثير للتصييف بها هرباً من حر مكة في أشهر الصيف. وامتلك بها أغنياء مكة الدور والضياع والبساتين(٤٧)، وتبعاً لذلك كانت إقامتهم بها قد تطول أو تقصر لإدارة أملاكهم ورعايتها، ولم يقتصر التصييف على الطائف فقط، بل شمل العديد من الأودية القريبة من مكة، مثل:

---

(٤٥) يوسف، الحاج: رحلة جوزيف بتس إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة، ترجمة عبدالرحمن عبدالله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م، ص٤٩.

(٤٦) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، دار الفكر، بيروت، د. ت، ج٢، ص٢٢٩-٢٣٠.

(٤٧) العبيدي، عبدالجبار منسي: الطائف ودور قبيلة ثقيف العربية، دار الرفاعي، الرياض، ط٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص٢٧، ٤٩، ٥٨-٥٩، ٦١. وهذه العادة ما تزال إلى اليوم مروراً بالقرون بعد القرن العاشر. انظر العياشي: ماء الموائد، ص٥٠٤؛ البركاتي، شرف بن عبدالمحسن: الرحلة اليمانية لصاحب الدولة أمير مكة المكرمة الشريف حسين باشا وأعماله في محاربة الإدريسي مع جغرافية البلاد العربية وأسماء قبائلها، المكتب الإسلامي، دمشق - بيروت، ط٢، د. ت، ص١٤٧.

الهدا(٤٨)، وأرض حسان(٤٩)، وأرض خالد(٥٠)، ونخلة الشامية(٥١)، وكانت هذه العادة قاصرة على القادرين من أهل مكة.

و - المحافظة على النظافة في الطرقات والمسجد الحرام:

كانت الطرقات المفضية إلى أبواب المسجد الحرام تخص بالنظافة، فغالباً ما ينادي نائب جدة الأهالي بتنظيفها، وكذلك أبواب المسجد الحرام، ويعطي القائمين على النظافة نقوداً لقاء عملهم. ولشدة حرصهم على صون المسجد الحرام من دخول الكلاب والدواب دأبوا على قفل أبوابه ليلاً، وترك بعضها مفتوحاً(٥٢). مع وضع حرس عندها لحراستها، والحفاظ على أحذية المصلين، واهتموا كذلك بنظافة المصابيح به؛ إذ دأب الفراشون على تنظيفها، وتزويدها بالزيت والفتائل يومياً(٥٣).

ز - وداع المسافر والسلام عليه عند عودته:

من الأمور الدالة على ترابطهم الاجتماعي الخروج لوداع المسافر إلى خارج مكة، وكذلك ملاقاته عند عودته، وتهنئته بسلامة الوصول، وإقامة الولائم احتفالاً به، ولا يقتصر هذا الأمر على الرجال بل يشمل أيضاً النساء اللاتي يقصدن للسلام عليهن(٥٤).

---

(٤٨) الهدا: موضع بين مكة والطائف، وهي من قرى الطائف بها العديد من أشجار الفاكهة. ابن فهد، جار الله محمد بن عبدالعزيز بن عمر: حُسن القرى في أودية أم القرى، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ص٤٤.

(٤٩) أرض حسان: وسط وادي مر، به أشجار وحدائق تسقى بعين عذبة تجمع مياهها في بركة كبيرة توزع على المزارع عبر قنوات بلغ عددهن في القرن العاشر اثنتين وأربعين قناة. المصدر السابق، ص٥١-٥٥.

(٥٠) أرض خالد: بين الجموم والخضراء، يقال: إنها تنسب لخالد القسري، فيها أشجار وعين عذبة تسقى بساتينها عبر (٤٢) قناة. المصدر السابق، ص٥٥-٥٩.

(٥١) نخلة الشامية: أحد روافد مر الظهران، يمر به الآن طريق مكة الرياض، ويسمى السيل الكبير. جار الله: نيل المنى، ج١، ص٧٥، ج٢، ص٥٩٧، ٧٨٨، ٧٩٥؛ البلادي، عاتق بن غيث: معجم معالم الحجاز، دار مكة، ط١، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ج٩، ص٤٠-٤١.

(٥٢) جار الله: نيل المنى، ج١، ص٣٨-٣٩، ١٩٤.

(٥٣) يوسف: الرحلة، ص٤٥، ٥٥.

(٥٤) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص٧٩-٨٠، ٣٩٥. جار الله: نيل المنى، ج١، ص٩١، ٩٣، ١٥٤، ٢٤٣، ٤٧٥؛ ج٢، ص٧٩٥.

ح - التنزه بمنى وإقامة الولائم ببركة ماجن[٥٥]:

امتلك أعيان مكة الأثرياء دوراً بمنى قاموا على عمارتها، فكانوا يقيمون الولائم فيها، واعتادوا الإقامة هناك مدة تصل إلى ثلاثة أيام، يتأنقون خلالها في تقديم المأكولات التي تحتوي على أفخر الأطعمة والحلوى، مثل: السكرية، والمربيات، والدجاج وغيرها. كما اعتادوا الخروج للتنزه عند بركة ماجن، وإقامة الولائم هناك، ومن ثم العودة إلى مكة بعد انقضاء النهار[٥٦].

ط - الصلاة فوق سطح الحرم عند امتلاء المسجد بالماء بعد الأمطار:

بما أن مكة تعد وادياً، فكثيراً ما تهاجمها السيول من جراء الأمطار الغزيرة، فيدخل السيل إلى داخل المسجد الحرام، وإذا كان كثيراً؛ فسرعان ما يمتلئ بالماء، فيعجزون عن الصلاة فيه، فعند ذلك ينتقلون لإقامة الصلوات على سطحه لحين تنظيفه، والذي يشترك فيه فئات أهل مكة كافة من أشراف وأعيان وعامة ومجاورين. أما إذا كان السيل خفيفاً اقتصر تنظيفه على الفراشين وحدهم[٥٧].

ي - الصلح بين المتخاصمين:

من العادات الحسنة التي تدل على ترابطهم الاجتماعي الوثيق أنه حينما يقع خصام بين شخصين يسعى الأعيان وأرباب الوظائف الدينية للصلح بينهما حتى يتم الوفاق، وعلامته سقي من حضر مجلس الصلح سكراً مذاباً[٥٨].

---

(٥٥) بركة ماجن: تقع في المسفلة، وهي آخر حد مكة من جهة الجنوب في ذلك الوقت، وهي أحد أحيائها الآن، وكان فيها بساتين تسقى بماء هذه البركة التي وصفت بالسعة والعمق والغزارة، وهي من برك مكة المكرمة القديمة. جارالله: حُسن القرى، ص٨، ١٠؛ الكردي: التاريخ القويم، ج١، ق٢، ص٢٦٧.

(٥٦) جار الله: نيل المنى، ج١، ص٢٤٠، ٥٠٤؛ ج٢، ص٥٩٩-٦٠٠.

(٥٧) المصدر السابق، ج١، ص٣٢٨-٣٥٣.

(٥٨) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص٣٦٥.

ك - إنشاء قصائد الهجاء:

عندما يعجز أهل مكة عن مجابهة الظالم أو الفاسد ممن كانوا يتولون الوظائف التي وجدت لخدمتهم وتسهيل أمورهم يعمد البعض لإنشاء قصائد هجاء فيهم، وتنشر بين الناس. ويكون لمن أراد الحق في الإضافة عليها ما شاء من الأبيات على نسقها، بحيث يصعب بعد ذلك نسبتها لشخص معين(٥٩).

٢ - العادات الدينية والعلمية

أ - تأديب الأولاد وتعليمهم:

درجوا على إرسال أولادهم لمعلمين ومؤدبين يقومون على ذلك، فيلقنونهم مبادئ الحساب والقراءة، وخصص لهذه المهمة أناس قاموا بها خير قيام اتخذوا جزءاً من المسجد الحرام لهذا الغرض(٦٠).

ب - عرض الأولاد على العلماء للتأكد من حفظهم وأخذ الإجازات للبنات الصغار:

لشدة اهتمامهم بالناحية العلمية حرصوا على عرض أولادهم على الشيوخ والعلماء بعد تلقيهم قسطاً من العلوم للتأكد من حفظهم. كما وجد من أهلها من يأخذ الإجازات لبناته الصغار، حينما تعقد المجالس العلمية ويحضرونهن معهم لتنال الإجازة عند ذكرها(٦١).

ج - زيارة مسجد ابن عباس بالطائف:

لاقتران الطائف مع مكة في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾(٦٢). وفي هذا تشريف وفخر للطائف أن تقرن مع بيته الكريم، ولمكانة ابن عباس رضي الله عنهما العلمية،

(٥٩) المصدر السابق، ج١، ق٣، ص٣٦٦.

(٦٠) جار الله: نيل المنى، ج١، ص٢٣٨، ٢٤٠.

(٦١) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص٣٠٣؛ جار الله: نيل المُنى، ج١، ص٣٠٨.

(٦٢) سورة الزخرف، آية: ٣١.

وصلته بالرسول ﷺ، ووجود الأماكن التاريخية المأثورة التي قيل: إنه عليه السلام مر عليها أو مكث بها[٦٣]، اعتادوا زيارة مسجد ابن عباس رضي الله عنهما برفقة العلماء، بحيث تكون بمثابة رحلة دينية علمية، تتم خلالها قراءة أجزاء من كتب الحديث التي تتناول فضائل الطائف، وتتدارس سيرة الرسول ﷺ التي لها صلة بالأماكن المأثورة من كتب السير، وتأخذ الإجازات العلمية على ذلك[٦٤].

د - زيارة جبل حراء:

الذهاب لجبل حراء من جملة العادات الدينية والعلمية، وتتم برفقة العلماء، ويشرعون في تدارس سيرة الرسول ﷺ هناك[٦٥].

هـ - إقامة دروس العلم يوم عرفة:

منذ عهد الصحابة والتابعين كانت فترة الحج ليست قصراً على أداء الفريضة، وإنما للقاء العلماء المشهورين، وشهود حلقاتهم العلمية وتقويمهم، والفخر بتلقيهم عن المشاهير منهم التي تسجل في إجازات يحملونها معهم[٦٦]. فمناسبة الحج تجمع بذلك بين أداء الفريضة والالتقاء بالعلماء القادمين من الأقطار الإسلامية الأخرى، فيحصل بذلك نشر العلم والاستزادة منه، إذ كان ارتباط علماء مكة بنظائرهم في البلدان الأخرى كبيراً، فخص يوم عرفة لإقامة دروس العلم، وأخذ الإجازات لذلك[٦٧]، فوجود العديد من علماء العالم الإسلامي في بقعة واحدة، وهو أمر لا يتكرر إلا مرة كل سنة؛ لذا يسارع طلبة العلم لنيل الإجازات في تلك البقعة المباركة.

---

(٦٣) جار الله: حُسن القرى، ص٣٧-٤٢.

(٦٤) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص٤٠١-٤٠٢؛ جار الله: نيل المنى، ج١، ص٢٤٩؛ جار الله: حُسن القرى، ص٣٧-٤٢.

(٦٥) جار الله: نيل المُنى، ج١، ص ٢١٠.

(٦٦) طراوة، حجازي علي: دور الحج في إثراء الحركة العلمية في الحرمين الشريفين في عهد الراشدين والأمويين، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص٢١-٢٧.

(٦٧) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص٢٣٠؛ جار الله: نيل المُنى، ج١، ص ٢٩٨.

و - القنوت عند الإحساس بالخطر أو قلة الأقوات وقراءة سورة الأنعام:

القنوت سنة فعلها الرسول ﷺ عندما أرسل القراء إلى قوم من المشركين، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان الرسول ﷺ لا يقنت إلا إذا دعا لقوم أو دعا على قوم. ويفعله إذا ألمت نازلة بالمسلمين أو خيف من وقوعها(٦٨). لذا كان أهل مكة يقنتون في الصلاة، ويتضرعون إلى الله تعالى عندما تنزل بهم شدة في الأسعار، وهي كثيراً ما كانت تحدث، ويقنتون أيضاً عند إحساسهم بالخوف من هجوم الأعداء عليهم(٦٩).

كما اعتادت فئة من أهل مكة تخصصت في قراءة سورة الأنعام داخل الحطيم، عندما تقل الأقوات، أو يتأخر وصول المراكب، وتقرأ أيضاً عندما يخرج جند السلطان العثماني للغزو، ويتبع قراءتها الدعاء، والتوسل إلى الله تعالى أن ينصره في حربه، وتقرأ كذلك طلباً لنصر سلطان الهند على أعدائه، فقد كان ارتباط مكة بالهند في تلك الفترة كبيراً.

كما اعتادوا قراءة صحيح البخاري، وبعد ختمه يتوجهون بالدعاء إلى الله تعالى أن يزيل الشدة في الأسعار، وينعم عليهم بتوفر الأقوات. وفي هذا المجال أيضاً يخرج إمام المقام الشافعي بجمع من الرجال وأولاد الكتاتيب، ويقف بهم جميعاً أمام باب الكعبة المشرفة واضعين المصاحف الشريفة على رؤوسهم، ويبكون ويتضرعون إلى الله تعالى أن يفرج عنهم ما هم فيه من ضيق(٧٠).

---

(٦٨) ابن حجر: فتح الباري، ج٢، ص٤٩٠-٤٩١.

(٦٩) جار الله: نيل المُنى، ج١، ص١٠٥، ١١٥، ٢٣٦-٢٣٧، كما حدث في سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م، عندما أشيع وصول البرتغاليين إلى جدة، جار الله: حُسن القرى، ص ٣٥.

(٧٠) جار الله: نيل المُنى، ج١، ص١٠٥، ٢٦٥؛ ج٢، ص٥٥٢، ٥٧١، ٦٠١-٦٠٢، ٦٠٧، ٧٥٠.

٣ - العادات الاقتصادية

أ - الرحيل عن مكة طلباً للرزق:

إذا ألمت بأهل مكة نائبة الغلاء وقلة الأقوات، وهي كثيرة الحدوث في تلك الفترة، حتى إنه كانت تأتيهم أكفانهم من مصر لشدة فقرهم وحاجتهم. وهذه الضائقات إما أن تكون بسبب قلة الأمطار من جهة وتأخر وصول الصدقات أو نقصها من جهة أخرى. أو تأخر وصول المراكب المحملة بالأقوات سواء من جهة مصر أو الهند. فنرى أسراً كثيرة من أهلها يخرجون إما إلى الوديان حول مكة، وينزلون على عربانها، بحيث تكاد تخلو مكة إلا من قلة من السكان، أو السفر خارج قطر الحجاز إلى الأقطار الإسلامية الأخرى كمصر والهند مثلاً طلباً للرزق(٧١).

كانت أكفان أهل مكة تأتيهم من مصر لشدة فقرهم وحاجتهم

ب - تربية الخيول:

لجودة وسمعة الخيول العربية الأصيلة وجد من يقوم بهذه التجارة، فحكام مصر دأبوا على الاستثمار هناك، إذ لديهم وكلاء يهتمون بذلك، ويرسلون إليهم الأموال بعد بيع تلك الخيول(٧٢).

وقد احتفظت منطقة الحجاز بميزة تربية الخيول العربية بعد ذلك حتى أصبحت ضمن اهتمامات الرحالة الغربيين الذين زاروا المنطقة(٧٣).

ج - الصدقات الواردة لأهل مكة:

كانت هذه الصدقات المرسلة لهم من قبل مصر والهند وبلاد الشام والدولة العثمانية، تمثل لهم جزءاً كبيراً من قوام معيشتهم،

---

(٧١) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص٩٥، ١١٧؛ جار الله: نيل المنى، ج١، ص١١٤، ١٥٩، ٢٢٢.

(٧٢) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص٣٩٥.

(٧٣) بيرتون، رتشارد (Richard- burton): رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز، ترجمة عبدالرحمن عبدالله الشيخ، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م، ج١، ص١٧.

لدرجة أنهم اعتمدوا عليها اعتماداً كبيراً أدى إلى عدم تفكيرهم بأي عمل سوى انتظار هذه الصدقات، والتي لها مراسيم خاصة لتوزيعها، إذ تحصر أسماء سكان مكة، وترسل في قوائم إلى مرسلي هذه الصدقات، فإذا أتت وزعت عليهم تبعاً لذلك[٧٤].

د - كثرة الشائعات:

تكثر الشائعات في أوقات قلة الأقوات أو عند قرب وصول المراسيم؛ لتغيير الخطباء والقضاة والأئمة، وكذلك عند تأخر المراكب القادمة من الهند. وعادة ما تكون مثل هذه الشائعات غير صحيحة، فيحدث الاضطراب، وتزيد أسعار الأقوات بسببها[٧٥].

٤ - العادات السياسية

أ - الاحتفال بمقدم كبار الشخصيات:

كثيراً ما يقدم لمكة شخصيات سياسية ذات شأن كبير من الأقطار الإسلامية، سواء من الهند أو مصر أو من قبيل السلطان العثماني أو نائب جدة. وبمجرد وصوله يتقدم أحد القضاة على مذهب الضيف القادم، ويتولى أمر طوافه وتعريفه بمناسك العمرة، وتقام الولائم احتفاءً به، وتزغرد النساء عند قدومه إظهاراً للفرح بمقدمه، ويجتمع الأعيان للسلام عليه[٧٦].

ب - النداء على المظالم:

لكثرة ظلم الجنود الأتراك لأهل مكة اعتاد باش مكة إرسال المنادين في شوارعها للنداء على من لديه مظلمة بالتقدم للشكوى؛

(٧٤) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص٢٤٤، ٣٣٩، ٣٥٣، ٣٥٧، ٣٨١؛ جار الله: نيل المُنى، ج١، ص٨٢، ١٦٢.

(٧٥) جار الله: نيل المنى، ج١، ص ١١٧.

(٧٦) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص١٢٨؛ جار الله: نيل المُنى، ج١، ص١٩٢، ٢٤٠، ٢٧٦-٢٧٧، ٤٩٥، ٥٤٥، ج٢، ص٦٠٥، ٧٣٧.

ليعمل على إزالتها، وغالباً لا يتقدم أحد لخوفهم من الظالمين، أو لعودة الأمر على ما كان عليه بعد فترة[٧٧].

ج - التحصن بالمنازل وقت الحرب:

إن أحداث القرن العاشر بمكة لا تكاد تخلو من حدوث اشتباكات بين جنود الأتراك وأعوان الشريف، فعندما يحدث ذلك، يتحصن أهلها بمنازلهم، ويخلو المسجد الحرام.

أما إذا اشتد الخطر، وقامت اشتباكات عنيفة تقفل أبواب المسجد الحرام حتى لا يصبح ساحة للقتال، وتصبح المنازل والأربطة القريبة من المسجد الحرام أماكن للقتال والرمي، ويشترك العامة برمي الأحجار على الجنود الأتراك لاستفحال أذاهم وظلمهم. أما إذا حصل خصام بين الشريف وباش مكة واصطلحا تقوم النساء بالزغردة علامة انتهاء الخطر وإظهاراً للفرح بانفراج الغمة[٧٨].

د - الاحتفال بإنهاء المنافرة بين الشريف وقرابته:

لا يكاد يخلو مؤلف ألف عن مكة في تلك الفترة إلا ويفرد الصفحات الكثيرة لعادة خروج الأشراف على شريف مكة، وما يصاحب ذلك ويعقبه من صعاب على أهل مكة، أما سبب خروجهم فهو إما الطمع في الإمارة أو لإنقاص الشريف لمخصصاتهم. وإذا ما تم الصلح بينهم ينفخ في الأبواق علامة البشارة بذلك، ويمشي بعدها الشريف في شوارع مكة وأمامه المغنون إلى أن يوصلوه إلى منزله، بعد دخوله المسجد الحرام للطواف شكراً لله، وأثناء طوافه يدعو له رئيس المؤذنين فوق قبة زمزم[٧٩].

---

(٧٧) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص ١٦٠.

(٧٨) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص٩٦-٩٨، ١٠٨؛ العصامي، عبدالملك بن حسين: سمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل والتوالي، المكتبة السلفية، القاهرة، د. ت، ج٤، ص ٤٨٣.

(٧٩) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص ٦٢.

هـ - الاحتفال بمقدم الشريف وانتصاراته:

وعندما يعزم الشريف على الخروج لتأديب العربان إذا كثر فسادهم وأذاهم، يبدأ بالطواف قبل خروجه، ويقوم رئيس المؤذنين فوق قبة زمزم بالدعاء له عقب كل شوط بأن ينصره الله، ويظفره بأعدائه وأعدائهم، ويؤمن الحاضرون على دعائه(٨٠).

عندما يقدم الشريف إلى مكة يقابل من أهلها بالرقص والدق على الطبل، ويحضر الجميع للسلام عليه. وتزين مكة قبلها وعند وصول أنباء انتصاراته في حروبه ضد العربان، بحيث تستمر هذه الزينة سبعة أيام مع استمرار العرضة، واللعب أمام منزل الشريف، وإذا كان الشريف حاضراً يدعى لتلك العرضة أهل مكة وجدة والأودية للمشاركة فيها. أما الزينة فيتكلف فيها الأهالي سواء عند انتصار الشريف في حروبه أو لانتصار جيوش السلطان العثماني. ربما يتجاوز تكلفة ذلك حداً لا يطيقونه في كثير من الأحيان.

ولأن ضرر العربان يمتد ليشمل أهل مكة والتجار نجد أن التجار والمقتدرين يمدون الشريف بالمال لشراء السلاح الذي يعينه في حروبه تلك(٨١).

و - اسقبال أصحاب المناصب:

يستقبل أهل مكة التجار القادمين من جدة بالسلام عليهم، وبعدها يجتمعون بالمسجد الحرام، وتزغرد النساء إظهاراً للفرح بعودتهم، فمعنى عودتهم تدفق السلع والمؤن على مكة، وكذلك يفعلون عند عودة أصحاب المناصب من مقابلة نائب جدة، ولا سيما إذا أُنعم عليهم بمراسيم، فيتم زفه في موكب يطوف شوارع مكة حتى يصل إلى منزله(٨٢).

---

(٨٠) جار الله: نيل المنى، ج٢، ص ٦٦٣.

(٨١) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص١٠٨، ٢٧٤، ٣١٧، ٤٤٩، جار الله: نيل المنى، ج١، ص١٩٥، ٢٦٨، ٢٨١، ٢٩٠، ٣٩١، ٤٠٢، العصامي: سمط النجوم، ج٤، ص ٢٨٤.

(٨٢) العز: بلوغ القرى، ج١، ق٣، ص٢١٨، ٢٢٣.

ز - الاحتفال بوصول الخلع للشريف في غير موسم الحج:

عند وصول الخلع إلى الشريف يلبسها في الحطيم مقر الإعلان المعتاد في ذلك الوقت بحضور القضاة والفقهاء، ويقرأ المرسوم الخاص به، ويطوف بعدها لابساً خلعته، ويدعى له على جاري العادة فوق قبة زمزم من قبل رئيس المؤذنين أو أحد أبنائه، وتقام عرضة بعدها احتفالاً بالقادم حامل المراسيم، ويقدم له عشاء، ويكون عبارة عن الفتوت وحلوى وموز وجبن مقلي(٨٣).

ح - العمرة نيابة عن سلطاني مصر والهند:

يرسل السلطانان مخصصات مالية كل عام لمن يقوم بالعمرة نيابة عنهما(٨٤)؛ لعدم تمكنهما من القيام بها بنفسيهما.

الخاتمة

عاش أهل مكة المكرمة في القرن العاشر الهجري حياة اجتماعية مفعمة بعادات وسلوكيات اتسمت بالسمة الاحتفالية طوال أشهر السنة، فيما عدا أيام موسم الحج. حتى إنهم أضفوا شيئاً من البهجة الاحتفالية على ما كان من هذه العادات دينياً أو علمياً.

كما أن العديد من عاداتهم ارتبط في أساسها بتوجيه قرآني أو حديث شريف، مثل: الثناء على الميت، والختم على بيته بعد وفاته تحرزاً من فقد ممتلكات الورثة الغائبين. أو لوجود الأماكن التاريخية، أو مناطق المناسك، أو البقع المقدسة، إلا أنهم بالغوا كثيراً فيما كانوا يقومون به؛ فحددوا أوقاتاً معينة للاحتفال بهذه الأماكن، ومورست خلالها بعض الممارسات التي لا تندرج تحت تعاليم الشريعة الإسلامية.

---

(٨٣) المصدر السابق، ج١، ق٣، ص٣٠٩، ٢٢٢.

(٨٤) المصدر السابق، ج١، ق٣، ص٣٢٩؛ جار الله: نيل المنى، ج١، ص ١٥٦.

ونلحظ لدى أهل مكة ولع بالاحتفالات، وإقامة الولائم التي تفننوا في تنوع مأكولاتهم حتى وهم في أشد حالاتهم قحطاً، وقلة في الأقوات والأرزاق، فحتى هذا السلوك لا يخلو من رغبتهم في مواساة الفقراء، إذ يقسم عليهم فيما بعد فائض من هذه الأطعمة التي تعد سلفاً بكميات لهذا الغرض.

كما نلمس تكاتفهم الاجتماعي عن طريق الإعانات المالية التي تبذل لأصحاب المناسبات في هذه الاحتفالات، كما أن تلبية الدعوة من جميع طوائف المجتمع يعبر عن تكاتفهم وتراحمهم فيما بينهم.

ولأن قوام معيشة أهل مكة يعتمد على موسم الحج، وما يحصل لهم من الصدقات الواردة من الهند ومصر وبلاد الشام، والدولة العثمانية. فقد كفوا مؤونة التفكير والبحث لتحصيل أرزاقهم طوال السنة، واتجهوا لإشاعة البهجة في حياتهم التي افتقدوا فيها الأمن في فترات عدة، علاوة على شظف العيش، فكأنما ما يمارسونه نوع من التعويض غالوا فيه كثيراً، فهم في مجمل حياتهم عاشوا بين نقيضين استطاعوا التوفيق بينهما.

كما نجد لأهل مكة عادات سواء ما كان منها في المأكل أو السلوك منها ما هو حسن والبعض سيئ استمر لقرون عدة، وأخرى اندثرت وحلت محلها عادات أخرى تكون أشد إمتاعاً وإيناساً، ولعل المتتبع لهذا الأمر يجده خلال بحثه وتتبعه.

استطاع المكيون في القرون السابقة وخاصة القرن العاشر الهجري جعل المسجد الحرام محور حياتهم الاجتماعية إلى جانب دوره الديني الذي استفادوا منه كثيراً، فقاموا مثلاً بعقد قران أولادهم وبناتهم فيه، وأبرزوا مكانته السياسية فكان يتم الإعلان عن المراسيم ومستجدات الأحداث في الحطيم وفوق قبة زمزم، وكانت تقسم الإعانات الاقتصادية والمالية فيه أيضاً، إضافة إلى دور

المسجد الحرام العلمي إذ كانت تعقد فيه مجالس العلم، وتلقى الدروس من قبل نخبة من العلماء الأفاضل من أهلها أو المجاورين بها على حد سواء. وبهذا وظف المسجد الحرام لخدمة نواحي حياة أهل مكة كافة فكان بحق قوام حياتهم ومحورها.

Dr. Awatif M. Nawab

Aspects of Social Life in Makkah al-Mukarramah During the Tenth Century A.H. as Revealed in al-'Izz b. Fahd's *Bulugh al-Qira* and Jar Allah b. Fahd's *Nayl al-Muna*

During the tenth century A.H., the people of Makkah al-Mukarramah enjoyed a social life replete with special occasions throughout the year, with the exception of the Hajj season. They were fond of banqueting on numerous occasions, and their social cohesiveness is evidenced by the monetary assistance which was extended to those celebrating those occasions.

(373 - 398)

Dr. Moshalleh K. Al-Moraekhi

An Islamic Inscription Concerning the Renovation of the Marble of the Kaba in A.H. 680/1281 by Order of the Rasulid Sultan al-Malik al-Muzaffar

The inscription studied in this article is an historical and archeological document of special importance, in that it documents and dates the restoration of the marble of the Kaba in A.H. 680/1281 by order of the Rasulid Sultan al-Malik al-Muzaffar Yusuf b. Umar b. Rasul. In addition to this importance is the fact that the text was carved in *thuluth* script during this important era in the history of Makkah al-Mukarramah.

Dr. Abdulrahman M. Al-Medaires

The Influence of the Quwwad al-Ummara and Humaydat on the Sharifs of Makkah al-Mukarramah (A.H. 737 - 873 / 1336 - 1468)

The quwwad al-Ummara and Humaydat formed one of the classes of Makkan society, whose influence was only exceeded by that of the sharifs themselves. The quwwad played an important role in supporting the appointment of a number of sharifs and in removing them from office. In addition, they possessed extensive wealth, followers and weaponry, and played a role in economic life, especially in the realms of agriculture and commerce.

Dr. Ayidh M. al-Zahrani

The Role of Women in Makkah al-Mukarramah in Intellectual Life in the Ninth Century A.H.

Numerous Makkan women played a role in intellectual life through writing and travelling in search of knowledge. Many of them obtained *ijazas* from scholars in various Islamic lands. A number of Makkan families, such as the Al Fahd and al-Tabari, were renowned for the intellectual genius of their womenfolk. Among the most important fields in which Makkan women participated were the study of the Holy Quran, Prophetic Hadith and the Arabic language.

Dr. Muhammad A. al-Qadhat

Building Activities of the Abbasid Caliphate in the Two Holy Mosques and the Hajj sites in the Hijaz (A.H. 132 - 656)

The building activities of the Abbasid caliphs in the Two Holy Mosques included their expansion through the purchase of neighboring houses and lands. Care was given to restoration of deteriorated areas, the *kiswa* of the Kaba and ornamentation of the door of the Kaba with gold. In addition, attention was paid to the provision of water through the maintenance of the Zamzam well, excavation of tanks and renovation of springs.

(103 - 137)

Dr. Abdualziz R. al-Sunaydi

Makkah al-Mukarramah in the Second Half of the Fourth Century A.H. as Portrayed by al-Maqdisi in *Ahsan al-Taqasim fi Ma'rifat al-Aqalim*

Al-Maqdisi's book is replete with historical information and aspects of cultural life, and it indirectly points to the political importance of Makkah al-Mukarramah and the expansion of its administrative jurisdiction during the second half of the fourth century A.H. Moreover, al-Maqdisi is our sole source for some information, such as the presence of a *kiswa* on Maqam Ibrahim. It is to be noticed that al-Maqdisi did not provide an extended description of the Kaba or the Holy Mosque as was done by earlier or subsequent historians, geographers and travelers.

(139 - 207)

Dr. Mohamed H. Al-shehry

A Gravestone from the Beginning of the Seventh Century A.H. of the Imam of the Shafi'i Maqam in the Holy Mosque (A.H. 598 - 604): A Historical and Cultural Study

The gravestone considered was carved in the Hijaz in A.H. 604 for the tomb of an imam of the Shafi'i school who led his followers in prayer next to Maqam Ibrahim from A.H. 598 - 604 . The inscription on the stone was carved in *naskhi* and *thuluth* scripts, and includes the name of the deceased, his genealogy, work and date of death. Its decorative elements and calligraphy exemplify the humble skills of gravestone carvers in Makkah al-Mukarramah at that time.

(209 - 247)

CONTENTS

ARTICLES

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الثالث رجب ١٤٣٦هـ، السنة الحادية والأربعون
الدارة



A Quarterly
Issued by
King Abdul Aziz Foundation
for Research and Archives

Issue No. 3
Year 31
2005